دار الكتب المصرية

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر الخامس

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٤ هـ — ١٩٢٥ م



السّـــفر الخـامس

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

للنـــو يرى

(تابع أخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية
ومن أخذ عنهم ومن آشتهر بالغناء)

صفحة

صفحة



وبه توفيق

ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم

(١)

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلي وقد تقدم نسبه فى أخبار أبيه . وكان الرشيد يولَع به فيكنّيه أبا صَفْوان . قال أبو الفرج الأصفهانى فى ترجمة إسحاق : وموضعه من العلم، ومكانه من الأدب، ومحلّه من الرواية، وتقدّمه فى الشعر، ومنزلته فى سائر المحاسن[١] أشهر من أن يُدلَّ عليها بوصف . قال : فأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالبَ عليه وعلى ما كان يحسنه، فإنه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء ولم يكن له فى هذا نظير. لَحِق بمن مضى فيه وسبق من قد بقى وسهّل طريق الغناء وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا وقُدوتهم ورأسهم ومعلّمهم، يعرف ذلك منه الخاصّ والعام، ويشهد له به الموافق والمفارق، على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدّهم بغضا له لئلا يدعَى إليه ويسمّى به . وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به[٢] عندهم من الغناء لولّيته القضاء بحضرتى، فإنه أولى به وأعفّ وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاة . وقد روى الحديث ولقى أهله مثل مالك بن أنس وسفيان بن عُيَينَة [وهشيم بن بشير][٣] وإبراهيم بن سعد وأبى معاوية الضرير ورَوْح

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : المجالس .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : لولا ما سبق إسحاق على ألسنة الناس وشهرته الخ .

(٣) زيادة فى الأغانى .

آبن عُبَادة وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز . وكان مع كراهته للغناء أضنّ خلق الله به وأشدّهم بخلا على كل أحد حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ عنه منتسبا إليه ومتعصّبا له فضلا عن غيرهم . قال : وهو صحّح أجناس الغناء وطرائقــه وميّزها تمييزا لم يقدِر عليه أحد قبله .

وقال محمد بن عِمران الجُرجانى : كان والله إسحاق غُرّة فى زمانه وواحدا فى عصره علمــا وفهما وأدبا ووقارا وجودةَ رأْى وصحّةَ مودّة ، وكان والله يُخرس الناطق إذا نطق ، ويحيّر السامع إذا تحدّث ، لا يَملّ جليسُه مجلسَــه ، ولا تمجّ الآذان حديثه ، ولا تنبو النفس عن مطاولته ؛ إن حدّثك ألهاك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غنّاك أطربك ؛ وما كانت خَصْلة من الأدب ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق فيُقدِم أحد على مساجلته أو مناوأته فيه .

حكى أبو الفرج عن إسحاق قال : دعانى المأمونـــ وعنده إبراهيم بن المهــدى وفى مجلسه عشرون جارية قد أجلس عشرا عن يمينه وعشرا عن شماله ، فلما دخلت سمعت من الناحية اليسرى خطأً فأنكرته ، فقال المأمون : أسمعت خطأ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنينـــ ، فقال لإبراهيم بن المهدىّ : هل تسمع خطأ؟ قال : لا ، قال فأعاد علىّ الســؤال فقلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وإنه لفى الجانب الأيسر ، فأعاد إبراهيم سَمْعَه إلى الناحية اليسرى ، ثم قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما فى هذه الناحيــة خطأ ، فقلت : يا أمير المؤمنـــين مُر الجوارى اللاتى على اليمين يُمْسِكْنَ ، فأمرهنّ فأَمْسَكْنَ ، ثم قلت لإبراهيم : هل تسمع خطأ ؟ فتسمَّع ثم قال : ما ههنا خطأ . فقلت : يا أمير المؤمنين يُمسكن وتضرب الثانية ، فأمسكن وضربت الثانية ، فعرف إبراهيم الخطأ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، ههنا خطأ ؛ فقال المأمون عند ذلك

لإبراهيم بن المهدى : لا تُمارِ إسحاق بعدها، فإن رجلا عرف الخطأ بين ثمانين وترا وعشرين حلقا لجدير ألا تماريه، قال : صدقت .

وقال آبن حمدون : سمعت الواثق يقول : ما غنّانى إسحاق قطّ إلا ظننت أنه قد زِيد فى ملكى، ولا سمعته قط يغنى غناء آبن سُرَيج إلا ظننت أن آبن سريج قد نُشر، وإنى ليحضرنى غيره إذا لم يكن حاضرا فيتقدّمه عندى بطيب الصوت، حتى إذا آجتمعا عندى رأيت إسحاق يعلو ورأيت من ظننت أنه يتقدّمه ينقص، وإن إسحاق لنعمة من نعم الملوك التى لم يحظ أحد بمثلها، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يُشترى لآشتريتهنّ له بشطر مُلكى .

وحكى عن أحمد بن المكّى عن أبيه قال : كان المغنُّون يجتمعون مع إسحاق وكلهم أحسن صوتا منه ولم يكن فيه عيب إلا صوته فيطمعون فيه، ولا يزال بلُطفه وحِذقه ومعرفته حتى يغلبهم جميعا ويفضُلَهم ويتقدّم عليهم . قال: وهو أوّل من أحدث المجتَثّ ليوافق صوته ويشاكله فجاء معه عجبا من العجب، وكان فى حلقه نُبُوّ عن الوتر .

وحكى قال: سأل إسحاق المَوصلىّ المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنّين، فإذا أراد الغناء غنّاه، فأجابه إلى ذلك . ثم سأله بعد مدّة طويلة أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء فأذن له، قال : فكان يدخل ويده فى يد قاضى القضاة يحيى بن أكثم . ثم سأل إسحاق المأمون فى لُبس السواد يوم الجمعة والصلاة معه فى المقصورة، قال : فضحك المأمون وقال : ولا كلّ هذا يا إسحاق! وقد آشتريت منك هذه المسئلة بمائة ألف دينار[1] وأمر له بها .

---

(١) فى الأغانى : درهم .

وكان لإسحاق مع إبراهيم بن المهدى مخاطبات ومنازعات ومحاورات بسبب الغناء، وكان الرشيد ينصر إسحاق على إبراهيم أخيه، من ذلك ماحكاه إسحاق قال: كنت عند الرشيد يوما وعنده ندماؤه وخاصّته وفيهم إبراهيم بن المهدىّ، فقال لى الرشيد: غنِّ

شرِبتُ مُدامةً وسُقِيتُ أُخرى * وراح المنتَشُون وما ٱنتشَيْتُ ٥

فغنّيته، فأقبل علىّ إبراهيم بن المهدىّ فقال لى: ما أصبت يا إسحاق ولا أحسنت، فقلت له: ليس هذا مما تعرفه ولا تُحسنه، وإن شئت فغنّه فإن لم أجدك أنك تخطئ فيه منذ ٱبتدائك إلى ٱنتهائك فدمى حلال، ثم أقبلت على الرشيد فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه صناعتى وصناعة أبى وهى التى قرّبتنا منك وٱستخدمتنا لك فأوطأتنا بساطك، فاذا نازعنا أحد بغير علم لم نجد بُدّا من الإفصاح ١٠ والذبّ، فقال: لا غروَ ولا لوم عليك، وقام الرشيد ليبول فأقبل إبراهيم بن المهدى علىّ وقال: ويحك يا إسحاق! أتجترئ علىّ وتقول لى ما قلت يا ٱبن الفاعلة! لا يكنى، فداخلنى ما لم أملك نفسى معه، فقلت له: أنت تشتمنى ولا أقدر على إجابتك وأنت ٱبن الخليفة وأخو الخليفة، ولولا ذلك لقلت لك: يا ٱبن الزانية كما قلت لى يا ٱبن الزانية، أَوَ ترانى كنت لا أحسن أن أقول يا ٱبن الزانية! ولكن قولى فى ذمّك ١٥ ينصرف كله إلى خالك الأعلم، ولولاك لذكرت صناعته ومذهبه، قال إسحاق: وكان بَيْطارا، قال: ثم سكتّ، وعلمت أن إبراهيم سوف يشكونى إلى الرشيد وسوف يسأل من حضر عما جرى فيخبرونه، فتلافيت ذلك بأن قلت: إنك تظن أن الخلافة لك فلا تزال تتهدّدنى بذلك وتعادينى كما تعادى سائر أولياء أخيك حسدًا له ولولده على الأمر وأنت تضعُف عنه وعنهم، وتستخفّ بأوليائهم تشفِّياً، وأرجو ٢٠ ألا يخرجها الله من الرشيد وولده وأن يقتلك دونها، فإن صارت إليك — والعياذ

بالله تعالى من ذلك — لحرامٌ علىّ حينئذ العيش ! والموت أطيب من الحياة معك ،
فٱصنع حينئذ ما بدالك ! قال : فلما خرج الرشيد وثب إبراهيم فجلس بين يديه وقال :
يا أمير المؤمنين ، شتمنى إسحاق وذكر أمى وٱستخفّ بى ، فغضب وقال لى : ويلك !
ما تقول؟ قلت : لا أعلم فسَلْ من حضر ، فأقبل على مسرور وحسين فسألهما عن القصة
٥ فجعلا يُخبرانه ووجهه يَرْبَدّ الى أن ٱنتهيا إلى ذكر الخلافة فسُرِّى عنه ورجع لونه ،
وقال لإبراهيم : لا ذنب له ، شتمته فعرّفك أنه لا يقدِر على جوابك ، ٱرجِع إلى موضعك
وأَمسك عن هذا ، فلما ٱنفضّ المجلس وٱنصرف الناس أمر الرشيد بأن لا أبرح ، وخرج
كل من حضر حتى لم يبق غيرى ، فساء ظنّى وهمّتْنى نفسى فأقبل علىّ وقال :
يا إسحاق أترانى لم أفهم قولك ومرادك ! قد والله زنّيته ثلاث مرات ، أترانى لا أعرف
١٠ وقعاتك وإقدامك وأين ذهبت ! ويلك لا تَعُدْ ! حدِّثْنى عنك لو ضربك إبراهيم
أكنتُ أقتصّ لك منه فأضربه وهو أخى يا جاهل ! أتراه لو أمر غلمانه فقتلوك
أكنت أقتله بك ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، قد قتلنى هذا الكلام ، وإن بلغه
ليقتلنّى ، وما أشك أنه قد بلغه الآن ، فصاح بمسرور وقال له : علىّ بإبراهيم ، فأُحضِر
وقال لى : قم فانصرف ، فقلت لجماعة من الخدم — وكلهم كان لى محبا وإلىّ مائلا
١٥ ولى مطيعا — : أخبرونى بما يجرى ، فأخبرونى من غد أنه لما دخل عليه وبّخه
وجهّله وقال له : أتستخفّ بخادمى وصنيعتى وٱبن خادمى وصنيعتى وصنيعة أبى
فى مجلسى ! وتُقدِم علىّ وتستخِفّ بمجلسى وحضرتى ! هاه هاه هاه ! وتُقْدِم على هذا
وأمثاله ! وأنت مالك وللغناء ! وما يدريك ما هو؟ ومن أخذك به وطارحك إياه حتى
نتوهم أنك تبلغ منه مبلغ إسحاق الذى غُذِّى به وعلّمه وهو من صناعته؟ ثم تظن أنك
٢٠ تُخَطِّئه فيما لا تدريه ، ويدعوك الى إقامة الحجة عليه(١) فلا تثبُت لذلك وتعتصم بشتمه !

---

(١) فى الأغانى : عليك .

هذا ممـا يدل على السقوط وضعف العقل وسوء الأدب من دخولك فيما لا يشبهك ، وغلبـةِ لذّتك على مروءتك وشرفك ، ثم إظهـارِك إياه ولم تحكمـه (١) ، وآدّعائك ما لا تعلمه حتى ينسبك إلى إفراط الجهل ، ألا تعلم ، ويحك ، أن هــذا سوء أدب وقلّةُ معــرفة وقــلّة مبالاة بالخطأ والتكذيب والردّ القبيح ! ثم قال : والله العظيم وحق رسوله و إلا فأنا برىء من المهدىّ إن أصابه أحد بسوء أو سقط عليه حجر من السماء أو سقط من دابّته أو سقط عليه ســقفه أو مات بجأةً لأقتلنّك به . والله ! والله ! والله ! فلا تعرض له وأنت أعلم (٢) ! قم الان فاخرج ، فخرج وقد كاد يموت ؛ فلما كان بعــد ذلك دخلت على الرشــيد و إبراهيم عنده [فأعرضت عن إبراهيم] (٣) فجعل ينظر إلىّ مرة و إليه مرة و يضحك ؛ ثم قال : إنى لأعلم محبّتك لإسحاق وميلكَ إليه و إلى الأخذ عنه و إن هذا لا يجيئك من جهته كما تريد إلا بعــد أن يرضى ، والرضى لا يكون بمكروه ، ولكن أحسِنْ إليه وأكرمه وآعرف حقّه و بِرّه وصِلْه ، فإذا فعلت ذلك ثم خالف ماتهواه عاقبتَه بيد مستطيلة منبسطة ولسانٍ منطلق ؛ ثم قال لى : قم إلى مولاك وآبن مولاك فقبِّل رأسه ، فقمت إليه وقام إلىّ وأصلح الرشــيد بيننا .

قال أبو الفرج : وكان إسحاق جيّد الشعر ، كان يقول الشعر و ينسُــبه للعرب ، فمن ذلك قوله

لفظ الخدورُ إليك حُوراً عِينَا * أنسين ما جمع الكِناسُ قَطِينا

فإذا بَسَمْنَ فَعَنْ كمثلِ غمامةٍ * أو أُقْحُوان الرمل بات مَعِينَا

وأصحُّ ما رأت العيونُ محاجرا (٤) * ولهُنّ أمرضُ مارأيت عيونا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «من دخولك فيما لا يشبهك ثم اظهارك إياه وغلبت لذتك الخ» .

(٢) كذا فى الاغانى . وفى الاصل : « وأنت أعلم ولا تعرض له » .

(٣) زيادة فى الأغانى .

(٤) كذا بالأغانى ، وفى الأصل : جوارحا .

فكأنما تلك الوجوهُ أهِلّةٌ * أَقمرْنَ بين العشر والعشرينا
وكأنهنّ إذا نهضْنَ لحاجةٍ * ينهضْنَ بالعَقَدَاتِ من يَبْرينا

وأشعاره فى هذا النوع كثيرة .

وروى عن الأصمعىّ قال : دخلت أنا و إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ يوما على الرشيد فرأيناه لَقِسَ[(١)] النفس فأنشده إسحاق

وآمرةٍ بالبخل قلت لها آقصِرى * فذلك شيء ما إليه سبيلُ
أرى الناسَ خُلّانَ الكرام ولا أرى * بخيلا له حتى المماتِ خليلُ
و إنى رأيت البُخلَ يُزرِى بأهله * فأكرمتُ نفسى أن يقالَ بخيلُ
ومن خيرِ حالاتِ الفتى لو علمتِه * إذا نال خيرًا أن يكون يُنيلُ[(٢)]
فَعالِى فَعالُ المُكْثِرين تجمُّلًا * ومالى كما قد تعلمين قليلُ
وكيف أخاف الفقرَ أو أُحرَمُ الغِنَى * ورأىُ أمير المؤمنين جميل!

قال فقال الرشيد : لا تخف[(٣)] إن شاء الله، ثم قال: لله درّ أبياتٍ تأتينا بها ما أشدّ أُصولَها، وأحسن فصولها، وأقلّ فُضولَها ! وأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له إسحاق : وصْفُك والله يا أمير المؤمنين لشعرى أحسنُ منه فعلامَ آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد وقال : آجعلوها مائة ألف درهم، قال الأصمعىّ : فعلمت يومئذ أن إسحاق أحذق بصيد الدراهم منّى .

قال أبو عبدالله بن حمدون : سأل المتوكل عن إسحاق فعُرِّف أنه كُفّ وأنه بمنزله ببغداد، فكتب فى إحضاره، فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قُدّام السرير وأعطاه

---

(١) الشره النفس الحريص على كل شىء . (٢) كذا فى الأغانى وكتب الأدب وفى الأصل :
ومن خيرِ خَلّات الفتى قد علمته * إذا نال خيرا أن يقال نبيل
(٣) كذا فى الأغانى : وفى الأصل : لا كيف .

مخـدّة وقال : بلغنى أن المعتصم دفع إليـك فى أوّل يوم جلست بين يديه مخدّة، وقال : إنه لايستجلب ما عند حر مثلُ إكرامه، ثم سأله : هل أكل؟ فقال : نعم، فأمر أن يُسـقَ، فلما شرب أقداحا قال : هاتوا لأبى محمد عُودا، فجىء به فاندفع يغنّى بشعره

ما علّة الشيخ عيناه بأربعةٍ * تَغرَوْرِقانِ بدمع ثم ينسكبُ ٥

قال ابن حمدون : فما بقى غلام من الغلمان الوقوف إلا وجدته يرقص طربا وهو لا يعلم بما يفعل، فأمر له بمائة ألف دينار[1]. ثم انحدر المتوكل الى الرَّقّة وكان يستطيبها لكثرة تغريد الطير فيها فغنّاه إسحاق

أأن هَتَفت ورقاءُ فى رَوْنق الضُّحى * على فَنَنٍ غضّ النبات من الرَّنْدِ

بكيتَ كما يبكى الوليــدُ ولم تزل * جليدًا وأبديت الذى لم تكن تُبْدِى ١٠

فضحك المتوكل، ثم قال : يا إسحاق هـذه أخت فَعلتـك بالواثق لما غنّيته بالصالحيّة

طرِبتُ إلى أُصَيْبِيةٍ صِـغارِ * وذكّرنى الهوى قربُ المزارِ

فكم أعطاك لما أذن لك فى الانصراف؟ قال : مائة ألف دينـار[1]، فأمر له بمائة ألف دينار[1] وأذن له بالانصراف[2]. وكان آخر عهده بإسحاق. تُوُفّى بعـد ذلك بشهرين. وكانت وفاته فى شهر رمضان سـنة خمس وثلاثين ومائتـين. وكان يسأل الله تعـالى ألّا يبتليه بالقُولَنْج[3] لما رأى من صعوبته على أبيـه، فرأى فى منامه كأنّ قائلا يقول له : قد أُجيبت دعوتُك ولست تمـوت بالقُولَنْج ولكنّك ١٥

(١) فى الأغانى : "درهم".

(٢) عبارة الأغانى : « وأذن له بالانصراف الى بغداد، وكان هذا آخر عهدنا به لأن إسحاق الخ ». ٢٠

(٣) مرض يصيب المعدة يعسر معه خروج الثفل والريح.

تموت بضدّه ، فأصابه ذَرَب فى شهر رمضان فكان يتصدّق فى كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم ، ثم ضعُف عن الصوم فلم يُطِقه ومات فى الشهر . ولما نُعِى إلى المتوكل غمّه وحزِن عليه وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته . رحمه الله تعالى .

ذكر أخبار عَلَوَيْه

هو أبو الحسن على بن عبد الله بن سيف ، وجدّه سيف من الصُّغْد الذين سباهم الوليد بن عثمان بن عفّان وآسترقّ منهم جماعة آختصهم لخدمته وأعتق بعضهم ولم يُعتِق الباقين فقتلوه . قال أبو الفرج الأصفهانى : وكان علىٌّ هذا مغنّيا حاذقا ، ومؤدّبا مُحسِنا ، وصانعا متقنا ، وضاربا متقدّما ، مع خفّة رُوح وطيب مجالسةٍ وملاحة نوادر . وكان إبراهيم الموصلىّ علّمه وخرّجه وعُنى بتحذيقه جدا ، فبرع وغنّى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكّل ومات بعد إسحاق الموصلى بيسير . وكان سبب وفاته أنه خرج عليه جَرَبٌ فشكاه إلى يحيى بن ما سوَيْهِ ، فبعث إليه بدواء مُسهل وطِلاء ، فشرب الطلاء وآطّلى بالدواء فقتله ذلك . قال : وكان عَلَوَيْهِ أعسر ، فكان عوده مقلوب الأوتار: البَمُّ أسفل الأوتار كلها ثم المثلّث فوقه ثم المثنى ثم الزِّير ، فكان عوده إذا كان فى يد غيره يكون مقلوبا ، وإذا أخذه كان فى يده اليمنى وضرب باليسرى فيكون مستويا . وكان إسحاق يتعصب له فى أكثر أوقاته على مُخَارِق . وقال حمّاد آبن إسحاق قلت لأبى : أيُّما أفضل عندك مُخارق أم[1] علويهِ؟ فقال : يا بُنىّ ، علويهِ أعرفهما[2] فهمًا بما يخرج من رأسه ، وأعلمُهما بما يغنّيه ويؤديه ، ولو خُيّرت بينهما من يطارح جوارىّ ، أو شاورنى من يستنصحنى لما أشرت إلا بعلويهِ ، لأنه يؤدّى

(١) فى الأصل : أو . (٢) كذا فى الأغانى وفى الأصل : خيّرنى .

الغناء، [و] (١) إذا صنع شيئا صنعه صَنعةً مُحكمة، ومخارق لتمكّنه من حَلقه وكثرة نَغَمه لا يُقْنَع بالأخذ منــه، لأنه لا يؤدّى صــوتا واحدا كما أخذه ولا يغنّيه مرتين غناءً واحدا لكثرة زوائده فيه، ولكنهما إذا آجتمعا عند خليفة أو سُــوقةٍ غلب مُخارق على المجلس والجائزةِ بطيب صوته وكثرة نغمه .

٥ وقال أبو عبــد الله بن حمدون : حدّثنى أبى قال : آجتمعت مع إسحاق يوما فى بعض دُور بنى هاشم، وحضر علويهِ فغنّى أصواتا ثم غنّى من صَنْعته

ونُبِّئتُ ليــلى أرسلتْ بشفاعةٍ * إلىّ فهلاَّ نفسُ ليلى شفيعُها !

فقال له إسحاق : أحسنت أحسنت والله يا أبا الحسن أحسنت ما شئت، فقام علويهِ من مجلِسه فقبّل رأس إسحاق وعينيه وجلس بين يديه (٢) وسرّ بقوله سرورا كثيرا؛ ١٠ ثم قال : أنت سيدى وآبن سيدى [وأستاذى] (٣) وآبن أستاذى، ولى إليك حاجةٌ، قال: قل، فوالله إنى أبلُغ فيها ما تُحبّ، قال : أيّمـا أفضلُ أنا عندك أم مخارق ؟ فإنى أُحبّ أن أسمع منك فى هذا المعنى قولا يُؤْثَر ويحكيه عنك من حضر، فشرِّفنى به، فقال إسحاق : ما منكما إلا مُحسِنٌ مُجمِل، فلا تُرِد أن يجرى فى هذا شىء، قال: سألتك بحقّى عليك و بتُرْبة أبيك و بكل حقّ تُعظِّمه إلا حكمت ! فقال: ويحك ! والله لو كنت ١٥ أستجيز أن أقول غير الحق لقلته فيما تحبّ، فأمّا إذ أبيتَ إلا ذكر ما عندى، فلو خُيّرت أنا من يطارح جــوارىّ و يُغنّينى لمـا آخترت غيرك، ولكنكما إذا غنّيتما بين يدى خليفــةٍ أو أمير غلبك على إطــرابه وآستبد عليك بجائزته، فغضب علويه وقام وقال : أُفٍّ من رضاك وغضبك !

وكان الواثق بالله يقول : علويهِ أصحّ الناس صَنعةً بعــد إسحاق، وأطيب الناس ٢٠ صوتا بعد مُخارق، وأضربُ الناس بعد زَلْزَلَ وملاحظ، فهو مُصَلِّى كلِّ سابق نادر

(١) زيادة نراها لازمة. (٢) كذا فى الأغانى وفى الأصل : "صلى". (٣) زيادة فى الأغانى.

وثانى كل أوّل، وأصل كل متقدّم . وكان يقول : [غناء](١) علويهِ مثل نقر الطست يبقى ساعة فى السمع بعد سكوته .

وقال عبد الله بن طاهر : لو ٱقتصرت على رجل واحد يغنّيني لمـا ٱخترت سوى علويهِ، لأنه إن حدّثنى ألهانى، و إن غنّانى أشجانى، و إن رجعت إلى رأيه كفانى.

٥ وقال محمد بن عبد الله بن مالك : كان علويهِ يغنّى بين يدى الأمين، فغنى فى بعض غنـائه

ليتَ هندًا أنجزتْنا ما تَعِـدْ * وشفَت أنفسَنا مما تَجِـدْ

وكان الفضل بن الربيع يضطغن عليـه شيئا، فقال للأمين : إنما يعرّض بك و يستبطئ المأمون فى محاربته إياك، فأمر به فضُرِب خمسين سوطا وجُرّ برجله حتى

١٠ أُخرِج، وجفاه مدّة حتى سأل كوثرا أن يترضّاه له فترضاه له وردّه إلى الخدمة وأمر له بخمسة آلاف درهم(٢) . فلما قدِم المأمون تقرّب إليه بذلك فلم يقع له بحيث يحب، وقال : إن الملك بمنزلة الأسد أو النار فلا تتعرّض لمـا يُغضبه، فإنه ربما جرى منه ما يُتلفك ثم لا يقدِر بعد ذلك على تلافى ما فرَط منه ؛ ثم قرب من المأمون بعد ذلك .

قال علويهِ : أمرنا المأمون أن نباكره لنصطبح، فلقيني عبدالله بن إسماعيل المراكبي

١٥ مولى عُرَيب فقال : أيها الظالم المعتدى، أمَا ترحم ولا ترِقّ! عريبُ هائمة من الشوق إليك تدعو الله وتستحكمه عليك وتحلُم بك فى نومها فى كل ليلة ثلاث مرات ، قال [علويهِ : فقلت أم الخلافة زانية](١) ومضيت معه، فحين دخلت قلت : استوثق من الباب فإنى أعرَفُ الناس بفضـول الحُجّاب، و إذا عريبُ جالسة على كرسىّ تطبخ ثلاث قُدور من دَجاج، فلما رأتنى قامت فعانقتنى وقبّلتنى وقالت : أىَّ شىء تشتهى؟

٢٠ (١) زيادة فى الأغانى . (٢) فى الأغانى : دينار .

فقلت : قِدْرا من هذه القدور، فأفرغت قِـدْرا بينى و بينها فأ كلنا، ودعتْ بالنبيذ فصبّت رِطلا فشربَتْ نصفه وسقتنى نصفه، فما زلتُ أشرب حتى كدت أن أسكر، ثم قالت : يا أبا الحسن، غنّيتُ البارحة فى شـــعر لأبى العتاهيــة أعجبنى أفتسمعه[(١)] وتصلحه، فغنّت

عَذيرى من الإنسان لا إن جَفَوتُه * صفا لى ولا إن صرتُ طوْعَ يديه

و إنّى لمشتاقٌ إلى ظِـلِّ صاحبٍ * يروقُ و يصفُو إن كَدِرت عليه

فصيّرناه مجلسنا . وقالت : قد بقى فيه شىء، فلم أزل أنا وهى حتى أصلحناه . ثم قالت : أُحبّ أن تغنّى أنت أيضـا فيه لحناً ففعلت، وجعلنا نشرب على اللحنين ثلاثا[(٢)]، ثم جاء الحُجّاب فكسروا الباب وآستخرجونى، فدخلت على المأمون فأقبلت أرقص من أقصى الإيوان وأُصفّق وأُغنّى بالصـوت، فسمع المأمون والمغنّون ما لم يعرفوه فآستظرفوه، وقال المأمون : آدنُ يا علويهِ وردّده، فردّدته عليه سبع مرات، فقال لى فى آخرها عنـد قولى "يروق و يصفو إن كدرت عليــه" : يا علويه خذ الخلافة وأَعطنى هذا الصاحب .

وقال علويه : قال إبراهيم الموصلىّ يوما : إنى قد صنعت صوتا وما سمعــه منى أحد بعدُ، وقد أحببت أن أنفعك به وأرفع منك بأن أُلقيه عليك وأهَبَه لك، ووالله ما فعلت هذا بإسحاق قطّ، وقد خصَصْتك به فآنتحله وآدّعِه فلست أنسبه إلى نفسى وستكسِب به مالا، فألقى علىّ

إذا كان لى شيئان يا أمَّ مالكٍ * فإنّ لجـارِى منهما ما تخيّرا

فأخذته عنه وآدّعيته، وسترته طول أيام الرشيد خوفا من أن أُتّهم فيــه وطول أيام الأمين، حتى حدث عليــه ما حدث وقدم المأمون من خُراسان وكان يخرج

(١) كذا بالأغانى؛ وليس فى الأصل همزة الاستفهام . (٢) فى الأغانى : مليا .

إلى الشَّمَّاسِيّة فيتنزّه، فركبت يوما فى زَلَّالِىّ (١) وجئت أتبعه، فرأيت حَرّاقة علىّ بن هشام فقلت للملّاح: اطرح زَلّالىّ على الحرّاقة ففعل، واستُؤذِن لى فدخلت وهو يشرب مع الجوارى، وما كانوا يحجبون جواريهم، فغنّيته الصوت فاستحسنه جدا وطرب عليه، وقال: لمن هذا؟ فقلت: هذا صوت صنعته وأهديته لك ولم يسمعه أحد قبلك، فازداد به عجبًا وطربًا وقال للجارية: خُذِيه عنه، فألقيته عليها حتى أخذته، فسُرّ بذلك وطرِب، وقال لى: ما أجد لك مكافأة على هذه الهديّة إلا أن أتحوّل عن هذه الحرّاقة بما فيها وأسلمه إليك، فتحوّل إلى أخرى وسُلّمت لى بخزانتها وجميع آلاتها وكل شىء فيها، فبعت ذلك بمائة ألف وخمسين ألف درهم، واشتريت ضيعتى الصالحيّة.

وقال علويه: خرج المأمون يوما ومعه أبيات قد قالها وكتبها فى رُقعة بخطّه وهى

خرجتُ إلى صيد الظِّباء فصادنى * هناك غزالٌ أدعجُ العَين أحورُ
غزالٌ كأن البدرَ حلّ جبينَه * وفى خدّه الشِّعْرَى المنيرةُ تُزْهِر
فصاد فُؤادى إذ رمانى بسهمه * وسهمُ غزالِ الإنس طرفٌ ومَحْجَر
فيامن رأى ظبيًا يصيد، ومن رأى * أخا قَنَصٍ يُصطادُ قهرا ويُقْسَر

قال: فغنّيته فأمر لى بعشرين (٢) ألف درهم.

ذكر أخبار معبَد اليَقْطِينىّ

قال أبو الفرج: كان معبَد هذا غلاما مولّدا من مولدى المدينة، أخذ الغناء عن جماعة من أهلها، واشتراه بعض ولد على بن يَقْطين، وأخذ الغناء بالعراق عن إسحاق وابن جامع وطبقتهما، وخدم الرشيدَ ولم يخدم غيره من الخلفاء، ومات فى أيامه

(١) جمع زِلِّيّة وهى البساط. (٢) فى الأغانى عشرة آلاف.

وكان أكثر آنقطاعه إلى البرامكة . وروى أبو الفرج الأصفهانىّ حكاية عنه أحببت أن أذكرها فى هـذا الموضع ، وهى ما رواه بسنده إلى محمد بن عبد الله بن مالك الخُزاعىّ، قال حدّثنى معبَد الصغير المغنّى مولى على بن يَقْطين قال : كنت منقطعا إلى البرامكة أُحدّثهم وأُلازمهم ، فبينا أنا ذات يوم فى منزلى إذ أتانى آت فدقّ بابى، فخرج غلامى ثم رجع إلىّ فقال لى : على الباب فتى ظاهر المُروءة يستأذن عليك، فأذِنت له ، فدخل شابّ ما رأيت أحسنَ وجهًا منه ولا أنظف ثوبا ولا أجمل زِيًّا منه من رجل دَنِفٍ عليه آثار السُّقم [ظاهرة][1] ، فقال لى : إنى أُحاول لقاءك منذ مدّة ولا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإن لى حاجة ، فقلت : وما هى؟ فأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدىّ فقال : أسألك أن تقبلها وتصنع فى بيتين قلتُهما لحنا تغنّينى به ، فقلت : هاتِهما ، فأنشدنى

والله يا طَرْفىَ الجانى على بدَنِى * لتُطفِئَنّ بدمعى لوعةَ الحَزَنِ
أو لأبوحنّ[2] حتى يحجُبُوا سَكَنِى * فلا أراه وقد أُدْرِجتُ فى كَفَنِى

قال : فصنعت فيه لحنًا ثم غنّيته إياه ، وأُغْمِى عليه حتى ظننته قد مات ، ثم أفاق فقال : أعِدْ ، فديتُك ! فناشدته الله فى نفسه وقلت : أخشى أن تموت ، فقال : هيهات ! أنا أشقى من ذلك ، وما زال يخضع لى ويتضرّع حتى أعدته فصعِق صعقة أشدّ من الأولى حتى ظننت أن نفسه قد فاضت ، فلما أفاق رددت عليه الدنانير فوضعتها بين يديه ، وقلت : يا هذا ، خذ دنانيرك وآنصرف عنى قد قضيت حاجتك وبلغت وطرًا مما أردته ، ولست أُحبّ أن أشرك فى دمك ، فقال : [يا][1] هـذا لا حاجة لى فى الدنانير ، وهذه مثلها لك ، ثم أخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدىّ وقال : أعِد الصوت علىّ مرةً أُخرى وحِلٌّ لك دمى ! فشرِهَتْ نفسى فى الدنانير ،

(١) زيادة فى الأغانى . (٢) كذا فى الأغانى ، وفى الأصل : «أو لا توجنّ» ولا معنى له .

وقلت : لا والله ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط، قال : وما هى؟ قلت : أُولاهن أن تقيم عندى وتتحرّم بطعامى، والثانية أن تشرب أقداحا من النبيذ تُطَيِّبُ[(1)] قلبك وتسكّن ما بك، والثالثة أن تحدّثنى بقصّتك، قال: أَفعلُ ما تريد، فأخذت الدنانير ودعوتُ بطعامٍ فأصاب منه إصابة مُعَذِّر، ثم دعوت بالنبيذ فشرب أقداحا، وغنّيته بشعر غيره فى معناه وهو يشرب ويبكى، ثم قال : الشرطَ أعزّك الله ! فغنّيته صوته فجعل يبكى أحرّ بُكاءٍ ويَنْشِج أشدّ نَشِيج وينتحب، فلما رأيت ما به قد خفّ عما كان يلحقه، ورأيت النبيذ قد شدّ قلبه كررت عليه صوته مرارا، ثم قلت: حدّثنى حديثك، فقال: أنا رجل من أهل المدينة خرجت متنزّها فى ظاهرها وقد سال العقيق فى فتية من أقرانى وأخدانى، فبَصُرنا بفتَيَات قد خرجن لمثل ما خرجنا له، فجلسن حَجْرَةً[(2)] منا، وبصُرت منهن بفتاة كأنها قضيب قد طلّه الندى، تنظر بعينين ما ٱرتد طرْفهما إلا بنفس من يلاحظهما، فأطلنا وأطلن حتى تفرّق الناس، وٱنصرفن وٱنصرفنا وقد أبقت بقلبى جُرحًا بطيئا ٱندماله، فعدت إلى منزلى وأنا وَقِيذ، وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحدٌ فلم أر لها ولا لصواحبها أثرا، ثم جعلت أتتبعها فى طرق[(3)] المدينة وأسواقها، وكأنّ الأرض أضمرتها فلم أحسّ لها بعين ولا أثر، وسقِمت حتى أيِس منى أهلى، وخلَتْ بى ظِئْرى فٱستعلمتنى حالى وضمنت لى كتمانَها والسعىَ فيما أحبّه منها، فأخبرتها بقصتىْ، فقالت: لا بأس عليك، هذه أيام الربيع وهى سنة خِصْب وأنواء وليس يبعد عنك المطر، ثم هذا العقيق فتخرج حينئذ وأخرج معك فإن النسوة سيجئن، فإذا فعلن ورأيتُها أتبعُها حتى أعرف موضعها ثم أصل بينك وبينها وأسعى لك فى تزويجها، فكأنّ نفسى ٱطمأنّت إلى ذلك ووثقت به وسكنت إليه، فقويتُ وطمِعت وتراجعتْ إلىّ نفسى، وجاء مطر يعقب ذلك وسال العقيق

(١) فى الأغانى : تشد . (٢) ناحية . (٣) كذا بالأغانى، وفى الأصل : طريق .

وخرج الناس وخرجت مع إخوانى إليه، فجلسنا مجلِسَنا الأوّل بعينه، فما كنا والنسوةَ إلا كفرسى رِهان، فأومأتُ إلى ظِئرى فجلستْ، وأقبلتُ على إخوانى فقلت : لقد أحسن القائل

رمتنى بسهم أقصدَ القلبَ وٱنثنَتْ * وقـــد غادرتْ جُرْحًا به ونُدُوبا

فأقبلتْ على صواحباتها وقالت : أحسن والله القائل، وأحسن من أجابه حيث يقول ٥

بنا مثلُ ما تشكو فصبْرًا لعلّنا * نرى فَرَجًا يَشفِى السّقَامَ قرِيبَا

فسكتُّ عن الجواب خوفًا من أن يظهر منى ما يفضحنى و إياها، وعرفت ما أرادت، ثم تفرّق الناس وٱنصرفنا، وتبِعَتْهَا ظئرى حتى عرفت منزلها، وصارت إلىّ فأخذت بيدى ومضينا إليها، فلم نزل نتلاطف حتى وصلتُ إليها، فتلاقينا وتزاورنا ١٠ على حال مخالسةٍ ومُراقبةٍ، حتى شاع حديثى وحديثُها وظهر ما بينى و بينها، فحجبها أهلها وسدّوا أبوابها، فما زلت أجهد فى لقائها فلا أقدِر عليه، وشكوت ذلك إلى أبى لشدّة ما نالنى وسألته خِطْبتَهَا لى، فمضى أبى ومَشْيَخة أهلى إلى أبيها فخطبوها، فقال: لو كان بدأ بهذا قبل أن يفضَحها و يشهرَها لأسعفته بما ٱلتمس، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقّق قول الناس فيها بتزويجه إياها، فٱنصرفتُ على يأسٍ منها ومن نفسى. ١٥ قال معبد : فسألته أن ينزل بجوارى، وصارت بيننا عِشرة، ثم جلس جعفر بن يحيى ليشرب فأتيته، فكان أوّل صوت غنّيته صوتى فى شعر الفتى، فشرِب وطرِب عليه طربًا شـديدا، وقال : ويحك! إن لهذا الصوت حديثا فمـا هو ؟ فحدّثته، فأمر بإحضار الفتى فأُحضِر من وقتـه، وٱستعاده الحديث فأعاده، فقال : هى فى ذمتى حتى أزوجك إياها، فطابت نفسه وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح، وغدا جعفر إلى الرشيد ٢٠ فحدّثه الحديث فعجب منه وأمر بإحضارنا جميعا فأُحضِرنا، وأمر بأن أغنيّه الصوت

فغنيته إياه وشرب عليه وسمع حديث الفتى، فأمر من وقته بكتاب إلى عامل الحجاز بإشخاص الرجل وآبنته وجميع أهله إلى حضرته، فلم تمض إلا مسافةُ الطريق حتى أُحضِروا، فأمر الرشيد بإحضار أبى الجارية إليه فأُحضِر، وخطب إليه الجاريةَ للفتى وأقسم عليه ألّا يخالف أمره، فأجابه وزوّجها إياه، وحمل الرشيد إليه ألف دينار لِجهازها وألف دينار لنفقة طريقه، وأمر للفتى بألف دينار ولى بألف دينار، وأمر جعفرٌ لى وللفتى بألف دينار. وكان المدينىّ بعد ذلك من نُدماء جعفر بن يحيى.

ذكر أخبار محمد الرف

هو محمد بن عمرو مولى بنى تميم كوفىّ المولد والمنشأ، والرفّ لقب غلب عليه، وكان مُغنّيا ضاربا صالح الصَّنعة مليح النادرة، وكان أسرع خلقِ الله أخذًا للغناء وأصحّهم أداءً له وأذكاهم، وكان إذا سمع الصوت مرتين أو ثلاثا أدّاه لا يكون بينه وبين من أخذه عنه فرقٌ فيه، وكان متعصّبا على آبن جامع مائلا إلى إبراهيم الموصلىّ وآبنه إسحاق، وكانا يرفعان منه ويقدّمانه ويأخذان له الصِّلات من الخلفاء، وكانت فيه عربدة إذا سكِر، فعربد بحضرة الرشيد مرةً فأمر بإخراجه ومنعه من الدخول إليه وجفاه وتناساه. قال أبو الفرج: وأحسبه مات فى خلافته أو خلافة الأمين.

ومن أخباره فى جودة الأخذ وسرعة الحفظ ما رواه حماد بن إسحاق عن أبيه قال: غنى آبن جامع يوما بحضرة الرشيد

جَسورٌ على هجرى جبانٌ عن الوصلِ * كَذُوبُ عِداتٍ يُتبِعُ الوعدَ بالمَطْلِ
مُقــدِّم رِجلٍ فى الوصـال مؤخِّرٌ * لأخرى يشوبُ الجدّ فى ذاك بالهَزْلِ
يهـمّ بنـا حتى إذا قلت قـد دنا * وجاذ بنى عِطفـاه مالَ إلى البُخْلِ
يزيد آمتناعًا كُلّمـا زدتُ صَـبْوَةً * وأزدادُ حِرصًا كلّمـا ضنّ بالبَـذْلِ

فأحسن فيه ما شاء وأجمل ، فغمزت عليه محمـد الرف وفَطِن لما أردت ، وآستحسنه الرشـيد وشرب عليه وآستعاده مرتين أو ثلاثا ، ثم قمتُ إلى الصـلاة وغمزت الرف بجاءنى ، وأومأت إلى مُخارق وعلويهِ وعقيـد بجاءونى ، فأمرته بإعادة الصوت فأعاده وأدّاه كأنه لم يزل يَرويه ، ولم يزل يكرّره على الجماعة حتى غنّوه ، ثم عدت إلى المجلس ، فلما آنتهى الدور إلىّ آبتدأت فغنّيته قبل كل شيء غنيته ، فنظر إلىّ آبنُ جامع محدّدا طرْفَه ، وأقبل علىّ الرشيدُ وقال : أكنت تَروِى هذا الصوت؟ قلت : نعم ياسيدى ، فقال آبن جامع : كذب والله ما أخذه إلا منى الساعة ، فقلت : هذا صوت أرويه قديما ، وما فيمن حضر [أحد][1] إلا وقد أخذه منى ، وأقبلت عليهم فقلت لهم : غنّوه ، فغناه علويهِ ثم عقيد ثم مُخـارِق ، فوثب آبن جامع فجلس بين يديه فحلف بحياته و بطلاق آمرأته أن اللحن صنعه منـذ ثلاث ليال وما سمع به قبل ذلك الوقت ، فأقبل الرشيد علىّ وقال : بحياتى آصدُقنى عن القِصّة ، فصدقتُه فجعل يضحك و يصفِّق و يقول : لكل شيء آفةٌ وآفة آبن جامع الرفُّ .

قال إسحاق بن إبراهيم : كان محمـد الرف أروَى خلقِ الله تعالى للغناء وأسرعَهم أخذًا لما سمعه ، ليست عليه فى ذلك كُلْفة إنما يسمع الصوت مرة واحدة وقد أخذه ، وكنا معه فى بلاء إذا حضر فكان كل من غنّى منا صوتا[2] فسأله عدوّ له أو صديق بأن يُلقِيه عليـه فبخِل ومنعه إياه وسأل محمد الرف أن يأخذه فما هو إلا أن يسمعه مرة واحدة حتى أخذه وألقاه على من سأله . قال : وكان أبى يبَرّه و يصله و يُجْدِيه من كل جائزة وفائدة تصـل إليه . وكان محمد الرف مُغرًى بآبن جامع خاصّـة من بين المغنّـين لبخله ، وكان لا يفتح آبن جامع فاه بصوت إلا وضع عينه عليـه وصغى

(١) زيادة من الأغانى .

(٢) كذا فى الأغانى ، وفى الأصل : وكل من غنى الخ

بسمعه إليه حتى يحكيه، وكان فى ٱبن جامع بخل شديد لا يقدِر معه على أن يُسعِفه ببرّ ورِفْد، وساق نحو ماتقدّم إلا أنه قال : إن الرف أخذ الصوت لأول مرة وألقاه على إسحاق فأخذه عنه فى ثلاث مرار . قال حماد : وللرفّ صَنعة يسيرة، وذكر منها أصواتا .

ذكر أخبار محمد بن الأشعث

قال أبو الفرج : كان محمد بن الأشعث القرشى ثم الزُّهرىّ كاتبا، وكان من فِتيان أهل الكوفة وظُرفائهم، وكان يقول الشعر ويُغَنّى فيه، فمن ذلك قوله فى سلّامة زرقاء ٱبن رامين

أمسى لسلّامةَ الزَّرقاءِ فى كَبِدى * صَدْعٌ يُقيم طَوَالَ الدهر والأَبَدِ
لا يستطيع صَنَاعُ القومِ يشعَبُهُ * وكيف يُشعَبُ صَدعُ الحُبِّ فى الكَبِدِ
إلا بوصل التى من حُبّها ٱنصدعت * تلك الصدوعُ من الأسقام والكَمَدِ

وكان مُلازما لأبن رامين ولجاريته سلّامة الزرقاء، فشُهِر بذلك فلامه قومه فى فعله فلم يحفِل بمقالتهم، وطال ذلك منه ومنهم حتى رأى بعضَ ما يكره فى منزل ٱبن رامين، فمال إلى سحيقة جارية زُرَيق ٱبن مَنِيح مولى عيسى بن موسى، وكان زُرَيق شيخا كريما نبيلا يجتمع إليه أشراف أهل الكوفة من كل حىّ، وكان الغالبُ على منزله رجلاً من ولد القاسم بن عبد الغفار العِجْلىّ كغلبة محمد بن الأشعث على منزل ٱبن رامين، فتلازما على ملازمة زُرَيْق، وفى ذلك يقول محمد بن الأشعث

يا بنَ رامين بحتُ بالتصريح * فى هواى سحيقةَ ٱبنِ مَنِيحِ
قَيْنةٌ عَفّةٌ ومولًى كريمٌ * ونديمٌ من اللُّباب الصريحِ
رَبَعِىٌّ مهذَّبٌ أرْيَحِىٌّ * يشترى الحمدَ بالفَعالِ الربيحِ

نحن منه فى كلّ ما تشتهى الأنـ * ـفسُ من لذّةٍ وعيشٍ نَجيحِ
عند قومٍ من هاشم فى ذُراهـا * وغنـاءٍ من الغَزال المَليـحِ
فى سُرورٍ وفى نَعيم مُقيمٍ * قد أمِنّـا من كلّ أمرٍ قبيحِ
فاسلُ عنّـا كما سلوناك إنى * غيرُ سالٍ عن ذاتِ نفسِى ورُوحِى
حافظٌ منك كلّ ما كنتَ قد ضيّعتَ ممـا عصيتُ فيـه نَصيحِى ٥
فالقِلَى ما حَيِيتُ منّى لك الدهـ * ـرَ بِـوُدٍّ لِمُنيَتى مَمْنُوحِ
يابن رامين فٱلزمَنْ مسجدَ الحىّ * بطول الصـلاة والتسبيحِ

قال عمر بن نوفل وهو راوى هذه الأبيات : فلم يدَع ٱبنُ رامين شريفا بالكوفة إلا تحمّل به على ٱبن الأشعث وهو يأبى أن يرضى عنه وأن يعاود زيارته، حتى تحمّل عليه بالبَحْوانىّ، وهو محمد بن بشر بن بَحْوان الأسدىّ وكان يومئذ على الكوفة، فكلمّه ١٠ فرضِى عنه وعاد إلى زيارته، ولم يقطع منزلَ زُرَيق . وقال فى سَحيقة

سَحيقـةُ أنتِ واحدة القِيانِ * فمـا لكِ مُشبِـهٌ فيهنّ ثانِى
فَضَلت على القِيان بفضلِ حِذقٍ * فَحُزتِ على المَدَى قَصبَ الرِّهانِ
سجَـدْنَ لكِ القِيانُ مُكَفِّراتٍ * كما سجـد المَجوسُ لمَرْزُبانِ
ولا سِيمَـا إذا غنّت بصـوت * وحرّكـتِ المَثالثَ والمثـانى ١٥
شربتُ الخمـرَ حتى خلتُ أنّى * أبو قابوسَ أو عبدُ المَدانِ
فإعمـال اليسار على المـلاوى * ومن يمنـاكِ ترجمة البيانِ

ولمحمد بن الأشعث أصوات له فيها غِناء، منها

رَحُبتْ بلادُكِ يا أُمامَهْ * وسلِمتِ ما سَجعَتْ حمامَهْ
وسـقى ديارَكِ كلّمـا * حنّت إلى السُّقيا غمامَهْ ٢٠

إنى وإنْ أقصيتِنى * شفِقٌ(١) أُحِبُّ لكِ الكرامهْ
وأرى أُمورَكِ طاعةً * مفروضةً حتّى القيامهْ

وله غير ذلك من الأصوات .

ذكر أخبار عمرو بن بانة

٥ قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد مولى ثقيف ، وكان أبوه صاحب ديوان ووجهًا من وُجوه الكُتّاب ، ونسب إلى أمه ، وكان مغنّيًا مُحسنا وشاعرا صالحَ الشعر ، وصَنعته صَنعةٌ متوسّطة ، وكان مرتجلا . قال : وكتابه فى الأغانى أصل من الأصول . وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدى فى الغناء ، ويخالف إسحاق ويتعصّب عليه تعصُّبا شديدا ويواجهه بنفسه ، وهو معدود
١٠ فى نُدماء الخلفاء ومغنّيهم على ما كان به من الوضَح ، وفيه يقول الشاعر

أقولُ لعمرٍو وقد مرّ بى * فسلّم تسليمةً جافيهْ
لئن فَضَّلوك بفضلِ الغِنا * ء فقد فضَّل الله بالعافيهْ

وقال أحمد بن حمدون : كان عمرو حسنَ الحكاية لمن أخذ عنه الغناء حتى كان من يسمعه لو توارى عن عينه [عمرو](٢) لم يشك فى أنه هو الذى أخذ عنه لحسن
١٥ حكايته ، وكان محظوظا ممن يعلمه ، ما علم أحدًا قط إلا خرج نادرا مبرّزا . وله أخبار مع الخلفاء وإنعام منهم عليه ، منهم المتوكل على الله . رحمه الله

(١) فى الأغانى : سفها .
(٢) زيادة فى الاغانى .

ذكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعىّ

هو أبو العبّاس عبد الله بن العبّاس بن الفضل بن الربيع؛ والربيع، على ما يدّعيه أهله، آبن يونس بن أبى فروة، وآل أبى فروة يدفعون ذلك ويزعمون أنه لَقيط وجد منبوذًا كَفَله يونس، فلما خدم المنصور آدّعى إليه. قال أبو الفرج الأصفهانى: وكان شاعرا مطبوعا ومغنّيا مُحسنا جيّـد الصَّنعة نادرَها. قال: وهو أوّل من غنّى بالكنكلة فى الإسلام.

وكان سبب دخوله فى الغناء على ما رواه أبو الفرج بسنده إليه قال: كان سبب دخولى فى الغناء وتعلُّمى إياه أنى كنت أهوى جارية لعمّتى رُقَيّـة بنت الفضـل آبن الربيع، وكنت لا أقدِر على ملازمتها والجلوسِ معها خوفا من أن يظهر ما لها عنـدى فيكون ذلك سببَ منعى منها، فأظهرت لعمّتى أنى أشتهى أن أتعلّم الغناء ويكون ذلك فى سِترٍ عن جَدّى، وكان جدّى وعمّتى على حال من الرِّقّة علىّ والمحبّـة لى لا نهاية وراءها، لأن أبى تُوُفِّى فى حياة جَدّى الفضل، فقالت: يا بُنىّ وما دعاك إلى ذلك؟ فقلت: شهوة غلبت على قلبى إن مُنِعتُ منها مُتّ غمّا، قال: وكان لى فى الغناء طَبْعٌ قوىّ، فقالت لى: أنت أعلم وما تختاره، والله ما أحبّ منْعَك من شىء، وإنى كارهة أن تحذِق فى ذلك وتُشتَهر فتسقط ويفتضح أبوك وجَدّك، فقلت: لا تخافى من ذلك، فانما آخذ منه مقدار ما ألهو به، ولازمت الجارية لمحبّتى إياها بعلّة الغِناء، فكنت آخذ عنها وعن صواحباتها حتى تقدّمت الجماعة حِذْقا وأقرّت لى بذلك، وبلغت ما كنت أريد من الجارية، وصرت ألازم مجلس جدّى، ثم لم يكن يمرّ لإسحاق ولا لآبن جامع ولا للزُّبَير بن دَحْمان ولا لغيرهم صوت إلا أخذته، وكنت سريع الاخذ إنما كنت أسمعه مرتين أو ثلاثا

وقد صحّ لى، وأحسست فى نفسى قوّة فى الصناعة ، فصنعت أوّل صوت صنعته فى شعر العَرْجىّ

أماطتْ كساء الخزّ عن حُرّ وجهِها * وأدنت على الخدّين بُرْداً مُهَلْهَلا

ثم صنعتُ

٥ أقفر من بعد خَلّةٍ شَرَفُ * فالمُنْحَنَى فالعقِيقُ فالجُرُفُ

وعرضتهما على الجارية التى كنت أهواها، وسألتها عما عندها فيهما، فقالت : لا يجوز أن يكون فى الصَّنعة فوق هذا ؛ وكان جوارى الحارث بن بسْخير وجوارى أبيه يدخلن إلى دارنا فيطرحْنَ على جوارى عمّتى وجوارى جدّى ويأخذن أيضا ما ليس عندهن، فأخذْنَهما منى، وسألن الجارية عنهما فأخبرتهن أنهما من صَنعتى،

١٠ ثم آشتُهِرا حتى غُنّى الرشيدُ بهما يوما فاستظرفهما ، وسأل إسحاق : هل تعرفهما؟ فقال : لا، وإنهما لمن أحسن الصَّنعة وجيّدها ومُتقَنِها ، ثم سأل الجارية عنهما فوقفت خوفا من عمّتى وحذَراً أن يبلغ جَدّى أنها ذكرتنى ، فآنتهرها الرشيد فأخبرته القصّة ، فوجّه من وقته فدعا بجَدّى فقال له : يا فضل، أيكون لك آبن يغنّى ثم يبلُغ فى الغِناء المبلغ الذى يمكنه أن يصنع صوتين يستحسنهما إسحاق وسائر المغنين

١٥ ويتداولها جوارى القِيان فلا تُعلِمنى بذلك، كأنك رفعتَ قدره عن خِدمتى فى هذا الشأن! فقال له جدّى : وحق ولائك يا أمير المؤمنين ونعمتِك وإلا فأنا برىء من بيعتك وعلىّ العهد والميثاق[1] والعِتق والطلاق إن كنت علمت بشىء من هذا قط إلا منك الساعة، [فمن هذا من ولدى؟ قال : عبد الله بن العباس هو[2] ، فأحضرنيه الساعة][3] ، فجاء جدّى وهو يكاد أن ينشق غيظا، فدعانى فلما خرجت إليه شتمنى

٢٠ وقال : [يا كلب][3] بلغ من أمرك أنك تجسُر على أن تتعلم الغِناء بغير إذنى ثم زاد

(١) كذا فى الاغانى وفى الأصل : "والبيان" . (٢) لعل العبارة : هو عبد الله بن العباس .

(٣) زيادة فى الأغانى .

ذلك حتى صنعت ، ولم تقنع بهـذا حتى ألقيتَ صَنعتك على الجوارى فى دارى ، ثم تجَاوزهنّ إلى جوارى الحارث بن بسْـخير فاشتُهِرتَ وبلغ أمير المؤمنين فتنكّر لى ولامنى ، وفضحت آباءك فى قبورهم وسقطت للأبد إلا من المغنين ، فبكيتُ مما جرى علىّ وعلمت أنه صدقنى ، فرحمنى وضمّنى إليه وقال : قد صارت الآن مصيبتى فى أبيك مصيبتين : إحداهمـا به وقد مضى وفات ، والأخرى بك وهى موصولة بحياتى ، ومصيبة باقية العار علىّ وعلى أهلى بعـدى ، وبكى وقال : عزّ علىّ [(١)] يا بُنىّ أنى أراك أبدا ما بقيت على غير ما أُحبّ ، وليست لى فى هذا الأمر حيلة لإنه أمر قد خرج عن يدى ، وقال : جئنى بعود حتى أسمعك وأنظر كيف أنت ، فإن كنت تصلُح للخدمة فى هـذه الفضيحة وإلا جئت بك منفردا وعرّفته خبرك وآستعفيته لك ، فأتيته بعُود وغنّيته غِناء قديمـا ، فقال : لا ، بل صوتيك اللذين صنعتهما ، فغنّيته إياهمـا فاستحسنهما وبكى ، ثم قال : بَطَلْتَ والله يا بُنىّ وخاب أملى فيك ، فواحزنا عليـك وعلى أبيك ! فقلت : ليتنى مِتّ قبل ما أنكرته أو أُخرست ! وما لى حيلة ! لكنى وحياتك يا سيّدى — وإلا فعلىّ عهـد الله وميثاقه والعتق والطلاق وكلّ يمين يحلف بها [حالف] [(٢)] لازمة [لى] [(٢)] — لا غنّيت أبدا إلا الخليفة أو ولىّ عهد ، فقال : قد أحسنت فيما نَبهت عليه من هذا ، فركب وأمر بى فأُحضِرتُ ، ووقفت بين يدى الرشيد وانا أُرعَد ، فاستدعانى وآستدنانى حتى صرت أقرب الجماعة إليه ، ومازحنى وأقبـل علىّ وسكّن منى [(٣)] ، وأمر جَدّى بالآنصراف ، وأومأ إلى الجمـاعة فحدّثونى وسُقيتُ [(٤)] أقداحا وغنّى المغنون جميعا ، وأومأ الىّ إسحاق بعينه أن آبدأ فغنّ إذا بلغت

---

(١) فى الاغانى : مصيبته ، ولعلها : مصيبتك . (٢) زيادة فى الأغانى .

(٣) كذا فى الاغانى ، وفى الأصل : وأقبل على الجماعة وشكر منى الخ .

(٤) فى الاغانى : وسقيت الجماعة وغنى الخ .

النَّوبة إليك قبل أن تؤمر بذلك ليكون ذلك أملحَ وأجملَ بك ، فلما جاءت النَّوبة إلىّ أخذت عُودا ممن كان إلى جنبي وقمتُ قائمـا وآستأذنت فى الغِناء، فضحك الرشيد وقال : غنّ جالسا، فغنّيت لحنى الأول، فطرِب واستعاده ثلاث مرات وشرب عليه ثلاثة أنصاف، ثم غنّيت الثانى فكانت هذه حاله ، فسكِر ودعا بمسرور وقال : آحمل الساعة مع عبد الله عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوبا من فاخر ثيابى وعَيبةً مملوءةً طِيبا ، فحمل ذلك كله معى . قال عبد الله : ولم أزل كلما أراد ولىّ عهدٍ أن يعلم مَن الخليفةُ بعد الخليفة هو أم غيره دعانى وأمرنى أن أغنّى، فأُعرّفه يمينى فيستأذن الخليفة فى ذلك ، فإن أذن لى فى الغناء علم أنه ولىّ عهد وإلا عرف أنه غيره، حتى كان آخرهم الواثق فدعانى فى أيام المعتصم وسأله أن يأذن لى فى الغناء، فأذِن لى ثم دعانى من الغد فقال : ما كان غِناؤك إلا سببا لظهور سِرّى وأسرار الخلفاء قبلى ، والله لقد هممت أن آمر بضرب رقبتك! لا يبلغنى أنك آمتنعت من الغناء عند أحد، فوالله لئن آمتنعت لأضربَنّ عنقك! فأعتِقْ من كنت تملكه يوم حلفت، وطلّق من كان عندك يومئذ، وأرِحنا من يمينك هذه المشئومة، فقمت وأنا لا أعقِل جزعًا منه ، فأعتقت جميع ما كان بقى عندى من مماليكى الذين حلفت يومئذ وهم فى ملكى ثم تصدقت بجملة، وآستفتيت فى يمينى أبا يوسف القاضى حتى خرجت منها ، وغنّيت بعد ذلك إخوانى جميعا حتى آشتُهِر أمرى ، وبلغ المعتصم خبرى فتخلصت منه .

وروى أبو الفرج أيضا عن الصُّولىّ عن الحسين بن يحيى قال : قلت لعبد الله آبن العباس : إنه بلغنى لك خبرٌ مع الرشيد أوّل ما شُهِرتَ بالغناء فحدّثنى به، فقال: نعم أوّل صوت صنعته

أتانى يُؤَامرنى فى الصَّبو * حِ ليلاً فقلتُ له غادِها

فلما دار[1] لى وضربت عليه بالكنكلة عرضته على جارية[2] لنا يقال لها راحة ، فٱستحســنته وأخذته عنى ، وكانت تختلف إلى إبراهيم الموصلى فسمعها يوما تغنّيــه وتناغى[3] به جارية من جواريه ، فاستعادها إياه فأعادته ، فقال : لمن هذا الصوت؟ قالت : صوتٌ قديم ، قال : كذبتِ ، لو كان قديمـا لعرفتُه ، وما زال يداريها ويتغاضب عليهـا حتى ٱعترفت له أنه من صَنعتى ، فعجِب من ذلك ، ثم غنّاه يوما بحضرة الرشيد ليُغْرب به على المغنّين ، فاستحسنه الرشيدُ فقال له : لمن هذا ياإبراهيم؟ فأمسك عن الجواب وخشِى أن يكذِبه فينمِى إليه الخبرُ من غيره ، وخاف من جَدّى إن يصدُقْه ، فقال له : مالك لا تجيبنى؟ قال : ما يمكننى يا أمير المؤمنين ، فاستراب بالقصّة ، فأقسم الرشيدُ أنه إن لم يعرّفه عاقَبه عقوبة تُوجعه ، وتوهّم أنه لعُلَيّة بنت المهدىّ أو لبعض حُرَمه فاستطير غضبا ، فلما رأى إبراهيم الجدّ منه صـدَقه فيما بينه وبينه سرّا ، فدعا لوقته بالفضل بن الربيع وقال له : أيصنع ولدك غناءً يرويه الناس ولا تعرّفنى ! فجزِع وحلف بحياته وبيعته أنه ما عرف ذلك قطّ ولا سمع به إلا فى وقته ذلك ، وساق باقى الخبر نحو ما تقدم .

قال عبد الله بن العباس : دخل محمد بن عبد الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه أغنيه وقد ٱستعادنى صوتا فأعدته ، فٱستحسنه عبد الملك [وقال :][4] هذا والله يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه وإصغائك إليه ، فقال : أجَلْ ، هذا والله مولاى وٱبن موالىّ لا يعرفون غير ذلك ، فقال : ليس كلّ مولى يا أمير المؤمنــين مولى لمواليه ، ولا كل مولى يُتَجَمَّل بولائه يجمع ما جمعه عبـد الله من ظَرْفٍ وأدب

---

(١) فى الأغانى : تأتى لى . (٢) كذا فى الاغانى وفى الاصل : جارة .

(٣) كذا فى الاغانى ، وفى الاصل : تغانى .

(٤) زيادة نراها لازمة .

وصِحّة عقل وفضل علم وجودة شعر، فقال له : صدقت يا محمد . فلما كان من الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكرًا لحسن محضره، فقلت فى أضعاف كلامى : وأفرط الوزير، أعزّه الله تعالى، فى وصفى وتقريظى بكل شىء حتى وصفنى بجودة الشعر، وليس ذلك عندى وإنما أعبث بالبيتين والثلاثة، ولو كان عندى أيضا شىء من ذلك لصغُر عن أن يصفه الوزير ويحكيه فى هذا المجلس الرفيع المشهور، فقال: والله يا أخى لو عرفتَ مقدار قولك

يا شادنًا رام إذ مـ * ـرّ فى الشّعانينِ[1] قَتلِي
يقولُ لى: كيف أصبحـ * ـتَ؟ كيف يُصبِحُ مِثلِي

لما قلتَ هذا القول، والله لو لم يكن لك شعر فى عمرك إلا قولك : "كيف يصبح مثلى" لكنت شاعرا مُجيدا . وهذا الشعر قاله عبد الله بن العباس فى نَصرانيّة كان يهواها ولا يصل إليها إلا إذا خرجت إلى البِيعة . وله معها أخبار وأشعار له فيها أصوات، منها قوله

إن فِي القلبِ مِن الظَّبيِ كُلُومْ * فدَعِ اللَّوْمَ فإنّ اللَّوْمَ لُومْ
حَبّذَا يومُ الشّعانِينِ ومَا * نلتُ فيه من نعيم لو يدوم
إن أكُنْ أعظَمتُ أن هِمْتُ به * فالذى تركب من عَذْلِى عظيمْ
لم أكنْ أوّلَ مَن سنّ الهوى * فدعِ العَذْلَ فَذَا داءٌ قَدِيمْ

وروى أبو الفرج بسنده إلى محمد بن جُبَير قال : كنّا عند أبى عيسى بن الرشيد فى زمن ربيع وعندنا مُخارق وعلويهِ وعبد الله بن العبّاس الربيعىّ وعبد الله بن الحارث بن بشخير ونحن مصطبحون فى طارمة مضروبة على بستانه وقد تَفَتّح فيه ورد وياسَمين وشقائق والسماء متغيّمة غيما مطبقا وقد بدأت ترشّ رشًّا ساكنا ،

(١) الشعانين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

فنحن فى أكمل نشاط وأحسن يوم إذ خرجت قيِّمةُ دار أبى عيسى فقالت : ياسيدى قد جاءت عساليج، قال : تخرج إلينا فليس بحضرتنا من تحتشمه، قال : فخرجت إلينا جارية شَكِلة حُلوة حسنة العقل والهيئة والأدب فى يدها عُود فسلمت، وأمرها أبو عيسى بالجلوس فجلست، وغنى القوم حتى آنتهى الدور إليها وظننّا أنها لا تصنع شيئا وخِفنا أن تهابنا فتَحْصَرَ، فغنّت غناءً حسنا مُطرِبا مُتقَنا، لم تدع أحدا ممن حضر إلا غنّت صوتا من صَنعتــه فأدّته على غاية الإحكام ، فطرِبنا وآستحسنّا غناءهــا وخاطبناها بالآستحسان، وألحّ عبد الله بن العباس من بيننا بالآقتراح عليهــا والمِزاح معها والنظر إليها، فقال أبو عيسى : عشقتَها وحياتى يا عبد الله، فقــال : لا والله يا سيدى، وحياتك ما عشقتها، ولكن آستملحت كل ما شاهدته منها من منظر وشكل وعقل وعشرة وغناء، فقال له : ويحك ! فهذا والله هو العشق وسببه، ورُبَّ جِدّ جرّه اللعب ؛ قال : وشربنا ، فلما غلب النبيــذ على عبــد الله غنّى أهزاجا قديمة وحديثة، وغنى فيما بينها هزجا فى شعر قاله فيها لوقته، فما فطِن له إلا أبو عيسى، وهو

نطق المكتوم منّى فبَــدَا * كم ترى المكتومَ منّى لا يِضحْ
سحــرُ عَينيـكِ إذا ما رَنَتَـا * لم يدعْ ذا صَبْوةٍ أو يفتضحْ
ملكتْ قلبـا فأمسى غَلِقـا[1] * عنــدها صبّابهـا لم يســترح
بجمـالٍ وغنــاءٍ حَسَنٍ * جلّ عن أن ينتقيه[2] المقــترح
أورث القلبَ هموماً ولقــد * كنتُ مسرورا بمرآه فرِح
ولكمْ مُغْتَبِقٍ هَمًّـا وقــد * باكر اللهــوَ بُكُورَ المصطَبِحْ

(١) كذا فى الأغانى، وفى الأصل :

ملكت نفسى وأمسى علقا * عنــدنا صبابها لم يســترح

(٢) كذا فى الاغانى، وفى الاصل : يقتفيه .

فقال له أبو عيسى : فعلْتَها والله يا عبد الله، صحّ والله قولى لك فى عساليج وأنت تكابر حتى فضحك السكر، فجحد وقال : هذا غناء كنت أرويه، فحلف أبو عيسى أنه ما قاله ولا غنّاه إلا فى يومه، وقال له : آحلف بحياتى أن الأمر ليس هو كذلك، فلم يفعل ، فقال أبو عيسى : والله لو كانت لى لوهبتها لك ، ولكنها لآل يحيى آبن معاذ، ووالله إن باعوها لأُمَلِّكَنَّك إياها ولو بكلّ ما أملك ، ووحياتى لتَنصرِفنّ قبلك إلى منزلك ، ثم دعا بحافظتها وخادما من خدمه فوجّه بها معهما إلى منزله ، وآلتوى عبد الله قليلا وتجلّد ثم آنصرف ، وآتصل الأمر بينهما بعد ذلك فآشترتها عمّته رُقيّة بنت الفضل بن الربيع من آل يحيى بن معاذ، وكانت عندهم حتى ماتت. قال : وقالت بَذْلُ الكبيرةُ لعبد الله بن العبّاس : قد بلغنى أنك عشِقت جارية آسمها عساليج فآعرِضها علىّ فإما أن عذرتك أو عذلتك، فوجّه إليها فحضرتْ، وقال لبَذْل : هذه هى يا سيدتى فآسمعى وآنظُرى ثم مُرينى بما شئتِ أُطِعْك ، فأقبلت عليه عساليج وقالت : يا عبد الله أتشاور فىّ! فوالله ما شاورت فيك لمّا صحِبتك، فقالت بذْل : أحسنت والله ياصبيّة ولو لم تُحْسِنِي شيئا وكانت فيك خَصلة تُحمَد لوجب أن تُعشَق لهذه الكلمة ، ثم قالت لعبد الله : ما ضيّعتَ، آحتفظْ بصاحبتك هذه .

وقال حمدون بن إسماعيل : دخلت يوما على عبد الله بن العبّاس الربيعىّ وخادم له يسقيه، وبيده عُود وهو يغنّى

إذا آصطبحتُ ثلاثا * وكان عُودى نديمى

والكأس تضحك ضِحْكا[1] * من كف ظَبْيٍ رَخيمِ

فما عَلىّ طريقٌ * لطارقاتِ الهُمومِ

---

(١) فى الأغانى : تغرب .

فما رأيت أحسنَ مما حكى حالهُ فى غنائه ولا سمعت أحسن مما غنّى . ومن صنعته وشعره قوله

صـدَع البينُ الفـؤادا * إذ به الصـائحُ نادى
بينما الأحبـابُ مجمـو * عون إذ صاروا فُرَادى
فأتى بعـضٌ بـلاداً * وأتى بعـضٌ بِـلادا ٥
كُلَّما قلت تنـاهى * حَدَثانُ[1] الدّهر زادا

ذكر أخبار وجه القرعة

هو أبو جعفر محمد بن حمزة بن نصير الوصيف مولى المنصور ويلقّب وجهَ القَرعة، أحد المغنّين الحُذّاق الضُّرّاب الرواة، أخذ الغناء عن إبراهيم الموصلىّ وطبقته، وكان حسن الأداء طيّب الصوت لا علّة فيه، إلا أنه كان إذا غنى الهزج خاصّة خرج ١٠ لا لسبب يُعرف إلا أنه [إنْ][2] تعرّض للحنين فى جِنس من الأجناس فلا يصح له البتّة .

وروى أبو الفرج بسنده عن محمد الهاشمىّ أنه شهد إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ عند عمه هارون بن عيسى وعنده محمد بن الحسن بن مُصعَب، قال : فأتانا محمد بن حمزة وجه القرعة، وكان شَرِس الأخلاق أبىّ النفس، وكان إذا سُئل الغناء أباه ١٥ فإذا أُمسِك عنه كان هو المبتدئ به، فأمسكنا عنه حتى طلب العُود فأُتِى به فغنّى

مرّ بى سِربُ ظِباءِ * رائحاتٍ من قُبَاء

(١) هذه رواية الأغانى، وفى الأصل :
كلما قلت تناهت * حادثات الدهر زادا

(٢) زيادة فى الاعانى . ٢٠

زُمَرًا نحوَ المُصَلَّى * يتمشَّينَ حِذائى
فتجاسرتُ وألقيتُ * سرابيلَ الحيَاءِ
وقديمًا كان لَهْوِى * وفنونى بالنساءِ

قال : وكان يُحسنه ويجيده ، فجعل إسحاق يشرب ويستعيده حتى شرب ثلاثة أرطال ، ثم قال : أحسنت ياغلام ، هذا الغناء لى وأنت تتقدمنى فيه ! ولا يخلُق الغناء ما دام مثلك ينشأ فيه .

٥

وقال أيضا : كنا فى البستان المعروف ببستان خالص النَّصرانىّ ببغداد ، ومعنا محمد ابن حمزة وجه القرعة وهو يغنّينا

يا دارُ أَقفرَ رَسْمُها * بين المُحَصَّب والحَجُونِ
يا بِشْرُ إنى فٱعلَمى * والله مجتهِدًا يمينى
ما إن صَرَمْتُ حبالَكم * فَصِلِى حِبالى أو ذَرِينى

١٠

فإذا برجل راكب على حمار يؤمّنا وهو يصيح : أحسنت والله ! فقلنا : ٱصعَد إلينا كائنا من كنت ، فصعِد وقال : لو منعتمونى من الصعود لمـا ٱمتنعت ، ثم سفَرَ اللثام عن وجهه فاذا هو مُخارق ، فقال : ياأبا جعفر أعِدْ علىّ صوتك فأعاده ، وشرب رطلا من شرابنا وقال : لولا أنى مدعوّ الخليفة لأقمت عندكم وٱستمعت هذا الغناء الذى هو أحسن من النُّزهة غِبّ المطر .

١٥

وله مع إسحاق بن إبراهيم ومخارق أخبار شهدا له فيها بحسن الصَّنعة ، وكفاه ذلك فضلا فى صناعته .

ذكر أخبار محمد بن الحارث بن بشخير

(١٤) قال أبو الفرج الأصفهانى : هو من أهـل الرَّىّ مولى المنصور من ولد بَهْـرام شو بين مَرْزُبان الرىّ . قال : وهو مرتجل قليـل الصَّنعة حسن الغناء والنغم بقوة وشجا وآقتدار شديد على الغِناء، وكان فى زمانه أحد المعدودين فى حسن الأدب وتمام المُروءة وحسن الزِّىّ والآلة، وكان عظيم التِّيه رفيع الهـمّة، وكانت له منزلة عنـد المأمون . قال محمد بن الحارث : كنت مع المأمون وهو يريد بلاد الروم ومعه عدّة من المغنّين، فجلس يوما والمعتصم والعباس معه من حيث لا نراهم وهم يسمعون غناءنا، فغنى المغنُّون جميعا وغنّيت هزجا لإسماعيل بن جامع، فبعث إلىّ المأمونُ بأصـل شاهشفرم وقد لُفّ أصـله بمنديل حرير، فجاءنى به الغلام وقال : أعِد الصوت، فأخذته وشممته ووثبت فأعَدْته قائمـا، ووضعت الأصل بين يدىَّ وشربت رطلا وقلت للمغنّين : حكم لى أميرُ المؤمنين بالحِذْق والغِناء، فقالوا وكيف؟ قلت : دفع إلىّ لواء الغناء من بينكم، فقالوا : ليس كما ذكرت ولكن حيّاك إذ أطربته، والرسول قائم فآنصرف بالخبر، فما لبث أن رجع إلىّ فقال : هو كما ذكرت .

قال أبو العنبس بن حمـدون : كان محمد بن الحـارث أحسن خلق الله شمائل وإشارةً إذا غنّى . وقال أحمد بن حمدون : صنع محمد بن الحارث [هزجا فى هذا الشعر] [(١)]

أمسَيْتُ عبـدًا مُسترَقّا * أبكِى الأُولى سكنوا دِمَشْقَا

أعطيتُهـمْ قلبى فمَنْ * يبـقَى بلا قلبٍ فأبقَى!

وطرحه على المسدود الطُّنبورىّ فوقع له موقعا حسنا، وآستحسنه محمد منه فقال : أتحب أن أَهَبَه لك؟ قال : نعم، قال : قد فعلت، فكان المسدود يغنّيه ويدّعيه، وإنما هو لمحمد بن الحارث .

(١) زيادة من الأغانى .

قال محمد : لما قدم المأمون من خُراسان لم يشتَقْ مغنّيا بمدينة السلام غيرى ، فبعث إلىّ فكنت أنادمه سرّا ، ولم يظهر للندماء حتى ظفر بإبراهيم بن المهدىّ فلما عفا عنه ظهر للندماء .

ولمحمد بن الحارث شعر منه قوله

٥ ومن ظنّ أنّ التِّيهَ من فضلِ قَدْرِه(١) * فإنى رأيت التيهَ من صِغَر القَدْرِ
ولو كان ذَا عزٍّ ونفسٍ أبيّةٍ * لَغَضَّ الغنى منه وعزّ عن الفقرِ
رأى نفسَه لا تَسْتقِلُّ بحقِّها * فتَاهَ لنقصِ النفس أو قلّةِ الشكر

ذكر أخبار أحمد بن صدقة

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو أحمد بن صدقة بن أبى صدقة ، كان أبوه حجازيّا ١٠ مغنِّيا قدِم على الرشيد وغنّى له ؛ وقد ذكرنا أخباره فى النوادر من كتابنا هذا فلا حاجة بنا إلى إعادتها . وكان أحمد طُنبوريّا مُحسِنا مُقدَّمًا حاذِقا حسَنَ الغِناء مُحكَم الصَّنعة . قال : وله غناء كثير فى الأرمال والأهزاج وما يجرى مجراها من غناء الطُّنبوريّين . وكان ينزل الشأم . ووُصِف للمتوكل فأمر بإحضاره ، فقدِم عليه فغنّاه ، فآستحسن غناءه وآجزل صِلته . وآشتهاه الناس وكثُر من يدعوه ، فكسب بذلك أكثر مما ١٥ كسبه مع المتوكل أضعافا .

وروى أبو الفرج عن أحمد بن صدقة قال : اجترت بخالد بن يزيد الكاتب فقلت له : أنشِدْنى بيتين من شعرك حتى أغنّى فيهما ، فقال : وأىُّ حظّ لى فى ذلك ، تأخذ أنت الجائزة وأحصل أنا على الإثم ! فحلفت أنى إن أخذت بشعره فائدة

(١) فى الأصل : قدرة .

جعلت له فيها حظّا وأذكرتُ به الخليفة وسألته فيه، فقال : أمّا الحظ من جهتــك فأنت أنذل من ذلك، ولكن عسى أن تُفلِح فى مسئلة الخليفة، وأنشدنى

تقول: سلا، فمَنِ المُدنَفُ * ومَن عينُــه أبدًا تذرِفُ؟
ومَن قلبُـــه قلِقٌ خافقٌ * عليــكَ وأحشاؤه ترجُف؟

فلما جلس المأمون للشرب دعانى، وكان قد غضِب على حَظِيّةٍ له فحضرتُ مع المغنّين، ٥ فلما طابتْ نفسه وجّهتْ إليه بتُفّاحةٍ من عنبر عليها مكتوب بالذهب: «يا سيدى سلوت»، وما علِم الله أنى عرفت شيئا مِن خبرهما، وآنتهى الدَّور إلىّ فغنّيت البيتين، فآحمرّ وجه المأمون وآنقلبت عيناه وقال: يا بن الفاعلة، لك علىّ وعلى حُرَمى صاحب (١٥) خبر؟ فوثبت وقلت : يا سيدى ما السبب؟ قال: من أين عرفت قِصّتى مع جاريتى حتى غنّيت فى معنى ما بيننا؟ فحلفت أنى لم أعرف شيئا من ذلك، وحدّثته بحديثى ١٠ مع خالد، فلما آنتهيت إلى قوله «أنت أنذل من ذلك» ضحك وقال : صدق، وعجب من هذا الآتّفاق، وأمر لى بخمسة آلاف درهم ولخالد بمثلها .

وروى عنه أيضا قال : دخلت على المأمون فى يوم الشعانين و بين يديه عشرون وصيفةً جَلَبٌ روميات مُزَنَّرات قد تزيّنّ بالديباج الرومىّ وعلّقن فى أعناقهن صُلبانا من الذهب وفى أيديهن الخوص والزيتون، فقــال لى المأمون : ويلك يا أحمــد! ١٥ قد قلتُ فى هؤلاء أبياتا فغنِّ بها، ثم أنشدنى

ظباءٌ كالدّنانيرِ * مِلاحٌ فى المَقَاصيرِ
جَلاهُنّ الشّعانينُ * علينا فى الزّنانِيـــرِ
وقد زَرْفَنّ(١) أَصداغًا * كأَذْنابِ الزرازير
وأقبلْنَ بأوســاطٍ * كاوســاط الزّنابير ٢٠

(١) زرْفَنَ صدغيه : جعلهما كالزُّرفين، وهو الحلقة .

لحفظته وغنّيته ، فلم يزل يشرب والوصائف يرقُصن بين يديه بأنواع الرقص من الدستبندا إلى الايلى حتى سكر ، وأمر لى بألف دينار وأمر بأن يُنــثَر على الجوارى ثلاثة آلاف دينار ، فقبضت الألف ونثرت ثلاثة آلاف الدينــار فآنتهبتها معهن .

قال : ولم يزل أحمد بالعراق حتى بلغه موت بُنَيَّة له بالشأم، فشخص نحو منزله ٥ وخرج عليه الأعراب فأخذوا ما معه وقتلوه .

ذكر أخبــار أبى حشيشة

قال أبوالفرج : أبوحشيشة لقب غلب عليه ، وهو محمد بن أبى أُميّة ويُكنى أبا جعفر. وكان أهله جميعا متّصلين بإبراهيم بن المهدى ، وكان هو من بينهم يغنّى بالطُّنبور أحسن الناس غناء، وخدم جماعة من الخلفاء أولهم المأمون ومَنْ بعده إلى المعتمد . قال : وكان ١٠ أكثر آنقطاعه إلى أبى أحمد بن الرشيد أيام حياته ، وكان أبوه وجدّه وأخواله كُتّابا .

قال أحمد بن جعفر جحظة فى ترجمــة أبى حشيشة : وكان له صَنعةٌ تقدّم فيهــا كلَّ طُنبوريّ لا أحاشى أحدا فى ذلك، قال : فمنها

كأنّ همومَ الناسِ فى الأرض كلّها * علىّ وقــلبى بينهـــم قلبُ واحدِ
ولى شاهـــدَا عدلٍ : سُهادٌ وَعبرةٌ * وكم مُدّعٍ للحبّ من غــير شاهـــدِ

١٥ قال جحظة : ورأيته بين يدى المعتمد على الله وقد غنّاه من شعر على بن محمــد ابن نصر

حُرِمتُ بذْلَ نَوالِكْ * وَاسَوْءتَا من فعالِكْ !
لمّــا ملكتَ وِصالى * آيَستَنى من وِصالِكْ

فوهب له مائتى دينار . قال : وغنّى يوما عند ابن المدَبّر بحضرة عُريب ، فقالت ٢٠ له : أحسنت يا أبا جعفر، ولو عاش الشيخان ما قلتُ لهاهذا ، تعنى عَلَوْيهِ ومُخارق .

وقال أبو الفرج : إن أبا حشيشة ألّف كتابا جمع فيه أخباره مع من عاشر وخدم من الخلفاء ، قال : وهو كتاب مشهور، قال : أول من سمعنى من الخلفاء المأمون، وصفنى له مُخارق فأمر بإشخاصى إليه وأمر لى بألف درهم أتجهّز بها ، فلما وصلت إليــه أدنانى وأُعجِب بى، وقال للمعتصم : هــذا أثر خدمك وخدم آبائك وأجدادك يا أبا إسحاق . وذكر ما كان يشتهيه عليه كلُّ خليفة ، فقال : كان المأمون يشتهى من غنـائى

كان يَنْهَى فنَهِى حتى [سلا] (١) * وانجلت عنه غَيايات الصِّبا
خلع اللَّهوَ وأضحى مُســبِلًا * للنُّهىٰ فضــل قَميص ورِدَا

قال : وكان المعتصم يشتهى علىّ

أسرفتَ فى سُوء الصَّنيع * وفتكْتَ بى فتْكَ الخليع
ووَلِعتَ بى مُتَمَــرِّدًا * والعذرُ فى طُرُق الوُلوعِ
صــيّرتُ حبّك شافعــا * فأُتيتُ من قِبَل الشفيع

قال : وكان الواثق يختار من غِنائى

يا تاركى مُتــلَذِّذَ الـ * ـعُذّالِ جذلانَ الُفراتِ
انظُـرْ إلىّ بعــينِ را * ضٍ نظرةً قبل الممـاتِ
حلّيتَنى بــين الوعيـ * ـدو بين ألسِنَة الوُشاةِ!
ماذا يُرجّى بالحيــا * ة منغَّصٌ رُوح الحياةِ!

قال : وكان المتوكل يحبّنى و يستخفّنى ،وكانت أغانيه التى يشتهيها علىّ كثيرة ، منها

أطعتَ الهوى وخلعتَ العِذارَا * و باكرتَ بعــد المراح العُقارا

(١) آخر الشطر الأوّل من البيت مفقود من الأصل ، ولم نوفق اليــه حين التصحيح ، فلعل الكلمة التى وضعناها تكون قريبة من الأصل .

ونازعك الكأسَ من هاشمٍ * كريمٌ يُحِبّ عليها الوَقارا
فتًى فرّق الحمدُ أموالَه * يجُرّ القميصَ ويُرخى الإزارا
رأى اللهُ جعفرَ خيرَ الأنامِ * فملّكه ووَقاهُ الحذارا

قال: وكان المستعين يشتهى علىّ

٥ وما أَنْسَ لا أنسَ منها الخُشوعَ * وفيضَ الدُّموعِ وغَمْزَ اليَدِ
وخَدّى مضافٌ إلى خَدّها * قيامًا إلى الصُّبحِ لم نرقُدِ

قال: وآشتهى علىّ المعتمد

قلبى يُحبُّكِ يا منى * قلبى، ويُبغِض مَن يُحبُّكْ
لأكونَ فردًا فى هوا * كِ، فليتَ شعرى كيفَ قلبُكْ؟

١٠ قال جحظة: وكانت وفاة أبى حشيشة بسُرّ مَن رأى، وسببها أنه آصطبح عند قَلَم غلام الفضل بن كاوُش فى يوم بارد فقال له: أنا لا آكل إلا طعاما حارّا فأتاه بفجْليّة باردة وقال: تساعدنى وتأكل معى، فأكل منها نخمد قلبه فمات.

ذكر أخبار القيان

وأوّل منْ غنّى من النساء ومن آشتهر بالغناء منهن فى الإسلام

١٥ قالوا: أول من غنّى الغناء العربىّ جَرَادتا آبن جُدْعان. قال أبو الفرج الأصفهانىّ: قال آبن الكلبى: كان لآبن جُدعان أمَتان يُسمَّيان الجرادتين يُغنّيان فى الجاهليّة وسمّاهما جرادتى عاد[1]، ووهبهما عبدُ الله بن جُدْعان لأُمَيّة بن أبى الصَّلْت الثّقفىّ، وكان قد آمتدحه. وابن جُدعان هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مُرّة بن كعب بن لُؤىّ بن غالب؛ كان سيّدا جوادا، فرأى أُمَيَّةَ ينظر

٢٠ (١) فى الأغانى: عاد.

إلى الجرادتين وهو عنده فأعطاه إياهما . وقد قيل فى سبب إعطائه إياهما : إن أُمَيّة ابن أبى الصلْت قدِم عليه فقال له عبد الله : أمْرٌ ما أتى بك ؟ فقال أُمَيّة : كلاب غرماء قد نبحتنى ونهشتنى ، فقال له عبد الله : قدِمتَ علىّ وأنا عليل وحقوق لحقتنى ولزمتنى ، فأَنْظِرنى قليلا وقد ضمنتُ قضاءَ دينك فلا أسألك عن مبلغه ، قال : فأقام أمية أياما ثم أتاه فقال

أأذكر حاجتى أم قد كفانى * حياؤك إن شيمتَك الحياءُ
وعلمُك بالأمورِ وأنت قَرْمٌ * لك الحسبُ المهذَّبُ والسَّناءُ
كريمٌ لا يُغيِّره صباحٌ * عن الخُلُقِ الكريم ولا مَساءُ
تُبارِى الريحَ مَكْرُمةً ومجدًا * إذا ما الكلبُ أَجْحره الشِّتاءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يومًا * كفاه من تعرضك(1) الثناء
إذا خلّفت عبدَ الله فاعلَمْ * بأن القومَ ليس لهم جَزاءُ
فأَرْضُك كلّ مَكْرُمةٍ بنَتْها * بنو تَيمٍ وأنت لهم سَماءُ
وهل تَخْفَى السماءُ على بَصيرٍ ! * وهل بالشمسِ طالعةً خَفاءُ !

فلما أنشده أُميّةُ هذا الشعر كانت عنده قينتان ، فقال لأُميّة : خذ أيتهما شئت ، فأخذ إحداهما وآنصرف(2) ، فمر بمجلس من مجالس قريش فلاموه على أخذها ، وقالوا له : لقد ألفيتَه عليلا فلو رددْتَها عليه ! فإن الشيخ محتاج إلى خدمتها فكان ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كلّ حقّ ضِمنه ، فوقع الكلام من أُميّة موقعا وندِم ، فرجع إليه ليردّها عليه ، فلما أتاه بها قال آبن جُدْعان : لعلك إنما رددتَها لأن قريشا لاموك

(١) فى الأغانى : تعرّضه .

(٢) كذا بالأغانى ، وفى الأصل : قال لأمية : خذ إحداهما أيهما شئت فأخذها وآنصرف الخ .

على أخذها ، وذكر لأُميّة ما قال القوم ، فقال أميّةُ : والله ما أخطأتَ يا أبا زهير،
قال : فما الذى قلتَ فى ذلك؟ فقال

(١٧)

عطاؤُك زَيْنٌ لآمرئٍ إن حبَوْتَه * ببَـذْلٍ وما كلُّ العطاءِ يَزِينُ
وليس بشَيْنٍ لآمرئٍ بذْلُ وجهِهِ * إليك كما بعضُ السؤالِ يَشِينُ

٥ فقال عبد الله لأميّة : خذ الأخرى ، فأخذهما جميعا وخرج ، فلما أن صار إلى القوم
بهما أنشأ يقول

ومالى لا أُحَيِّيه وعنـدى * مواهبُ قد طلَعْنَ من النجادِ
لأبيض من بنى عمرِو بنِ تَيْمٍ * وهم كالمَشْرَفيّاتِ الحِـدادِ
لِكلّ قَبيـلةٍ هادٍ ورأْسٌ * وأنت الرأسُ تقدُمُ كلَّ هادِ
١٠ عِمادا لخَيْف قد علمت معَدٌّ * وإن البيت يُرفَع بالعِماد
له داعٍ بمكّة مُشْـمَعِلٌّ * وآخرُ فوق دارَتِه يُنادِى
إلى رُدُحٍ من الشِّيزَى مِلاءٍ * لُبَابَ البُرِّ يُلْبَـكُ بالشِّهادِ

وكان سبب قول أميّة بن أبى الصلت هذا الشعر أن عبد الله بن جُدعان وفد على
كِسْرى فأكل عنده الفالُوذ، فسأل عنه فقيل له : هذا الفالوذ، قال : وبم يصنع؟
١٥ قيل : لُباب البُرّ يلبك مع عسل النحل، قال : آبغونى غلاما يصنعه، فأتَوْه بغلام يصنعه
فابتاعه، ثم قدِم به مكّة فأمره أن يصنع الفالوذ ففعل، ثم وضع الموائد من الأبطح
إلى باب المسـجد ، ثم نادى مناديه : ألَا من أراد الفالُوذ فليحضُرْ، فحضره الناس،
وكان فيمن حضر أمية بن أبى الصلْت فقال الأبيات . وقال فيه أيضا

ذُكِر آبنُ جُدْعانٍ بخيـ * ـرٍ كلّما ذُكِر الكِرامُ
٢٠ من لا يخون ولا يَعُـقُّ * ولا يُخَـلّه الأَنامُ
يَهَبُ النجيبـةَ والنجيبَ * له الـرِّحالةُ والزِّمامُ

وآبن جُدعان ممن ترك شرب الخمر فى الجاهلية ، وقد تقدّم ذكره . وهجاه دُرَيْد ابن الصِّمّة بشعر، فلقيه بعد ذلك عبدُ الله بسُوق عُكاظ، فحيّاه وقال : هل تعرفنى يا دريد ؟ قال : لا، قال : فلِمَ هجوتنى؟ قال : ومن أنت ؟ قال : عبـدُ الله بن جدعان، قال هجوتك لأنك كنت أَمْرَأً كريما فأحببتُ أن أضع شعرى موضعه، فقال له عبدالله : لئن كنت هجوت لقد مدحت، وكساه وحمله على ناقة برَحْلها، فقال دريد ٥

إليـكَ ابنَ جُدْعانَ أعملتُهـا * مُخَفَّفَـةً للسُّرَى والنَّصَبْ
فلا خفْضَ حتى تلاقى آمرأً * جوادَ الرِّضَى وحليمَ الغَضَبْ
وجَلْدًا إذا الحربُ مرّت به * يُعين عليهـا بجَـزْلِ الحطَبْ
وجُلْتُ البلادَ فمـا إن أرى * شبيهَ ابنِ جُدْعانَ وسْطَ العرَبْ
سـوى ملِكٍ شـامخٍ مُلْكُه * له البحرُ يجرى وعَيْنُ الذَّهَبْ ١٠

وأخبار ابن جُدعان كثيرة وسيادته فى الجاهلية مشهورة ليس هذا موضع إيرادها، وإنمـا أوردنا ما أوردنا منها فى هذا الموضع على سبيل الآستطراد ، فالشئ بالشيء يذكر . فلنرجع إلى أخبار القِيان .

ذكر أخبار جميـــلة

هى جميلة مولاة بنى سُلَيم ثم مولاة بَطْن منهـم يقال لهم بنو بَهْز، وكان لها زوج ١٥ من موالى بنى الحارث بن الخَزْرَج، وكان ينزل فيهم فغلب عليها وَلاءُ زوجها فقيل لهـا مولاة الأنصار . وقد قيل : إنها كانت لرجل من الأنصار ينزل بالسُّنْح، وقيل : كانت مولاة الحجّاج بن عِلَاط السُّلَمىّ . قال أبو الفرج الأصفهانىّ : وهى أصل من أُصول الغناء، أخذ عنها معبَد وآبن عائشة وحَبَابة وسلّامة وعقيلة والعتيقة وغيرهم . وفيها يقول عبد الرحمن بن أَرْطاة ٢٠

إن الدَّلالَ وحُسنَ الغنا * ءِوسْطَ بيوتِ بنى الخَزْرَجِ
وتِلْكُمْ جميلةُ زَيْنُ النساء * إذا هى تردان للمَخْرَجِ
إذا جئتها بذلَتْ وُدَّها * بوجْهٍ مُنيرٍ لها أبلَجِ

قال : وكانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء . وكان معبد يقول : أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنّين . قال : وسئلت جميلة : أنّى لك هذا الغناء؟ قالت : والله ما هو إلهام ولا تعليم ، ولكنّ أبا جعفر سائب خاثر كان جارنا وكنت أسمعه يغنّى و يضرب بالعود فلا أفهمه ، فأخذت تلك النغمات و بنيت عليها غنائى فجاءت أجود من تأليف ذلك الغناء ، فَعَلِمْتُ وألقيت ، فسمعنى مَوْلَيَاتى يوما وأنا أُغنّى سرّا ففهِمْنَنِى ودخلْنَ علىّ وقلن : قد علِمْنا ما تكتُمين وأقسمن علىّ ، فرفعت صوتى وغنيتُهنّ بشعر زُهَير بن أبى سُلْمى

وما ذكرتُك إلا هِجْتِ لى طرَباً * إن المُحبّ ببعض الأمرِ مَعذورُ
ليس المحبُّ كَمَنْ إن شطّ غيّره * هجرُ الحبيب ، وفى الهِجْرانِ تغييرُ

فحينئذ شاع أمرى وظهر ذكرى وقصدنى الناس وجلست للتعليم فكان الجوارى يكثُرْنَ عندى ، وربما انصرف أكثرهنّ ولم يأخذْنَ شيئا سوى[(١)] ما سمعنى أطارح غيرهن ، وقد كسَبت لموالىّ ما لم يخطر لهم ببال ، وأهل[(٢)] ذلك كانوا وكنت . وقد أقرّ لجميلة كلُّ مكىّ ومدنىّ من المغنين . قال : ولما قدِم ابن سُرَيج والغَريض وابن مِسْجَح وسَلم بن مُحْرِز المدينةَ واجتمعوا هم ومعبد وابن عائشة حكّموها بينهم ، واجتمعوا عندها وصنع كلُّ منهم صوتا وغنّاه بحضرتها ، وقد ذكر الأصفَهانى الأصوات ، فلما سمعت الأصوات قالت : كلّكم مُحسِن مُجيد فى غِنائه ومذهبه ، قال ابن عائشة : ليس هذا بمُقْنِع ، قالت : أمّا أنت يا أبا يحيى فتُضحِك الثّكلى بحسن صوتك ومشاكلته النفوسَ ،

(١) كذا فى الأغانى ، وفى الأصل : شيئا مما سمعنى . (٢) كذا فى الأغانى ؛ وفى الأصل : وأصل .

وأما أنت يا أبا عُبادَة فنَسِيجُ وحْدِه بتأليفك[1] وحسن نظمك وعذوبة غنائك ، وأما أنت يا أبا عُثمان فلك أوّليّــة هذا الأمر وفضله ، وأما أنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلُح ، وأما أنت يا أبا الخطّاب فلو قدّمتُ أحدا على نفسى لقدّمتك ، وأما أنت يامولى العَبَلات فلو ٱبتدأتَ قدّمتك عليهم . ثم سألوها جميعا أن تغنّيهم لحنا كما غنَّوْا فغنّتهم ، فكلهم أقرّوا لهـا وفضّلوها . ٥

وكانت جميلة قد آلت أنها لا تغنّى أحدا إلّا فى منزلها ، فكان عبد الله بن جعفر يأتيها فى مجلسها فيجلس عنـدها وتغنّيه ، فأرادت أن تكفّر عن يمينها وتأتيه فتغنيه فى بيته ، فقال : لا أُكلّفك ذلك .

وروى الأصفهانى أن ٱبن أبى عَتِيق وٱبن أبى رَبيعة والأحْوَص بن محمـد الأنصارى أتَوْا منزل جميلة واستأذنوا عليها فأذِنت لهم ، فلما جلسوا سألت عن عمر ، ١٠ فقال لهـا : إنى قصدتك من مكّة للسلام عليـك ، فقالت : أهل الفضل أنت ، قال : وقد أحببت أن تُفَرِّغى لنا نفسَك اليوم وتُخْلِى مجلسك ، قالت : أفعلُ ، فقال لها الأحوص : أحبّ ألّا تغنِّى إلا بما نسألك ، فقالت : ليس المجلس لك ، القوم شركاؤك ، فقال : أجَلْ ، قال عمر : فإنى أرى أن نجعـل الخِيار إليهـا ، قال ٱبن أبى عتيق : وفّقك الله ، فَدعتْ بعُود فغنّت ١٥

تمشِى الهُوَيْنَى إذا مشتْ فُضُلًا * مشْىَ النَّزِيفِ المخمورِ فى الصُّعُدِ
تظَلّ من بعـدِ بيتِ جارتها * واضِـعةً كفَّها على الكَبِدِ
يا مَن لِقلبٍ مُتيَّمٍ سَـدِمٍ * عانٍ رهينٍ مُكلَّمٍ كَمِـدِ
أزجُره وهو غـيرُ مُنزَجِرٍ * عنهـا بطَرْفٍ مُكَحّل السَّهَدِ

قال راوى هذه الحكاية : فلقد سمعتُ للبيتِ زَلْزلةً وللدار هَمْهَمة ، فقال عمر : ٢٠ لله دَرُّكِ ياجميلة ! ماذا أُعطيتِ ! أنت أوّلُ الغناء وآخرُه ! ثم سكتت ساعة وأخذت

(١) فى الأغانى : بجودة تأليفك .

العُود فغنّت، فطرب القوم وصفقوا بأيديهم وفحَصُوا بأرجلهم وحرّكوا رءوسهم، وقالوا: نحن فداؤك من المكروه، ما أحسَنَ ما غنّيتِ وأَجْمَلَ ماقلتِ! وأُحضِر الغَداء فتغدّى القوم بأنواع من الأطعمة ومن الفواكه، ثم دعتْ بأنواع الأشربة، فقال عمر: لا أشرب، وقال آبن أبى عتيق مثل ذلك، فقال الأحوص: لكنّى أشرب، وما جزاء جميلة أن يُمْتَنعَ من شرابها! فقال عمر: ليس ذاك كما ظَنَنْت، فقالت جميلة: من شاء أن يحمِلنى بنفسه ويخالِط رُوحه برُوحى فعل، ومن أبى ذلك عذَرناه، ولم يمنعه ذلك عندنا ما يريد من قضاء حوائجه والأُنْس بمحادثته، قال آبن أبى عتيق: مايَحْسُن بنا إلا مساعدتُك، فقال عمر: إنى لا أكون أخسَّكم، افعلوا ماشئتم تجدونى سامعا مطيعا، فشرب القوم أجمع فغنّت بشعر آبن أبى ربيعة

ولقد قالت لجاراتٍ لها * كالمَهى يلعبْنَ فى حُجْرتِها
خُذْنَ عنّى الظلَّ لا يتبَعُنى * ومضَتْ تسعى إلى قُبَّتِها
لم تُعَلَّق رجلا فيما مضى * طَفْلَةٌ غَيْـداءُ فى حُلّتِها
لم يَطِشْ قطُّ لها سهمٌ ومَنْ * تَرمِهِ لا ينجُ من رَمْيَتِها

فصاح عمر ثم شقّ جيب قميصه إلى أسفله، ثم ثاب إليه عقله فندِم واعتذر وقال: لم أملك من نفسى شيئا، وقال القوم: قد أصابنا الذى أصابك وأُغْمِى علينا غيرَ أننا قد فارقناك فى تخريق الثياب، فدعتْ جميلةُ بثياب فجعلتها على عمر فقَبِلها ولبسها، وآنصرف القوم إلى منازلهم، وكان عمر نازلا على آبن أبى عتيق، فوجّه إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب كانت معه فقبِلتها جميلة، وآنصرف عمر إلى مكّة جذلان مسرورا.

وروى أبو الفرج بأسانيد رفعها إلى يونس الكاتب والزبير بن بكّار عن عمه مُصْعَب قالا: حجّت جميلةُ فخرج معها من الرجال المغنّين والنساء والأشراف وغيرهم

جماعةٌ ذكرهم أبو الفرج، منهم من المغنّين هِنْب وطُوَيْس والدلّال ومعبد ومالك بن أبي السَّمح وآبن عائشة ونافع الخير ونافع بن طُنْبُورة وغيرُ هؤلاء ممن ذكرهم، ومن النساء المغنيات جماعة ذكرهنّ، منهن الفَرِهَة وعَزّة المَيْلاء وحَبابة وسلّامة وخُلَيْدة وعَقيلة والشمّاسيّة وفَرعة ونَبيلة ولذّة العيش وسَعيدة والزّرقاء، ومن غير المغنين من الأشراف ابن أبي عتيق والأحْوص وكُثَيّر عزّة ونُصَيْب، وجماعة من الأشراف الرجال والنساء. وحجّ معها من القِيان مُشَيِّعات لها ومعظِّمات لقدرها خمسون قينةً وجّه بهنّ مواليهنّ معها وأعطَوْهنّ النفقات وحملوهنّ على الإبل في الهوادج والقِباب وغير ذلك، فأبتْ جميلةُ أن تُنفق واحدةٌ منهنّ درهما فما فوقه حتى يَرجِعْن. قال: وتخاير من خرج معها في آتّخاذ أنواع اللّباس العجيب والهوادج والقباب. قال: ولما قاربوا مكّة تلقّاهم سعيد بن مِسْجَح وابن سُرَيج والغَرِيض وآبن مُحْرِز والهُذَليّون وجماعة من المغنّين من أهل مكّة وفتيانٌ كثير[(١)]، ومن غير المغنّين عمرُ بن أبي ربيعة والحارث ابن خالد المخزوميّ والعَرْجيّ وجماعةٌ من الأشراف، فدخلت جميلةُ مكّة وما بالحجاز مغنٍّ حاذق ولا مغنّية إلا وهو معها وجماعة من الأشراف [ممن سمّينا وغيرهم من الرجال والنساء، وخرج أبناء أهل مكة من][(٢)] الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحُسنِ هيئتهم، فلما قضت حجها سألها المكّيون أن تجعل لهم مجلسا، فقالت: للغناء أم للحديث؟ فقالوا: لهما جميعا، قالت: ما كنت لأَخلِطَ جِدًّا بهَزْل، وأبتْ أن تجلس للغناء، فقال عمر بن أبي ربيعة: أقسمتُ على من كان في قلبه حُبٌّ لسماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة فإني خارج معها، فخرجَتْ في جمْع كثير من الأشراف وغيرهم أكثر من جمعها بالمدينة. فلما قدِمت المدينَة تلقّاها الناس والأشرافُ من الرجال والنساء فدخلت بأحسنَ مما خرجت منها، وخرج الرجال والنساء فوقفوا على

(١) في الاغاني: وقيان كثيرة لم يُسَمَّين الخ (٢) زيادة من الأغاني.

أبواب دُورهم ينظرون إلى جَمْعها و إلى القادمين معها، فلمّا دخلت إلى منزلها وتفرّق الناس إلى منازلهم ونزل أهلُ مكة على أقاربهم و إخوانهم أتاها الناس مُسَلِّمين، وما آستنكف من ذلك صغير ولا كبير، فلما مضى لمَقْدَمها عشرةُ أيام جلست للغناء. وقالت لعمر بن أبى ربيعة: إنى جالسة لك ولأصحابك، فإذا شئتَ فَعِد الناس، فغُصّت الدار بالأشراف من الرجال والنساء، وآبتدأت جميلةُ فغنّت بشعر لعمر بن أبى ربيعة

هيهاتَ من أَمَة الرّحمٰنِ منزلنا[1] * إذا حَلَلْنا بسِيف البحرِ من عَدَنِ
وآحتلَّ أهلُك أجيادًا فليس لنا * إلا التّذكُّرُ[2] أو حظٌّ[3] من الحَزَنِ
لو أنّها أبصرتْ بالجِزْع عَبْرَتَهُ * وقد تغرَّدَ قُمْرِىٌّ على فَنَنِ
إذًا رأتْ غيرَ ما ظنّتْ بصاحبها * وأيقنَتْ أنّ لَحْجًا ليس من وَطَنِى
ما أنسَ لا أنسَ يومَ الخَيْفِ موقِفَها * وموقفى وكِلَانا ثَمَّ ذو شَجَنِ
وقولَها للثُّرَيّا وهى باكيةٌ * والدمعُ منها على الخدّينِ ذُو سُنَنِ:
باللهِ قُولى له من غيرِ مَعْتَبةٍ: * ماذا أردتَ بطُول المُكْثِ فى اليَمَنِ؟
إن كنتَ حاولتَ دِينًا أو ظَفِرتَ به * فما أصبْتَ بترك الحجِّ من ثَمَنِ

فكلهم آستحسن الغناء، وضجّ القوم لحسن ما سمعوا، و بكى عمر حتى جرت دموعه على ثيابه ولِحْيته، ثم أقبلت على آبن سُرَيج فقالت: هات، فغنَّى صوته بشعر لعمر

أليسَتْ بالّتى قالت * لمولاةٍ لها ظُهُرَا:
أشيرِى بالسّلامِ له * إذا ما نَحْوَنا نَظَرا
وقُولِى فى مُلَاطفةٍ * لزينبَ نَوِّلى عُمَرا
وهذا سِحْرُكِ النِّسوا * نَ قد خبّرننى الخَبَرا

(١) كذا فى الأغانى وديوان عمر بن أبى ربيعة، وفى الأصل: منزلها.
(٢) كذا فى الأغانى والديوان، وفى الأصل: لهم. (٣) كذا فى الأغانى والديوان، وفى الاصل: هم.

ثم قالت لسعيد بن مِسْجَح : هاتِ ياأبا عثمان، فاندفع فغنّى! ثم قالت : يامعبد هاتِ، فآندفع فغنّى فآستحسنته؛ ثم قالت: هاتِ يا بن مُحْرِز فإنى لم أُؤَخِّرك لخساسةٍ بك ولا جهلاً بالذى يجب فى[1] الصناعة، ولكنّى رأيتك تُحبّ من الأمورِ كلِّها أوسطَها وأعْدَلها فجعلتك حيث تحبّ واسطةً بين المكّيّين والمدنيّين، فغنّى؛ ثم قالت للغَرِيض : هاتِ يامولى العَبَلات، فغنّى بشعر عمرو بن شأس الأبياتَ، وفى آخرها

أرادتَ عِرارًا بالهَوَانِ ومن يُرِدْ * عِرارًا لعَمْرِى بالهوانِ فقد ظَلَمْ

فقالت: أحسن عمرو بن شأس ولم تُحسِن، إذ أفسدتَ غناءك بالتعريض، ووالله ماوضعناك إلا موضعَك ولا نقصناك من حظّك، فماذا أهنّاك؟ ثم أقبلت على الجماعة فقالت : يا هؤلاء اصدُقوه وعرِّفوه نفسه ليقنَع[2] بمكانه، فأقبل القوم عليه وقالوا : يا أبا يزيد، قد أخطأتَ إن كنت عرّضت، فقال: قد كان ذلك ولست بعائد، وقام إلى جميلة فقبّل طرَف ثوبها وآعتذر، فقبِلتْ عُذره وقالت : لا تعد؛ وأقبلت على آبن عائشة فقالت: ياأبا جعفر هات، فغنّى، فقالت: حَسَنٌ ما قلت؛ ثم أقبلت على نافع وبُدَيْح فقالت : أُحبّ أن تُغنّيا جميعا بصوت ولحنٍ واحد، فغنّيا؛ ثم أقبلت على الهُذَليّين الثلاثة فقالت: غَنُّوا صوتا واحدا، فآندفعوا فغنّوا؛ ثم أقبلت على نافع بن طُنْبورة فقالت: هات يانَقْش الغَضارة و ياحَسَن اللّسان، فآندفع فغنّى، فقالت: حسنٌ والله؛ ثم قالت : يا مالكُ هاتِ، فإنى لم أؤخّرك لأنك فى طبقة آخرهم، ولكن أردتُ أن أختِم بك يومنا تبرّكا بك وكى يكونَ أوّلُ مجلسنا كآخره ووسطُه كطرَفه، فإنك عندى ومعبَدا فى طريقةٍ واحدة ومذهبٍ واحد، لا يدفع ذلك إلّا ظالمٌ ولا يُنكره إلا عاضل للحقّ، والحقّ أقول فمن شاء أن ينكر، فسكت القوم كلّهم إقرارا بما قالت، فآندفع فغنّى

عَدُوٌّ لمن عادَتْ وسَلْمٌ لسِلْمِها * ومَن قرّبتْ سلْمى أُحبَّ وقُرِّبَا

(١) كذا بالأغانى، وفى الأصل : من (٢) كذا فى الأغانى، وفى الأصل : ليقع .

هَبِينى آمرأً إمّا بريئًا ظلمْتِـهِ * وإما مُسيئًا تاب بعـدُ وأعْتَبا
أقولُ التماسَ العُذرِ لمّا ظلمْتِنِى * وحمّلْتِـنى ذنبًا وما كنتُ مُذنبَا
لِيَهْنِك إشماتُ العـدوِّ بهَجْـرِنا * وقطعُك حبْلَ الوُدّ حتى تقضّبا

فقالت جميلة : يا مالكُ ، ليتَ صوتك قد دام لنـا ودُمنا له ! وقطعت المجلس
٥ وآنصرف عامّة الناس وبقى خواصّهم . قال : ولمـا كان فى اليوم الثانى حضر القوم جميعا ، فقالت لُطَويْس : هاتِ ياأبا عبد النعيم ، فغنّى

قد طال ليـلِي وعادنى طَرَبِى * من حُبّ خَوْدٍ كريمةِ الحَسَبِ
غرّاءَ مثـلِ الهلالِ آنِسـةٍ * أو مثلِ تِمْثالِ صُورةِ الذّهبِ
صادت فُؤادِى بجيـدِ مُغْزِلةٍ * ترعَى رِياضا مُلتفّـةَ العُشُبِ

١٠ فقالت جميلة : حسنٌ والله يا أبا عبد النعيم ، ثم قالت للدّلال : هات يا أبا يزيد ، فغنّى ، فآستحسنت غناءه ، ثم قالت لهِنب : إنا نُجلُّك اليوم لِكبَرِ سِنّك ورِقّةِ عَظْمك ، فقال : أجل ، ثم قالت لبَرْد الفؤاد ونَوْمة الضُّحى هاتيا جميعا لحنا واحدا ، فغنّتا ، فقالت : أحسنتما ، ثم قالت : لفَنْد(١) وزجة وهِبة(٢) الله : هاتوا جميعا صوتا واحدا إنكم متّفقون فى الأصوات ، فاندفعوا فغنّوا ، ثم غنّت جميلة بشعر الأعشى

١٥ بانت سـعادُ وأمسى حبْلُها آنقطَعَا * وآحتلّت الغورَ فالجَـدّينِ فالفَـرَعَا
وآستنكرتْنى وما كان الذى نَكِرتْ * من الحوادثِ إلا الشيبَ والصّلَعَا
تقول بنـتى وقـد قرّبتُ مرتحِلًا * يارُبّ جنبِ أبى الأوصابَ والوجَعا
وكان شىءٌ إلى شىءٍ فغيّـرَهُ * دهرٌ مُلِحٌّ على تفـريقِ ما جَمَعَـا

قال : فلم يُسْمَعْ شىء أحسن من آبتدائها بالأمس وختمها فى اليوم ، وقطعت المجلس
٢٠ وآنصرف قوم وأقام آخرون . فلما كان فى اليوم الثالث آجتمع الناس فضربت سِتارة

(١) فى الأغانى قند . (٢) فى الأغانى : رحمة .

وأجلست الجوارى ، فضربْنَ كلُّهنّ ، وضربت هى فضربت على خمسين وترًا فزُلْزِلت الدار ؛ ثم غنّت على عُودها وهنّ يضرِبْن على ضربها

فإن خَفِيتْ كانت لعينِـكَ قُرّةً * وإن تبدُ يوما لم يُعَمِّمْك عارُها

من الخَفِراتِ البِيضِ لم تَرَ غِلْظةً * وفى الحَسَبِ الضَّخْمِ الرفيع نِجارُها

فما رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طيِّبَةُ الثَّرَى * يمُجُّ النَّـدَا جَثْجَاثُها وعَرَارُهـا ٥

بأطْيبَ مِنْ فِيها إذا جئتَ مَوْهِنًا * وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها

فدمَعَتْ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بلُّوا ثيابهم وتنفّسوا الصُّعَدَاء وقالوا : بأنفسنا أنتِ يا جميلة! ثم قالت للجوارى : آكففن ، فكففْن ؛ وقالت : ياعزّ غنِّى ، فغنّت بشعر لعمر

تذكّرتَ هِنـدًا وأعصارَها * ولم تَقضِ نفسُك أوطارَها ١٠

تذكّرتِ النفسُ ما قد مَضَى * وهاجَتْ على العينِ عُوّارَها

لتمنحَ رامــةَ مِنّـا الهَـوَى * وتَرْعىٰ لرامَــةَ أسرارَهـا

إذا لم نَزُرْهـا حِذار العِـدا * حسدْنَا على الزَّوْرِ زُوّارَها

فقالت جميلة : ياعزّ ، إنك الباقية على الدهر ، فهنيئًا لك حسنُ هذا الصوت مع جَوْدة هذا الغناء ؛ ثم قالت لحَبَابة وسلّامة : هاتيا لحنا واحدا ، فغنّتا فآستُحْسِن غناؤهما ؛ ١٥ ثم أقبلت على خُلَيْدة فقالت : بنفسى أنت ، غنّى فغنّت ، فآستُحْسِن منها ما غنّت . ثم قالت لعَقيلة والشَّماسيّة : هاتيا ، فغنّتا ؛ ثم قالت لفرعة ونَبِيلة ونَديمة ولذّة العيش هاتِينَ ، فغنَّين ، فقالت : أحسنْتنّ ؛ وقالت لسعيدة والزرقاء : غنِّيا ، فغنّتا ؛ ثم قالت للجماعة فغنَّوْا ؛ وآنقضى المجلس وعاد كلّ إنسان إلى وطنه . فما رُئى مجلسٌ ولا جمعٌ أحسنُ من هذه الأيام الثلاثة . وقد ذكر أبو الفرج ما غنّى به كل واحد منهم فأوردنا ٢٠

بعضه وتركنا بعضه آختصارا . وأخبار جميلة كثيرة قد ذكر منها أبو الفرج الأصفهانى جُملةً تَدُلّ على أنها كانت مُبَجّلة عند الأشراف معظّمة عند المغنّين ، يأخذون عنها ويأتمرون بأمرها ويسعَوْن إليها وينطقون إذا آستنطقَتْهم ويكُفّون إذا آستكفّتْهم ؛ وفيما قدّمناه دلالة على ذلك والله أعلم .

ذكر أخبار عَزَّة المَيْلاء

قال أبو الفرج الأصفهانى : كانت عَزّة مولاة للأنصار ومسكنها المدينة ، وهى أقدم من غنّى الغِناء المُوقَعَ من نساء الحجاز ، وماتتْ قبل جميلة . قال : وقد أخذ عنها مَعْبَدٌ ومالك بن أبى السَّمْح وآبن مُحْرِز وغيرهم من المكّيين والمدنيّين ؛ وكانت من أجمل النساء وجهًا وأحسنِهنّ جسما ، وسُمّيت المَيْلاء لتمايُلها فى مِشيتها .

وقال معبَد : كانت من أحسن النساء صوتا بعُود ، مطبوعةً على الغناء لا يُعْيِيها أداؤه ولا صَنْعته ولا تأليفُه ، وكانت تغنّى أغانى القِيانِ القدماء(١) مثل شِيرِين وزِرْياب وخَوْلة والرَّباب وسلمى ورائعة ، وكانت رائعةُ أستاذتها ؛ فلما قدِم نشيط وسائب خاثر المدينةَ غنّيا أغانى الفارسية ، فأخذت عزّةُ عنهما نَغَمًا وألقت عليهما(٢) ألحانا عجيبة ، فهى أوّل من فتن أهل المدينة بالغِناء وحرّض رجالَهم ونساءهم عليه .

وقال الزُّبيرى : وجدت مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عزّة قالوا : لله درّها ! ما كان أحسنَ غِناءها وأَطَلَّ صوتَها وأندى حَلْقَها وأحسنَ ضربها بالمزاهر والمعازف وسائر الملاهى ، وأجمَلَ وجهها وأظرفَ لسانَها وأقربَ مجالِسَها وأكرَمَ خُلُقَها وأسخى نفسها وأحسن مُساعدتَها ! وكانت جميلة تقول مثل ذلك فيها .

(١) فى الأغانى : من القدائم . (٢) فى الأغانى : وألقت عليها الخ .

وكان ٱبن سُرَيج فى حَداثة سنّه يأتى المدينـةَ فيأخذ عنها ويتعلّم منها؛ وكان بهـا معجَبا، وكان إذا سئل: مَن أحسنُ الناس غناء؟ قال: مولاة الأنصار المتَفَضِّلة على كلّ مَن غنّى وضرب بالمعازف والعِيدان من الرجال والنساء.

وكان ٱبن مُحْرِز يقيم بمكّة ثلاثة أشهر ثم يأتى المدينة فيقيم بها ثلاثة أشهر من أجل عزّة، وكان يأخذ عنها. وقد تقدّم ذلك فى أخباره. ٥

(٢٣) وكان طُوَيْس أكثر ما يأوِى إلى منزل عزّة، وكان فى جِوارها، وكان إذا ذكرها يقول: هى سيِّدة من غنَّى من النساء مع جمالٍ بارع وخُلُقٍ فاضل وإسلامٍ لا يشو به دَنَس، تأمر بالخير وهى من أهله، وتَنْهَى عن الشرّ وهى تجانبه، فناهيك بها! ما كان أنبلَها وأنبل مجلِسَها! ثم قال: كانت إذا جلست جلوسا عامّا فكأنّ الطيرَ على رُءوس أهل مجلِسها فمن تكلّم أو تحرّك نقَر رأسه. ١٠

وقال صالح بن حسّان الأنصارىّ: كانت عزّة مولاة لنا، وكانت عفيفة جميلة. وكان عبد الله بن جعفر وٱبن أبى عَتِيق وعمر بن عبـد الله بن أبى ربيعة يَغْشَوْنها فى منزلها فتغنّيهم. وغنّت عمر بن أبى ربيعة لحنًا لها فى شىء من شعره فشقّ ثيابه وصاح صيحة عظيمة صَعِق معها، فلما أفاق قال له القوم: لغيرِك الجهلُ يا أبا الخطّاب، قال: إنى سمعت والله مالم أملِك معه نفسى ولا عقلى. ١٥

وكان حسّان بن ثابت مُعْجَبا بها، وكان يقدّمها على سائر قِيان المدينة. وقد ذكرنا خبرها مع النُّعمان بن بَشِير وحسّان بن ثابت، وأن كل واحد منهما سمع غناءها فبكى حسّان بن ثابت وٱستعاد النُّعمان بن بشير صوتها مرارا؛ وتقدّم أيضـا من أخبارها فى خبر عائشة بنت طلحة وأخبار جميلة ما يُستغنَى عن إعادته فى هذا الموضع. فلنذكر من سواها. ٢٠

ذكر أخبـار سلّامة القَسّ

كانت سلّامة القسّ هذه مولَّدة من مولدات المدينة وبها نشأت، وأخذت الغناء عن معبَد وآبن عائشة وجميلة ومالك بن أبى السَّمْح ومن دونهم فمهرت فيه . وإنما سُمِّيت سلّامة القسّ لأن رجلا يعرف بعبد الرحمن بن أبى عمّار بن جُشَم بن معاوية — وكان منزله بمكّة، وهو من قُراء أهل المدينة كان يلقّب بالقَسّ لعبادته — شُغِف بها وشُهِر بحبّها؛ وكان سبب ذلك أنّه سمع غناءَها على غير تعمُّدٍ منه فبلغ منه كلَّ مبلغ، فرآه مولاها فقال : هل لك أن تدخل فتسمع؟ فأبى، فقال له مولاها : أنا أُقعِدها حيث تسمع غناءها ولا تراها، فلم يزل به حتى دخل، فأسمعه غناءَها فأعجبه، فقال : هل لك أن أخرجها إليك؟ قال : لا، فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه، فغنّت فشُغِف بها وشُغِفتْ به وعرف ذلك أهلُ مكة؛ فقالت له يوما : أنا والله أُحبُّك؛ فقال : وأنا والله الذى لا إله إلّا هو أُحبُّك؛ فقالت : والله أشتهى أن أُعانقَك وأُقبّلك؛ فقال : والله وأنا أشتهِى مثلَ ذلك؛ قالت : وأشتهى والله أن أضاجعك وأضع بطنى على بطنك وصدرى على صدرِك؛ قال : وأنا والله كذلك؛ قالت : فما يمنعك من ذلك؟ والله إنّ المكان لخال؛ قال : يمنعنى منه قولُ الله عزّ وجلّ (الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلّا المُتَّقِينَ)، فأنا أكره أن تَحُولَ مودّتى إيّاكِ عداوةً يوم القيامة؛ ثم قام وآنصرف وعاد إلى ما كان عليه من النُّسك، ولم يعد إليها بعد ذلك . وكان يُشَبَّه بعطَاء آبن أبى رَباح . وله فيها أشعارٌ كثيرة منها قوله

إنّ التى طرَقتْكَ بين ركائبٍ * تمشى بِمِزْهرِهَا وأنت حَرامُ
لَتَصِيدُ قلبَكَ أو جزاءَ مودّةٍ * إنّ الرّفيقَ له عليك ذِمامُ
باتتْ تُعَلِّلُنا وتحسَب أنّنا * فى ذاك أَيقاظٌ ونحن نِيامُ

حتى إذا سـطع الضياءُ لناظرٍ * فإذا وذلك[(١)] بيننا أحلامُ
قد كنتُ أعذُل فى السَّفاهةِ أهلَها * فاعْجَبْ لما تأتى به الأيّامُ
فاليومَ أعذُرهم وأعلم أنما * سُبُلُ الضَّلالة والهُدَى أقسامُ

وقوله أيضا فيها

ألم تَرَها — لا يُبْعِدِ الله دارَها — * إذا رجّعتْ فى صوتِها كيف تصنَعُ!
تَمُدُّ نِظامَ القولِ ثم تَرُدُّه * إلى صَلْصَلٍ من صوتِها يَتَرجّعُ

وقوله فيها

ألَا قلْ لهذا القلبِ: هل أنتَ مبصرُ؟ * وهل أنت عن سلّامةَ اليومَ مُقْصِرُ؟
ألا ليتَ أنّى حيثُ صارتْ بى النَّوى * جليسٌ لسَلْمَى كلّما عجَّ مِزْهَرُ

وله من قصيدة طويلة أوّلها

سلّام هل لى منكُمُ ناصِرُ * أم هل لِقلبى منكُمُ زاجرُ؟
قد سمِع النّاسُ بوجْدِى بكُمْ * فمنهُمُ اللائمُ والعاذِرُ

فى أشعار كثيرة يطول الشرح بذكرها . ومدحها الأحْوص أيضا بشعر كثير . وقال فيها أيضا آبن قيس الرُّقَيّات .

وروى أبو الفرج الأصفهانى قال : كانت سلّامة وريّا أُختين، وكانتا من أجملِ النساء وأحسنِهنّ غناء . فاجتمع الأحوص وآبن قيس الرقيّات عندهما ، فقال لهما آبن قيس الرقيّات : إنى أريد أن أمدحكما بأبيات فأَصدُقُ فيها ولا أكذِب[(٢)]، فإن أنتما غنّيتمانى بذلك وإلّا هجوتكما ولم أقرَبْكما أبدا، قالتا : فما قلت؟ قال : قلت

لقد فَتَنَتْ ريّا وسلّامةُ القَسّا * فلم يترُكا لِلْقَسّ عقلًا ولا نَفْسا

(١) كذا فى الأصل، ولعلها : فاذا بدلك .

(٢) كذا بالأغانى، وفى الأصل : فأصدق فيهما وأكذب .

فتاتانِ أمّا منهما فشبيهةُ الـ * ـهِلالِ وأخرى منهما تُشبِهُ الشَّمسَا

تَكُنَّانِ أبشارا رِقاقًا وأوجُهًا * عِتاقا وأطرافا مُخضَّبَة مُلْسا

فغنّته سلّامة فاستحسنه. وقال ٱبن قيس الرُّقَيّات للأحْوص: ياأخا الأنصار، ما قلت؟ قال: قلت

٥ سلّام هل لمُتَيَّمٍ تَنْويلُ * أم قدصَرَمْتِ وغال وُدَّكِ غُولُ؟

لا تَصْرِمِي عنّى ولاءَكِ إنه * حَسَنٌ لدىّ وإن بخلتِ جميلُ

أَزَعَمْتِ أنّ مودّتى وصبابتى * كَذِبٌ وأنّ زيارَتِى تعليلُ(١)

فغنّت الأبيات، فقال ٱبن قيس الرقيّات: أحسنتِ والله، ما أظنّك إلّا عاشقةً لهذا الحِلْف، فقال له الأحوص: وما الذى أخْرَجك إلى هذا؟ قال: حسنُ غنائها ١٠ بشعرك، فلولا أنّ لك فى قلبها محبّةً مُفرِطةً ما جاء هذا حسنا على هذه البديهة، فقال الأحوص: على قدر حُسْنِ شعرى على شعرك هكذا حَسُنَ الغناءُ به، وما هذا [منك](٢) إلا حسدٌ وليس ذلك إلا ما حسدت عليه، فقالت سلّامة: لولا أنّ الدخول بينكما يُوجِب بِغْضةً لحكمتُ بينكما حُكومةً لا يَرُدُّها أحد، قال الأحوص: فأنتِ [من ذلك](٢) آمنة، قال ٱبن قيس الرُّقيّات: كلا! قد أمِنْتَ أن تكون الحكومة عليك، فلذلك ١٥ سبقتَ بالأمان لها، فتفرّقا على ذلك؛ ثم مشى ٱبن قيس الرقيّات إلى الأحوص فٱعتذر إليه فقبِل عُذْرَه؛ ومن شعر الأحْوص فيها

سَلّام إنّكِ قدملكتِ فأَسْجِحِى * قد يملكُ الحُرُّ الكريمُ فيُسجِحُ

مُنِّى على عانٍ أَطلْتِ عَنَاءَهُ * فى الغُلِّ عندكِ والعُناةُ تُسرَّحُ

إنى لأنصحُكُمْ وأعلمُ أنه * سِيّانِ عندكِ من يَغُشّ ويَنْصَحُ

٢٠ وإذا شكوتُ إلى سَلَامةَ حُبَّها * قالت: أجِدٌّ منك ذا أم تمزَحُ

(١) كذا فى الأغانى، وفى الأصل: تقليل. (٢) زيادة من الأغانى.

وحكى أبو الفرج قال : لمـا قدِم عثمان بن حيّان المُرّى المدينة واليا عليها قال له قوم من وجوه الناس : إنك قد ولِيت المدينة على كثرةٍ من الفساد، فإن كنت تريد أن تُصلح فطهِّرها من الغناء والرثاء(١)، فصاح فى ذلك وأجّل أهله ثلاثا يخرجون فيها من المدينة، وكان ابن أبى عتيق غائبا وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح، فلما كان آخر ليلة من الأجل قدِم فقال: لا أدخل منزلى حتى أدخل على سلّامة القسّ، فدخل عليها فقال : مادخلت منزلى حتى جئتكم لأُسَلِّمَ عليكم، فقالوا : ما أغفلك عن امرنا! وأخبروه الخبر، فقال : اصبروا علىّ الليلة، فقالوا : نخاف ألّا يُمْكِنَك شىء، قال : إن خفتم شيئا فاخرجوا فى السحر، ثم خرج فاستأذن على عثمان بن حيّان فأُذِن له، فسلّم عليه وذكر غيبته وأنه جاء ليقضى حقّه، ثم جزاه خيراً على ما فعل من إخراج أهل الغناء والرثاء، وقال : أرجو ألّا تكون [عملت](٢) عملا هو خيرٌ لك من ذلك، قال عثمان : قد فعلتُ ذلك وأشار علىّ به أصحابُك، فقال : قد أصبتَ، ولكن ما تقول فى امرأة كانت هذه صِناعتها وكانت تُكْرَهُ على ذلك، ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير؟ وأنا رسولها إليك تقول : أتوجّه إليك وأعوذ بك أن تُخرِجنى من جِوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده؛ قال قال: فإنى أدَعُها لك ولكلامك، فقال ابن أبى عتيق: لا يدعك الناس، ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر إليها، فإن رأيت أنّ مثلها ينبغى أن يُترك تركتها، قال : نعم، فجاءه بها، وقال: احملى معك سُبْحة وتخشّعى ففعلت . فلما دخلت على عثمان سلّمت عليـه وجلست وحدّثته، فإذا هى من أعلم الناس بأمور الناس فأُعجِب بها، وحدّثته عن آبائه وأمورهم ففَكِهَ لذلك. فقال ابن أبى عتيق : اقرئى للأمير، فقرأت، فقال لها: احْدِى، ففعلت. وكثر عجبه منها، فقال: كيف لو سمعتَها فى صناعتها ! فلم يزل يُنزِله شيئا فشيئا حتى

(١) فى الأغانى : الزنا . (٢) زيادة من الاغانى .

أمرها بالغناء فغنّته، فقام عثمان من مجلسه وقعد بين يديها، ثم قال : لا والله ما مثل هذه تخرج؛ فقال ٱبن أبى عتيق : لا يدعك الناس تُقرّ سلّامة وتُخرِج غيرها، قال : فدعُوهم جميعا، فتركهم جميعا وأصبح الناس يتحدّثون بذلك .

ثم ٱشترى يزيد بن عبدالملك سلّامة، وكانت لمُصْعَب بن سُهَيْل الزُّهرى، وقيل : لسهيل بن عبد الرحمن بن عَوْف، وكانت حَبابة جارية آل لاحق فاشتراهما جميعا، ٥ فاشترى سلّامة بعشرين ألف درهم، وتسلّمها رُسُل يزيد فخرجوا بها وشيّعها الناس، فلما نزلتْ سِقاية سليمان بن عبد الملك قالت للرّسل : إن لى قوما كانوا يغشَوْنَنى ويُسلّمون علىّ، ولا بدّ لى من وَداعهم والسلام عليهم، فأُذِن للناس عليها، فأتوا حتى ملئوا رَحبة القصر والفِناء، ووقفت هى بينهم بارزةً ومعها العُود فغنّتْ

فارَقُونى وقد علمتُ يقينًا * ما لمن ذاق مِيتةً من إيابِ ١٠
إنّ أهلَ الحُضابِ قد تَرَكونى * مُوزَعًا مُولَعًا بأهلِ الحُضابِ
أهل بيتٍ تَتابَعُوا للمنايا * ما على الدّهرِ بعدَهم من عِتابِ
كم بذاك الحَجُونِ من حَىّ صِدْقٍ * من كُهُولٍ أعِفّةٍ وشَبابِ
سكنوا الجِزْعَ جِزْعَ بيت أبى مو * سى إلى النخل من صُفَىِّ السِّبابِ
فلِىَ الويلُ بعدَهم وعليهمْ * صرتُ فَرْدًا وملّنى أصحابِى ١٥

قال : فلم تزل تردّد هذا الصوت حتى راحت، وٱنتحب الناس بالبكاء عند ركوبها، فما شئتَ أن ترى باكيا نبيلا إلا رأيته .

قالوا : وكانت حبَابة عندْ يزيد متقدّمة على سلّامة، وكانت حبابة تنظر إلى سلّامة بتلك العين الجليلة المتقدّمة وتعرف فضلَها عليها، فلما رأت أثرةَ يزيد لها ومحبّتَه إياها ٱستخفّت بها، فقالت لها سلّامة : أى أُخَيّة، نسيتِ فضلى عليك! ويلك! أين ٢٠ تأديب الغناء؟ أين حقّ التعليم؟ أَنَسيتِ قول جميلة لك وهى تطارحنا : خذى إحكام

ما أطارحك من أُختك سلّامة، فلا تزالين بخير ما بقِيَتْ لك وكان أمرُكما مؤتلفا! فقالت: صدقتِ والله لاعدتُ لشيء تكرهينه أبدا. وماتت حبَابة وعاشت سلّامة بعدها دهرا.

ولما مات يزيد أحضرها ابنه الوليد وأمرها بالغناء فتنغّصتْ من ذلك وبكت ثم غنّته، فقال: رحم الله أبي وأطال عُمرى وأمتعنى بحُسْنِ غنائك؛ يا سلّامة، بم كان أبي يقدّم حَبَابة عليك؟ قالت لا أدرى والله، قال: لكننى أدرى ذلك، بما قسم الله عزّ وجلّ لها، قالت: يا سيدى أجَلْ. وهى إحدى من اتُّهِم بهن الوليد من جوارى أبيه.

ذكر أخبار حَبَابة

كانت حَبَابة جارية مولَّدة من مولّدات المدينة لرجل من أهلها يعرف بابن دبابة[1]، وقيل: بل كانت لآل لاحِق المكّيين، وقيل: كانت لرجل يعرَف بابن مينا. وكانت تسمّى الغاليــة[2] فسمّاها يزيدُ بن عبد الملك لما اشتراها حَبَابة. وكانت حُلوةً جميلةَ الوجه ظريفة حسـنةَ الغناء طيّبةَ الصوت ضاربة بالعود، أخذت الغناء عن ابن سُرَيج وابن مُحْرِز ومالك بن أبى السّمْح ومعبَد وعن جميلة وعزّة المَيْلاء.

وكان يزيد بن عبد الملك يقول: ما تَقَرّ عينى[3] بما أوتيت من الخلافة حتّى أشترِىَ سلَّامة جارية مُصْعَب ابن سُلَيم وحَبَابة جارية ابن لاحِق المكيّة، فأرسل فاشترُيتَا له، فلما اجتمعتا عنده قال: أنا الآن كما قال الأوّل

فألْقَتْ عصاها واستقرّ بها النّوَى * كما قَرَّ عَيناً بالإيابِ المُسَافِرُ

وكان يزيد بن عبــد الملك فى خلافة أخيه سليمان قد قدِم المدينــةَ فتزوّج سُعْدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، ورُبَيحة بنت محمد بن على ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب على مثل ذلك، واشترى الغالية بأربعة آلاف

(١) فى الأغانى: بابن رمانة. (٢) فى الأغانى طبع بولاق وفى الطبرى طبع أُلمانيا: العالية.
(٣) كذا فى الأغانى، وفى الأصل: لم يقر عينى ما أوتيت الخ.

دينار، فبلغ ذلك سليمان فقال: لأحجُرَنّ عليه، فبلغ يزيد ذلك فاستقال مولى حَبَابة، ثم آشتراها بعد ذلك رجل من أهل أفريقية . فلما ولى يزيد آشترتها سُعْدة آمرأته وعلمت أنه لا بدّ طالبها ومشتريها ، فلما حصلت عندها قالت له : هل بقى عليك شىء من الدنيا لم تنله؟ قال : نعمْ، الغالية . قالت : أَوَرأيتها؟ قال : نعم، قالت : أَفتعرفها؟ قال : نعم، فرفعت السِّتر فرآها، فقالت : هذه هى؟ قال : نعم، قالت : هى لك ، وخرجت عنهما ، فسمّاها حَبَابة وعظُم قدر سُعْدة عنده . ويقال : إنها أخذت عليها قبل أن تَهَبَها له أن تُوَطِّئ لآبنها عنده فى ولاية العهد .

قال : وآرتفع قدر حَبَابة عند يزيد وتمكّن حبّها من قلبه تمكنا عظيما، وكان أوّل ذلك أنه أقبل يوما إلى البيت الذى هى فيه فقام من وراء السِّتر فسمعها تترنّم وتُغَنِّى

كان لى يا يزيدُ حبُّك حَيْنا * كاد يَقْضِى علىّ لمّا التقَيْنا

فرَفَع السّتر فَوجدها مضطجعةً مقبلة على الجدار، فعلم أنها لم تعلم به ولم يكن ذلك لمكانه، فألقى نفسه عليها وحرّكت منه .

قال : وأراد يزيد بن عبد الملك أن يتشبّه بعُمر بن عبد العزيز وقال : بماذا صار عُمَر أرجى لربه منى ؟ وقيل : بل لامه مَسْلَمَة بن عبد الملك على الإلحاح على الغناء والشرب، وقال له : إنك وَلِيتَ بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله ،وقد تشاغلت بهذه الإماء عن النظر فى الأمور،والوفودُ ببابك وأصحابُ الظُّلامات يصيحون وأنت غافل! قال : صدقت والله، وهمّ أن يترك الشرب ، ولم يدخل على حَبَابة أياما، فشقّ ذلك عليها فأرسلت إلى الأحوص أن يقول أبياتا فى ذلك، فقال

أَلَا لا تَلُمْهُ اليوم ان يَتَبَلَّدا * فقد غُلِبَ المحزونُ أن يَتَجَلَّدا

بكَيْتُ الصِّبا جُهْدِى فمن شاءَ لَامَنِى * ومن شاء آسَى فى البُكاء وأَسْعَدا

وإنّى وإن فُنِّدْتُ فى طلب الصِّبا[1] * لَأَعلمُ أنّى لستُ فى الحُبّ أوحدا
إذا أنتَ لم تعْشَقْ ولم تدْرِ ما الهوىٰ * فكُنْ حَجَرًا من يابس الصخْرِ جَلْمَدا
فمـا العيشُ إلّا ما تَلَذُّ وتشـتَهِى * وإن لَامَ فيه ذُو الشَّنانِ وفَنَّدَا

قال : فلما كان فى يوم الجمعة تعرّضت له حَبَابة عند خروجه إلى الصّلاة ، فلقيتْه والعودُ فى يدها فغنّت البيت الأوّل ، فغطّى وجهــه وقال : مَهْ لا تفعلى ، ثم غنّت « وما العيش إلا ما تلَذّ وتشتهى » فعدل إليها وقال : صدقتِ ، قبّح الله من لامنى فيكِ ، يا غلام ، مُرْ مَسْلَمة فلْيُصَلِّ بالناس، وأقام معها يشرب وهى تغنّيه وعاد إلى حاله ، وقال لها : من يقول هذا الشعر؟ قالت : الأحوص، فاستدعاه وآستنشده الشعر فأنشده الأبيات، ثم أنشده قصيدته التى أوّلها

يا مُوقِدَ النـارِ بالعَلْياءِ من إضَمِ * أَوقِدْ فقد هِجْتَ شوقًا غيرَ مُنْصَرِمِ

وهى قصيدة طويلة ، فقال له يزيد : آرفع حوائجك ، فكتب إليه فى نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره فأمر له بها . وقد قيل فى أمر هذه الأبيات : إن حَبَابة لمـا بعثت إلى الأحْوص فى عمل الشعر قالت له : إن رددْتَ أميرَ المؤمنين عن رأيه فلك ألفُ دينار، فدخل الأحوص عليه وآستأذنه فى الإنشاد، فقـال : ليس هذا وقتك، فلم يزل به حتى أذِن له فأنشده الأبيات ، فلما سمعها وثب حتى دخل على حَبَابة وهو يتمثّل

وما العيشُ إلّا ما تلَذّ وتشتَهِى * وإن لَام فيه ذُو الشَّنَانِ وفنَّدا

قالت : ما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أبيات أنشــدنيها الأحوص ، فسَلِى ما شئتِ، قالت ألف دينار تعطيها للأحوص، فأعطاه ألف دينار .

(١) فى الاغانى : الغنى .

قال : وقال يزيدُ يوما لسلّامة وحَبَابة : أيّكما غنّتني ما فى نفسى فلها حُكمها ، فغنَّت سلّامة فلم تُصِبْ ما فى نفسه ، وغنّت حَبَابة بشعر ابن قيس الرُّقَيّات

حَلَقٌ من بنى كِنانةَ حَوْلِى * بِفِلَسْطِينَ يُسرِعُون الرُّكُوبَا
جَزِعتْ(١) أن رأت مَشِيبِى عِرْسِى * لا تَلُومِى ذَوائبى أَن تَشِيبَا

(٢٦)

٥ فأصابت ما فى نفسه ، فقال : احتكمى ، قالت : تَهَب لى سلّامة ومالها ، قال : اطلُبى غيرها ، فأبت غيرها ، فقال : أنت أولى بها ومالها ، فلقيت سلّامة من ذلك أمرا عظيما ، فقالت حَبَابة : لا تَرَيْنَ إلا خيرا ، فجاءها يزيدُ فسألها أن تبيعه إياها بحُكمها ، فقالت : أُشهِدك الآن أنها حُرَّة فاخطُبْها الآن أزوِّجْك مولاتى .

قال : وغنّت حَبَابة يوما يزيد

١٠ ما أحسنَ الجِيدَ من مُلَيكةَ والـ * ـلبَّاتِ إذ زانَها تَرائبُها
يا ليتَنِى ليلةً — إذا هَجَعَ النّـ * ـاسُ ونام الكلابُ — صاحِبُها
فى ليلةٍ لا يُرَى بها أَحَدٌ * يَسْعَى علينا إلّا كواكِبُها

فطرِب يزيد وقال : هل رأيتِ قطّ أطرَبَ منِّى؟ قالت : نعم، ابن الطيّار مُعاوية ابن عبد الرحمن بن جعفر، فكتب يزيدُ إلى عبد الرحمن بن الضحّاك فحمله إليه، ١٥ فلما قدِم أرسلت إليه حَبَابة : إنما بَعَثَ إليك لكذا وكذا وأخبرتْه بالقصة ، فإذا أُدخِلْتَ عليه وتغنّيتُ فلا تُظهِرَنّ طربًا حتى أُغنِّى الصوتَ الّذى غنّيتُه، فقال: سَوْءَةً على كِبَر السنّ ! فدعاه يزيد وهو على طنفسَة خَزٍّ ووضع لمُعاوية مثلَها، وجاءوا بجامَيْنِ فيهما مِسك، فوُضِع أحدُهما بين يدى يزيد والآخر بين يدى معاوية، قال معاوية: فلم أدر كيف أصنع ، فقلت : أَنظُرُ كيف يصنَع فأصنَعُ مثلَه ، فكان يُقلِّبه فتفوح ٢٠ رِيحُه وأفعل مثل ذلك ، فلما جئ بحَبَابة وغنّت ، فلما غنّت ذلك الصّوت أخذ

(١) بالاغانى : هزئتْ .

معاوية الوسادة فوضعها على رأسه وقام يدور ويقول : الدُّخْنُ بالنَّوَى يعنى اللُّوبيا ! وامر له يزيدُ بِصلات فى دَفَعات مبلغُها ثمانيةُ آلاف دينار .

وحكى أيضا أنها غنّت يوما يزيد فطرِب، ثم قال لها : هل رأيتِ أطرَبَ منى ؟ قالت : نعم، مولاى الذى باعنى، فغاظه ذلك فكتب فى حمله مقيَّدا، فلما وصل أمر يزيدُ بإدخاله عليه فأُدخِل يرسُف فى قيوده، وأمر يزيد حَبَابة أن تغنِّى فغنّت ٥

تَشُطُّ بنا دارُ جِيرانِنـا * ولَلدَّارُ بعــدَ غَدٍ أبْعـدُ

فوثب حتى ألقى نفســه على الشَّمْعة فاحترقت لِحيته ، وجعل يصيح : الحريق يا أولاد الزنا ! فضحك يزيدُ وقال : لعَمْرى إن مثل هذا يُطرِب الناسَ، وأمر بحلّ قيوده ووصله بألف دينار ووصلته حَبَابة، وردّه إلى المدينة .

وروى أبو الفرج الأصفهانى بسنده إلى غانم الأزدى قال : نزل يزيدُ بن عبدالملك ١٠ ببيت رأس بالشأم ومعه حَبَابة فقال : زعموا أنه لا يصفو لأحد يومًا عيشُهُ إلى الليل لا يُكدِّره شىء عليــه، وسأُجَرِّب ذلك، ثم قال لمن معه : إذا كان غدٌ لا تُخبرونى بشىء ولا تأتونى بكتاب، وخلا هو وحَبَابة، فأُتيا بمـا يأكُلانِ، فأكلتْ رُمّانة فشرِقَتْ بحَبَّة منها فمــاتت ، فأقام لا يدفنها ثلاثا حتى تغيّرتْ وأنتنت وهو يشمُّها ويرشُفها ، فعاتبه على ذلك ذَوُوه وأقرباؤه وصدِيقُه وعابوا عليه ما يصنع، وقالوا : قد صارت ١٥ جيفة بين يديك، فأذِن لهم فى غسلها ودفنها، فأُخرِجتْ فى نِطْع وخرج معها لا يتكلم حتى جلس على قبرها ، فلما دُفنت قال : أصبحتُ والله كما قال كُثَيِّر

فإن تسلُ عنكِ النفسُ أو تَدَعِ الهوَى * فباليأس تســلو عنــكِ لَا بالتَّجَلُّدِ

وكــلُّ خليــلٍ رَاءَنِى فهو قائلٌ * مِنَ آجلِكِ هــذا هامةُ اليومِ أو غدِ

فما بقى إلا خمسَ عشْرة ليلة ومات فدُفِن إلى جنبها . وروى أيضا عن مَسْلَمة بن ٢٠ عبد الملك قال : لمـا ماتت حَبَابة جزع عليها يزيد فجعلتُ أُسَكِّنه وأُعَزِّيه وهو ضارب

بذَقَنه على صدره ما يكلّمنى حتى دفنها، فلما بلغ إلى بابه التفت إلىّ وقال : فإن تسلُ عنك النفسُ ... البيت، ثم دخل بيته فمكث أربعين يوما ثم هلَك .

قال : وروى المدائنى أنه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إياها، فقال: لا بُدَّ أن تُنْبَش حتى أنظر إليها، فنُبِشت وكُشِف له عن وجهها وقد تغيّرت تغيرًا قبيحا، فقيل له : يا أمير المؤمنين، اتّقِ الله تعالى! ألا تراها كيف صارت! فقال: ما رأيت قطّ أحسن منها اليوم، أَخرِجوها، فجاء مَسْلَمة ووجوه أهله[1]، فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك، ودفنوها وانصرف، وكَمِد كَمَدًا شديدا حتى مات فدفن إلى جانبها .

ورُوِى عن عبد الله بن عُروة بن الزُّبَير قال : خرجت مع أبى إلى الشأم زمن يزيد بن عبد الملك، فلما ماتت حَبَابة وأُخرِجت لم يستطع يزيدُ الركوب من الجزَع ولا المشى، فحُمِل على منبر على رقاب الرجال، فلما دُفنت قال: لم أُصَلِّ عليها انبشوا عنها، فقال له مسلمة: ننشُدُك الله يا أمير المؤمنين، إنما هى أَمَةٌ من الإماء وقد واراها الثرى، فلم يأذَنْ للناس بعد حَبَابة إلّا مرّة واحدة، قال : فوالله ما استتمّ دخول الناس حتى قال الحاجب : اخرجوا رحمكم الله . ولم ينْشَب يزيدُ أن مات كَمدا .

ذكر أخبار خُلَيْدة المكيّة

قال أبو الفرج : هى مولاة لابن شمّاس كانت هى وعَقِيلة ورُبَيْحة يُعْرَفن بالشّماسيّات، وقد أخذت الغناء عن ابن سُرَيْج ومالك ومَعْبَد .

وروى أبو الفرج بسنده إلى الفضل بن الربيع أنه قال : ما رأيت ابن جامع يطرَب للغناء كما يطرَب لغناء خُلَيْدة المكيّة . وكانت سوداء، وفيها يقول الشاعر

فتنَتْ كاتبَ الأمير رَبَاحٍ ✻ يا لَقَوْمى خُلَيْدةُ المكيّه

(١) كذا فى الأغانى، وفى الأصل : وركبه أهله .

وغنّت هشام بن عُروة يوما فلما سمعها قال: آكتبى على صدرك (قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ) و بين يديك المُعوِّذَتينِ لا تصيبُك العينُ. وقال عمر بن شبّة: بلغنى أن محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفّان أرسل إلى خُلَيْدة المكيّة أبا عَوْنٍ مولاه يخطبُها عليه، فآستأذن فأذِنتْ له وعليها ثيابٌ رِقاق لا تسترها، ثم وثبتْ فقالت : إنما ظننتك بعض سفهائنا، ولكنى ألبس لك ثيابَ مثلك ففعلت، وقال : قد أرسلنى إليك مولاى وهو من تعلمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عثمان بن عفّان ومن علىّ، وهو آبن عم أمير المؤمنين يخطبك؛ قالت: قد نسبتَ فأبلغت، فآسمع نسبى أنا بأبى [أنت](1) إن أبى بِيع على غير عقد الإسلام ولا عهْده فعاش عبدا ومات فى رجله قَيْدٌ وفى عنقه سِلْسِلةٌ على الإباق والسَّرِقة، وولَدَتْنى أُمّى على غير رِشْدةٍ وماتت وهى آبقة، فأنا من تعلم، فإن أراد صاحبك نكاحا مباحا أوزنا صُراحا فهَلُمّ الينا فنحن له، فقال: إنه لا يدخل فى الحرام، فقالت : لا ينبغى أن يستحيى من الحلال، فأما نكاح السرّ فلا والله لا فعلتُه ولا كنتُ عارا على القِيان، قال : فأتيت محمدا فأخبرته، فقال : ويحك! أتزوجها مغنّية وعندى بنت طَلْحَة بن عُبَيد الله! لا! ولكن آرجع إليها فقل لها : تختلفُ إلىّ أَرَدّدُ بصرى فيها لعلّى أسلو، فرجعتُ إليها فأبلغتُها الرسالة فضحِكت وقالت : أمّا هذا فنعَمْ، لسنا نمنعه .

ذكر أخبار مُتَيَّم الهاشميّة

قال أبو الفرج : كانت مُتَيَّم مولّدة صفراء من مولّدات البَصرة وبها نشأت وتدرّبت(2) وغنّت، وأخذت عن إسحاق وأبيه قبله وعن طبقتهما من المغنّين، وكانت من تخريج بذْل وتعليمها، وآشتراها على بن هشام بعد ذلك فآزدادت أخْذًا ممن كان يغشاه من أكابر المغنّين، وكانت من أحسن الناس وجها وغناء وأدبا، وكانت تقول

---

(1) زيادة من الأغانى . (2) فى الأغانى : تأدّبت .

الشعر ليس مما يستجاد ولكنه يستحسن من مثلها. وحظِيَتْ عند على بن هشام حُظْوة شديدة وتقدّمت جواريَه أجمع عنده، وهى أم ولده كلهم .

حكى أبو الفرج قال : كان عند على بن هشام بِرْذَوْنٌ أشهب قِرْطَاسىّ فى نهاية الحسن والفَرَاهة وكان به مُعجَبا، وكان إسحاق بن إبراهيم يشتهيه شهوة شديدة و يُعرِّض لعلىّ مرارا فى طلبه فلم يسمح به، فصار إسحاق إلى علىّ يوما وقد صنعت متيَّم ٥

فلا زالَ حَسْرَى ظُلَّعًا، لِمْ حَمَلْنَا * إلى بَلَدٍ ناءٍ قليـلِ الأصادقِ؟

فاحتبسه علىّ و بعث إلى متيَّم يأمرها أن تجعل صوتهـا فى صدر غنائها ففعلت، فأطربت إسحاق إطرابا شديدا، وجعل يستعيدهُ و يستوفيه ليزيد فى طربه وهو يصغى إليه و يتفهّمه حتى صحّ له، ثم قال لعلىّ : ما فعل البرذونُ الأشهب؟ قال : علىّ ما عهدتَ من حسنه و فراهته، قال: ٱختر الآن منى خَلّةً من ٱثنتين: إما أن طِبْتَ لى ١٠ نفسا [به] (١) وحملتنى عليه، وإما أن أبيت فأدّعى والله هذا الصوت [لى] (١) وقد أخذته، أفتراك تقول : إنه لمتيَّم وأقول : إنه لى، فيؤخذ قولُك و يترك قولى؟ فقال : لا والله ما أظنّ هذا ولا أراه، يا غلام قُدِ البرذونَ إلى منزل إسحاق، لا بارك الله لك فيه . (٢٨)

وحكى أنـ على بن هشام مولاها كلّمها بشىء فأجابتـه جوابا لم يرضَه، فدفع فى صدرها فغضِبتْ ونهضت وتثاقلت عن الخروج إليه، فكتب إليها ١٥

فليتَ يدى بانت غداةَ مددْتُها * إليكِ ولم ترجِع بكفٍّ وساعدِ

فإن يَرْجِعِ الرحمنُ ما كان بيننا * فلستُ إلى يوم التَّنَـادى بعائد

قال : وعتبتْ عليه مرةً فتمادى عَتْبُها فترضّاها فلم ترضَ، فكتب إليها : الإدلال يدعو إلى الملال، وربّ هجرٍ دعا إلى صَبْر، وإنما سُمّى القلبُ قلبا لتقلّبه، وقد صدق عندى العبّاس بن الأحنف حيث يقول ٢٠

---

(١) زيادة فى الأغانى .

ما أرانى إلّا سأهجُـــر من ليـ * ـــس يرانى أقوَى على الهِجرانِ
مَلَّنى واثقا بحسن وفائى * ما أضرّ الوفاء بالإنسـان !

قال : فخرجت إليه من وقتها و رضيت .

ورُوِى عن يحيي المكىّ قال: قال لى علىّ بن هشام : لمـا قدِمتْ جَدّتى شاهك من خُراسان قالت : اعرِض جوارِيَك علىّ ، فعرضتهنّ عليها ، ثم جلسنا على الشراب وغنّتنا مُتَيَّم ، فأطالت جدّتى الجلوس فلم أنبسط إلى جوارىّ كما كنت أفعـل ، فقلت هذين البيتين

أنَبقَى على هذا وأنتِ قريبةٌ * وقد منع الزُّوَّارُ بعضَ التّكلّمِ
سلامٌ عليكم لا سلامَ مُودِّعٍ * ولكن سلامٌ من حبيبٍ مُتَيَّمِ

وكتبتُ بهما فى رُقعة و رميتها إلى مُتَيَّم فأخذتْها ونهضتْ لصلاة الظهر ، ثم عادت وقد صنعت فيه لحنا فغنّته ، فقالت شاهك : ما أرانا إلا قد ثَقُلْنا عليكم اليوم ، وأمرت الجوارى فحملوا مِحَفّتَها ، وأمرت للجوارى بجوائز ساوت بينهنّ ، وأمرتْ لمُتَيَّم بمـائة ألف درهم .

قال : ومرّت متيَّم فى نسوة وهى متخَفّية بقصر علىّ بن هشام بعـد أن قتـله المأمون ، فلمـا رأت بابه مُغلَقا لا أنيس به وقد علاه التراب والغَـبَرة وطُرِحت فى أفنِيَته المزابل وقفت عليه وتمثّلت

يا منزِلًا لم تبْـلَ أطلالُهُ * حَاشَى لأطلالِكَ أن تَبْلَى
لم أبكِ أطلالَكَ لكنّنى * بكيتُ عيشى فيكَ إذ وَلَّى
قد كان لى فيكَ هوًى مرّةً * غيَّبـه التُّربُ وما مُـلّا
فصِرتُ أبكى بعده جاهدًا[1] * عند ٱدِّكارى حيثُ قد حَلّا
والعيشُ أَوْلَى ما بكاهُ الفتَى * لا بُدَّ للمحزونِ أن يَسْـلَى

(١) بالأغانى : فصرت أبكى جاهدا فقده .

قال : ثم بكت حتى سقطت من قامتها، وجعل النسوة يناشـدنها [ويقلن](1) : الله الله فى نفسك ! فإنك الآن تؤخذين، فبعد لأْيٍ مّا آحتملتْ تتهادى بين آمرأتين حتى جاوزت الموضع .

وحُكِي عنها قالت : بعث إلىّ المعتصم بعد قدومه بغداد، فلما دخلت أمر بالعُود فوُضِع فى حجرى وأمرنى بالغناء فغنّيتُ

هل مُسعِدٌ لبُكَائى * بعَــبْرةٍ أو دماءِ؟
وذاك شىءٌ قليــلٌ * لسادتى النُّجَــباءِ

وهذا الشعر لمراد جارية علىّ بن هشام ترثيه، فقال : اعدِلى عن هذا الصوت، فغنّيتُ

* ذهبتُ عن الدنيا وقد ذهبَتْ عنّى *

فدمعت عيناه وقال : غنّى غير هذا، فغنّيت

أولئك قومى بعــد عِزٍّ وثروةٍ(2) * تفانَوْا فإلّا تذرِفِ العينُ أكْمَدِ

فبكى بُكاءً شديدا، ثم قال : ويحك! لا تُغَنِّى فى هذا المعنى شيئا، فغنّيتُه

لا تأمَنِ الموتَ فى حلٍّ وفى حَرَمٍ * إنّ المنايا بجنْبَىْ(3) كلّ إنسانِ
وآسلُكْ طريقَكَ هَوْنًا غيرَمكترِثٍ * فسوف يأتيكَ ما يَمْنِى لك المانِى

فقال : والله إنى لأعلم أنكِ إنما أردتِ بما غنّيتِ ما فى قلبك لصاحبك [وأنكِ](1) لم تريدينى، ولو أعلم أنك تُريدينى لقتلتك، ولكن خذوها، فأخذوا بيدى فأُخْرِجت .

---

(١) زيادة فى الأغانى .
(٢) فى الأغانى : ومنعة .
(٣) فى الأغانى : تغشّى .

(٢٩) وهذه متيّم هى التى كان يهواها عبد الصمد بن المُعَذَّل،وأظنّ ذلك قبل ٱتصالها بعلىّ ٱبن هشام، وهى إذ ذاك عند رجل من وجوه البصرة .

قال: وكانت لا تخرج إلّا متنقِّبة فحكى المبرّد وغيره أنها قدِمتْ يوما إلى ٱبن عُبَيدالله ٱبن الحسين العنبرىّ القاضى،فاحتاج إلى أن يُشهِد عليها فأمر بها أن تَسفِر ففعلت؛ فقيل لعبد الصّمد : لو رأيت متيّم وقد أسفرها القاضى لرأيت شيئا عجيبا ! فقال ٥

ولمـا سَرَتْ عنها القِناعَ متيَّمٌ * تروّح منهـا العَنْـبَرِىُّ متيَّمَا

رأى ٱبنُ عُبَيدِ الله وهو مُحَكَّمٌ * عليها لهـا طرفًا عليـه محكّمَا

وكان قدِيمًا كالحَ الوجْهِ عابسًا * فلمّا رأى منهـا السُّفورَ تَبَسَّما

فإن يصْبُ قلبُ العنبرىِّ فقبْلَهُ * صَبَا باليتامَى قلبُ يَحْيَى بنِ أكثما

فبلغ قوله يحيى بن أكثم فكتب إليه: عليك لعنة الله! أىَّ شىء أردتَ منى حتى ١٠ أتانى شرُّك من البصرة؟ فقال لرسوله : قل له : متيَّم أَقْعَدَتْك على طريق القافية .

ذكر أخبار ساجى جارية عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر

قال أبو الفرج : كانت ساجى إحدى المحسنات المبرّزات المتقدِّمات،وهى تخريج مولاها عُبيـد الله ، وكان مهما صنع من الغِناء نسبه إليها ، وكان قد بلغ من ذلك الغاية، ولكنه كان يترفّع عن ذكره ويكره أن يُنْسَب إليه . ١٥

حكى أبو الفرج عن أحمد بن جعفر جحظة قال: كتب المعتضد إلى عُبَيد الله بن عبد الله «بقُمّ» أن يأمر جاريته ساجِىَ بزيارته ففعل؛ قال جحظة : فحدّثنى من حضر ذلك المجلس من المغنّيات قالت : دخلت علينا وما فينا إلّا من ترفُل فى الحُلِىّ والحُلَل وهى فى أثواب ليست كأثوابنا فاحتقرناها، فلما غنّت ٱحتقرنا أنفسنا، ولم تزل تلك

حالنا حتى صارت فى أعيننا كالجبل وصِرنا كَلَا شىء؛ ولما آنصرفت أمر لها المعتضِد بمال وكسوة، ودخلت إلى مولاها فجعل يسألها عن خبرها وما رأت مما آستظرفت وسمعت وآستغربت، فقالت : ما آستحسنت هناك شيئا ولا آستغربته من غناء ولا غيره إلا عُودا من عود محفورا فإنى آستظرفته؛ قال جحظة : فما قولك فيمن تدخل إلى دار الخليفة ولا تمُدّ عينَها إلى شىء تستظرفه وتستحسنه إلا عودا ؟

قالوا : وكان المعتَضِد إذا آستحسن شيئا بعث به إلى ساجى فتغنّى فيه؛ وكانت صنعتها فى عصره تسمَّى غناءَ الدار. وماتت ساجى فى حياة مولاها وكان عليلا فرثاها ببيتين فقال

يَمِينًا يقينًا لو بُلِيتُ بفَقْدِها * وبى نَبْضُ عِرْقٍ للحياةِ وللنُّكْسِ
لأوشكتُ قتْلَ النفسِ قبلَ فِراقِها * ولكنّها ماتت وقد ذهبَتْ نَفْسِى

ذكر أخبار دُقَاق

قال أبو الفرج : كانت دُقاق مُغنِّية مُحسِنة مُتقِنة الأداء والصَّنعة جميلة الوجه، أخذت الغناء عن أكابر مُغَنِّى الدولةِ العباسيّة؛ وكانت ليحى بن الربيع فولدت له آبنه أحمد؛ ومات يحيى فتزوّجت بعده بِعدّة من القوّاد والكُتّاب فماتوا وورثتهم، ثم آنقطعت إلى حَمْدونة بنت الرشيد ثم إلى غَضِيض؛ وكانت مشهورة بالظَّرْف والمُجُون .

قال هبةُ الله بن إبراهيم بن المهدى : وكانت تواصل جماعة كانوا يميلون إليها وتُرِى كلَّ واحد منهم أنها تهواه، وكانت أحسن أهل عصرها وجها وأشأمهم على من تزوّجها أو رابطها؛ فقال فيها إبراهيم بن المهدىّ

عَدِمْتُكِ ياصديقةَ كلِّ خَلْقٍ * أَكُلُّ النَّاس ويْحك تَعْشَقِينَا
وكيف إذا خلَطْتِ الغَثَّ منهم * بِلحْمِ سَمِينِهِـــمْ لا تَبْشَمِينَا

قال أبو هفّان : خرج يحى بن الربيع إلى بعض النواحى وترك جاريته دُقاق فى داره فعمِلت [بعده](١) الأوابد ؛ فقال موسى(٢) الأعمى [فيه](١) :

قُلْ لِيَحْيَى نعَمْ صبَرْتَ على المو * ت ولم تخْشَ رَيْبَ سهْمِ المَنُونِ ٥
كيف قُلْ لى أَطَقْتَ وَيْحكَ يا يحـــ * ــى على الضَّعْفِ منك حَمْلَ القُرُون

يشير بقوله «سهم ريب المنون» إلى شُؤْمها .

ذكر أخبار قَلَم الصالحيّة

قال أبو الفرج الأصفهانى : كانت قَلَم الصالحيّة مُوَلَّدة صفراء حُلوة حَسَنة الغِناء والضربِ حاذقة ، قد أخذت عن إبراهيم وآبنه إسحاق ويحيى المكىّ وزُبَيْر بن دحْمان . ١٠
وكانت لصالح بن عبدالوهّاب [أخى أحمد بن عبدالوهاب](١) كاتب صالح بن الرشيد ، وقيـــل : بل كانت لآبنه . قال : وكانت لهـــا صَنْعَةٌ يسيرة نحو عشرين صوتا ، فاشتراها الواثق بعشرة آلاف دينار .

قال أحمد بن الحسين بن هشام : كانت قَلَم إحدى المُغَنِّيات المُحسِنات المتقدّمات ، فغُنِّى بين يدى الواثق لَحْنٌ لها فى شعر محمد بن كناسة ، وهو ١٥

فِىَّ آنقباضٌ وحشْمَةٌ فإذا * صادقتُ أهلَ الوَفَاءِ والكَرَمِ
أرسلْتُ نفسى على سَجِيَّتِها * وقُلْتُ ما قلتُ غيرَ مُحْتَشِمِ

فسأل : لمن الصنعة ؟ فقيل : لقَلَم الصالحيّة جارية صالح بن عبد الوهاب ، فبعث إلى محمد بن عبد الملك الزيّات فأحضره وسأله : مَنْ صالحُ بن عبد الوهاب ؟ فأخبره ،

(١) زيادة فى الأغانى . (٢) فى الأغانى : أبو موسى . ٢٠

قال : وأين هو؟ قال : ببغداد؛ قال : ابعثْ وأَشْخِصْه وليُحْضِر معه جاريته قَلَم ، فكتب فى إشخاصهما ، فقدما على الواثق ، فدخلت عليه فأمرها بالجلوس والغناء ، فغنَّتْ فاستحسن غِناءها وأمر بابتياعها ، فقال صالح : أبيعها بمائة ألف دينار وولاية مصر ، فغضب الواثق من ذلك وردّها إليه ؛ ثم غنّى بعد ذلك زرزر الكبير فى مجلس الواثق بشعرٍ الغناءُ فيه لها ، فقال الواثق : لمن هذا الغناء؟ فقال : لقَلَم الصالحيّة ، فبعث إلى ٱبن الزيات بإشخاصها ففعل ، فدخلت على الواثق فأمرها بالغناء ، فغنّته من صنعتها فأعجبه غناؤها ، وبعث إلى صالح فأحضره وقال له : إنى قد رغِبتُ فى هذه الجارية فاستَمْ فى ثمنها سَوْمًا يجوز أن تُعْطاه ، فقال : أمّا إذ وقعت الرغبة فيها من أميرالمؤمنين فما يجوز أن أملك شيئا له فيه رغبةٌ ، وقد أهديتها إلى أميرالمؤمنين ، فإن من حقِّها علىّ إذا تناهيتُ فى قضائه أن أُصَيِّرها ملكه ، فبارك الله له فيها ، فقال الواثق : قد قبلتُها ، وأمر ٱبنَ الزيات أن يدفع إليه خمسة آلاف دينار ، وسمّاها ٱعتباطا ، فلم يعطه ٱبن الزيات المال ومَطَلَه به ، فوجّه إلى قلم مَنْ أعلمها بذلك ، فغنّت الواثق صوتا وقد ٱصطبح ؛ فقال لها : بارك الله فيك وفيمن ربّاك ، فقالت : يا سيِّدى وما نفع منْ ربّانى منّى إلا التعب والغرم والخروج منّى صِفْرا؟ فقال : أَوَ لم نأمر له بخمسة آلاف دينار؟ قالت : بلى! ولكنّ ٱبن الزيات لم يُعطِه شيئا ، فدعا بخادم من خاصّة الخدم ووقّع إلى ٱبن الزيات بحمل خمسة آلاف الدينار إليه وبخمسة آلاف أخرى معها ؛ قال صالح : فصرت مع الخادم إليه فقرّبنى وقال : أما خمسة الآلاف الأولى فقد حضرتْ ، وخمسة الآلاف الأخرى أنا أدفعها اليك بعد جمعة ، قال : فقمت ، ثم تناسانى كأنه لم يعرفنى ، فكتبت إليه أقتضيه ، فبعث إلىّ : اكتب لى قبضًا بها وخذها بعد جمعة ، فكرهت أن أكتب إليه قبضا فلا يحصل لى شىء ،

قال : فاســتترت فى منزل صديق لى ؛ فلمــا بلغه آستتارى خاف أن أشكوه إلى الواثق ، فبعث إلىّ بالمــال وأخذ كتابى بالقبض ؛ قال : فابتعت بالمــال ضَــيعةً وتعلقت بها وجعلتها معاشى ، وقعدتُ عن عمل السلطان فما تعرّضْت لشىء بعدها .

ذكر أخبار بصبص جارية آبن نَفِيس

قال أبو الفرج : كانت جارية من مُوَلَّدات المدينــة حُلوة الوجه حَسَنة الغِناء، قد أخذت عن الطبقــة الأولى من المغنِّين ؛ وكان يحيى بن نَفِيس مولاها صاحبَ قِيان يغشاه الأشراف و يسمعون غناءَ جواريه ؛ ثم آشتُرِيَتْ للمهدىّ وهو ولىّ عهد بسبعة عشر ألف دينار، وقيل : إنها ولدت له عُلَيَّةَ بنت المهدىّ ، وقيل : أم علية غيرها . قال : وكان عبد الله بن مُصْعَب بن ثابت بن عبد الله بن الزُّبَيْر يأتيها فيسمع منها ، وكان يأتيها فتيان قريش فيسمعون منها . فقال عبد الله بن مصعَب حين قدِم المنصور مُنْصرِفا إلى الحجّ ومرّ بالمدينة يذكر بصبص

أراحلٌ أنت أبا جَعْفَــرٍ * من قبلِ أنتسمع من بَصْبَصَا
هيهاتَ أن تسمعَ منها إذا * جاوَزَتِ العِيسُ بك الأعْوَصَا
فخُــذْ عليها مَجَالِسَىْ لَذَّةٍ * ومجلسًا من قَبْلِ أن تَشْخَصَا
أحلِفُ بالله يمينًا ومَنْ * يحلِفُ بالله فقد أخلصا
لو أنّهــا تدعــو إلى بَيْعَــةٍ * بايعتُهــا ثم شَقَقْتُ العَصَا

فبلغ الشــعرُ أبا جعفر المنصــور فغضب ودعاه ، ثم قال : أمَا إنكم يا آل الزُّبَير قديما ما قادتكم[1] النساء وشــققتم معهنّ العصا ، حتى صرتَ أنت آخر الحَمْقَى تبايع المغنِّيات ! فدُونَكم يا آل الزُّبَير هذا المرتَعَ الوخيم .

(١) كذا فى الأغانى ، وفى الأصل : «كادتكم» .

وقال هارون بن محمد بن عبد الملك وهو آبن ذى الزوائد فيها

بَصْبَصُ أنتِ الشَّمْسُ مُزْدانةً * فإنْ تبدّلْتِ فأَنْتِ الهِلالُ
سبحانَك اللّٰهمّ ما هكذا * فيما مضى كان يكونُ الجَمَالُ
إذا دعت بالعُودِ فى مَشْهَدٍ * وعاونت يُمْنَى يديها الشِّمالُ
٥ غنّتْ غناءً يستَفِزّ الفتى * حِذْقًا وزانَ الحذقَ منها الدَّلالُ

قال : وهَوِىَ محمد بن عيسى الجعفرىّ بَصْبص فهام بها وطال ذلك عليه ، فقال لصديق له : قد شغلتنى هذه عن صَنْعتى وكلّ أمرى ، وقد وجدت مَسّ السلُوّ عنها ، فاذهب بنا إليها حتى أ كاشفها ذلك وأستريح ، فأتياها ، فلما غنّتهما قال لها محمد آبن عيسى : أَتُحَسِّنين

١٠ وكنتُ أُحِبُّكم فسلَوْتُ عنكُمْ * عليكم فى ديارِكُمُ السَّلَامُ

فقالت : لا ، ولكنّى أُغنّى

تحمّل أهلُها عنها فبانُوا * على آثارِ مَنْ ذهبَ العَفَاءُ

قال : فاستحيا وآزداد بها كَلَفًا ولها عِشْقا ، فأطرق ساعة ثم قال لها : أَتُحَسِّنين

وأَخْضَعُ بالعُتْبَى إذا كنتُ مُذْنِبا * وإنْ أذنبتْ كنتُ الذى أتنصَّلُ

١٥ قالت : نعم ، وأغنّى أحسن منه

فإنْ تُقْبِلُوا بالوُدّ نُقْبِلْ بمثله * ونُنْزِلكم منّا بأقرب مَنْزِلِ

فتقاطعا فى بيتين وتواصلا فى بيتين ، وما شعَر بهما أحد .

قال : وحضر أبو السائب المَخْزومىّ مجلِسا فيه بَصْبص فغنّت (٣٢)

قلبى حَبِيسٌ عليكِ موقوفُ * والعَيْنُ عَبْرَى والدمعُ مَذْروفُ
٢٠ والنفسُ فى حَسرةٍ بغُصَّتها * قد شَفّ أرجاءَها التساويفُ

إن كنتِ بالحُسْنِ قد وُصِفتِ لنا * فإنّنى بالهــوى لمَــوْصوفُ
يا حَسْرتَا حسرةً أموتُ بهــا * إنْ لم يكن لى إليــك معروفُ

قال : فطرِب أبو السائب ونَعَر وقال : لا عَرَف اللهُ من لا يعرف لك معروفَك، ثم أخذ قِناعَها عن رأسها ووضعه على رأســه، وجعل يبكى ويلطِم ويقول لهــا : بأبى أنت ! والله إنى لأرجو أن تكونى عند الله أفضل من الشهداء لمــا تُولِينَاهُ من السرور، وجعل يصيح : وَاغوْثاه ! يالله ما يلقَى العاشقون !

وقال عثمان بن محمد الليثى : كنت يوما فى منزل ٱبن نَفِيس فخرجتْ إلينا جاريته بَصْبص، وكان فى القوم فتى يحبّها ، فسألته حاجةً فقام ليأتِيَها بها ، فنسِى أن يلبَس نَعْله ومضى حافيا، فقالت له : يا فلان، نسيتَ نعلَك، فرجع فلبِسها وقال : أنا والله كما قال الأوّل

وحُبّكِ يُنْسِينِى عن الشىء فى يدى * ويَشْغَلُنى عن كلّ شىءٍ أُحاوِلُهْ

فأجابته فقالت

وبى مثلُ ما تشكوه مِنّى وإننى * لاشفِقُ من حُبٍّ لذاك تُزَايِلُهْ

ذكر أخبار جوارى ٱبن رامين

وهن سـلّامة الزرقاء، ورُبَيْحَة، وسُعْدَة

قال أبو الفرج : وٱبن رامين هو عبد الملك بن رامين مولى عبد الملك بن بشر ٱبن مروان، وكان له جَوارٍ مغنّيات مُجِيدات، وهنّ سلّامة الزرقاء ورُبَيْحه وسُعْدة، وفيهنّ يقول إسماعيل بن عمّار قصيدته التى أوّلها

هل مِنْ شـفاءٍ لقلبٍ لَجَّ مَحْزُونِ * صَبَا وصَبَّ إلى رِئم ٱبنِ رامينِ

إلى رُبَيْحَةَ إن الله فَضَّلها * بُحُسْنها وسَمَاعٍ ذى أفانينِ
نَعَمْ شِفاؤُكَ منها أن تقولَ لها : * قَتَلْتِنِى يوم دَيْرِ اللُّجِّ فاحيِينِى
أنتِ الطبيبُ لِداءٍ قد تَلَبَّس بِى * من الجَوَى فانْفُثِى فى فِىَّ وآرْقِينِى
نفسِى تأْبَى لكم إلّا طَوَاعِيَةً * وأنتِ تَحْمِينَ أَنْفًا أن تُطِيعينى

٥ ومنها

لم أنسَ سُعْدَةَ والزَّرْقاء يومَهما * باللُّجِّ شَرْقِيَّهُ فوقَ الدَّكاكينِ
يُغَنِّيانِ آبنَ رَامِينٍ ضُحَاءَهما * بالمسجَحِىِّ وتشبيب المُحِبِّينِ
فما دعَوْت به فى عَيْشِ مملكةٍ * ولم نَعِشْ يومَنا عيشَ المساكينِ

وهى أبيات طويلة، وله فيهنّ غيرها . قال : وآشترى جعفر بن سليمان بن على
١٠ سلّامة الزرقاء بثمانين ألف درهم؛ وقيل: إنه اشترى رُبَيْحَة بمائة ألف درهم، والأوّل أصح؛ وقيل : إن الذى آشترى رُبَيْحَة محمد بن سليمان، وآشترى صالح بن علىّ سُعْدَة بتسعين ألف درهم؛ وقيل : آشترى مَعْن بن زائدة إحداهن. قال : وكانت سلّامة الزرقاء عاقلة شَكِلة . قال : ولما آشتراها جعفر ومضت لها مدّة عنده سألها يوما: هل ظِفر منك أحدٌ قطّ ممن كان يهواك بخَلْوة أو قُبْلة؟ فخشيتْ أن يبلغه شيء كانت
١٥ فعلته بحضرة جماعة أو يكون قد بلغه شيءٌ، فقالت : لا والله إلا يزيد بن عَوْن العبادى الصيرفىّ، فإنه قبّلنى قُبْلة وقذف فى فىّ لؤلؤة بعتُها بثلاثين ألف درهم، فلم يزل جعفر بن سليمان يحتال له حتى وقع به فضربه بالسياط حتى مات .

وقد روى أبو الفرج الأصفهانىّ فى خبر يزيد بن عَوْن هذا بسند رفعه إلى عبد الرحمن بن مقرُون أنه آجتمع هو ورَوْح بن حاتم عند آبن رامين، وأن الزرقاء
٢٠ خرجت عليهم فى إزارٍ ورداء [قُهْوِيّين](١) مورّدين كأن الشمس طالعة بين رأسها

(١) زيادة فى الأغانى.

وكعبها ، قال : فغنّتنا ساعة ، ثم جاء الخادم الذى كان يأذن لها ، وكان الإذن عليها دون مولاها ، فقام على الباب وهى تغنّى ، حتى إذا قطعت الغناء نظرت إليه فقالت : مَه ، قال : يزيد بن عون العبادى الصيرفىّ الملقّب بالماجن على الباب ، قالت : ائذن له ، فلما آستقبلها طَفَر ثم أقْعَى بين يديها ، فوَجِدَتْ والله له ، و رأيتُ أثرَ ذلك ، وتوّقت تنوُّقًا(١) خلاف ما كانت تفعل بنا ، فأدخل يده فى ثوبه فأخرج لؤلؤتين فقال : انظُرى يازرقاء ، جُعِلتُ فداكِ ! ثم حلف أنّه نقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم ، قالت : فما أصنع بك؟ قال : أردت أن تعلمى ، فغنّت صوتا ثم قالت : ياماجنُ هَبْهما لى ، قال : إن شئتِ والله فعلتُ ، قالت : قد شئت ، قال : فاليمين التى حلفتُ بها لازمة [لى](٢) إن أخذتِهما إلّا بشفتيك من شفتىّ ، فقال آبن رامين للغلام : ضَعْ لى ماءً ثم اخرج عنا ، فقالت : هاتهما ، فمشى على ركبتيه وكفّيه وهما بين شفتيه وقال : هاكِ ، فلما ذهبت تتناولهما جعل يصُدّ عنها يمينا وشمالا ليستكثر منها ، فغمَزت جاريةً على رأسها ، فخرجت كأنها تريد حاجةً ثم عطفت عليه ، فلما دنا وذهب ليروغ دفعت منكبيه وأمسكتهما حتى أخذت الزرقاء اللؤلؤتين بشفتيها من فَمِهِ ورشح جبينُها عَرَقا حياءً منّا ، ثم تجلّدت علينا(٣) فأقبلت عليه وقالت : المغبون فى آسته عُود ، فقال : فأما أنا فلا أبالى ، والله لا يزال طِيبُ هذه الرائحة فى أنفى وفمى ما حَييتُ .

قال : وآجتمع عند آبن رامين مَعْن بن زائدة ورَوْح بن حاتم وآبن المقفّع ، فلما تغنّت الزرقاء وسُعْدَة بعث مَعْن فجىء ببَدْرة فصبّها بين يديها ، وبعث رَوْح فجىء ببَدْرة فصبّها بين يديها ، ولم تكن عند آبن المقفع دراهم ، فبعث فجاء بصَكّ ضَيْعة

---

(١) تنوّق فى ملبسه : تجوّد وبالغ .

(٢) زيادة فى الأغانى .

(٣) كذا فى الأغانى وفى الأصل "علينا" .

وقال : هذه عُهْدةُ ضَيْعَتى خُذيها، فأما الدراهم فما عندى منها شىء؛ وشربت زرقاء دواء فأهدى لها ابن المقفّع ألف دُرّاجة .

وعن إسحاق بن إبراهيم قال : كان رَوْح بن حاتم بن المهلّب كثير الغشيان لمنزل ابن رامين، وكان يختلف إلى الزرقاء، وكان محمد بن جميل يهواها وتهواه فقال لها : إن رَوْح بن حاتم قد ثَقُل علينا، قالت : فما أصنع وقد غَمَر مولاى ببِرّه؟ قال : احتالِى له، فبات عندهم رَوْح ليلةً فأخذت سراويله وهو نائم فغسلته، فلما أصبح سأل عنه، فقالت : غسلناه، فظنّ أنه أحدث فيه فاحتيج إلى غسله فاستحيا من ذلك فانقطع عنهم؛ وخلا وجهها لابن جميل .

ذكر أخبار عِنان جارية الناطفىّ

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كانت عِنان مُوَلّدة من مولّدات اليَمامة، وبها نشأت وتأدّبت، واشتراها الناطف وربّاها، وكانت صفراء جميلة الوجهِ شَكِلةً مليحةَ الأدبِ والشعرِ سريعةَ البديهةِ، وكان فحول الشعراء يساجلونها و يعارضونها فتنتصف منهم؛ ولها مع أبى نُوَاس الحسن بن هانىء وغيره من الشعراء والفضلاء مُعاناةٌ ومراجعات نذكر منها طرفا .

قال أبو حَبَش : قال لى الناطفىّ : لو جئت إلى عنان فطارحتها ! فعزمت على الغُدُوّ إليها، وبتُّ ليلتى أَحُوك بيتين، ثم غدوتُ عليها فأنشدتُها

أَحَبَّ المِـلاحَ البِيضَ قلبى وربّما * أحبّ المِلاحَ الصُّفْرَ من وَلَدِ الحَبَشْ
بكيتُ على صـفراء منهنّ مَرّةً * بكاءً أصابَ العَـيْنَ مِنّى بالعَمَشْ

فقالت عِنان

بَكَيْتُ عليها إنَّ قلبى يُحِبُّها * وإنّ فُؤادى كالجَنَاحَيْنِ ذُو رَعَشْ
تَعَنَّيْتنا بالشِّـعرِ لمـا أتيتنا * فدُونَكَ خُذْهُ مُحْكَمًا يا أبا حَبَشْ

وقال مَرْوان بن أبى حَفْصة : لقينى الناطفىّ فدعانى إلى عنان، فانطلقتُ معه، فدخل إليها قبلى فقال : جئتُك بأشعر النّاس مروان بن أبى حفصة، فوجدها عليلةً فقالت : إنى عن مروان لفى شغل، فأهوى إليها بسوط فضربها، وقال لى : ادخل، فدخلت وهى تبكى، فرأيت الدموع تحدر من عينيها، فقلت

بكتْ عِنان بجَــرَى دمعها * كالدُّرّ إذ يسبِقُ من خَيْطِهِ

فقالت مُسرِعةً

فليتَ من يضربُها ظالمًـا * تيْبَسُ يُمْنـاه على سَــوْطِهِ

قال مروان : فقلت : أُعْتِق ما أملك إن كان فى الجنّ والإنس أشعرُ منها .

وقال أحمد بن معاوية : قال لى رجل : تصفّحتُ كُتُبا فوجدت فيها بيتا جَهِدت جهدى أن أجد من يُجيزه فلم أَجِد، فقال لى صديق لى : عليكَ بعِنان جارية الناطفىّ، فأتيتها فأنشدتها البيت وهو

وما زال يشكو الحُبّ حتى رأيتُه * تَنَفّس من أحشائه وتَكَلَّما

فلم تلبَث أن قالت

ويَبْكِى فأبكِى رحمةً لبُكائِهِ، * إذا ما بكى دمعًا بَكَيْتُ له دَمَا

وقال موسى بن عبد الله التميمىّ : دخل أبو نُوَاس على الناطفىّ وعِنان جالسةٌ تبكى، وقد كان الناطفىّ ضربها ، فأومأ إلى أبى نواس أن حَرِّكْها بشىء، فقال أبو نواس

عِنانُ لو جُدْتِ لى فإنّى من * عُمْرِىَ فى (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا)[1]

فقالت

فإن تَمَادَى ولا تماديتَ فى * قَطْعِكَ حَبْلِى أَكُنْ كمن ختما

(١) لعله يريد من اقتباس هذه الآية، وهى آخر آية فى سورة البقرة، أن يدل على أنه فى آخر مرحلة من مدى حياته وأنه لم يبق من عمره إلا بمقدار ما تقع هذه الآية من السورة .

فقال أبو نواس

عُلِّقتُ من لو أَتَى على أَنْفُسِ الـ * ـماضين والغابرين ما نَدما

فقالت

لو نَظَرَتْ عينُها إلى حَجَرٍ * وَلَّد فيه فُتورُها سَقَما

٥ وقال أبو جعفر النخَعِىّ: كان العبّاس بن الأحنف يَهْوَى عِنان جارية النطاف، فجاءنى يوما فقال لى: امض بنا إلى عِنان، فصِرنا إليها فرأيتُها كالمهاجرة له، فجلسنا قليلا ثم آبتدأ العبّاس فقال

قال عبّاسٌ وقد أُجْـ * ـهِدَ من وَجْدٍ شَدِيد:

ليس لى صَبْرٌ على الهَجْـ * ـرِ ولا لَذْعِ الصُّدُودِ

١٠ لا ولا يَصْبِرِ للهَجْـ * ـرِ فُـؤادٌ من حَديدِ

فقالت عِنان

مَنْ تراه كان أَغْنى * منكَ عن هذا الصُّدود

بعدَ وَصْلٍ لك مِنّى * فيه إرغامُ الحَسُودِ!

فاتَّخِذْ للهَجْرِ إنْ شئـ * ـتَ فُؤادًا من حَدِيدِ

١٥ ما رأيناكَ على ما * كنتَ تجْنى بجَلِيدِ

فقال عبّاس

لو تَجُودِينَ لصَبٍّ * راح ذا وَجْدٍ شَدِيدِ

وأخى جَهْلٍ بما قد * كان يجنى بالصُّدُودِ

ليس مَنْ أَحْدَثَ هَجْرًا * لصديقٍ بِسَدِيدِ

٢٠ ليس منه الموتُ إن لم * تَصِليهِ ببَعِيدِ

(٣٥) قال : فقلتُ للعبّــاس : ويحك ! ما هذا الأمر ؟ قال : أنا جنيتُ على نفسى بتتايُهِى عليها ؛ فلم أبرَح حتى تَرَضَّيتها له .

وقال الأصمعىّ بعثتْ إلىّ أُمّ جعفر أن أمير المؤمنين قد لهِج بذكر هذه الجارية عنان ، فإن صرفته عنها فلك حُكْمُك ، قال : فكنت أرْبَع لأن أجِد للقول فيها موضِعًا فلا أجده ولا أُقدِم عليــه هيبةً له ، إذ دخلتُ يوما فرأيت فى وجهه أَثَرَ الغضبِ فانخزلت ، فقال : مالك يا أصمعىّ؟ قلت : رأيت فى وجه أمير المؤمنين أثر الغضب ، فلعن الله من أغضبه ! فقال : هذا الناطفىّ ، والله لولا أنى لم أَجُرْ فى حُكْمٍ قطُّ متعمِّدا لجعلت على كل جبل منه قِطعة ! ومالى فى جاريته من أرب غير الشعر ؛ قال الأصمعىّ : فذكرت رسالة أمّ جعفر فقلت : أَجَلْ ، والله ما فيها غير الشعر ، أفيسرّ أميرَ المؤمنين أن يجامع الفرزدق ! فضحِك حتى آستلق ، وآتّصل قولى بأمّ جعفر فأجزلتْ لى الجائزة .

وقال يعقوب بن إبراهيم : طلب الرشــيد من الناطفىّ جاريته ، فأبى أن يبيعها بأقلّ من مائة ألف دينار ، فقال الرشيد : أُعطيك مائة ألف دينار على أن تأخذ الدينار بسبعة دراهم ، فآمتنع عليه ، فأمر أن تحمل إليه ، فذكروا أنها دخلت مجلِسَه فى هيئتها ، فقال لها الرشيد : ويلك ! إن هــذا قد آعتاص علىّ فى أمرك ، فقالت : ما منعك أن تُوفِيه وتُرْضِيه؟ فقال : ليس يقنع بمــا أُعطيه ، وأمرها بالانصراف ؛ فتصدّق الناطفىّ حين رجعت إليــه بثلاثين ألف درهم ؛ فلم تزل فى قلب الرشيد حتى مات مولاها ؛ فلما مات بعث الرشــيدُ مسرورا الخادم فأخرجها إلى باب الكَرْخ وأقامها على سرير وعليها رداء سِنْدِىّ قد جلَّلَها ، فنُودى عليها فيمن يزيدُ بعد أن شاور الفقهاء فيها فقالوا : هذه كَبِدٌ رَطْبَةٌ وعلى الرجل دين ، فأشاروا ببيعها ؛ وكانت تقول وهى على

المصطبة : أهان الله من أهاننى وأرذل من أرذلنى ! فوكزها مسرور بيده ؛ وبلغ بها مسرور مائتى ألف درهم، فجاء رجل فقال : علىّ زيادةُ خمسةٍ وعشرين ألف درهم، فوكزه مسرور وقال : أتزيد على أمير المؤمنين ! فبلغ بها مائتين وخمسين ألف درهم وأخذ مالها. قال: ولم يكن فيها عَيْبٌ يُعابُ فطلبوا لها عيبا لا تُصيبها العينُ، فأوقعوا بخِنْصَر رجلها فى ظُفْره شيئا؛ قال : وأولدها الرجل الذى آشتراها ولدين، ثم خرج بها إلى خراسان فمات هناك وماتت بعده .

ذكر أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهدىّ

قال أبو الفرج : كانت شارية مُوَلَّدة من مولَّدات البَصْرة، يقال : إن أباها كان من بنى سامة بن لُؤَىّ المعروفين ببنى ناجية، وإنه جحدها؛ وكانت أمّها أَمَةً فدخلت فى الرِّقّ، وقيل : إن أمها كانت تدّعى أنها بنت محمد بن زيد من بنى سامة بن لُؤَىّ، وقيل : إنها كانت تدّعى أنها من بنى زُهرة، وقيل : بل سُرِقت فبيعت، فاشترتها آمرأة من بنى هاشم فأدّبتها وعلّمتها الغناء، ثم آشتراها إبراهيم بن المهدىّ فأخذت عنه غناءه كلّه أو أكثره؛ وبذلك يحتجّ من يُقَدّمها على عُرَيب ويقول : إن إبراهيم خرّجها، وكان يأخذها بصحّة الأداء لنفسه وبمعرفةِ ما يأخذها به، ولم تلقَ عُرَيب ذلك، لأن المراكبىّ لم يكن يقارب إبراهيم فى العلم ولا يقاس به فى بعضه فضلا عن سائره . قال : ولما عرضتها مولاتها الهاشميّة للبيع ببغداد عرضت على إسحاق آبن إبراهيم الموصلىّ فأعطى فيها ثلاثمائة دينار، ثم آستغلاها بذلك ولم يُرِدْها، فجىء بها إلى إبراهيم بن المهدىّ فساوم بها، فقالت له مولاتها : إن إسحاق بن إبراهيم أعطى بها ثلاثمائة دينار وأنت أحقّ بها، فقال : زِنُوا لها ما قالت فوُزِنَ لها؛ ثم دعا بقَيِّمَته فقال: خُذى هذه الجارية ولا تُزَيِّنيها سنة، وقولى للجوارى يطرحْنَ عليها؛ فلما كان

(٣٦) بعد سنة أُخْرِجَتْ إليه ، فنظر إليها وسمع منها ، فأرسل إلى إسحاق بن إبراهيم ، فلما أتاه أراه إيّاها وأسمعه غناءها ، وقال : هذه جارية تباع ، فبكم تأخذها لنفسك ؟ قال إسحاق : آخذها بثلاثة آلاف دينار وهى رخيصة بها ، فقال له إبراهيم : أتعرفها؟ قال : لا ، قال : هذه الجارية التى عرضتها الهاشميّةُ بثلاثمائة دينار فلم تقبلها ، فعجِب إسحاقُ من حالها وما صارت إليه . ٥

وقد حُكِي عن هبة الله بن إبراهيم بن المهدىّ أنها عُرِضَتْ ببغداد على إبراهيم فأُعْجِبَ بها إعجابا كبيرا ، [فلم يزل يُعْطِى بها حتى](١) بلغت ثمانية آلاف درهم ، قال : ولم يكن عند أبى درهم ولا دانق ، فقال لى : ويحك ! قد والله أعجبتنى هذه الجارية إعجابا شديدا وليس عندنا شىء ، فقلت له : بِعْ ما تملكه حتى الخزف وتجمع ثمنها ، فقال لى : [قد تذكّرتُ فى شىء](١) ، اذهبْ إلى علىّ بن هشام فأقرئه منّى السلام ، وقل له : ١٠ قد عُرِضَتْ علىّ جاريةٌ وقد أخذتْ بمجامع قلبى ، وليس عندى شىء ، فأُحبّ أن تُقْرِضنى عشرة آلاف درهم ، فقلت : إن ثمنها ثمانية آلاف درهم ، فلِمَ نُكْثِرُ على الرجل بعشرة آلاف درهم؟ فقال : إذا آشتريتها بثمانية آلاف درهم فليس لنا بُدٌّ من أن نكسوَها ونُقيم لها ما تحتاج إليه ؛ قال : فصِرتُ إلى علىّ بن هشام وأبلغته الرسالة ، فدعا بوكيل له وقال : ادفع إلى خادمه عشرين ألف درهم ، وقل له : أنا ١٥ لا أصلك ، ولكن هى لك حلال فى الدنيا والآخرة ؛ قال : فصرت إلى أبى بالدراهم ، فلو طلعت عليه بالخلافة لم تكن تعدِل عنده تلك الدراهم ؛ قال : وكانت أمها خبيثة ، وكانت كلّما لم يُعْطِ إبراهيم آبنتها ما تشتهى ذهبتْ إلى عبد الوهّاب بن علىّ ، ودفعت إليه رُقعةً يُوصلها إلى المعتصم تسأله أن تأخذ آبنتها من إبراهيم .

---

(١) زيادة فى الأغانى . ٢٠

وحُكِى عن يوسف بن إبراهيم المِصرىّ صاحب إبراهيم بن المهدىّ أن إبراهيم وجّه به إلى عبد الوهاب بن علىّ فى حاجةٍ كانت له، قال : فلقيته وآنصرفت من عنده، فلم أخرج من دِهْليز عبدِ الوهّاب حتى آستقبلتنى آمرأة، فلما نظرتْ فى وجهى سترتْ وجهها، فأخبرنى شاكرٌ أن المرأة أمّ شارية جارية إبراهيم، فبادرت إلى إبراهيم وقلت له : إنى رأيت أمّ شارية فى دار عبد الوهاب، وهى من تعلم، وما يفجؤك إلّا حِيلةٌ قد أوقعتها؛ فقال لى : أُشْهِدك أن جاريتى شارية صدقةٌ على ميمونة بنت إبراهيم آبن المهدىّ، ثم أَشْهد آبنَه هبةَ الله على مثل ما أَشْهدنى، وأمرنى بالركوب إلى آبن أبى دؤاد وإحضار من قَدَر عليه من الشهود المُعَدَّلين عنده، فأحضر أكثر من عشرين شاهدا، وأمر بإخراج شارية فأُخْرِجت، فقال لها : آستُرى وجهك، فجزِعتْ من ذلك، فأعلمها أنما أمرها بذلك لخير يريده لها ففعلت، فقال لها : تَسَمَّىْ، فقالت : أنا أَمَتُك، فقال لهم : تأمّلوا وجهها ففعلوا؛ ثم قال : فإنى أُشْهِدُكم أنّها حُرّةٌ لوجه الله تعالى، وأنّى قد تزوجتها وأصدقْتُها عشرة آلاف درهم، يا شارية أرَضِيتِ؟ قالت : نعم ياسيِّدى، قد رضيت، والحمد لله تعالى على ما أنعم به علىّ، فأمرها بالدخول، وأطعم الشهود وطيَّبهم وآنصرفوا؛ قال : فما أحسبهم تجاوزوا دار آبن أبى دؤاد حتى دخل علينا عبد الوهّاب بن علىّ، فأقرأ عمَّه سلامَ المعتصم، ثم قال له : يقول لك أمير المؤمنين : من المفترَض علىّ طاعتُك وصيانتُك عن كلّ ما يسوءك، إذ كنت عمّى وصِنْوَ أبى، وقد رفعتْ إلىّ قِصّة ذُكِرَ فيها أن شارية آبنتها[(١)]، وأنها آمرأة من قريش من بنى زُهْرة، وآحتجّت بأنه لا تكون بنت آمرأة من قريش أَمَة، فإن كانت هذه المرأة صادقةً فى أن شارية بنتها، وأنها من بنى زُهرة فمن المحال أن تكون شارية أَمَة، والأشبهُ بك والأصلح إخراج شارية من دارك وتصيِّرها عند من تثق به

(١) كذا وردت هذه الجملة بالأصل ولعل يد الناسخ تصرفت فيها هذا التصرف فصيرتها قلقة كما ترى، ولعل أصلها «وقد رفعت الى امرأة قصة ذكرت فيها أن شارية ابنتها وأنها من قريش الخ» .

من أهلك، حتى يُكْشَف عمّا قالته هذه المرأة، فإن ثبت ذلك أمرت من جعلتَها عنده بإطلاقها، وكان فى ذلك الحظُّ لك فى دِينك ومُرُوءتك، و إن لم يصحّ ذلك أعيدت الجارية إليـك وقد زال عنك القول الذى لا يليـق بك ولا يحسُن؛ فقال إبراهيم : فديتك، هَبْ شارية بنت زُهْرة بن كلاب، أَيُنْكَرُ على [ٱبن][1] العبّاس بن عبد المطلب أن يكون بعلا لها؟ فقال عبد الوهّاب : لا، فقال : أبلغ أميرَ المؤمنين، أبقاه الله، السلام، وأَخْبره أن شارية حُرّة، وأنى قد تزوجتها بشهادة جماعة من العدول؛ وقد كان الشهود أَعْلموا ٱبن أبى دؤاد بالقصة، فركب إلى المعتصم وحدّثه بالحديث معجبا له منه، فقال: ضلّ سَعْىُ عبد الوهّاب؛ ثم دخل عبد الوهاب على المعتصم، فلما رآه يمشى فى صحن الدار سدّ المعتصم أنفه وقال : ياعبد الوهاب، أنا أَشُمّ رائحة صُوف مُحْرَق، وأحسب عمّى لم يُقْنِعه ردُّك على أُذُنك صُوفةً حتى أحرقها، فشَمَمْتُ رائحتها منك، فقال : الأمر على ما ظنّ أمير المؤمنين وأسمج؛ قال : ثم ٱبتاع إبراهيم من بنتـه ميمونة شارية بعشرة آلاف درهم وستر ذلك عنها، فكان عتقه إيّاها وهى فى ملك غيره، ثم ٱبتاعها من ميمونة فخلّت له، فكان يطؤها بملك اليمين وهى تتوهم أنها زوجته، فلما تُوُفِّى طلبت شاريةُ مشاركةَ أمّ محمد بنت خالد زوجة إبراهيم فى الثُّمُن، فأظهرت خبرها، فأمر المعتصم بابتياعها من ميمونة بخمسة آلاف وخمسمائة دينار فحُوِّلت إلى داره، وكانت فى مِلْكه حتى تُوفى. وقال ٱبن المعتز: وقد قيل: إن المعتصم ٱبتاعها بثلاثمائة دينار، وملكها إبراهيم ولها سبع سنين وربّاها تربية الولد .

قال : وحدّثت شارية أنها كانت مع إبراهيم فى حرّاقة قد توسّط بها دجلة فى ليلة مُقْمِرة، فٱندفعت فغنّت

لقد حثّوا الجِمالَ لِيهْـــرُبُوا منّـا فلم يَنــلُوا

(١) زيادة فى الأغانى .

فوثب إليها فأمسك فاها فقال : أنتِ والله أحسن من الغَرِيض وجها وغناء، فما يُؤْمِنُنى عليك ! أمسكى .

ويقال : إنها لم تضرب بالعُـود إلا فى أيام المتوكل لمـّا آتّصل الشرُّ بينها وبين عريب، فصارت تقعد بها عند الضرب، فضربتْ بعد ذلك .

قال آبن المعتز : وحدّث محمد بن سهل بن عبد الكريم المعروف بسهل الأحول، وكان قاضى الكُتّاب فى زمانه، كان يكتب لإبراهيم وكان ثقة، قال: أعطى المعتصم إبراهيم بشارية سبعين ألف دينار، فامتنع من بيعها، قال : فعاتَبْتُه على ذلك، فلم يجبنى بشىء، ثم دعانى بعد أيام وبين يديه مائدة لطيفة، فأحضر الغلام سَفُّودا فيه ثلاثة فَرَاريج، فرمى إلىّ بواحدة فأكلتها وأكل آثنتين، ثم شرب رطلا وسقانى، ثم أُتِىَ بسَفُّود آخر ففعل كما فعل وشرب [كما شرب](1) وسقانى، ثم ضُرِب سِتْرٌ إلى جانبه فسمعت حركة العيدان، ثم قال : يا شارية تَغَنَّىْ، فسمعتُ شيئا ذهب بعقلى، فقال : يا سهل، هى التى عاتبتنى فى أن أبيعها بسبعين ألف دينار، لا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار !

وحكى عن عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : أمرنى المعتزّ بالله ذات يوم بالمُقام عنده فأقمت، ومُدّت الستارة وخرج من كان يغنّى وراءها وفيهنّ شارية، ولم أكن سمعتها قبل ذلك فاستحسنتُ ما سمعت منها، وقال لى المعتز : يا عبيد الله، كيف ما تسمع منها عندك؟ فقلت : حَظُّ العَجَب من هذا الغناء أكثرُ من حظّ الطَّرَب، فاستحسن ذلك، وأخبرها به فآستحسنته .

قالوا : وكانت شارية أحسن الناس غناءً منذ تُوُفِّى المعتصم إلى آخر خلافة الواثق . وقيل : إن إبراهيم بن المهدىّ لم يطأْ شارية، وإن الذى آفتضّها المعتصم . وكان إبراهيم يسمّى شاريةَ بنتى .

(١) زيادة فى الأغانى .

وقال يعقوب بن بيان: كانت شاريةُ لصالح بن وصيف، فلما بلغه رحيل موسى آبن بغا من الجبل يريده بسبب قتل المعتزّ أودع شارية جوهره، فظهر لها جوهر كثير بعد ذلك، فلما أوقع موسى بصالح آستترت شارية عند هارون بن شعيب العُكْبُرِىّ[(1)]، وكان أنظف خلقِ الله طعامًا وأسراهم مائده، وأوسخهم كلِّ شيء بعد ذلك، وكان له بُسُرَّ من رأى منزل وفيه بستان كبير، وكانت شارية تُسَمِّيه أبى، وتزوره فى منزله فتحمل معها كلّ شيء تحتاج إليه حتى الحصير تقعد عليه. وكانت من أكرم الناس، عاشرها أبو الحسن علىّ بن الحسين عند هارون هذا، ثم ضاق فى وقت فآقترض منها على غير رهن عشرة آلاف دينار فأقرضته، ومكثت أكثر من سنة ما أذكرته بها ولا طالبته بردّها.

قال يعقوب بن بيان: وكان الناس بسُرّ من رأى متحازبين، فقوم مع شارية وقوم مع عريب، لا يدخل أصحاب هذه فى هؤلاء ولا أصحاب هذه فى هؤلاء، وكان [أبو الصقر][(2)] إسماعيل بن بلبل عريبيًّا، فدعا علىّ بن الحسين يوم جمعة أبا الصقر وعنده عريب وجواريها، فاتصل الخبر بشارية فبعثت بجواريها إلى علىّ بن الحسين بعد يوم أو يومين، وأمرت إحداهن — قال: وما أدرى [من][(2)] هى؟ مهرجانُ أم[(3)] مطربُ أم[(3)] قَمَرِيّة، إلا أنها إحدى الثلاث — أن تُغَنِّيَه

لَا تَعُودَنَّ بعــدَهَا * فترى كيف أَصْــنَعُ

فلما سمع الغناء ضحك، وقال: لستُ أعود

قال: وكان المعتمد قد وثِق بشارية فلم يكن يأكل إلّا طعامَها، فمكثت دهرا تُعِدّ له كلَّ يوم جَوْنَتَين، فكان طعامه منهما فى أيّام المتوكّل

(1) فى الأغانى العكرى. (2) زيادة فى الاغانى. (3) فى الأصل: «أو».

وقال أبو الفرج : حدّثنى جَحْظة قال : كنت عند المعتمد يوما فغنّتْ شاريةُ بشعر مولاها إبراهيم بن المهدىّ ولَحْنِه

يا طُولَ عِلَّةِ قلـبىَ المُعْتادِ * إلْفَ الكِرَامِ وصُحْبَةَ الأمجاد
مازِلْتُ آلَفُ كلَّ قَرْمٍ ماجِدٍ * متقـدِّم الآباء والأجداد

٥ فقـال لها : أحسنت والله ! فقالت : هذا غنائى وأنا عارية ، فكيف لو كنت كاسية ! فأمر لها بألف ثوب من جميع أصناف الثياب الخاصّة ، فحُمِل ذلك إليها ؛ فقال لى علىّ بن الحسين بن يحيى المنجِّم : اجعل آنصرافك معى ، ففعلتُ ؛ فقال لى : هل بلغك أن خليفة أمر لمغنِّية بمثل ما أمر به أمير المؤمنين اليوم لشارية ؟ قلتُ : لا ، فأمر بإخراج سِيَر الخلفاء ، فأقبل بها الغلمان فى دفاترَ عِظَام فتصفّحناها كلّها فما ١٠ وجدنا أحدًا قبله فعل مثل ذلك . انقضت أخبار شارية .

ذكر أخبار بَذْل

قال أبو الفرج : كانت بذل صفراء مولَّدة من مولّدات المدينة وربيت بالبصرة ، وهى إحدى المحسنات المتقدّمات الموصوفات بكثرة الرواية ، يقال : إنها كانت تغنّى ثلاثين ألف صوت . قال : ولها كتاب فى الأغانى منسوب الأصوات [غير مجنّس](١) ١٥ يشتمل على آثنى عشر ألف صوت ، يقـال : إنها عملته لعلىّ بن هشام . قال : وكانت حُلوة الوجه ظريفة ضاربة متقدّمة ؛ وآبتاعها جعفر بن موسى الهادى فأخذها منه محمد الأمين وأعطاه مالا جزيلا . وأخذت بَذْل عن أبى سعيد مولى فائد ودَحْمان وفُلَيْح وآبن جامع و إبراهيم وطبقتهم .

(١) زيادة فى الأغانى .

وقال جحظة عن أبى حَشِيشة : وكانت أحسن الناس غناءً فى دهرها ، وكانت أستاذة كلّ مُحْسِن ومحسنة، وكانت أرْوَى خلق الله للغناء، وكانت لجعفر بن موسى الهادى، فوُصِفت لمحمد الأمين، فبعث إلى جعفر فسأله أن يُزِيره إيّاها فأبى، فأتاه الأمين إلى منزله فسمع مالم يسمع مثله قطّ؛ فقال لجعفر: يا أخى، بِعْنِى هذه الجارية؛ فقال له : يا سيِّدى، مثلى لا يبيع جاريةً؛ قال : هَبْها لى؛ قال : هى مُدَبَّرة؛ فاحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بَذْل إلى الحَرّاقة وآنصرف بها ؛ فلما أفاق جعفر سأل عنها ،فأُخبر بالخبر فسكت؛ فبعث إليه محمد من الغد، فجاء وبذْل جالسةٌ فلم يقل شيئا ؛ فلما أراد جعفر أن ينصرف قال الأمين : أوقِروا حرّاقة آبن عمىّ دراهم فأُوقِرت ، فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم . وبقيت بذل عند الأمين إلى أن قُتِل ثم خرجت ، فكان ولد جعفر وولد الأمين يدّعون ولاءها، فلما ماتت ورثها ولد الأمين .

وقال محمد بن الحسن الكاتب : إن الأمين وهبها من الجوهر ما لم يملك أحد مثله، فسلم لها بعد مقتل الأمين،فكانت تبيع منه الشيء بعد الشيء بالمال العظيم ، فكانت على ذلك مع ما يصل إليها من الخلفاء إلى أن ماتت وعندها منه بقيّة عظيمة . قال : ورغب إليها وجوه القُوّاد والكُتّاب والهاشميّين فى التزويج فأَبَتْه، وأقامت على حالها حتى ماتت .

وحكى أبو حشيشة قال :كنت يوما عند بذل وأنا غلام، وذلك فى أيّام المأمون وهو ببغداد،وهى فى طارمة لها تَمْتَشِط ، فخرجتُ إلى الباب فرأيت الموكب فظننت أن الخليفة يمرّ على ذلك الموضع ، فرجعت إليها فقلت : يا سيّدتى، الخليفةُ يمرّ على بابك؛ فقالت : انظُرْ أىّ شىء هذا ، إذ دخل بوّابها فقال : علىّ بن هشام بالباب؛ فقالت : وما أصنع به؟ فقامت إليها جاريتها وَشيك ، وكانت ترسلها إلى الخليفة

وغيره فى حوائجها ، فأكبّت على رجلها وقالت : الله! الله! أتحتجبين على علىّ بن هشام! فدعت بمنديل فطرحته على رأسها ولم تقم إليه؛ فقال: إنى جئتك بأمر سيّدى أمير المؤمنين، وذلك أنه سألنى عنك فقلت له : لم أرها منذ أيّام؛ فقال: هى عليك غَضْبَى، فبحياتى لا تدخل منزلك حتى تدخل إليها فتسترضيها! فقالت : إن كنت جئتما بأمر الخليفة فأنا أقوم، فقامت فقبّلت رأسه ويديه، وقعد ساعة وآنصرف؛ فقالت : ياوَشِيك، هاتى الدواةَ وقرطاسًا ففعلت، فجعلت تكتب فيه يومها وليلتها حتى كتبت آثنى عشر ألف صوت، وقيل : سبعة آلاف صوت، ثم كتبت إليه : ياعلىّ بن هشام، تقول : استغنيتُ عن بَذْل بأربعة آلاف صوت أخذناها منها! وقد كتبت هـذا وأنا ضَجِرة، فكيف لو فرّغتُ لك قلبى كلّه ! وختمت الكتاب وقالت لها : امضِى به إليه؛ فما كان أسرع من أن جاء رسوله — خادم أسود يقال له مُخارِق — بالجواب يقول فيه: ياسيّدتى، لا والله ما قلتُ الذى بلغك، ولقد كُذب علىّ عنـدك، إنما قلت : لا ينبغى أن يكون فى الدنيا أكثر من أربعـة آلاف صوت، وقد بعثتِ إلىّ بديوان لا أؤدّى شكرك عليه أبدا؛ وبعث إليها بعشرة آلاف درهم وتُخُوت فيها بَزّ[1] ووَشْى ومُلَح وتَخْتًا مُطْبَقًا فيه أنواع الطِّيب .

وقيل : إن إبراهيم بن المهدىّ كان يعظّمها ، ثم يرى أنه يستغنى عنها بنفســه؛ فصارت إليه، فدعت بعُود فغنّت فى طريقة واحدة وآنقطاع واحد وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرف إبراهيم منها صوتًا واحدًا، ثم وضعت العُود وآنصرفت، ولم تدخل داره حتى طال طلبه لها وتضرّعه إليها فى الرجوع إليه .

وقال أحمد بن سعيد المالكىّ: إن إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ خالف بَذْلًا فى نسبة صوت غنّته بحضرة المأمون، فأمسكت عنه ساعة ثم غنّت ثلاثة أصوات فى الثقيل

(١) فى الأغانى : خزّ .

الثانى واحدًا بعـد واحد ، وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرفه ؛ فقالت للمأمون : هى والله لأبيــه أخذتُها من فيه ، فإذا كان لا يعرف غناء أبيــه فكيف يعرف غناء غيره! فاشتدّ ذلك على إسحاق حتى رُئى ذلك فيه .

وقال حمّاد بن إسحاق غنّت بَذْل بين يدى أبى

إن تَرَيْنِي ناحلَ البَـدَنِ * فلِطُولِ الهمّ والحَزَنِ

كان ما أَخْشَىٰ بواحدَتِى * ليتَــه والله لم يَكُنِ

قال : فطرِب أبى طرَبًا شـديدًا وشرب رِطلًا وقال لهـا : أحسنتِ يا ٱبنتى ، والله لا تغنين صوتا إلا شربت عليه رطلا .

انتهت أخبار بذل .

ذكر أخبار ذَاتِ الخَـال

قال أبو الفرج الأصبهانىّ : وٱسم ذات الخال خشْف ، وكانت لابى الخطّاب النخّاس المعروف بقرين مولى العبّاسة بنت المهدىّ ، وكانت ذات الخال من أجمل النساء وأكملهنّ ، وكان لها خال فوق شفتها العُليا ، وقيل : على خدّها . وكان إبراهيم الموصلىّ يتعشّقها ، وله فيها أشـعار كثيرة كان يقولها ويغنّى فيها حتى شَهَرها بشعره وغِنائه ؛ وٱتصل خبرها بالرشيد فاشتراها بسبعين ألف درهم ؛ فقال لها ذات يوم : أسألك عن شىء ، فإن صَدَقْتِنى وإلا صدقنى غيرُك وكذّبتك ؛ قالت : أصدُقك ؛ قال : هل كان بيدك وبين إبراهيم الموصلىّ قطّ شىءٌ ؟ وأنا أحلفـه أن يَصْدُقَنى ؛ قال : فسكتت ساعةً ثم قالت : نعم مرّة واحدة ، فأبغضها ؛ وقال يوما فى مجلسه : أيّكم لايبالى أن يكون كَشْخَانا (١) حتى أَهَبَهُ ذاتَ الخال؟ فبدر حَمَوَيْهِ الوَصيف فقال : أنا ، 

(١) الكشخان : الديُّوث .

فوهبها له ؛ ثم آشتاقها الرشيد يوما فقال : و يلكَ ياحمَوَيْهِ ! وهبْنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، مُرْ فيها بأمرك ؛ قال : نحن عندك غدًا ؛ فمضى فاستعدّ لذلك وآستعار لها من بعض الجوهريّين بَدَنَة[1] وعقودا ثمنُها اثنا عشر ألف دينار ، فأخرجها إلى الرشيد وهى عليها ، فلما رآه أنكره وقال : و يلك يا حمَوَيْهِ ! من أين لك هذا؟ ما ولّيتك عملًا تَكْسِب فيه مثلَه ولا وصل إليك منّى هذا القدْر ! فصدَقه عن أمره ، فبعث الرشيد إلى أصحاب الجوهر ، فأحضرهم وآشترى الجوهر منهم ووهبه لها ، وحلف ألّا تسأله فى يومه ذلك حاجةً إلّا قضاها ، فسألته أن يُوَلّى حمَوَيْهِ الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، ففعل ذلك وكتب له عهده بذلك ، وشرط على ولىّ العهد أن يتمّمها له إن لم تتمّ فى حياته .

قال الأصفهانىّ : ولإبراهيم الموصلىّ فى ذات الخال شعر كثير غنّى فيه ، فمنه قوله

أذاتَ الخالِ قد طال * بمن أسقَمْتِهِ الوَجَع
وليس إلى سواكم فى الّذى يَلْقَى له فَزَعُ
أَمَا يمنعُكِ الإسلا * مُ من قَتْلِى ولا الوَرَعُ؟
وما ينفَكُّ لى فِيكِ * هَوًى تَغْتَرُّهُ خُدَعُ

ومنها

جزى الله خيرا من كَلِفْتُ بحبّه * وليس به إلا التموّهُ من حُبّى
وقالوا : قلوبُ الغانياتِ رقيقةٌ ، * فما بالُ ذاتِ الخال قاسيةَ القَلْبِ
وقالوا لها : هذا بحُبّكِ مُعْرِضًا * فقالت لهم : إعراضُه أيسرُ الخَطْبِ
فما هى إلّا نظرةٌ بتَبَسُّمٍ * فتنشَبُ رِجلاهُ ويسقُطُ للجَنْبِ

وله فيها أشعارٌ كثيرة غير ما أوردناه .

(١) قميص لا كمّين له تلبسه النساء .

ذكر أخبار دنانير البرمكيّة

قال أبو الفرج: كانت دَنَانِير مولاة يحيى بن خالد البرمكىّ، وكانت صفراء مولّدة، من أحسن الناس وجها وأظرفهم وأكملهم أدبًا وأكثرهم رِوايةً للغناء والشعر، ولها كتاب مجرّد فى الأغانى مشهور. وكان آعتمادها فى غِنائها على ما أخذته من بَذْل، وهى خرّجتها، وقد أخذت أيضا عن الأكابر الذين أخذت بذْل عنهم مثل فُلَيْح و إبراهيم وآبن جامع و إسحاق ونظرائهم. وكانت تغنّى غناءَ إبراهيم فتَحْكِيه فيه حتى لا يكون بينهما فرق، فكان يقول ليحيى: متى فقدتنى ودنانيرُ باقيةٌ فما فقدتنى.

وقال أحمد بن المكىّ: كانت دنانير لرجل من أهـل المدينـة، كان قد خرّجها وأدّبها، وكانت أروَى الناس للغناء القديم، وكانت صفراء صادقة الملاحَة، فلما رآها يحيى وقعت من قلبه موقِعًا فاشتراها، وشُغِف بها الرشيدُ حتى كان يصير إلى منزل مولاها فيسمعها، فألِفها وآشتدّ إعجابه بها، ووهب لها هِبَاتٍ سَنِيّة، منها أنه وهب لهـا فى ليلة عِقْدًا قيمته ثلاثون ألف دينار، فردّنه عليه فى مصادرة البرامكة بعـد ذلك. وعرفت أمّ جعفر الخبر فشكته إلى عُمُومته وأهله، فصاروا جميعا إليه فعاتبوه، فقال: مالى فى هذه الجارية أَرَبٌ فى نفسها، و إنمـا أربى فى غِنائها، فاسمعوها فإن آستحقّت أن تُؤْلَف لغنائها وإلّا فقولوا ما شئتم، فلما سمعوها عذروه، وعادوا إلى أمّ جعفر وأشاروا عليها ألّا تُلِحّ فى أمرها، فقبلت ذلك، وأهدتْ إلى الرشيد عشر جوارٍ منهنّ أمُّ المأمون وأمّ المعتصم وأمّ صالح.

وقال عمر بن شَبّة: إن دنانير أصابتها العلّة الكلبيّة فكانت لا تصبر عن الطعام ساعة واحدة، وكان يحيى يتصدّق عنهـا فى كلّ يوم من شهر رمضان بألف دينارٍ لأنها كانت لا تصومه وبقِيتْ عند البرامكة مدّة طويلة.

وقال إسحاق وأحمد بن الطيّب : إن الرشيد دعا بدنانير بعد البرامكة فأمرها أن تغنّى، فقالت : يا أمير المؤمنين، إنى آليتُ ألّا أغنّى بعد سيّدى أبدا، فغضب وأمر بصفعها فصُفِعتْ ، وأُقيمتْ على رجليها وأُعطيت العُود ، فأخذته وهى تبكى أحرّ بُكاء، وآندفعت فغنّت

٥ يا دارَ سَلْمىٰ بنازح السَّنَدِ * من الثنايا ومَسْقَط اللّبَدِ
لمّا رأيتُ الديار قد دَرَستْ * أيقنتُ أنّ النعيمَ لم يَعُدِ

قال : فرقّ لها الرشيد، وأمر بإطلاقها فانصرفت

وقال أبو عبد الله بن حمدون : إن عَقِيدًا مولى صالح بن الرشيد خطب دنانير وشُغِف بها فردّته ، فاستشفع إليها بمولاه صالح بن الرشيد وبِبَذْل والحسن بن مُحْرِز
١٠ فلم تُجِب، وأقامت على الوفاء لمولاها، فكتب إليها عقيد

يادنانير قد تنكّر عقلى * وتحيّرتُ بين وَعْدٍ ومَطْلِ
شَغَفى شافعى إليك و إلّا * فاقتُلِينى إن كنت تَهْوَيْنَ قَتْلِى
أنا بالله والأمير وما آ * مُل من موعِدِ الحسين وبَذْل
ما أُحِبُّ الحياةَ ياحِبّ إن لم * يجمعِ اللهُ عاجِلًا بِك شَمْلِى

١٥ فلم يعطفها ذلك عليه، ولم تزل على حالها حتى ماتت . ولعَقِيدٍ هذا فيها أشعارٌ فيها غناء، وكان عقيد حَسَن الغناء، وله فيها أصوات منها قوله

هَذِى دنانيرُ تنسانى وأذكُرُها * وكيف تَنْسَى مُحِبًّا ليس ينساها
أعوذُ بالله من هِجْرانِ جاريةٍ * أصبحتُ من حُبِّها أهذِى بذكراها
قدأُكْمِلَ الحُسْنُ فى تركيب صُورتِها * فارتَجّ أسفلُها وآهتزّ أعلاها
٢٠ قامت لتمشِى فليت اللهَ صوّرنى * ذاكَ الترابَ الذى مسّتْهُ رِجْلاها
والله والله لو كانت، إذا برزت، * نفسُ المتيم فى كَفَّيْهِ ألقاها

ذكر أخبار عريب[1] المأمونيّـــة

قال أبو الفرج الأصفهانىّ: كانت عريب مغنّية مُحسنة، وشاعرة صالحة الشعر، وكانت مليحة الخطّ والمذهبِ فى الكلام، ونهايةً فى الحسن والجمال والظَّرْف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصَّـنْعة والمعرفة بالنَّغم والأوتار والرواية للشـعر، لم يتعلّق بها أحد من نظرائها، ولا رُئى فى النساء — بعد القِيانِ الحجازيّات مثل جميلة وعَزّة المَيْلاء وسلّامة الزرقاء ومن جرى مَجْراهن على قِلّة عددهن — نظيرٌ لها. قال: وكان فيها من الفضائل التى وصـفناها ما ليس لهنّ ممـا يكون فى مثلها من جوارى الخلفاء ومن نشأ فى قصور الخلفاء وغُذِى برقيق العيش الذى لا يدانيه عيش الحجاز والمَنْشأ بين العامّة والعرب الجُفَاة. قال: وقد شهد لها من لا تحتاج مع شهادته إلى غيره، فرُوِى عن حمّـاد بن إسحاق قال: قال أبى: مارأيتُ آمرأة أضربَ من عريب، ولا أحسنَ صنعةً ووجها، ولا أخفَّ رُوحا، ولا أحسنَ خطابا بارعا، ولا أسرعَ جوابا، ولا ألعبَ بالشِّطْرَنْج والنَّرْد، ولا أجمع لخَصْلة حسـنة لم أرها فى آمرأة غيرها قط. قال حمّاد: فذكرت ذلك ليحيى بن أكثم، فقال: صـدق أبو محمد، هى كذلك. قلت أفَسمعتَها؟ قال: نعم هناك، يعنى فى دار المأمون. قلت: أفكانت كما ذكر أبو محمد فى الحِذْق؟ قال يحيى: هذه مسئلةٌ الجوابُ فيها على أبيك،

---

(١) ضبطنا هذا الآسم حيثما كان يرد فيما مضى من هذا الجزء بضم أوّله وفتح ثانيه معتمدين فى ذلك على أن رأيناه مضبوطا بهذا الضبط فى الأغانى ج ٢١ ص ١٨٤ طبع ليدن وفى المحاسن والأضـداد للجاحظ ص ١٩٧ طبع ليدن. ولكن رأينا فى الأغانى من الشعر ما يؤيد أن ضبطه بفتح أوّله وكسر ثانيه؛ ومن هذا الشعر

لقـد ظلموك يامظلوم لمـا * أقاموك الرقيب على عريب
ولو أولَوْك إنصـافا وعدلا * لمـا أخلَوك أنت من الرقيب

ومن هذا الشعر أيضا

قاتل الله عريبـا * فعلت فعـلا عجيبا

فليتنبه لهذا

هو أعلم منّى بها ، فأخبرت أبى بذلك فضحك ثم قال : أَمَا ٱستَحْيَيتَ من قاضى القضاة أن تسأله عن مثل هذا ؟

وقال إسحاق ٱبن إبراهيم الموصلىّ : استدعانى المأمون يومًا فدخلت عليه، فسألنى عن صوت وقال لى : أتدرى لِمَنْ هو ؟ فقلت : أسمعه ثم أُخبر أمير المؤمنين إن شاء الله بذلك ؛ فأمر جاريةً من وراء السِّتارة أن تُغنِّيه ، فضربت فإذا هى قد شبَّهته بالقديم ؛ فقلت : زِدْنى معها عُودا آخر، فإنّه أثبتُ لى ، فزادنى عُودا آخر ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا صوتٌ مُحْدَثٌ لٱمرأة ضاربة ؛ قال : من أين قلت ذلك ؟ فقلت إنى لمّا سمعت لِينَه عرفت أنه محدَث من غناء النساء، ولما رأيت جَوْدة مقاطعه علمت أنّ صاحبته ضاربة حفظت مقاطعه وأجزاءه ، ثم طلبت عودا آخر فلم أشكّ ؛ قال : صدقت ، الغناءُ لعريب .

وقال ٱبن المعتزّ : قال علىّ بن يحيى : أمرنى المعتمد على الله أن أجمع غِناء عريب الذى صنعته ، فأخذت منها دفاترها وصحفها التى كانت قد جمعت فيها غِناءها ، فكتبته فكان ألف صوت ، وقد قيل أكثر من ذلك . وقد وصفها أبو الفرج الأصفهانىّ وأطنب فى وصفها وتفضيلها ، وٱستدلّ على ذلك وبسط القول فيه .

وأمّا ما قيل فى نسبها وسنّها وكيف تنقّلت بها الحال إلى أن ٱتصلت بالمأمون ، فقد رُوِى عن إسماعيل بن الحسين خال المعتصم أنها ٱبنة جعفر بن يحيى ، وأن البرامكة لما نُهِبُوا سُرِقت وهى صغيرة فبِيعتْ . قال أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المراكبىّ : إن أمّ عريب كانت تسمَّى فاطمة وكانت يتيمة ، فتزوّجها جعفر بن يحيى بن خالد ، فأنكر عليه أبوه ، وقال له : تتزوّج بمن لا يُعْرَفُ لها أمّ ولا أب ! اشترِ مكانها ألف جارية ؛ فأخرجها جعفر وأسكنها فى دار فى ناحية باب الأنبار سرّا من أبيه ، ووكّل

بهـا من يحفظها ، وكان يتردّد إليها فولدت عريب فى سنة إحدى وثمـانين ومائة ، وكانت سِنُوها إلى أن ماتت ستّا وتسعين سنة . قال : وماتت أمّ عريب فى حياة جعفر ، فدفعها إلى آمرأة نَصرانيّة وجعلها داية لها ، فلمـا حدثت بالبرامكة تلك الحادثة باعتها من سنبس النّخاس ، فباعها من المراكبيّ .

قال آبن المعتزّ : وأخبرنى يوســف بن يعقوب قال : كنت إذا نظرتُ قدمَىْ عريب شبّهتهما بقدمى جعفر بن يحيى ؛ قال : وسمعت من يحكى أنّ بلاغتها فى كتبها ذكرت لبعض الكُتّاب . فقـال : وما يمنعها من ذلك وهى بنت جعفر بن يحيى ؟ هذا ملخّص ما حكاه أبو الفرج فى نسبها .

وأمّا أخبارها مع من ملكها وكيف تنقّلت بهـا الحال ، فقد حكى آبن المعتزّ عن الهشامىّ أن مولاها خرج بها إلى البَصْرة فأدّبها وخرّجها وعلّمها الخطّ والنحو والشعر والغِناء ، فبرعت فى ذلك أجمع . وتزايدت حتى قالت الشعر ؛ وكان لمولاها صديق يقال له : حاتم بن عدىّ من قُوّاد خُراسان ، وقد قيل : إنه كان يكتبُ لعُجَيْف على ديوان العرض ، فكان مولاها يدعوه كثيرا و يخالطه ، فركبه دَين فاستتر عنده ، فمدّ عينه الى عريب وكاتبها فأجابته . ودامت المواصلة بينهما وعشقته ، ثم آنتقل من منزل مولاها ؛ فلم تزل تحتال حتى آتّخذت سُلَّما من سَـقْب[1] ، وقيل : من خيوط غِلاظ ، وكان قد آتخــذ لها موضعا ، ثم لفّت ثيابها وجعلتها فى فراشها بالليل ودثّرتها بدثارها ، ثم تسوّرت الحائط وهربت وأتته فمكثت عنده ، ومولاها لا يتّهمه بشىء من أمرها ؛ فقال عيسى بن عبــد الله بن إسمـاعيل المراكبىّ يهجو أباه و يُعَيِّره بها وكان كثيرا ما يهجوه

(١) عامود الخباء .

قاتل الله عريبا * فعلتْ فِعْلا عجِيبَا
رِكبَتْ والليلُ داجٍ * مَرْكَبًا صَعْبا مَهِيبَا
فارتقت متّصلا بالنجم أو منه قريبا
صَبَرَتْ حتى إذا ما * أَقْصَدَ النومُ الرقيبا
٥ مثّلت بين حشايا * ها، لِكَيْلا تستريبا
خَلَقًا منها إذا نو * دى لم يُلْفَ(١) مُجِيبَا
ومضتْ يحمِلُها الخَوْ * فُ قَضِيبًا وكثِيبَا
مُحّةٌ لو حُرِّكت خِفْ * ت عليها أن تَذُوبا
فتدلّتْ لمُحِبٍّ * فتلقّاها حَبِيبا
١٠ جَذِلًا قد نال فى الدُّنْـ * ـيَا من الدنيا نَصِيبا
أيها الظّبىُ الّذى تسـ * ـحَرُ عيناهُ القلوبا
والّذى يأكل بعضًا * بعضُه حُسْنًا وطِيبا
كنتَ نَهْبًا لذئابٍ * فلقد أطعمتَ ذِيبا
وكذا الشاةُ إذا لم * يَكُ راعِيها لبيبا
١٥ لا يُبَالِي وَبَأَ المر * عى إذا كان خَصِيبا
ولقد أصبح عبد اللّـ * ـه كَشْخَانا حَرِيبا
قد لَعَمْرِى لطم الخدّ وقد شقّ الجُيُوبا
وجرتْ منه دموعٌ * بَلّتِ الذّقْنَ الخضيبا

قال ابن المعتزّ : وحدّثنى محمد بن موسى بن يونس أنها ملّته بعد ذلك فهربت
٢٠ منه، فكانت تغنّى عند أقوام عرفتهم ببغداد وهى مستترة متخفّية، فلما كان يومٌ

(١) كذا بالأغانى، وفى الأصل : لم تلق .

من الأيام آجتاز آبن أخى المراكبىّ ببُسـتانٍ كانت فيه مع قوم تغنّى ، فسمع غِناءها فعرفه ، فبعث إلى عمّه وأقام هو مكانه ، فلم يبرح حتى جاء عمّــه وكبسها ، فأخذها وضربها مائة مِقْرَعة وهى تصيح : يا هذا ، لِمَ تقتلنى ! لستُ أصبِر عليك ، أنا آمرأة حُرّة فإن كنت مملوكة فبعنى ، لست أصـبر على الضيق ؛ فلما كان من الغد نِدم على فعله وصار إليها فقبَّـل رأسها ويدَها ورجلَها ووهب لها عشرة آلاف درهم ، ثم بلغ محمدا الأمين خبرُها فأخذها . قال : وكان الأمين فى حياة أبيه طلبها منه فلم يُجبه إلى ذلك ، فلما أفضتْ إليـه الخلافة جاء المراكبىّ ومحمد راكبٌ ليُقبِّل يدَه فأمر بمنْعِهِ ودَفْعِهِ ، ففعل ذلك الشاكرىّ (١) ، فضربه المراكبىّ وقال : أتمنعنى من تقبيل يد مولاى ! فجاء الشاكرىّ لمـا نزل محمد الأمين فشكاه ، فأمر بإحضار المراكبىّ وأمر بضرب عُنُقه ، فسئل فى أمره فعفا عنه وحبسه ، وطالبه بخمسمائة ألف درهم مما آقتطعه من نفقات الكُراع ، وبعث فأخذ عريبَ من منزله مع خدم كانوا له ؛ فلما قُتِـل محمد الأمين هرَبت عريب الى المراكبىّ فكانت عنـده . قال آبن المعتز : وأما رواية إسماعيل بن الحسن خال المعتصم فإنها تخالف هذا ، وذكر أنها إنمـا هرَبت من دار مولاها المراكبىّ إلى محمد بن حامد الخاقانىّ المعروف بالخشِن أحد قوّاد خُراسان ، وكان أشقر أصهب أزرق العين ، وفيه تقول عريب ولها فيه غناء

بأبى كلَّ أصهَبِ ... أَزْرقِ العَيْنِ أشقَرِ

جُنَّ قلبى به وليـــس جُنُونى بِمُنْكَرِ

وقال إسحاق بن إبراهيم : لمـا نمى إلى الأمين خـبر عريب بعث فى إحضارها وإحضار مولاها فأُحضرا ، فغنّت بحضرة إبراهيم بن المهدىّ فطرِب الأمين وآستعادها ، وقال لإبراهيم : كيف سمعت ؟ قال : سمعت يا سـيِّدى حَسَنا ، وإن

(١) فى القاموس : الشاكرى الأجير والمستخدم وهو معرب چاكر .

تطاولت بها الأيّام وسكن روْعُها آزداد غناؤها حُسْنا وطِيبا؛ فقال للفضل بن الربيع : خذها إليك وساوِمْ بها ففعل، فاشتطّ مولاها فى السَّوْم ثم أوجبها له بمائة ألف درهم؛ وآنتقض أمر الأمين وشُغِل عنها فلم يأمر لمولاها بشئ حتى قُتل بعد أن آفتضّها؛ فرجعت إلى مولاها ثم هربت منه إلى آبن حامد، فلم تزل عنده حتى قدِم المأمون بغداد، فتظلّم المراكبىّ من محمد بن حامد فأمر المأمون بإحضاره وسئل عنها فأنكرها، فقال له المأمون : كذبتَ ، وقد سقط إلىّ خبرك ، وأمر صاحبَ الشُّرَط أن يجرّده فى مجلس الشرط و يضع عليه السِّياط حتى يردّها فأخذه، فبلغها الخبر فركبت حمار مُكارٍ وجاءت وقد جرّد ليضرب ، وهى مكشوفة الوجه وهى تصيح : إن كنتُ مملوكة فليبِعْنى ، و إن كنت حُرّة فلا سبيل علىّ ، فرُفع خبرُها إلى المأمون فأمر بتعديلها عند قُتَيبة بن زياد القاضى فعدّلت عنده؛ وتقدّم إليه المراكبىّ مطالبا بها، فسأله البيِّنة على ملكه إيّاها ، فعاد متظلّما إلى المأمون وقال : قد طُولبتُ بما لم يُطالَبْ به أحد فى رقيق ، وتظلّمتْ زُبَيدة آبنة جعفر إليه وقالت : مِنْ أغلظِ ما جرى علىَّ بعد قتل آبنى هجومُ المراكبىّ على داره وأخذُ عَرِيب منها؛ فقال المراكبىّ : إنما أخذت مِلكى، لأنه لم ينقُدنى الثمن، فأمر المأمون بدفعها إلى محمد بن عمر الواقدىّ، وكان قد ولّاه القضاء بالجانب الشرقىّ، فأخذها من قُتَيبة بن زياد وأمر ببيعها ساذجة، فآشتراها المأمون بخمسين ألف درهم، وقيل : آشتراها بخمسة آلاف درهم، ودعا عبد الله بن إسماعيل وقال له : لولا أنى حلفت ألّا أشترى مملوكا بأكثر من هذا لزدتك ، ولكنّى سأُولّيكَ عملا تكسِب فيه أضعاف هذا الثمن ، و رمى إليه بخاتَمين من ياقوت أحمر قيمتهما ألفُ دينار، وخلع عليه خلعًا سنيّة؛ فقال يا أمير المؤمنين، إنما ينتفع بهذا الأحياء ، وأما أنا فإنّى لا محالة ميّت لأن هذه الجارية كانت حياتى؛ وخرج فاختلط وتغيّر عقلهُ ومات بعد أربعين يوما . وذهبتْ بالمأمون كل

مَذهب ميلًا إليها ومحبّة لها، حتى قيل : إنّ المأمون قبّل رجلها فى بعض الأيام و إنها قالت إثْر ذلك : والله يا أمير المؤمنين ، لولا ما شرّفها الله به من وضع فمك الكريم عليها لقطعتها! ولكن لله علىّ ألّا أغسلها لغير وضوء أو طُهر إلّا بماء الورد ما عشت، فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت .

٥ وحكى على بن يحيى المنجّم أن المأمون لمـا مات بِيعتْ فى ميراثه، ولم يُبَعْ له عبدٌ ولا أَمَةٌ غيرُها ، فاشـتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهى مولاته . وقيـل : إنه لمّـا مات محمد الأمين تدلّت عَرِيب من قصر الخُلْد بحبل إلى الطريق وهربت إلى حاتم بن عدىّ .

وحكى إبراهيم بن رَبَاح قال : كنت أتولَّى نفقاتِ المأمون ، فوَصَف له إسحاقُ ١٠ آبن إبراهيم الموصلىّ عَرِيب ، فأمره أن يشتريها له ، فآشـتراها بمائة ألف درهم ، فأمرنى المأمون بحملها ، وأن أحمـل إلى إسحاق مائة ألف درهم ، ففعلت ذلك ؛ فـلم أدر كيف أثبتها ، فكتبتُ فى الديوان أن مائة الألف خرجت فى ثمن جوهرة ، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودلالها ؛ فجاء الفضل بن مروان إلى المأمون وقد رأى ذلك وأنكره ، وسألنى عنه فقلت : نعم ، هو ما رأيتَ ، فسأل المأمونَ عن ذلك ١٥ فقال : وهبتَ لدلّال وصائغ مائة ألف درهم ! وغلّظ القِصّـة ، فأنكرها المأمون ، ودعانى فدنوت وأخبرته أن المال الذى خرج فى ثمن عَرِيب وصِلةِ إسحاق ، وقلت : أيّمـا أصوبُ يا أمير المؤمنين : ما فعلتُ ، أم أثبت فى الديوان أنها خرجت ثَمَنَ مُغَنِّية وصـلةَ مُغَنّ ؟ فضحك المأمون وقال : الذى فعلتَ أصوب ؛ ثم قال للفضل آبن مروان : يا نبطىّ ، لا تعترض على كاتبى هذا فى شىء .

٢٠ ولعَرِيب أخبار قد بسط أبو الفرج الأصبهانىّ القول بهـا فى كتابه الذى تَرْجَمه "تحف الوسائد فى أخبـار الولائد" ، وذكر أيضا نُتَفًا من أخبارها فى كتابه المترجم

"بالأغانى"، منها خبرها مع محمد بن حامد المعروف بابن الخَشِن، وأخبارٌ لها مع المأمون، وأخبار مع صالح المنذرىّ الخادم، وإبراهيم بن المدبّر، وغير ذلك من أخبارها. وقد رأينا أن نثبت لُمَعا مع ذلك.

***

أما أخبارها مع محمد بن حامد، وهو أحد من كانت تعشقه وتهواه وتخاطر بنفسها فى الاجتماع به، فمنها ما روى عن ابن عبد الملك الضرير أنها لما صارت فى دار المأمون احتالت حتى وصلت إليه، وكانت تلقاه فى الوقت بعد الوقت حتى حملت منه وولدتْ بنتا، فبلغ ذلك المأمون فزوّجه إياها. وقال محمد بن موسى: اصطبح المأمون يوما ومعه ندماؤه وفيهم محمد بن حامد وجماعة من المغنِّين وعريب معه على مصلّاة، فأومأ إليها محمد بن حامد بقُبْلة فاندفعت فغنّت ابتداء

رمى ضَرْع نابٍ فاستمرّ بطَعْنةٍ * كحاشية البُرْدِ اليمانِى المُسَهَّم

تريد بغنائها جوابَ محمد بن حامد بأن تقول له: طعنة، فقال المأمون للنُّدماء: أيُّكم أومأ إلى عريب بقُبْلة؟ والله لئن لم يصدُقْنى لاضربنّ عنقُه! فقال محمد بن حامد: أنا يا أمير المؤمنين أومأت إليها، والعفو أقرب للتقوى؛ فقال: قد عفوت عنك؛ فقال: كيف استدلّ أميرُ المؤمنين على ذلك؟ فقال: ابتدأَتْ صوتا، وهى لا تغنّى ابتداء إلّا لمعنى، فعلمتُ أنها لم تبتدئ هذا الصوت إلّا لشىء أُومِئ إليها به، ولم يكن من شرط هذا الموضع إلّا إيماءٌ بقُبْلة، فعلمت أنها أجابته بطَعْنة. وقد حُكى أن المأمون قال فى هذه الواقعة عن محمد بن حامد: نُكَشْخِنه قبل أن يُكَشْخِننا[1]، فزوّجه إياها واشترط عليه أن يُحْضرها إلى مجلسه فى أوقات عيّنها له المأمون.

---

(١) كشخنه وكشّخه: شتمه بالكشخنة وهى الدِّياثة وعدم الغيرة.

وقال حمدون: كنت ليلة فى مجلس المأمون ببلاد الروم بعد العشاء الآخرة فى ليلة ظلماء ذات رُعُود و بُرُوق ، فقال لى المأمون : اركَبْ الساعة فرس النَّوْبة وسِرْ إلى عسكر أبى إسحاق، يعنى المعتصم، فأدِّ إليه رسالتى وهى كيت وكيت، فركبت فلم تثبت معى شمعــة ، وسمعت وقْع حافر دابّة فرهِبتُ ذلك فجعلت أتوقّاه حتى صكّ ركابى تلك الدابّة، و برقت بارقة فأبصرت وجه الراكب فإذَا عرِيب، فقلت : عريب؟ قالت : نعم، حمدون؟ قلت : نعم؛ ثم قلت لها : من أين أقبلتِ فى هذا الوقت؟ قالت : من عند محمــد بن حامد؛ قلت : وما صنعتِ عنده ؟ قالت : يا نِكْس، عريبُ تجىء فى هذا الوقت من عند محمد بن حامد خارجةً من مَضْرِب الخليفة راجعةً إليه تقول لها: أىَّ شىء عملت معه ! صلّيتُ معه التراويح ، أو قرأت عليه أجزاءً من القرآن، أو دارستُه شيئا من الفقه! يا أحمق، تحادثنا وتعاتبنا وٱصطلحنا ولعِبنا وشرِبنا وغنّينا وٱنصرفنا ؛ قال : فأخجلتنى وغاظتنى وٱفترقنا ؛ ومضيت فأدّيت الرسالة ؛ ثم عدت إلى المأمون وأخذنا فى الحديث وتناشدنا الأشعار ، فهمَمْت أن أحدّثه بحديثها ثم هِبْتُه، فقلت : أُقدّم قبل ذلك تعريضا بشىء من الشعر فأنشدته

أَلَا حىِّ أطلالًا لقاطعة الحَبْــلِ * أَلُوفٍ تُساوِى صالحَ القوم بالرَّذْلِ

فــلو أنّ ما أمسى بجانب تَلْعَــةٍ * الى جَبَــلَىْ طَيٍّ فساقطة الحبْــلِ

جُلُوسٌ إلى أن يقصر الظِّلّ عندها * لراحُوا وكلُّ القومِ منها على وصلِ

فقال لى المأمون: اخفِض صوتك لاتسمعُ عَرِيب فتغْضَب وتظنّ أنّا فى حديثها، فأمسكتُ عمّا أردتُ أن أُخبره به، وخار الله لى فى ذلك .

وقال محمد بن عيسى الواثقىّ : قال لى محمد بن حامد ليلةً : أُحبّ أن تُفَرِّغ لى مَضْرِبك ، فإنى أريد أن أجيئك فأقيم عندك، ففعلت وأتانى ؛ فلمـا جلس جاءت

عَريب فدخلتْ وجلسنا ، فجعل محمد يعاتبها ويقول : فعلتِ كذا وفعلت كذا !
فقالت لى : يا محمد، هذا عندك رأى؟ ثم أقبلت عليه فقالت : يا عاجز، خُذْ بنا فيما
نحن فيه ، وٱجعل سراويلى مِخْنَقتى وألصق خَلْخالِى بقُرْطى ، فإذا كان غدٌ فا كتب
بعتابك فى طُومار حتى أكتب اليك بعُذْرى فى مثله، ودع عنك هذا الفضول، فقد
٥ قال الشاعر

دَعِى عدَّ الذُّنوبِ إذا ٱلتقَيْنا * تعالَىْ لا نَعُدّ ولا تَعُدِّى
فأُقسمُ لو همَمْتِ بمدّ شَعْرى * إلى باب(١) الجحيم لقلت: مُدّى

وقال أحمد بن حمدون : وقع بين عريب وبين محمد بن حامد شرٌّ حتى كادا يخرجان
إلى القطيعة، وكان فى قلبها منه أكثرُ مما فى قلبه منها، فلقيتْه يوما فقالت : كيف
١٠ قلبك يا محمد ؟ قال : أشق ما كان وأَقْرحه ، فقالت : استَبْدِل تَسْلُ ، فقال لها :
لو كانت البلوى باختيار لفعلت! فقالت : لقد طال إذًا تَعَبُك ، فقال: وما يكون!
أصبِر مُكْرَهًا ! أما سمعتِ قول العبّاس بن الأحنف .

تَعَبٌ يطول مع الرجاء لِذِى الهَوَى * خيرٌ له من راحةٍ فى اليَاسِ
لولا كَرَامتُكم لَمَا عاتبتُكم * ولكنتُمُ عندى كبعض النَّاسِ

١٥ قال : فذرفت عيناها ، وٱعتذرت اليه وٱعتنقته وٱصطلحا وعادا إلى ما كانا
عليه .

وحكى أحمد بن جعفر بن حامد قال : لما تُوُفِّى عمّى محمد بن حامد صار جَدّى
إلى منزله ، فنظر إلى تركته وجعل يقلّب ما خلّف ، ويُخْرَج إليه منها الشيء بعد
الشيء إلى أن أُخْرِج إليه سَفَطٌ مختوم، ففضّ الخاتم وفتحه فإذا فيه رِقاع عَريب

---

٢٠ (١) بالأغانى : الى نار الجحيم .

إليه ، فجعل يتصفّحها ويبتسم ، فوقعتْ فى يده رُقْعة فقرأها ووضعها بين يديه ، وقام لحاجته فقرأتها فإذا فيها

وَيْلِى عَلَيك ومنْكا! * أوقعتَ فى الحقِّ شكّا

زَعَمْتَ أَنِّى خَؤُونٌ * جَوْرًا علىَّ وإفْكا

إن كان ما قلتَ حقًّا * أو كنتُ أزمعتُ تَرْكا

فأبدل الله ما بى * من ذِلَّة الحُبِّ نُسْكا

قال : وهذا الشعر لعرِيب .

* * *

وأما أخبارها مع المأمون و إخوته وغير ذلك من أخبارها ، قال صالح ابن على بن الرشيد المعروف بزعفرانة : تمـارَى خالى أبو علىّ والمأمون فى صوت ، فقال المأمون : أين عَرِيب ؟ فجاءت وهى محمومة ، فسألها عن الصوت ، فقالت فيه بعلمها ، فقال لها : غَنِّيه ، فولَّتْ لتجىء بالعُود ، فقال : غَنِّيه بلا عُود ، فاعتمدتْ من الحُمّى على الحائط وغنّت ، وأقبلت عقرب فرأيتها وقد لَسَبَتْ يدها مرّتين أو ثلاثا فما نَحَّتْ يدها ولا سكَنتْ حتى فَرَغَتْ من الصوت ، ثم سقطت وقد غُشِى عليها .

قال عثمان بن العَلَاء عن أبيه : عتب المأمون على عريب فهجرها[1] أيّاما ، ثم آعتلّت فعادها فقال : كيف وجدتِ طعمَ الهجر ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين ، لولا مرارة الهجر ما عُرِفتْ حلاوةُ الوصل ، ومن ذمّ بَدْء الغضب حمِد عاقبة الرضا ، فخرج المأمون إلى جلسائه فحدّثهم بالقِصّة ، ثم قال : أتُرَى لو كان هذا من كلام النَّظّام لم يكن كثيرا ؟

---

(١) كذا فى الأغانى ، وفى الأصل : فهجرته .

وقال أحمد بن أبى دؤاد : جرى بين المأمون وبين عريب كلام، فكلّمها المأمون بشىء غضبت منه فهجرته أيّاما، فدخلتُ على المأمون فقال: يا أحمد، اقض بيننا، فقالت عريب : لا حاجة لى فى قضائه ودخوله بيننا، وأنشأت تقول

ونخلط الهجرَ بالوصالِ ولا * يدخل(١) فى الصُّلح بيننا أَحَدُ

٥ وكانت قد تمكّنت من المأمون وأخذت بمجامع قلبه، وذهب به حبُّها كل مَذْهب؛ وقد قدّمنا أنه قبّل رجلها .

وكانت عريب تهوى أبا عيسى بن الرشيد أخا المأمون ، وكان المثل يضرب بحسنه وحسن غنائه ، وكانت تزعم أنها ما عشقت أحدا من بنى هاشم وأصفته من الخلفاء وأولادهم سواه . ولم تزل عَرِيب مُبَجَّلة عند الخلفاء محبوبة اليهم مكرّمة ١٠ لديهم إلى أن غضب عليها المعتصم والواثق وآنحرفا عنها، وكان سبب ذلك أنّ المعتصم وجد لها كتابا إلى العبّاس بن المأمون ببلد الروم تقول فيه : اقتُل أنت العِلْج حتى أقتل أنا الاعور ٱللَّيْلِىّ هٰهُنا ، تعنى الواثق ، وكان المعتصم آستخلفه ببغداد . ولَعَمْرِى إن هذا من الأمور العظيمة الّتى لا تُحْتَمل من الأولاد والإخوة فكيف من أَمَة مغنِّيَة! ولو لم تكن لها عندهم المكانة العظمى والمَحَلّ الكبير لما أبقَوْها بعد (٤٧) ١٥ الاطِّلاع من باطن حالها على هذه الطَّوِيّة . وكانت عريب تكايد الواثق فيما يصوغه من الألحان، وتصوغ فى ذلك الشعر تغنّيه لحنا فيكون أجود من لحنه .

قال : وكانت عريب تتعشَّق صالحا المنذرىّ الخادم فتزوّجته سرّا ، فحُكِى عنها أن بعض الجوارى دخلت عليها يوما ، فقالت لها عريب : ويحك ! تعالَىْ إلىّ ! فجاءت ، فقالت ، قَبِّلى هذا الموضع منّى ، فإنك تجدين ريح الجنّة ، وأومأت إلى ٢٠ سالفتها، ففعلت ثم قالت لها : ما السبب فى هذا؟ قالت قبّلنى الساعةَ صالح المنذرىّ فى هذا الموضع . قال : ووجَّهه المتوكّل إلى مكان بعيد فى حاجةٍ، فقالت عريب فيه

(١) كذا فى الأغانى، وفى الأصل : ولا يصلح .

امّا الحبيبُ فقد مَضَى * بالرَّغْم منِّى لا الرِّضا
أخطأتُ فى تَرْكِى لِمَنْ * لم أَلْقَ عنه مُعْرِضَا

وكانت عريب تهوى إبراهيم بن المدبّر ويهواها ، ولها معه أخبار وحكايات ، وبينهما أشعار وفكاهات ، فمن مكاتباتها إليه ما رُوِى عن ٱبن المعتزّ قال : كتبتْ إليه تدعو له فى شهر رمضان : أَفديك بسمعى و بصرى ، وَأَهَلّ الله عليك هذا الشهرَ باليُمْن والمغفِرة ، وأعانك على المُفْتَرَض منه والمُتَنَفَّل ، وبلّغك مثلَه أعواما ، وفرّج عنك وعنِّى فيه [(١)] . وكتبتْ فى شىء بلغها عنه : وَهَب الله لنا بقاءك مُمَتَّعا بالنِّعَم ، ما زلتُ أمسِ فى ذكرك ، فمرّةً بمدحك ، ومرة بأكلك وبذكرك بما فيك لَوْناً لونا ، اجْحَدْ ذنبك الآن ، وهاتِ حُجَج الكُتّاب ونِفاقَهم . فأمّا خبرُنا أمسِ فإنّا شرِبنا من فضل نبيذك على تَذْكارك رِطلا ، وقد رفعنا حسابنا إليك ، فارفع حسابك إلينا ، وخبِّرنا من زارك أمسِ وألهاك؟ وأىّ شىء كانت القِصّة على جهتها ؟ [ولا تخطرف[(٢)] فتُحوجنا إلى كشفك والبحث عليك وعن حالك][(٢)] ، وقل الحقّ فمن صدق [نجا] ، وما أحوجك إلى تأديب فإنك لا تحسن أن تودّ[(٣)] . [والحقّ أقول إنه يعتريك كُزَاز شديد يجوز حدّ البَرْد ، وكفاك بهذا من قولى عقوبة ، وإن عُدْتَ سمعتَ أكثر منه][(٢)] ، والسلام .

ولما نَكَب عبد الله بن يحيى بن خاقان ٱبنَ المدبّر وحبسه ، كتبتْ إليه كتابا تتشوّقه وتُخْبِره ٱستيحاشها له وٱهتمامها بأمره ، وأنها قد سألت الخليفة فى أمره فوعدها ما تحب ، فأجابها عن كتابها ، وكتب فى آخر الجواب

(١) فى الأصل : فيك .
(٢) زيادة فى الأغانى .
(٣) كذا فى الأغانى ، وعبارة الأصل : «وما أحوجك إلى تأديب فإنك لاتحسن أن تودنه» .

لَعَمْرُكَ ما صوتُ بديعٌ لمعبَدٍ * بأحسن عندى من كتاب عَرِيب
تأمّلتُ فى أثنائه خطّ كاتبٍ * ورِقّةَ مشتاقٍ ولفظَ خَطِيبِ
وراجعنى من وَصْلها ما آستفزّنى * وزهّدنى فى وصل كلّ حبيبِ
فصِرْتُ لها عبدًا مُقِرًّا بملْكِها * ومُسْتَمْسِكًا من ودّها بنصيبِ

٥ وقال أبو عبد الله بن حمدون : اجتمعتُ أنا و إبراهيم بن المدبّر وآبن ميّادة والقاسم آبن زرزر فى بُستان بالمَطِيرة فى يوم غَيْم ورَذَاذ يقطر أحسن قَطْر ونحن فى أطيب عيشٍ وأحسن يوم، فلم نَشعر إلّا بعَرِيب قد أقبلت من بَعِيد، فوثَب إبراهيم من بيننا فخرج حافيا حتى تلقّاها، وأخذ بِركابها حتى نزلت، وقبّل الأرض بين يديها، وكانت قد هجرته مُدّةً لشىء أنكرته عليه، فجاءت وجلست وأقبلت عليه متبسمة، ثم قالت :
١٠ إنما جئت إلى من هٰهنا لا إليك؛ فاعتذر وشفعنا له فرضيت، وأقامت عندنا يومئذ و باتت، وآصطبحنا من غد وأقامت عندنا، فقال إبراهيم

بِأَبِى مَنْ حقّق الظّنَّ به * وأتانا زائرًا مُبْتَدِيا
كان كالغيث تَراخَى مُدّةً * فأتى بعد قُنُوطٍ مُرْوِيَا
طَابَ يومانِ لنا فى قُرْبِه * بعد شهرَيْنِ لهجرٍ مَضَيَا
١٥ فأقرّ الله عينى وشَفَى * سَقَمًا كان لجسمى مُبْلِيا

وقال فيها أيضا

أَلَا يا عَرِيبُ وُقيتِ الرَّدَى * وَجنّبك الله صَرْفَ الزّمَنْ
فإنّك أصبحتِ زَيْنَ النّساء * وواحدةَ النّاس فى كلّ فَنّْ
فقُرْبك يُدْنِى لذيذَ الحياةِ * وبُعْدُك يَنْفِى لذيذَ الْوَسَنْ
٢٠ فنِعْمَ الأنيسُ ونعم الجليسُ * ونعم السميرُ ونعم السَّكَنْ

وقال أيضا فيها وفى جاريتها بِدْعة وتُحْفة

إنّ عَرِيبا خُلِقَتْ وَحْدَها * فى كلّ مايحْسُنُ من أمرِها
ونعمةٌ لِلّهِ فى خَلْقِــهِ * يُقَصِّر العـالَمُ فى شُكرِها
أشهدنى جاريتـاها على * أنّهما مُحْسِـنتَا دهرِهـا
فبِدْعةٌ تُبْـدِعُ فى شَجْوِها * وتُحْفَـةٌ تُتْحِف فى زَمْرِها ٥
يارِبّ أمتِعْها بمـا خُوِّلَتْ * وآمْدُدْ لها يارَبّ فى عُمْرِها

وقال علىّ بن العبّاس بن أبى طلحة الكاتب : كنت عند إبراهيم بن المدبّر فزارته بِدْعة وتُحفة، وأخرجتا رُقعـةً من عَرِيب، فقرأناها فإذا فيهـا : بنفسى أنت وسمعى وبصرى، وقلّ ذلك لك، أصبح يومنا هذا طيّبا، طيّب الله عيشك، قد آحتجبتْ سماؤه ورقّ هواؤه وتكامل صـفاؤه، وكأنّه أنت فى رِقّة شمـائلك وطِيب محضَرك ومخبَرِك، لا فقدت ذلك أبدا منك! ولم يصادف حسنهُ وطِيبهُ منا نشاطا ولا طَرَبا لأمور صـدّتنى عن ذلك، أكره تنغيص ما أشتهيه لك من السرور بشرحها، وقد بعثت إليك بِبِدْعة وتُحفة ليؤنساك وتُسرّ بهما، سرّك الله وسرّنى بك! فكتب إليها ١٠

كيف السرورُ وأنتِ نازحةٌ * عنّى! وكيف يسوغ لى الطرَبُ!
إن غبتِ غاب العيشُ وآنقطعت * أسـبابه وألَحّت الكُرَبُ ١٥

وآبتدأ الجواب، فلم تلبث أن جاءت على حمار مِصرىّ، فبادر إليها وتلقّاها حافيا حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطأ الحمارُ بِساطه وما عليه حتى أخذ بِرِكابها فأجلسها فى مجلِسه وجلس بين يديها، ثم قال

ألَا رُبَّ يومٍ قصّر اللهُ طُولَهُ * بقُرْبِ عَرِيب، حبّذا هو من قُرْبِ
بها تحْسُنُ الدنيـا وينعَمُ عيشُها * وتجتمع السرّاء للعَيْنِ والقَلْبِ ٢٠

وقال إبراهيم بن اليزيدىّ : كنت مع المأمون فى بلد الروم، فبينما أنا أسير فى ليلة مظلمة شاتية ذات غيم وريح و إلى جانبي قُبّة، إذ بَرَقت برقةٌ فإذا فى القُبّة عَرِيب؛ فقالت : يا إبراهيم بن اليزيدى؛ فقلت : لبّيكِ! قالت : قل فى هـذا البرق أبياتا مِلاحا لأُغنّى فيها، فقلت

٥ ماذا بقلبى من أليم الخَفْقِ * إذا رأيت لَمَعانَ البَرْق

من قِبَلِ الأُرْدُنِّ أودِمَشْقِ * لأنّ مَن أهْوى بذاك الأُفْقِ

فارقتُـهُ وهو أعزّ الخَلْقِ * عَلَىّ والزُّورُ خِلافُ الحَقِّ

ذاك الذى يملِكُ مِنّى رِقِّى * ولستُ أبغِى ماحَيِيتُ عِتْقِى

فتنفّسَتْ نَفَسا ظننتُه قد قطع حَيَازِيمها؛ فقلت : ويحك! على مَنْ هذا التّنفُّس؟

١٠ فضحكت ثم قالت : على الوطن؛ فقلت : هيهات! ليس هـذا كلّه على الوطن؛ فقالت : ويلكَ! أظننْتَ أنّك تستفِزّنى؟ والله لقـد نظرتُ نظرةً مُرِيبةً فى مجلس فادّعاها أكثرُ من ثلاثين رئيسا، والله ما علم أحدٌ منهم لمن كانت إلى هذا الوقت .

وقال العُبَيس بن حمدون: غضبت عَرِيب على بعض جواريها، فجئتُ إليها وسألتها أن تعفوَ عنها؛ فقالت فى بعض مانقوله مما يعتدّ به عليها من ذنوبها : يا أبا العبّاس،

١٥ إن كنتَ تشتهى أن ترى زِناىَ وصَـفاقة وجهى وجُرْأتى على كلِّ عظيمةٍ أيّامَ شـبابى، فانْظُر إليها واعرِف أخبارها؛ قال : وكانت فى شبابها يُقَدَّم إليها البرذون فتطفِر عليه بلا رِكاب . وقال أبو العبّاس بن الفُرات : حدّثتنى بِدعة جارية عَرِيب أن عريب كانت تجد فى رأسها بَرْدًا وكانت تغلّف رأسها بستّين مِثْقالا مِسكا وعَنْبرا، وتغسله من جمعة إلى جمعة فإذا غسلته جدّدت غيره، وتقتسم الجوارى غُسَالةَ رأسها .

٢٠ وقال علىّ بن المنجِّم : دخلت يوما على عريب مُسَلِّما عليها، فلما جلستُ هطَلت السماء بمطر عظيم، فقالت : أقِمْ عندى اليوم حتى أُغَنِّيك أنا وجوارىّ، وابعث إلى من

(٤٩) أحببتَ من إخوانك، فأمرتُ بدوابىّ فرُدّت، وجلسنا نتحدّث، فسألتنى عن خبرنا بالأمس فى مجلس الخليفة ومن كان يغنّينا، وأىّ شىء آستحسنّاه من الغناء، فأخبرتها أن صوت الخليفة كان لَحْنًا صنعه بنان من المـاخورىّ، فقالت : وما هو؟ فقلت

تجـافَى ثم تَنْطَبِـقُ * جُفُونٌ حَشْوُها الأَرَقُ
وذِى كَلَفٍ بَكَى جَزَعًا * وسَفْرُ القومِ منطلِقُ ٥
به قَـلَقٌ يُمَلْمِـلُهُ * وكان وما به قَـلَقُ
جوانحه على خَطَـرٍ * بنار الشَّـوق تحترِقُ

فوجّهتْ رسولا إلى بنان، فحضر وقد بلّتـه السماء، فأمرت بخِلَع فاخرة فخُلِعت عليه، وقُدِّم له طعام فأكل، وجلس يشرب معنا، فسألتْه عن الصّوت فغنّاها إياه، فأخذت دواة ورُقعة وكتبتْ ١٠

أجاب الوابل الغَـدِقُ * وصاح النَّرْجِسُ الغَرِقُ
وقد غَنَّى بنـانُ لنا : * "جُفونٌ حشوُها الأَرَقُ"
فهـاكَ الكأسَ مُتْرَعَةً * كأنّ خِتـامَها حَـدَقُ

قال : فما شربنا بقيّة يومنا إلّا على هذه الأبيات .

وأخبار عريب كثيرة، قد وضع عبد الله بن المعتزّ فيها ديوانا . وفيما أوردناه من أخبارها كفاية لا تحتمل المختصرات أكثر منها . والله تعالى أعلم . ١٥

ذكر أخبـار محبوبة

قال أبو الفرج : كانت مولّدة من مولّدات البَصْرة، شاعرة، سريعــة الخاطر، مطبوعة لاتكاد فَضْل الشاعرة اليمـانيّة تتقدّمها، وكانت أجمل من فضْل وأعفّ، وكانت تغنّي غناءً غير فاخر . وقال علىّ بن الجَهْم : كانت محبوبة لعبد الله بن طاهر ٢٠

أهداها إلى المتوكّل فى جملة أربعمائة جارية، وكانت بارعة الحسن والظَّرْف والأدب، مغنِّيةً محسنة، فحَظِيَتْ عند المتوكل حتى كان يُجْلِسها خلف السِّتارة وراء ظهره إذا جلس للشرب، فيُدْخِل رأسَه إليها فيراها ويحدّثها فى كل ساعة . وقال علىّ بن يحيى المنجّم : كان علىّ بن الجهم يقرب من أنس المتوكل جدّا فلا يكتُمُه شيئا من سرّه مع حُرَمه وأحاديث خَلَواته، فقال له يوما : إنى دخلت على قبيحة فوجدتها قد كتبت ٱسمى على خدّها بغالية ، فلا والله ما رأيت شيئا أحسنَ من سواد تلك الغاليةِ على بياض ذاك الخدّ، فقُلْ فى هذا شيئا، قال : وكانت محبوبة حاضرة الكلام من وراء السّتارة، فدعا علىّ بن الجهْم بدواة، فإلى أن أُتِى بها وٱبتدأ يفكّر قالت محبوبة على البَدِيهة من غير فِكْرة ولا رَوِيّة

وكاتبةٍ فى الخَدّ بالمِسْكِ جعفرًا * بنفسى مَخَطّ المِسك من حيثُ أَثَّرا
لئن كتبتْ فى الخَدّ سَطْرًا بكَفِّها * لقد أَوْدعتْ قلبى من الحُبّ أسطُرَا
فيامَنْ لمملوكٍ لِملْكِ يَمِينِــه * مُطِيــع له فيما أَسَرَّ وأظْهَــرَا !
ويامَنْ هواها فى السريرة جعفرٌ * سَقَى اللهُ مِن سُقْيَا ثناياكِ جعفرَا

قال : فبقِى علىّ بن الجهم واجمًا لا ينطق بحرف، وأمر المتوكّل بالأبيات فبُعِثْ إلى عَرِيب وأمرها أن تغنِّى فيها؛ قال علىّ بن الجهم : فتحيرت والله وتقلّبتْ خواطرى، فوالله ما قدَرت على حرف واحدٍ أقوله .

وقال أيضا : غاضب المتوكّل يوماً محبوبةَ وهجرها ومنع جواريها جميعا من كلامها، ثم نازعته نفسُه إليها وأراد ذلك، ثم نازعته العِزّة منها وٱمتنع من ٱبتدائها، وٱمتنعتْ من ٱبتدائه دَلالًا عليه لمحلّها منه؛ قال علىّ : فبكرتُ إليه يوما، فقال لى : ياعلىّ، إنّى رأيت البارحة فى نومى كأنى صالحتُ محبوبة؛ فقلت : أقرّ الله عينَك يا أمير المؤمنين

وأنامك على خير وأيقظك على سرور! أرجو أن يكون هـذا الصلح فى اليَقَظة؛ فبينا هو يحدّثنى وأحدّثه إذا بوصيفة قد جاءت فأسرّت إليـه شيئا، فقـال: أتدرى ما أسرّت إلىّ هذه؟ قلت: لا، قال: حدّثتنى أنها آجتازت بمحبوبة الساعةَ وهى فى حُجرتها تغنّى، أفلا تعجَب من هذا؟ أنا مُغاضبها وهى متهاونة بذلك، لا تبدؤنى بصلح ثم لا ترضَى حتى تغنّى فى حُجرتها، فقم بنا حتى نسمع ما تغنّى؛ ثم قام وتبعته حتى آنتهى إلى حجرتها، وإذا هى تغنّى

أدورُ فى القصر لا أرى أحدًا * أشكو إليـــه ولا يكلّمُـــنِى
حتى كأنّى أتيتُ مَعْصِيَةً * ليست لهـا توبةٌ تُخَلِّصُـنِى
فهــل لنـا شافعٌ إلى ملِكٍ * قد زارنى فى الكرَى وصالحنى
حتى إذا ما الصباحُ لاح لنـا * عاد إلى هَجْـــره فصـارمَنَى

فعجِب المتوكل، وأحسَّت بمكانه فأمرت بخدمها فخرجوا وتنحّيـا، وخرجتْ إليه فحدّثتــه أنها رأته فى منامها فانتبهت وقالت هذه الأبيات وغنّت فيها، فحدّثها هو أيضا رؤياه وآصطلحا. فلما قُتل المتوكّل سَلَاه جميع جواريه غيرها، فإنّها لم تزل حزينةً هاجرة لكلّ لذّة حتى ماتت، ولها فيه مَرَاث.

حكى أبو الفرج أن وَصِيفا بعـد قتل المتوكل أحضرها يوما وأحضر الجوارى، فجئن وعليهن الثياب الملوّنة المُذْهَبة والحُلِىّ وقد تزيّنّ وتعطّرْن، وجاءت محبوبة وعليها ثيـاب بِيض غيرُ فاخرة حُزْنًا على المتوكّل، فغنّى الجوارى جميعا وشرِبن، وطرِب وصيف وشرِب، ثم قال: يا محبوبة غَنّى، فأخذت العُود وغنّت وهى تبكى

أىّ عيش يطيبُ لى * لا أَرَى فيه جعفرا؟
مَلِـكا قـد رأته عيـ * ـنى قَتِيـــلًا مُعَفَّرَا
كل من كان ذَا هُيَا * مٍ وحُـــزْنٍ فقد برا

غـير محبـوبة التى * لوترى الموتَ يُشْتَرَى
لاَشـترته بِمُلْكِها * كلُّ هـذا لِتُقْبَرَا
إنّ موتَ الكئيبِ أصـ * ـلَحُ مِنْ أن يُعَـمَّرَا

فاشتدّ ذلك على وصيف وأمر بقتلها؛ فاستوهبها بُغا منه فوهبها له، فأعتقها وأمر
٥ بإخراجها وأن تكون حيث تختار من البلاد، فخرجت إلى بغـداد من سُرّ مَنْ رأى،
وأخملت ذكرها طُول عمرها؛ وما طمع فيها أحد . رحمها الله تعالى .

ذكر أخبـار عُبَيدة الطُّنْبُوريّة

قال أبو الفرج الأصفهانى : كانت عُبَيـدة الطُّنبوريّة من المُحسنات المتقـدّمات
فى الصّنعة والأدب، شهد لهـا بذلك إسحاق بن إبراهيم الموصـلىّ، قال : وحسبُها
١٠ بشهادته . قال : وكان أبو حشيشة يُعَظِّمها و يعترف لها بالرياسة والأستاذيّة، وكانت
من أحسن الناس وجها وأطيبهم صوتا، وكانت لا تخلو من عشق . قال : ولم يُعرَف
فى الدنيا آمرأة أعظم صَنعةً منها فى الطُّنبور؛ وكانت لها صنعة عجيبة، فمنها فى الرَّمَل

كُنْ لى شفيعاً إليكا * إن خَفّ ذاك عليكا
وأَعْفِنِى من سُـؤالى * سـواك ما فى يدَيْكا
١٥ يا مَنْ أعِزّ وأهْوى * مَالِى أَهُونُ لَدَيكا!

قال : وحضرتْ يوما عنـد على بن الهيثم اليزيدىّ وعنده عمرو بن مَسْعَدة
وهارون بن أحمد بن هشام، فجاءه إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ فأخبره خبرهم، فقال له
إسحاق : إنى كنت آشتهى أن أسمع عُبَيدة، ولٰكنّها إن عرفَتْنى وسألتمونى أن أغنّى
بحضرتها آنقطعت ولم تصنع شيئا، فدعوها على جِبِلّتها[١]، فوافقوه على ذلك، ودخل
٢٠ وكتموها أمره، وكانت لا تعرف إسحاق، وقُدِّم النبيذُ فغنّت لَحْنًا لها

(١) كذا فى الأغانى، وفى الأصل : فدعوها على حملتها .

قَرِيبٌ غيرُ مُقْـتَرِبِ * ومُؤْتَلِفٌ كَمُجْتَنِبِ
له وُدِّى ولِى منــهُ * دَواعِى الهَمِّ والكُرَبِ
أُواصِــلُهُ على سَبَبٍ * ويهجُرُنِى بِلا سَبَبِ
ويظلِمُنِى على ثِقَــةٍ * بأنّ إليه مُنْقَلبِى

٥ قال : فطرب إسحاق وشرب نِصْفا ، ثم تغنّت وشرب حتّى وَالَى بين عشرة أنصاف، قال علىّ بن الهيثم : وشرِبنا معه؛ وقام إسحاق ليصلّى فقال لهـا هارون : ويحك يا عبيدة! ما تُبَالين والله مَتَى مِتِّ! قالت: ولم؟ قال أتدرين مَن المستحسنُ غناءَك والشارب عليه ما شرب؟ قالت : لا والله؛ قال : إسحاق بن إبراهيم، فلا تُعَرِّفيه أنك قد عرفتيه؛ فلما جاء إسحاق آبتدأت تغنِّى فلحِقتها هيبةٌ له وآختلاط، ١٠ فنَقَصت نُقْصانا بَيّنا؛ قال: أعرّفتموها من أنا؟ فقلت: نعم، عرّفها هارون؛ فقال إسحاق: نقوم إذًا فننصرف، فإنه لا خير فى عِشرتكم الليــلةَ ولا فائدة لى ولا لكم، وقام فانصرف .

وقال مُلَاحظ غلام أبى العبّاس: آجتمع الطُّنبوريّون عند أبى العبّاس آبن الرشيد يومًا وفيهم المسدود وعبيدة، فقــالوا للمسدود : غَنِّ؛ فقال : لا والله، لا تقدّمت ١٥ على عُبَيدة وهى الأستاذ، فمــا غنّى حتّى غنّت . وقال محمــد بن عبد الله آبن مالك الخزاعىّ : سمعتُ إسحاق يقول : الطُّنبور إذا تجاوز عُبيدة هَذَيان .

* * *

هذا ما أمكن إيراده فى هذا الباب من أخبار من آشتُهِر بالغناء، وأخبار القِيان، وهو مختصر مما أورده أبو الفرج الأصفهانى رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بالأغانى ٢٠ من أخبارهم؛ ولم نلتزم آستيعابهــم بل ذكرنا أكثرهم وأشهرهم بالغناء، وذكرنا من أخبارهم ما فيه كفاية . فلنذكر خلاف ذلك .

الباب السابع

من القسم الثالث من الفن الثانى

فيما يحتاج إليه المغنّى ويُضطرّ إلى معرفته، وما قيل فى الغناء، وما وصفت به القِيان، ووصف آلات الطَّرَب

ذكر ما يحتاج إليه المغنّى ويُضطرّ إلى معرفته وما قيل فى الغناء والقيان من جيّد الشعر

قال مالك بن أبى السمح : سألت ٱبن أبى إسرائيل عن المُحْسن المُصيب من المغنّين ، فقال : هو الذى يُشبع الألحان ، ويملأ الأنفاس ، ويُعدّل الأوزان ، ويفخّم الألفاظ ، ويعرِف الصواب ، ويقيم الإعراب ، ويستوفى النَّغَم الطِّوال ، ويُحسِن مقاطع النغم القِصار ، ويُصيب أجناس الإيقاع ، ويختلس مواضع النَّبَرَات ، ويستوفى ما يشا كلها من النَّقَرات ؛ فعرضت ما قال على معبَد ، فاستحسنه وقال : ما يقال فيه أكثر من هـذا . وقد رُوِيَتْ هذه المقالةُ عن ٱبن سُرَيْج . وقال إبراهيم الموصلىّ : الغِناء على ثلاثة أضرب : فضرب مُلْهٍ مُطْرِب يحرِّك ويستخِفّ ، وضرب ثان له شَجًى ورِقّةٌ ، وضرب ثالث حِكمةٌ وإتْقان صَنْعة ؛ وقال : كان هذا كلُّه مجموعا فى غناء ٱبن سُرَيج . وقال أبو عثمان الناجم : بُحُوحة الحلق الطيِّب تُشبه مَرَض الأجفان الفـاترة

⁂

وأما ما قيل فى الغناء وما وصفت به القِيان .

حُكِى أن بعض المُحْدَثين سمع غناءً بخُراسان بالفارسيّة ، فلم يدر ماهو غير أنه شوّقه لشجاه وحُسْنه ، فقال فى ذلك ، وقيل إنه لأبى تمـام

حَمِدْتُكَ ليلةً شَرُفَتْ وطابت * أقام سُـــهادُها ومضى كَرَاهَا
سمعتُ بها غنـاءً كان أولى * بأن يقتـادَ نفسى مِن عنَاها
ومُسمِعَةٍ يحـار السَّمْعُ فيهـا * ولم تُصْمِمْهُ لايُصْمِمْ صَدَاها
مَرَتْ أوتارها فشفَتْ وشاقَتْ * فلو يسطِيعُ حاسِـدُها فَدَاها
ولم أفهـمْ معانِيَهَا ولٰكِنْ * ورتْ كَبِدى فلم أجهَل شجَاها
فكنتُ كأنّنى أعْمىٰ مُعَنّى * بِحُب الغـانياتِ وما رآهـا

وقال كُشاجم فى بُحّة حلق المغنّى .

أشتهِى فى الغناء بُحّـةَ حَلْقٍ * ناعِمِ الصوت مُتْعَبٍ مَكْدُودِ
كأنين المُحِبّ أضعفه الشّو * ق فضاهى به أنينَ العُـودِ
لا أُحِبُّ الأوتارَ تعلو كما لا * أشتهى الضَّربَ لَازِمًا لِلعَمُودِ
وأُحِبّ المُجَنَّـبات كحُبِّى[(1)] * للمَبَـادِى موصولةً بالنّشِـيدِ
كهُبُوب الصَّبَا توَسّطُ حالًا * بين حالَيْنِ : شِـدّةٍ ورُكُودِ

وقال الناجم

شَدْوٌ ألَذُّ من ابتـدا * ء العَـينِ فى إغفائِها
أحْلىٰ وأشهىٰ من مُنَى * نَفْسٍ وصِدْقِ رجائِها

وقال محمد بن بشير

وصَـوتٍ لبنى الأحرا * رِ أهلِ السِّيرةِ الحُسْنىٰ
شجٍ يسـتغرق الأوتا * رحتّى كلُّها تَفْنىٰ
فما أدرى اليدُ اليُسْرىٰ * به أشْـفَى أم اليُمْنىٰ ؟

(١) فى ديوان كشاجم طبع بيروت : « وأحب المجنبات لحبى » .

وقلنـــا لمغنّيـــه * وقد غنّى على المَثْـنىٰ :
أَلَا يا ليتَ هـذا الصَّو * تَ حتّى الصُّبْحِ لا يَفْنىٰ
فقـــد أيقظت اللذّا * تُ عَيْنًـا لم تزَلْ وَسْنىٰ
وما أفهَـم ما يَعْـنِي * مُغَنِّيـهِ إذا غَـنّى
ولكنّى من حُبِّى * له أسـتحسن المعنىٰ

٥

وقال الثعالبىّ

غناؤُك يهزِمُ جيشَ الكُروبِ * وعيناك للنّاس عُذْرُ الذُّنُوبِ
فوَيْلُ القُـلوبِ إذا مارَنَوْتَ * وإمّا شَدَوْتَ فويلُ الجُيُوب

وقال أيضا

١٠

وسائلةٍ تُسائلُ عنـكَ قُلْنا * لها فى وصفك العَجَبَ العَجِيبا
رَنَا ظَبيًا وغنّى عَنْـدَلِيبا * ولَاحَ شقائقا ومَشَى قَضِيبا

وقال عُكاشة يصف قَيْنة

من كفِّ جاريةٍ كأنّ بَنانها * من فِضّة قد طُرِّفَتْ عُنّابا
وكأنّ يُمْناها إذا نطقتْ به * تُلْقِى على يدها الشِّمالِ حِسَابا

١٥

وقال ٱبن الرومىّ

وقيانٍ كأنّها أمّهاتٌ * عاطفاتٌ على بَنِيها حَوَانِى
مطْفِلات وما حمَلْنَ جَنِينًا * مُرْضِعات ولسْنَ ذاتَ لِبَانِ
كلُّ طِفلٍ يُدْعىٰ بأسماء شتّى * بين عُودٍ ومِزْهَرٍ وكِرَانِ (١)
أُمُّهُ دهرَها تُتَرجِمُ عَنْـهُ * وهو بادى الغِنى عن التَّرجُمانِ

(١) فى الأصل : ذكران ، وهو تحريف .

٢٠

وقال أيضا

كأنمـا رِقّةُ مســموعِها * رِقّةُ شَكْوى سبقت دَمْعَهْ

غنّتْ فلم تحتجْ إلى زامرٍ * هل تُحْوِجُ الشّمسُ إلى شَمْعَهْ

كأنما غنّت لشمسِ الضُّحى * فألبستْها حُسْنَهـا خِلْعَـهْ

وقال النّاجم ٥

ما صدَحت عاتِبٌ ومِزْهَرُها * إلا وثِقْنا باللّهو والفَــرَجِ

لهـا غِناءٌ كالبُرْءِ فى جَسَــدٍ * أضناه طُول السَّــقامِ والتّرَجِ

تعبدُها الراحُ فهى ماصدحت * إبريقُنا ساجدٌ على القَــدَحِ

وقال أيضا

ماتغنّتْ إلّا تكشّــفَ هَمٌّ * عن فُؤادٍ وأقشــعتْ أحزانُ ١٠

تفضُلُ المُسْمِعِينَ طِيباً وحُسْناً * مثلَ ما يفضُلُ السَّماعَ العِيانُ

وقال أبو عُبادة البُحْتُرِىّ (٥٣)

وأشارتْ على الغِناءِ بألحـا * ظِ مِراضٍ، من التّصابِى صِحَاحِ

فطرِبْنا لهنّ قبــلَ المَثَـانِى * وسكِرْنا لهنّ قبــل الراحِ

وقال كُشاجم وهو أبو الفتح محمود ١٥

أفدِى الّتى أهــدتْ لنـا * شمسَ الضُّحى واللّيلُ حالِكْ

مملوكـةٌ جلّت فليـــ * ـــس تَفِى بقيمتِها الممالِكْ

عرضتْ فأعطتْ عُودَها * ضَرْباً يُعَــرِّضُ للمَهـالِكْ

وتبِعتُهـــا فتصـــرّفتْ * بالضَّرب فى كل المسالِكْ

ويئست من إدراكها * جعلت صوتى عند ذلك :

قصُرتْ يَدِى عنك الغدا * ةَ، فكيف لى بيدٍ تنالكْ

وقال أيضا

بدتْ فى نِسوةٍ مثل الْـ * ـمَهَا أُدْمِجْنَ إدْمَاجا

٥ يُجَاذِبْنَ من الأردا * فِ كُثْبانًا وأمواجا

ويسترن من الأبشا * رِ فى الدِّيباج دِيباجا

وقُضْبانًا من الفِضَّـ * ـةِ قد أثمرتِ العَاجَا

وقد لاثت من الكُور * على مَفْـرِقها تَاجَا

فلما طُفْنَ بالمجلـ * ـس أفرادًا وأزواجا

١٠ تجاوبن فغنّينـ * ـك أَرْمالا وأهزاجا

وحرّكْنَ من الأوتا * ر إمساكًا وإدماجا

فلا لومَ على قلبـ * ـكَ إن هُيِّجَ فاهتاجا

وقال علىّ بن عبد الرحمن بن يونس المنجّم فى عَوّادة

غنّتْ فأَخفتْ صوتَها فى عُودِها * فكأنّما الصَّوتانِ صوتُ العودِ

١٥ غيداءُ تأمر عُودَها فيُطيعُها * أبدًا ويَتْبَعُها آتباعَ وُرُودِ

أَنْدَى من النُّوَّارِ صُبْحًا صوتُها * وأرقُّ من نَشْرِ الثَّنَا المعهودِ

فكأنّما الصَّوتانِ حين تَمازَجَا * ماء الغمامةِ وآبنةُ العُنْقُودِ

وقال أبو عَوْن الكاتب

تشدو فيُرْقِص بالرءو * س لها ويُزْمِرُ بالكُؤوس

وقال الناجم

طفقتْ تغنّينا نخِلْنا أنّها * لسرُورنا بغنائهــا تَغْنينا

وقال أبو هِلال العَسْكرىّ

وهَيَّجتْ لِىَ من شَجْـوٍ ومن فَرَحٍ * أَيْدٍ نَثَرْنَ على الأوتارِ عُنّابا

لاعيبَ فى العيش إلّا خَوْف غَيْبَتِكم، * إنّ السرورَ إذا ما غِبْتُمُو غابا ٥

وقال هارون بن علىّ المنجّم

غصنٌ على دِعصٍ نَقًا مُنْهالِ * سعى بكأسٍ مثل لَمْع الآلِ

وفاتنات الطَّرْفِ والدَّلالِ * هِيف الخُصُورِ رُجَّح الأكفالِ

يأخُذْن من طرائف الأَرْمالِ * ومُحْكَم الخِفافِ والثِّقالِ

تجرِى مع النّاس بلا آنفصالِ * مثلَ آختلاطِ الخمر بالزُّلالِ ١٠

تدعو إلى الصَّبْوَةِ كلّ سالِ * تصرَعُ كلَّ فاتِكٍ بطّالِ

بين حرامِ اللّهوِ والحــلالِ * أكرم من مَصارِع الأبطالِ

وقال شاعر يذمّ مُغَنِّيا

ومُغَنٍّ باردِ النَّغْـــ * ـــمَة مُخْتَلّ اليَدَيْنِ

ما رآه أحــد فى * دار قوم مرّتَينِ ١٥

صــوتُه أقطعُ للذّاتِ * من سَطْوةِ بَيْنِ

وقال آبن الرومىّ

فظِلْتُ أشربُ بالأرطالِ لا طَرَبًا * عليــه بل طَلَبًا للسُّكْر والنّومِ

ذكر ما قيل فى وصف آلات الطرب

(٥٤)

فمن ذلك ما وصف به العُود؛ نظم أبو الفتح محمود المعروف بكُشاجم قول الحكماء : إن العُود مركّب على الطبائع الأربع، فقال

شَـدَتْ بَخَلَتْ أسماعَنا بُخَفَّفٍ * يُحدِّثها عن سِرِّها وتُحَدِّثُهْ

مُشـاكِلَةٌ أوتارُهُ فى طِباعها * عناصِرَ منها أحدثَ الخلْقَ مُحْدِثُهْ

فللنار منـه الزِّيرُ والبَمُّ أرضُـهُ * وللرِّيح مَثْناهُ ولِلْمَاءِ مَثْلَثُـهْ

وكلُّ آمرئ يرتاح منـهُ لِنَغْمَةٍ * على حسَب الطَّبْع الّذى منه يبعثُهْ

شكا ضربَ يُمْناها فظلّتْ يَسارُها * تُطَوِّقُهُ طَوْرًا وطورًا تُرَعِّشُـهْ

فما بَرِحتْ حتى أَرَتْنـا مُخَارِقًا * يُجاوِبه فى أحسن النَّقْر عَثْعَثُـهْ

وحتى حسـبت البابِلِيِّينِ أَلْقَيَا * على لفظها السِّحْرَ الّذى فيه تنفثُهْ

وقال آخر

جاءتْ بعُودٍ تُنَاغِيه فيُسْـعِدُها * انظُرْ بدائعَ ما تأتى به الشَّـجَرُ

غَنَّتْ على عُودِهِ الأطيارُ من طَرَبٍ * رَطْبًا، فلمّا ذَوَى غنَّتْ به البَشَرُ

فلا يزال عليــه أوْ بِهِ طَرَبٌ * يهِيجُهُ الأعجمانِ : الطَّـيْرُ والوَتَرُ

وقال آخر

سَقَى اللهُ أرضًا أنبتَتْ عُودَكَ الّذى * ذَكَتْ منه أنفاسٌ وطابَتْ مَغَارِسُ

تغنَّتْ عليه الوُرْقُ والعُودُ أخْضَرٌ * وغنّت عليه الغِيدُ والعودُ يابِسُ

وقال آخر

لاتحسَبِ العُودَ إن غَنَّتْك شادنةٌ * جاءتْك بالطَّيْفِ فيه نَغْمةُ الوَتَرِ

وإنّمـا الطير ألقتْ عنده خَبَرًا * فعــذّبوه فنمّ العُــودُ بالخَــبر

وقال آخر

فكأنّه فى حِجْرِها ولدٌ لها * ضمّتْــه بين ترائبٍ ولَبـانِ
طَوْرًا تُدَغدِغُ بطنَه فإذا هَفَا * عَرَكتْ له أُذُنًا من الآذانِ

وقال الناجم

إذا ٱحتضنتْ عُودَها عابث * وناغَتْـهُ أحسَنَ أن يُعرِبَا
تُدَغدِغُ فى مَهَلٍ بطنَــهُ * فيُسْمِعُنا مُضْحِكًا مُعْجِبَا

وقال الحمدونىّ

وناطقٍ بلسانٍ لاضميرَ له * كأنّه فَخِذٌ نِيطَتْ إلى قَـدَمِ
يُبْدِى ضميرَسواه فى الحديث كما * يبدى ضميرَ سواه الخطُّ بالقلم

وقال كُشاجم

جاءت بعُــودٍ كأنّ نَغْمَتَهُ * صوتُ فتاةٍ تشكو فِراقَ فَتَى
مخفَّفٌ خفَّت النفوسُ بِهِ * كأنّما الزهرُ حولَه نَبَتَـا
دارتْ مَلَاوِيهِ فيه وٱختلفت * مثلَ ٱختلاف الكَفَّين شُبِّكَتَا
لو حرّكتْهُ وراء منهزِم * على بريدٍ لعاج وٱلْتَفَتَـا
ياحسنَ صوتَيْهما كأنّهـما * أختان فى صَنْعةٍ تَرَاسَلتَا
وهو على ذا ينوب إن سكتتْ * عنها، وعنه تنوب إن سَكَتَا

وقال أيضا

وجاريةٍ مثــل شمسِ النَّهارِ * أو البدرِ بين النّجومِ الدرارى
أتتك تَمِيسُ بقدّ القَضِيب * وترنُو بعــينِ مَهَاةِ القِفَارِ

وترفُل فى مُصْمَتٍ أبيضٍ * تلوّن من خدّها جُلَّنارِى
وتحمِلُ عُودًا فصيحَ الجَواب * يشارك أرواحنا فى المَجارِى
له عُنُـقٌ كذراع الفتـاةِ * ودُسـتانةٌ بمكان السِّـوارِ
فجادتْ عليـه وجادت له * بعَسْفِ اليمين ولُطْف اليَسارِ
فمـا أمهلتْـهُ ولا نَهْنَهتـه * من الظهر حتى تَقَضَّى النّهارِ
ولمـا تغنّت غنـاءَ الوَداع * بكيتُ وقلتُ لبعض الجَوارى :
لئن عِشتُ عند هزار اللّقاء * لقد مِتّ عند هزار الإزار

وقال أيضا

وكثيرةِ النّغماتِ تحسَـبها * فى كلّ عُضوٍ أُوتِيَتْ حلقا
غنّت فطِلتُ إخالُنى طرِباً * أسمو إلى الأملاك أو أرقى
وتكلّمتْ أوتارُها فأنـا * فيهـا أُخَـبِّرُ بالّذى ألقى
تحكِى أَنِينِى وهى شاكيـةٌ * ممـا أُجِنّ وتشـتكى عِشقا
وترى لها عُـودًا تُعـانِقُهُ * وكلامَـهُ وكلامَهـا وَفْقـا
لو لم تُحـرّكْهُ أنامِـلُها * كان الهـواءُ يُفيـده نُطْقا
جسّـتْه عالمـةً بحالتـه * جَسّ الطبيبِ لمُدْنَف عِرْقا
فحسِبت يُمناها تحـرّكه * رعدا، وخِلتُ يَسارها بَرْقا

وقال أيضا

تَميس من الوشْيِ فى حُلّةٍ * تُجرّر من فضل أذيالِها
وتحمِلِ عُودًا فصيحَ الجواب * يضاهى اللحـون بأشـكالها

له عُنُقٌ مثلُ ساق الفتـاةِ * ودُسـتانَةٌ مثـــلُ خَلْخالِها
فظلّتْ تُطـارح أوتــارَهُ * بأهْـــزاجها وبأرْمالهـا
وتعمَل جسًّا لجسّ العُرُوق * وتلوِى المَـلاوِى بأمثـالِها

وقال آخر يصف الطُّنبور

مُخْطَفُ الخصرِ أجوفُ * جِيـدُه نصفُ سـائرِهْ ٥
أنطقــتْهُ يَـدَا فتًى * فاتِرِ اللّحـظِ ساحـــرِهْ
فجَـلَا عن ضمـــيره * ما حَــوَى فى خواطرِهْ

وقال سيف الدين المشدّ فى دُفّ

وطاريّةٍ قـرَعتْ طارَهـا * وغنّت عليه بصوتٍ عجيبِ
فعاينتُ شمس الضُّحَى أقبلتْ * وبدرٌ تقَـدّمَها عن قـريبِ ١٠

وقال أيضا يصف شبّابة

وعاريةٍ من كلّ عيبٍ، حبيبةٍ * إلى كلّ قلب بات بالبين مَجْـروحا
لهـا جســدٌ مَيْتٌ يعيش بنفـخةٍ * متى داخلتْه الريحُ صارت به رُوحا
تُعيـــد الّذى يُلْقَى عليها بـلذّةٍ * تَزِيد فؤاد الصّبّ وجْدًا وتبريحا
وتنطق بالسِّحر الحلال عن الهوى * وتُوحِى إلى الأسماع أطيبَ مايُوحَى ١٥

القسم الرابع من الفن الثانى

فى التهانى والبشائر والمراثى والنوادب والزهد والتوكّل والأدعية

وفيـــه أربعـــة أبواب

البـاب الأوّل

من هذا القسم فى التهانى والبشائر

٥

والتهانى تنقسم إلى قسمين وتحـاز فى جهتين : خصوص وعموم . فالخصوص هو ما يتعلّق بالرجل من منصِبٍ يليه ، ونعمةٍ تُواليـه ، وولد رُزِقه ، وشفاء من مرض أقلقه وأرّقه ، وقدوم من سفر ، وزواج قضى به الأرَب والوَطَر . والعموم هو ما يتعلق بالجُمهور ، ويتساوى فيه الملك والمملوك والآمر والمأمور : من ٱنصباب غيث عمّ الرُّبا والوِهاد ، وجَرَيانِ نيـل شمِل بريِّه البـلاد وآمن العباد ، وهزيمة عدوّ زاد فى عُدوانه وتمادى فى طُغيانه ، وفتوح حِصن أمِن أهلُه بتشييد أركانه وإتقان بُنيـانه .

(٥٦) ١٠

ذكر شىء مما هنئ به وُلاة المناصب

كتب بعض الفضلاء تهنئةً بخلافة فقال : أما بعد فإن أَوْلى النعم بالدوام ، وأرجاها للبقاء والتّمام ، وأجدرها بالخلود ، وأقربها إلى المزيد ، وأحراها بالسّلامة على نُوَب الأيّام وتصاريف الأحداث ، نعمةٌ نشأت بفِنائه ، وسكنت ذُراه ، فحمِدتْ مَثْواه ، وساسها أولياؤها بحسن المجاورة وكرم المصاحبة سـياسةَ الحانى الشّفيق ، وكفَلوها كَفالة الحَـدِب الرفيق ، فنمَت وتمّت ، وخصّت وعمّت ، ثم ٱعترضها من رَيْب

١٥

الزمان ما هاج سَوَاكنها، وأزعج كَوَامنها، وأصارها إلى الوَحْشة بعد الأُنْس، والنُّفْرة بعــد الإلْف، تتقاقل تقلقل العَوَادِى، وتشرُد شُرُودَ الضّوالّ، لافظة لها الأقطارُ، ونابية بهــا المحالّ، إلى أن أعادها الله تعــالى بلطفه إلى مَغْناها المعروف، ورَبْعِها المألوف، وآستقرّت بعد الآضطراب، وفاءت بعد الآغتراب، وتلك نعمة الله عند سيِّدنا أمير المؤمنين، لمــا جدّد له من كرامته، وآصطفاه له من خِلافتــه، وطوّقه إياه من إمامتــه، وردّه إليه من تدبير الملك، وآعتمد عليــه من ســياسة الأنام، فأحيا به السُّنَن القاصرة، وأزال به الرسوم الجائرة، ونهَج به سبيل العدْل، وأقام به مَنار الفضل .

وقال طُرَيح بن إسماعيل الثقفىّ فى المنصور لمّــا أفضت الخلافة إليه

لمّــا أتى النــاسَ أنّ مُلْكَهمُ * إليــك قد صار أمرُهُ، سجدُوا
وآستبشروا بالرِّضــا تبَــاشُرَهم * بالخُلْد لو قيــل : إنهــم خلَدوا
كنتُ أرى أنّ ماوجدتُ من الفرْ * حــة لم يلقَ مثــله أَحــدُ
حتى رأيت العبــادَ كلَّهُـــمُ * قد وجدوا فيــك مثــل ما أَجِد
قد طلب النــاسُ ما بلغتَ فما * نالوا ولا قاربوا ولا جهِــدوا
يرفعُـــك الله بالتكــرُّم والتَّـــقوٰى فتعــلُو وأنت تقتصــد

وقال زيد السِّنْدىّ يهنّئ الوزير يعقوب بن كِلِّس بوزارة العزيز بمصر

إن الوزارةَ لم تزَلْ بك صَبّةً * تهواكَ لم يخطُر سواك ببالها
خُطِبتْ فلم تُعْطِ القِيادَ لطالبٍ * وأبَتْ على طُلّابها بِوِصــالها

وقال آبن بشر الصِّقِلّىّ الكاتب يهنّئ الحسن بن إبراهيم التُّسْتَرِىّ بوزارة مصر، وقد وزَرَ للمستنصر فى سنة أربع وخمسين وأربعمائة

بيومك طارتْ فى البلاد البشائرُ * وطابتْ برجوع الحديثِ المحاضرُ
وأصبحت الأمصارُ أمْنًا وغِبْطةً * أسِرّتُهـا مهـتزّةٌ والمنـابرُ
وقام خطيبُ الحمدِ فى كلّ موقِفٍ * يُعـدّد ما تُمْلى عليـه المـآثرُ

ومنهـا

٥ لقد عاشرتْ منك الوزارةُ ماجدًا * له كَنَفٌ لا يحتويه المُعـاشرُ
فسيح آمتداد الظّلّ بين رَجَائه * وبين المعـالى آهلُ الرّبع عامرُ
فألقتْ عصاها وآستقرّ بها النّوى * كما قرّ عينـًا بالإياب المُسافرُ
وما زلتَ ملحوظًا لها ومُؤهّلًا * لِذَا الأمرِ مذ شُدّتْ عليك المآزرُ

(٥٧)

وقال آخر

١٠ كُلّمـا رمتُ أن أُهَنّيك وقتًا * بمحـلٍّ من العُـلَا ترتقيـهِ
صبْتُ مقدارَك الذى أعجز الو * اصفَ أعْلى من الّذى أنت فيهِ

وكتب الحمـدونىّ أخو صاحب التّذكرة يهنّئ بالسّـلامة من حريق وقع فى دار الخلافة : الدنيا — أعزّ الله أنصار الخدمة الشريفة — دارُ الآمتحان والآختبار، ومجاز الآبتلاء والآعتبار، ولله فيما نزّله فيها إلى عباده من نِعَمه، وتخوّلهم من مواهبه وقِسَمه
١٥ عاداتٌ يقتضيها بالغُ حِكمتِه، وماضى إرادته ومشيئته، ليستيقظ الذّاهل، ويعترف الجاهل، ويزداد العالم اللبيب آعتبارا، ويستفيد العاقل الأريب تفكّرًا وآستبصارا، فلا يغفُل عن واجب الشكر، إذا سِيقَتْ النعمةُ إليه، ولا يلهو عن آستدعاء المزيد منها بالآعتراف إذا أُسبِغت عليه، وهو أن البارى سبحانه إذا تابع آلاءَه إلى عبد ووالاها، [وجرّدها](١) له من الشوائب وأخلاها، وأماط عن مَشَاربها أكدارَ الدنيا المطبوعة على

٢٠ (١) زيادة يقتضيها سياق الكلام، ولعل هذه الكلمة أو ما فى معناها حذفت من الناسخ .

الكَدَرَ، وعَمَر مساربها بالأمْن من طوارق الغِيَر، خِيف عليها الانتقاض والزوال، وتُوُقِّعَ لها الانتهاء والانتقال؛ ومن ذلك الخبر المروىّ: أنه لما أنزل الله تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا) ابتهج الصّحابة رضى الله تعالى عنهم إلّا عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فإنّه بكى؛ فقالوا: ما يُبكيك وقد أكمل الله لنا ديننا برحمته، وأتمّ لنا سابغ نعمته؟ فقال: يُبكينى أنه ماتم أمرٌ إلا بدا نقصُه؛ فقُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن قريب. وإذا كانت مشوبةً برائعٍ يتخلّل صفوَها، وطارقٍ يجهَد فى بعض الأوقات عفوَها، كان ذلك صارفًا عنها عين الكمال، مُؤْذِنا بطُول الآجال، حاكما لها بتراخى عُمر البقاء، دالًّا على الصعود بها إلى دَرَج المُكْث الطويل والارتقاء؛ وحكمُهُ حكم المـرَض الّذى تَصِحّ به الأجساد، وتُمَحَّص ذنوبُ من يُسَلَّط عليه من العباد

فلا يُبْهِجِ الأعداءَ سوءُ ظُنونهم * فلله صنعٌ فى الّذى ساء ظاهرُ
فكم طالبٍ شيئًا به الشرُّ كامنٌ * وكم كارهٍ أمرًا به الخيرُ وافرُ

فلله الحمد الذى جعل ماجرت به الأقدارُ من الألم الواقع ظاهره، الوَجِل لوَقْعِه ناظرُه، لعنايته جلّت عظمتُه عُنْوانا، وعلى دوام نعمته دليلًا واضحا وبُرْهانا؛ وإليه الرغبةُ فى أن يجعل الديارَ وساكنيها، والناسَ فى أقاصى الدّنيا وأدانيها، لشريف الحوزة التى بها صلاح العالَم فِداء، وعنها للمكروه وِقاء؛ فكلّ حادثٍ مع دولم هذه الأيّام الزاهرة جَلَل، وكلّ غَمْرٍ[1] من نوائب الدهر مادافع لطفُ الله عنها وَشَل.

وقال أبو عبادة البُحْتُرىّ يهنّئ الفَتْح بن خاقان بسلامته من الغرَق

بَعدُوّك الحدَثُ الجليلُ الواقعُ * ولمن يكايدُكَ الحِمام الفاجعُ
قلنا: لَعًا لمّا عثرتَ ولا تزَلْ * نُوَبُ اللّيالى وهى عنك رواجعُ

(١) الغمر: الماء الكثير، وفى الأصل: وكل غمّ وهو تحريف لأنه يريد المقابلة بينه وبين «وشل» بعده.

ولربّما عثر الجوادُ وشأْوُهُ * متقدِّم ونبَا الحُسام القاطعُ
لن[1] تظفرَ الأعداءُ منك بزَلَّةٍ * واللهُ دونَك حاجزٌ ومُدافِعُ
إحدى الحوادث شارفَتْكَ فردّها * صُنعُ الإله ولطفُهُ المتتابعُ
حتى برزتَ لنا وجأشُك ساكنٌ * من نجدة، وضياءُ وجهك ساطعُ
٥ ماحال لَوْنٌ عند ذاك ولا هَفَا * عَزْمٌ ولا راعَ الجوانحَ رائعُ

وقال المتنبي يهنئ بعافية

المجدُ عُوفِىَ إذ عُوفِيتَ والكَرَمُ * وزال عنك إلى أعدائك الألَمُ
وما أخصُّكَ فى بُرْءٍ[2] بتهنئةٍ * إذا سَلِمْتَ فكلّ النّاس قد سَلِمُوا

(٥٨)

ومما هُنِّئَ به من ٱتّصل بزوجة ذات جمال وحسب، وأَصالة وأدب؛

١٠ وقلّما تقع التهنئة بذلك إلّا بين صديقين صحّ بينهما الآلتئام، وسقطت بينهما مئونة الآحتشام، وتساويا فى الرُّتبة، وآتّحدا فى الصُّحبة .

فمن ذلك ما كتب به الوزير أبو الحسن العامرىّ إلى بعض إخوانه وقد آبتنى بأَهْل:

بأَيْمَنِ طائرٍ وأتمِّ سَعْدٍ * يكونُ من الكريمَيْنِ آجتماعُ

أما إنّه المجدُ اليَفَاع ، والحسن المُطاع ، تعارفت الطِّباع ، فالتأمت الأنفس
١٥ الشَّعاع؛ كما آلتقى الثُّرَيّان، وآقترن النَّيِّرانِ؛ كما حاصرَ الرئمَ الضَّيْغمُ ، وهاصر النَّسيمُ الغصنَ المنعَّم؛ كما راق فوق المِعْطَف الصارمُ العَضْب، كما آلتقت الصهباءُ والبارد العَذْب؛ بل كما فازت القِداح، ونُظِم الوِشاح؛ وآعتنق شَنٌّ طَبَقَه، وآعتلق الرَّوْض عَبَقَه؛ فحبّذا النَّسَب شابَكَه الصِّهر، والحسبُ عاقَدَه التُّقَى والبِرّ؛ على حين جرت الأيَامِن، وآكتُنِف الحَرَم الآمن؛ وبالبنينَ والرفاء، والنعيم والصَّفاء، والثَّرْوة والنَّماء

٢٠
(١) كذا فى ديوان البحترى وفى الأصل : إن تظفر .
(٢) كذا فى ديوان المتنبى، وفى الاصل : وما أخصك فى قول .

والزمن الوهد والعِزّة القَعْساء الشمّاء ، على الوِفاق ، والوِئام والآتساق ، والحظوظ والجدود ، والفُسْطاط الممدود ، وهصْر العيش الأُمْلود ، والآلتئام وتتابُع البشرى بالفارس المولود ، ومالى تأوّدْتُ أَعْطافا ، وتأنَّقتُ أوصافا ، وتهلَّلْتُ جذلا ، و بسطت فى الدعاء مَذِلا؟ أهَنأنى الأرَب ، أم صفا لى المَشْرب؟ وقد غِبت عن اليوم المشهود ، وعَطَّلْت سُدَّةَ الإذن للوفود ، ولم أَقُمْ فى السِّماط ، سافرًا عن وجه الآغتباط ، أتلقّ الوالجَ بمبرور التّحِيّه ، وأُفَدِّى الخارجَ بحكم السُّرور والأَرْيَحِيَّه ، وأتخدّم رفع الوحى والإيماء ، وأتقــدّم من المصافاة والموالاة فى الغفير الجمّــاء ، كلّا! ولا شهدتُ ليلة الزِّفاف ، وما حلتْ من محاسنها الأفواف ، حيث دارت المُنَى سُلافا ، وصارت العُــلا دَوحةً أَلفافا ، وأبدى رَوْنَقَ السَّيف جِلاء ، وأبرز عقيلة الحىِّ هِداء ، هنالك حلّت النعماء ، ونهلت الأظماء ، فياله منظَرا ، ووعدًا مُنتظَرا ، لو ناجيتُه من كَثَب ، وكرعْتُ منه فى المَنْهل الأعذب! بلى! إنه(١) وقع ، فشفى ونفع ، والرّكب سَنَح ، فنعم مامنح ، أهداها حَمَلا ، فكأنما أســداها أَمَلا ، أثلج الفؤاد ، وأورى الزِّناد ، وفى بالنفس أوكاد ، وفلت(٢) عن قراه ، نفس جَذِلت بسراه ، وأرجت لذكراه ، ولله ما أحظاه مقــدَما ، وأعلاه فى الإحسان قَدَما ، لو وهبتُ لمقتضاه من الكرامة دما ، وقد كان فى الحق أن أهاجر ، وأعصى الناهى والزّاجر ، فآبسُطْ لى عُذرا ، وأعِدْنى لك ذُخرا ، وطِبْ مدى الدهر خَبَرًا وخُبْرا .

ومما هنِّئ به من رزقه الله ولدا وزاده به قوّة وعَددا ، فمن ذلك ما كتب به الأستاذ آبن العميد فى فصل يهنّئ عضد الدولة بن بُوَيْهِ وقد وُلد له آبنان تَوأمان:

وصــل كتاب الأمير بالبشرى التى أبت النعمةُ بها أن تقع مُفردة ، وآمتنعت العارفةُ فيها أن تَسْنح مُوحَدة ، حتى تيسّرت مِنْحتانِ فى وَطَن ، وآنتظمت مَوْهِبتانِ

(١) فى الأصل : «ان» وهو غير واضح . (٢) وردت هذه الكلمة هكذا بالأصل ؟

فى قَرَن، وطلع من النجيبَيْنِ أبى القاسم وأبى كاليجار — أدام الله عِزّهما — طالعا مُلْك، ونجما سعد، وشهابا عِزّ، وكوكبا مجد، فتأهّلتْ بهما رِباعُ المحَاسن، ووُطِّئتْ لهما أكناف المكارم، وٱستشرفت إليهما صدورُ الأسِرّة والمنابر. وفهمته وشكرتُ الله تعالى شكْرَ من نادى الآمالَ فأجابته مُكَثّبة، ودعا الأمانى بجاءته[1] مُصْحِبة[2]، وحمِدتُه حمدًا مكافئا جسيمَ ما أتاح وعظيمَ ما أفاد؛ وٱكتنفنى من السرور مافسَح مناهج الغِبْطة، وسهّل مواردَ البَهْجة؛ وأشعْتُ ما ورد إشاعةً شرحتْ صدور الأولياء بمَسَارِّها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مَقَارِّها؛ وسألت الله إتمام ما آذن[3] به الأميران السيّدان من سعادة لايهتدى إليها الآختيارُ عُلُوّا، ولا تَرتقى إليها الأفكارُ سموّا؛ وسلطانٍ تَضيق البحارُ عن ٱتّساعه، وتنخفض الأفلاك عن ٱرتفاعه؛ ويُبلّغهما أفضل ما تقسِمه السعود، وتعلو به الجُدود؛ حتى يستغرقا مع السابقين إخوتهما مساعِىَ الفضل، ويَشيدا قواعدَ الفخر، ويرجُمَا صُروف الدّهر، ويضبِطا أطرافَ الأرض، وهو تعالى قريب مجيب .

ومن كلام الوزير الفقيه أبى القاسم محمد بن الجد الأندلسىّ : إن أحقَّ ما ٱنبسط فيه للتهنئة لسان، وتصرّف فى ميادين معانيه بيان وبَنان؛ أملٌ رُجِّى فتأبَّى زمانا، وٱستُدْعِى فلوى عِنانا؛ وطاردته الأمانىّ فأتعبها حِينا، وغازلتْه الهمم فأشعرها حَنِينا؛ ثم طلع غيرَ مُرْتَقَب، وورد من صحبة المناجح فى عسكر لَجَب؛ وكان كالمشير إلى مابعده من مواكب الآمال، والدليلِ على ما وراءَه من كواكب الإقبال؛ أو كالصُّبح ٱفترّتْ عن أنوار الشّمس مَبَاسمه، والبرق تتابعت إثْرَ وَميضه غمائمُه . وفى هذه الجملة

(١) فى الأصل : «بجعلته» .
(٢) مصحبة : منقادة .
(٣) فى الاصل : ما أدنا .

مادلّ على المولود، المُؤذِن بترادُف الحظوظ وتضاعف السُّعود، فياله نجمَ سعادة، طلع فى أُفق سِيادة، وغُصْنَ سَنَاء، تفرّع عن دَوْحة عَلاء، لقد تهلّلتْ وجوه المحاسن باستهلاله، وأقبلت وفود الميامن لاستقباله، ونُظمت له قلائدُ التمائم، من جواهر المكارم، وخُصّ بالثُّدِىّ الحَوافل، بِلبان الفضائل، وما كان منبِت الشرف بإفراد تلك الأَرومة الكريمة إلّا مقشعرّ الرُّبا، مغبرّ الثرى، متهافت أغصان الرِّضا، فأمّا وقد اهتزّ فى أيكة السِّيادة قضيب، ودنا من نَبْتةِ النّجابة نجيب، فأخْلِقْ بذلك المنبت أن تعاوده نضرته، وترِفّ عليه حَبْرته، ويراجعه رَونقُه وبهاؤُه، وتُضاحكه أرضُه وسماؤه. فالحمد لله على ما أتاحه من آنتشاء الأمَل من جِماحه، وآختيال الجَذَل فى حَلْبة غَرَره وأوصاحه. وهو المسئول أن يهنّئك منه صُنْعًا يحسُن فى مثله الحسد، ويُتَمنّى لفضله النسلُ والوَلد، بعزته.

وقال أبو هِلال العَسْكرىّ

قــد زاد فى عَدَد الكِرامِ كريمُ * محْضٌ صريحٌ فى الكِرامِ صَمِيمُ
عَالِى المحَــلّةِ لا يزال كأنه * للفرْقــدينِ وللسِّماكِ نديمُ
فلِأمرهِ التّتميمُ كيف تصرّفتْ * حالاتُه، ولشأنه التّفْخِــيمُ
فابشِرْ فقد وافاكَ يومَ رُزِقْتَــهُ * حظٌّ بتخليــد السرور زعــيمُ
فرعٌ تكـفّل دهرُه بتمَــامه * حتى يكرّ الدهرُ وهو أرُومُ
إنّ الهلالَ يصــير بدرًا كاملا * ويَهُدّ ســدّ الليل وهو بهــيمُ
وهو الوجيه إذا تبــدّى وجهُهُ * وعدًا إذا نزل العظيمُ عظيمُ
فلِأهــله شَرَفٌ به مُتوطّــدٌ * ولهم به شرفٌ أشمُّ عمــيمُ

فاقْرَرْ به عينًا فإنّ خِلالَه * تصفو وتسلَسُ أو يقالَ : نسيمُ
وبِجدّه التّصميمُ حيثُ تلاحقَتْ * أقرانُهُ ولشأوِهِ التّقــديمُ

ومن كلام الصاحب بن عَبّاد تهنئة ببنت : أهلًا وسهْلا بعَقيلة النّساء، وأُمّ ٱلأبناء، وجالبة الأَصهار، وأولاد الأطهار، والمبشِّرة بإخوة يتنافسون، ونجباء يتلاحقون

فلو كان النِّســاء كمثلِ هٰــذِى * لَفُضِّــلَت النِّســاءُ على الرِّجالِ
وما التأنيثُ لاسم الشَّمسِ عيبٌ * ولا التذكيرُ فخرٌ للهِــلالِ

فادّرع يا سيِّدى ٱغتباطا، وٱستأنف نَشاطا، فالدُّنيا مُؤَنّثــة والرجال يخدمونها، والذكور يعبدونها، والأرض مُؤَنّثة ومنها خُلقت البريّة، وفيها كثُرت الذُّرّيّة، والسماء مؤنّثة وقد تَزَيّنت بالكواكب، وحَلِيَتْ بالنّجم الثّاقب، والنّفس مؤنّثة وهى قِوامُ الأبدان، ومِلاك الحَيَوان، والجَنّــة مؤنّثة وبها وُعد المتّقون، وفيها ينعَم المرسلون، فهنيئا هنيئًا ما أُولِيت، وأوزعك الله شكرَ ما أُعْطيت، وأطــال بقاءك ما عُرِف النّسْل والولد، وما بَقِى الابَد، وكما عُمِّر لُبَد .

ومن كلام أبى المكارم بن عبد السّلام من شعراء الخريدة : — هذا شُعَيبٌ النبىّ بابنته صَفُوراء ٱستأجر موسى كليم الله، وهذا سيِّد المرسَلين أبقى الله بفاطمة ٱبنته نسلَه إلى يوم الدِّين، وهذه أُمّ الكِتاب سُمِّيت الفاتحةَ، وهى لأبواب مُناجاة الرَّحمٰن فاتحة، وهذه مُحْكَمات القُرءان، بها ثبتت شرائع الإيمان، وهذه سورة النِّساء وسُمِّيت بهنّ وهى من الطِّوال، ولا سورةَ من القِصار سُمِّيت بالرّجال، على أنّ الدّنيا بأَسْرها مؤنّثــة والملوك من خُدّامها، والشّمسُ مؤنّثــة والضِّياء والبهاء من تَمامها، والنّفس تُؤنّث وبها فُضِّل الناسُ، والحياة تؤنّث وهى أساس الحَوَاسّ، والعَين تؤنّث وبها يُتَوَسّل الى علم الدقائق، واليد تؤنّث وهى المتصدّية لتحبير الأشياء، والعَضُد تؤنّث

وبها آســتعانة سائر الأعضاء ، والسّماء تؤنّث وهى تُزْجِى الأمطار ، والأرض تؤنّث وهى مجمع أَطَايب الثّمـار ، والجَنّـة تؤنّث وبها وُعد الأبرارُ الأخيار ، والعَين ، أعنى الذهب ، تُؤَنّث وبها يَدفع الهُلْك ، والقَوس تُؤنّث وبها عِزّ المُلْك .

ومما هُنِّئ به فى المَوَاسِم والقُدوم

قال آبن الرومىّ تهنئة بعيد الفطر ٥

قد مضى الصّومُ صاحبًا محمودا * وأتى الفِطرُ صاحبا مَوْدُودَا

ذهب الصّومُ وهو يَحْكِيك نُسكا * وأتى الفطرُ وهو يحكيك جُودا

وقال آخر

رأى العِيدُ وجهَك عِيدًا لَهُ * وإن كنت زِدْتَ عليه جَمَالَا

وكبَّر حين رآك الهلالُ * كفِعْلِكَ حين رأيتَ الهِلَالَا ١٠

رأى منكَ ما منــه أبصرتَه * هلالًا أضـاء ووجهًا تَلَالَا

وقال آبن الرومى يهنّئ بعيد أضحى وهو يوم نَوْرُوز

عِيدَانِ : أضْحى ونَوْرُوزٌ كأنّهما * يَوْمَا فِعالِكَ من بُؤْسٍ وإنْعـامِ

كذاك يَوْمَاكَ : يومٌ سَيبُهُ دِيَمٌ * على العُفاةِ ، ويومٌ سيفه دَامِى

وقال أبو إسحاق الصّابى ١٥

يا ســيِّدًا أضحى الزما * نُ بأُنْسِـه منــه رَبيعَا

أيّامُ دهرِك لم تَزَلْ * للنّـاس أعيـادًا جميعا

حتى لأوشــك بينَها * عيدُ الحقيقة أن يَضيعا

وقال الشّريف الرضىّ تهنئة بقُدوم

قدِم السرورُ بقَدْمةٍ لك بَشَّرت * غرر العُلا وعَوالِىَ التّيجانِ

قَلِقت ظبا الأسياف منك بفرحة * فتكادُ تُنْهِضها من الأجفانِ

قد كان هٰذا الدّهرُ يلحَظ جانبى * عن طَرْف ليثٍ ساغِبٍ ظَمْآنِ

٥ فالآن حين قَدِمتَ عُدْنَ صُروفُه * يَرمُقْنَنى بنواظر الغِزْلانِ

وممّا قيل من شواذّ التهانى وهى الجمع بين التّهنئة والتّعزية، والبشارة والتسلية؛ فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن صالح للرشيد، وكان من يحسده قد قال للرشيد عنه إنه يُعِدّ كلامه، فأنكر الرشيد ذلك وقال : بل هو طبع؛ وجلس فى بعض الأيّام ودخل عبد الملك فقال الرشيد للفضل : قل له : وُلد لأمير المؤمنين فى هذه الليلة ١٠ ٱبنٌ ومات له ٱبن، فقال الفضل له ذلك، فدنا عبد الملك وقال : ياأمير المؤمنين، سرّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرّك، وجعلها واحدة بواحدة، ثوابَ الشاكر وأجر الصابر؛ فقال الرشيد : أهٰذا الّذى زعموا أنه يتصنّع الكلام! ما رأى الناس أطبع من عبد الملك فى الفصاحة .

ومن ذلك ما حكاه ثُمامة بن أَبْرَش قال : لما دخل المأمون بغداد بعد قتل ١٥ الأمين دخلتْ عليه زُبَيدة ٱبنة جعفر أمّ الأمين، فجلست بين يديه وقالت: الحمد لله إن أُهَنّئك بالخلافة فقد هنّأتُ بها نفسى قبل أن أراك ، وإن كنتُ فقدت ٱبنا خليفةً لقد ٱعتضتُ ٱبنا خليفة، وما خسر من ٱعتاض مثلَك ولا ثكلتْ أُمٌّ ملأت عينَها منك، وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ، وإمتاعا بما وهب؛ فقال المأمون : ما تلد النساء مثلَ هذه، ما تراها أبقتْ فى الكلام لبلغاء الرجال !

وقال عبـد الله بن الحسن الجعفرى السمرقندى يهنئ العزيز بخلافة مصر ويرثى أباه المعز

قد أصبح الجوهر العلوىّ منتقلا * فى خير من كان من خير الورى بدلا
يا منحة كمنت فى محنة عظمت * لولاك فى الدهر ما نال امرؤ أملا
صنع من الله فى خطب أتيح لنا * عم البـلاد وعم السهل والجبلا
كان الزمان بمن أبقى ومن أحذت * صروفه مذنبا طورا ومنتصلا
قام العزيز بما أفضى المعز به * إليه مضطلعا بالعبء محتملا
فقام أحفظ مسترعى رعى فكفى * من بعد خير إمام قوم الميلا
كالسيف منتصلا والبحر مندفقا * والبدر مؤتلقا والغيث محتفلا

ومنها

فى طلعة البدر من شمس الضحى عوض * وظلمة الليل يجلو جنحها ابن جلا
وما الأئمة إلا أنجم زهر * يبدو لنا كوكب إن كوكب أفلا
إن المعز الذى لا خلق يشبهه * إلا العزيز ابنه إن قال أو فعلا
ملك وجدنا التقى والعدل عدته * إذا الملوك استعدوا الكيد والحيلا
سمت الى العالم النورى همته * ففارق القمم الأرضى وانتقلا
وراجعت نفسه فى القدس عنصرها * ولم يزل بحبال الله متصلا
لم يرض خلقا من الدنيا يجاوره * إلا الملائك فى الفردوس والرسلا
لولا نزار وعين الله تحرسه * كنا بفقد معد أمة همـلا
فإن مضى كافل الدنيا[1] وما ضمنت * فذا ابنه كافل عنه بما كفلا

(١) فى الأصل : "كامل الدنيا" .

وإن هَوَى الجبلُ الرّاسى فَذا جبلٌ * راسٍ لنا بعدَه، أَعْظِمْ به جَبَلا!
عمّت خلافتُه الدّنيا برونقها * كأنه الشّمسُ فيها حلّت الحَمَلا
مُلْكٌ أغرُّ وأيّامٌ مُحَجَّلَةٌ * ودَوْلَةٌ كلَّ وقتٍ تقهرُ الدُّوَلا
أضحتْ ملوكُ بنى الدّنيا له خَوَلًا * وما حوتْ كلُّ دارٍ منهُمُ نَفَلا
٥ يأيّها الملكُ المأمولُ نائلُهُ * ومن هو الغايةُ القُصْوَى لنا أمَلا
كان السّريرُ سريرُ الملك منخفضا * حتى ٱرتقيتَ ذُراه فارتقى وعَلا

ومن ذلك ما كتب به عامل إلى المصروف به: قد قُلِّدتُ العملَ بناحيتك، فهنّأك الله بتجدُّد[1] ولايتك، فأنفذتُ خليفتى لخلافتك، فلا تُخْلِه من هدايتك، إلى أن يَمُنّ الله بزيارتك. فأجابه: ما ٱنتقلت عنّى نعمةٌ صارتْ إليك، ولا خَلوتُ ١٠ من كرامة اشتملتْ عليك، وإنى لأجد صَرْفى بك ولايةً ثانية وصلة وافية، لما أرجو لمكانك من حسن الخاتمة ومحمود العاقبة، والسلام.

وكتب إبراهيم بن عيسى الكاتب يهنّئ إبراهيم بن المدبّر بالعزل عن عمل

لِيَهْنِئْ أبا إسحاقَ أسبابُ نِعمةٍ * مُجَدَّدَةٍ بالعَزْلِ، والعزلُ أنبلُ
شهِدتُ لقد مَنُّوا عليك وأحسنوا * لأنك بعد العزلِ أعلى وأفضلُ

١٥ آخر

إنّ الأميرَ هو الّذى * يُضْحِى أميرًا عند عَزْلِهْ
إن زال سُلطانُ الوِلا * ية فهو فى سلطان فَضْلِهْ

وكتب أبو إسحاق الصابى إلى رجل زوّج أمّه: قد جعلك الله — وله الحمد — من أهل التّحصيل، والرّأى الأصيل، وصحّة الدين، وخُلُق ذى اليقين، فكما أنك

٢٠ (٢) فى الأصل: تجدد من غير حرف الجر.

لا تتّبع الشّهوةَ فى محظور تُحِلُّه ، فكذلك لا تُطِيع الأَنَفَة فى مُباح تحظُرهُ. وتأدّى إلىّ
من آتّصــال الوالدة — يسّر الله لهــا فى مُدّتك ، وأحسن بالبقيّة منها إمتاعك —
بأبى فلان، أعزّه الله، ماعلمتُ فيه أنك بين طاعة للديانة توخّيْتَها ، ومشقّةٍ تجشّمْتَها ،
وأنك جدَعْتَ أنفَ الغَيْرةِ بها ، وأضرعت خَدّ الحَمِيَّة فيها ، وأسخطتَ نفسك بإرضائها ،
وعصيت هواك لرأيها ، فنحن نهنّيــك بعزيمة صبرِك ، ونُعَزّيك عن فائت مرادك ، ٥
ونسأل الله الخِــيَرَةَ لك فيــه ، وأن يجعلها أبدا معك فيما شئتَ وأَبيتَ ، وتجنّبتَ
وأتيتَ .

(٦٣) وقال كاتب مُتقدّم فى مثل ذلك : الرضا بمــا يُبيحه حكمُ الله أولى من الآمتعاض
فيما تحظُرُه أَنَفَةُ الحميّــة ، ولا قُبْحَ فيما أحلّ الله ، كما لا جمالَ فيما حرَّم الله ، فعرّفك الله
الخِيَرَةَ فيما آختارته من طَهارة العَفاف ونُبْل الحَصانة ، وعطفك من بِرّها على ما تُؤدّى ١٠
به حقَّها وما لَزِمك من المعروف فى مُصاحبتها .

وكتب الصّاحب بن عَبّاد تهنئةً بزواج أُمّ وتعزيةً بموت أب ، فقال : الأيّام —
أطال الله بقاءك — تجرى على أنحاء مختلفة ، وشُعَب متفرّقة ، وأحكامها نتفاوت
بيننا بما يسوء ويسُرّ ، وينفَع ويضُرّ ؛ وبلغنى من نفوذ قضاء الله فى شيخك ، رحمه الله ،
ما أزعجنى ، وأبهم طُرُق السّــلْوة دُونى ، وإن كان من خَلّفك غيرَ خارج عن مَزِيّة ١٥
الأحياء ، ولا حاصــلٍ فى زُمرة الاموات ؛ والله يأسُو كَلْمَك ، ويسُــدّ ثَلْمَك ،
وقد فعل ذلك بأن أتاح الله لك بعــد أبيك أبًا لا يَقْصُر عنه شفقةً عليك وحُنُوّا ،
وإيثارًا لك وبِرّا ؛ وقد لعمرى وُفّقْتَ حين وصلتَ بحبلك حبلهَ ، وأسكنتَ الكبيرة —
حَرَسها الله تعالى — ظِلَّه ، لِئلا تفقِد من المــاضى — عفا الله عنه — إلّا شخصَه ؛
فالحمد لله الذى أرشدك لمــا يعيد الشّمل مجتمِعًا بعد فِراقه ، والعَدَدَ موفورا بعــد ٢٠

انتقاصه، حمدًا يقضى لك بالمَسَرّة، ويحسم دونك مَرَاد الوَحشة ، ويُلَقّيك ثوابَ ما قضيتَه من الحق، وتحمّلتَه فيه من الأَوْق[(١)]؛ إنه فعّال لما يريد .

فهذه نبذة كافية فى التهانى الخاصّة، فلنذكر العامّة .

ذكر نبذة من التهانى العامّة والبشائر التامّة

٥ ولنبدأ من ذلك بما قيل فى البِشارة بوفاء النيل لما فيه من عموم المنافع الشاملة ، وشُمول النِّعم الكاملة، والخِصْب الذى يتساوى فى الانتفاع به الغنىّ والفقير، والمأمور والأمـــير .

فمن ذلك ما كتب به المولى الفاضل، الصدر الكبير الكامل، ذو المناقب والمآثر، والفضائل والمفاخر، شهاب الدين محمود الحلبى : وسرّه بنبأ النِّيل الذى عمَّ نَيْلا، ١٠ وجرّ على وجه الأرض مُلَاءة مِلْأته ، فشمّر المَحْلُ للرِّحْلة ذَيْلا، وجرّد على الجَدْب سيفَ خِصْبه، فسال مُحْمَرُّ دمه على وجه الصعيد سَـيْلا ، وجرى وسرى فى ضياء إشراقه وظُلمـةِ تراكُمه إلى الأرض التى بارك به حولها ، فجلّ من أجراه نهـارا وسبحان من أسرى به لَيْلا . صدرت هذه المكاتبة إليه، أعزّه الله تعالى، ونِعَمُ الله قد عمّت، وآلاؤه مع تحقُّق المزيد قد تمّت، ومواد فضله قد أمّت الأقطار فقامت ١٥ صَلاة الصِّلات إذ أمّت، وكلمة الخِصْب قد نَمَت فى الآفاق، فوشَتْ بمكنون حديثها للأرض ونمَّتْ؛ والخِصْب قد أقبل على الجَدْب فلم يكن له بمقاومته قِبَل، وطوفان الرَّحمة قد طبّق الوِهاد، فلم يُغْنِ المَحْلَ أن قال: سآوى منه إلى جبل؛ والسّيل قد بلغ فى تتبُّع بقايا القَحْط الزُّبى، والنِّيل قد عمّ بنَيْله الأرض حتى كلّل مفارِق الآكام وعمّم رُءوسَ

(١) الثقـــل .

الرُّبا ، وحمى الأرضَ من تطرُّق المُحُول إليهـا فأصبحت منه فى حَرَم ، وظهرت به
عجائب القدرة ومنها أنّ آبن الســتة عشر بلغ إلى الهَرَم ، وبثّ جُودَه فى الوجود فلو
صوّر نفسَه لم يزِدْها على ما فيه من كَرَم ، وتلقّت منه النفوس أبهجَ محبوبٍ طرد ممقوتا ،
(٦٤) ووثِقت من حُمْرته بالغِنىٰ والمُنَى إذ لم تدرِ أيا قوتاً تُشاهد منه أم قُوتا ، وجرى فى الوفاء
٥ على أكمل ما أُلِف من عادته ، وظهر بإشراقه وعموم نفعه ظهورَ الشمس فألقى على
الأرض أشِــعّةَ سعادته ، وأقبلت به على الخَلْق بوادرُ الإقبال ، وركب الناس منه
فى سُفن النَّجاح والنّجاة فهى تجرى بهم فى مَوج كالجبال ، وبلّغ الله به المنافع فزعزع
الشُّح ولم يتجاسر على الجُسُور ، وآمن الناس به طُروق المَحْل المطرود به عنهم فضُرِب
بينهــم بِسُور ، وأقطع الخِصْب الأرض كلَّهـا فله فى كلّ بُقعة مثالٌ مرئِيٌّ ومنشور
١٠ منشور ، وبعث إلى كلّ عمل من سَرَايا جُوده عارضا مُغْضَبا على المَحْل ما يخطر إلّا
وسيفه مشهور ، وأودع بطنَ الثرى موادَّ ثَرائه ، وآستقبل الوَرَى بوجه ما تأمّله آمرؤ
صادى الجوانح إلّا آرتَوى من مائه ، وأظهر الله به مثالَ ما سلَف من كرامة أصفيائه ،
إذ جعل تحت كلّ نخلةٍ من سُراه سَرِيّا ، وجَلَا به عن الأُمّة ظُلَمَ الغُمّة إذ أطلع منه
فى أوّل مَطَالعه المرتَقَبــة مُحيًّا بَدْرِيّا ، وذلك أنه لمــا كان فى اليوم الفلانىّ وَفَى النِّيلُ
١٥ المباركُ ستةعشر ذراعا ، ومدّ بحُسْن صُنع الله إلى مصالح البلاد يدًا صَناعا ، وركبنا إلى
المِقياس الّذى تُعلَم به مواقعُ الرّحمة فى كلّ يوم ، وتُهْدَى منه وارداتُ السرور إلى كلّ
قوم ، ووقفنا به لابسين من رحمة الله تعالى أحسنَ لِباس ، آنسين من أنوار رحمة الله
التى أزالت اليأس وأذهبت الباس ، ناظرين إلى أثر رحمــة الله الّتى أحْيت الأرضَ
بعد موتها ، ذلك من فضل الله علينا وعلى النّاس ، وجرى الأمر فى التّخليق على أجمل
٢٠ عادات البدور ، وعُلّقت ستارةُ المِقياس لا للإخفاء على عادة الأستار ، بل للإشاعة

والظهور، وآستقرّ حُكم المَسرّة على السَّنن المعهود، وعاد للناس عيد سرورهم إذ ذاك يومٌ مجموعٌ له النّاس وذٰلك يومٌ مشهود . وركب مولانا السلطان إلى سُدّ الخَليج والماء قد آستطال عليه، وسَرَت سرايا أمواجه إليه ، وصدمه بقوّة فاندفع مُنكسرا بين يديه؛ فانجبرت القلوبُ بكَسْره، واستوفت الأنفُس السُّرورَ بأَسْره ، وأيقن كلّ ذى عُسْر بحصول يُسْره ؛ وساق الله به الماء إلى الأرض الجُرُز فأحياها وحيّاها ، ورَقّ لوجهها المُغْبَرّ فستر بردائه المحمَرّ صفحةَ مُحَيّاها . كلّ ذلك وهو ، بحمد الله تعالى ، آخذٌ فى الآزدياد ، حارٍ على وَفْق المُراد إلى حَدّه المُعتاد ، سالكٌ ببلاغه سبيلَ أهل البلاغة إذ يَهيمون فى كلّ واد ؛ وها هو الآن يرتفع إلى كلّ ربوة على جَناح النَّجاح، ويُخيف السُّبل وما عليه حَرَجٌ ويقطع الطُّرق وليس عليه جُناح؛ فليأخذ مولانا حظّه من هذه البُشرى التى عمّ بِشْرُها، ووجب على كلّ مؤمن شُكْرُها، ويتحقّق أنّ هذه بوادر خير تَسْرِى إليه على ركائب السّحائب، وطلائعُ خِصْب هى لديه أقرب غائب وأسرع آئب ؛ والله تعالى يُعِزّ أنصارَه ، ويُوالى مَبارّه ، بمحمد وآله .

وكتب أيضا فى مثل ذلك : ضاعف الله نعمة المجلس العالى، وبشّره بما أجرى الأئمّة عليه من عوائد كَرَمه ، وسرّه بما يسرّه من خصوص بِرّه وعموم نِعَمه ، وهنّاه بما سنّاه (١) من هرَب جيش المَحْل بعد قِدَم وَثَباته وثَبات قَدَمه، وأورد على سمعه من أنباء نُصرة الخِصْب ما يتحقّق به أنْ لم يبق فى الأرض عَلَمٌ إلّا تحت علمه ، وأنه ذبح الجَدْب بسيف مَدَده الّذى أنبأ بحُمْرة عَنْدَمه عن دَمه ، وبثّ سراياه فى الأقطار على مُتون القِطار ، مُرْهِفا على بقايا المحل سيوفَ بُرُوقه ونِبالَ دِيَمه ،

(١) يسّره وسهله .

وضرَب قِبـاب موجه على المسالك فلو هبّت بينها عاصـفةُ جَدْبٍ تعثّرت بأطناب خِيَمه، ولعِب على ما شَمَخ من الرُّبا، فعجَبٌ له من كاملٍ يلعب وقد بلغ إلى هَرَمه!
صدرت هذه المكاتبة تَقصّ عليه من نِعَم الله أحسن القَصَص، وتُهْدى إليه من موادّ فضله ما يخصّ الشأم وأهله منه بأوفى الأقسام وأوفر الحِصَص، وتحثّه على شُكر الله تعالى الذى به يَنْتَهز من مزيد بِره أعظمَ الحظُوظ وأفضل الفُرص، وتُعلم أن الله نصر جيش الرَّخاء بمدد لُطفه على اليأس الذى تولّى الشيطانُ أمره (فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ)، وأنعم على خَلْقه بما أرخصته عزائم كَرَمه بهم، فوجب أن تُقابَل نِعَمُه بعزائم الشّكر دون الرُّخَص، وذلك أن الله تعالى أجاب دعوة المضطرّ، وأفاض بِرَّه العميمَ على الغنىّ والفقير والقانع والمُعْتَرّ، وأحيا الأرض بعـد موتها، وتدارك برحمته دنيا



الدَّهماء بعد أن أشرفت على فَوْتها، وأجرى الخَلْق على عوائد كَرَمه، وأجرى لهم بقُدرته من حُجُب الغَيب موادّ نِعَمه، وأعلى لديهم موارد نيلهم حتى كاد ما يَشْرب بعُروق ساقِه يتناول الماء بفَمِه، وأمر البحرَ فأقبل بالفَرَج القريب من الأَمَد البعيد، وأذن له فى الترفّع من مَحَلّه فسجد على التُّرْب شكرًا وتيمّم الصعيد وإن لم يبق به الآن على وجه الأرض صـعيد، وأسرى منه ركائبَ السرور إلى الأقطار ففى كلّ نادٍ من هَديره حاد، وفى كلّ برٍّ من بُرُوره بَرِيد، وذكّر بإحياء الارض بعد موتها إحياءَ أمواتها، (إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد)، ونشر ألويَته على الثّرى لأهل الأرض بُشْرًا بين يدى رحمته، (وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَـهُ وَهُوَ الوَلِىُّ الحَمِيد)، وأقبل بعد نقص عامه المـاضى بوجه عليه حُمرة الخَجَل، وعَزْمٍ سَبَق سيفُه إلى المَحل العَـذَلَ بل الأَجَل، وحَزْمٍ أدرك الجدب بوجه قبـل أن يقول: سآوى إلى جَبَـل، وآستظهارٍ على كلّ ما عَلَا من الأرض حتى إن

الهَرَمينِ باتا منــه على وَجَل ؛ ومهّــد الأرض التى كانت ترقُبُه فهو لهــا المنتَظَر على الحقيقــة ، ووطئ بطن القُرى فنتج الخصب بينهما وذُبح المحل فى العقيقة ، وقطع الطرق فآمن بذلك كلّ حاضر و باد ورائح وغاد ، واتّبعــه الرِّىّ لا الروىّ حتى أضحى كالشُّــعراء يهيم فى كل واد ؛ وعمّت بركاته على الأرض "فتركْنَ كلّ قرارة كالدرهم" من الخصب مرتعا ، وأربى على رِيّه فيما[1] سلف من السنين ، فأضحى كهوى ابن أبى ربيعة "يقيس ذراعا كلما قِسْنَ إصبعا"؛ وتجعّد على الآكام نخُيِّل للعيون أنها تسـيل ، وشيّب مفارق الرُّبا ببياض زَبَده ، وعادةُ بياض الشّـيب أن يُخضَب بورق النيل ؛ وكأنّ ما بقى من المَحْل قد جعل بينه وبينه سدّا ، وتسترّ منه ورآه وهو يُمْلى ويَعُـدّ له عدّا ؛ فصدمه بقلبه وجعـله دكّا إذ جاء أمر ربه وأدركه وملكه ، وسفَك دمه لجرى مستطيلا إذ سفكه ؛ ووفَى بمـا وعد من ظَفَره ، وأتى لنُصْرة الخصب من مكان بعيد فأسـفر عن النُّجْح وجهُ سَفَرِه ، وأسبل على مقياسه ســتر السرور لإخفاره ذِمَّةَ الجَدْب لا لخَفَره ، وبشّر مصرَه بنُصْرة سرايا السحائب فى أقطار الممالك لأنها من أشياعه ونَفَره ؛ ولمـا كان اليوم الفلانى عُلِّق السِّتر وخُلِّق المقياس ، وكُسِر الخليجُ فكان فى كسره جَبْرٌ للخليقة ومنافعُ للناس ؛ وذلك بعـد أن وفّى النيـل المبارك ستة عشر ذراعا ، وصرف فى مصالح البلاد يدا تِضنّ بالبذل خُرْقا وتكفى بحسن التدبير ضِياعا ؛ [وبثّ فى أرجاء الأعمال بحارا تحسب بتلاطم الأمواج ركا وبمضاعفة الفجاج سراعا[2]] ؛ وهو بحمـد الله آخذ فى ازدياده إلى حدّه ، جارٍ على

---

(١) فى الأصل : «وأربى على ريه ما سلف من السنين» وظاهر أنه غير مستقيم ، ويجوز أن يكون الأصل «وأربى ريه على ما سلف» فحدث فيه تقديم وتأخير من الناسخ .

(٢) وردت هذه الجملة هكذا بالأصل ؟

آعتياده فى المشى على وجه الثرى وخَدِّه، يتتبّع أدواء المحل تتبُّعَ طبيب خبير، و يعكس بيت أبى الطيّب فتُمسى وبُســطها تراب، ويُصَبِّحها و بسطها حرير، وقد وثِقت الأنفس بفضل الله العميم، وأصــبح الناس بعد قطوب اليأس تعرف فى وجوههم نَضْرة النعيم، تيمُّناً ببركة أيامنا التى أعادت إليهم الهُجوع، وأعاذتهم ممّا آبتُلِى به غيرُهم من الخوف والجوع، فلبأخذ المجلس العــالى حظّه من هذه البشرى التى خصّت ٥ وعمّت، ووثقت النفوس بمزيد النعمة إذ قيل : تمّت، ويذيعها فى الأقطار، و يعرفهم قدرَ ما منح الله جيوش الإسلام من فضله الذى يُعجب الزرّاع ليَغيظ بهم الكُفّار، و يستقبل نعم الله التى سَيَسِم الأرضَ وَسْمِيُّها و يُولى النعم وليُّها، و يأتى بالبركات أتِيُّها حتى تغَصّ بالنعم تلك الرحاب، ويُظَنّ لعموم رِىّ البلاد الشاميّة أن نيل مصر وصل إليها على السحاب، ويُقيم منار العــدل الذى هو خير بالأرض من أن تُمْطَر، و يُعَفِّى ١٠ آثار الظلم حتى لا تكاد تَظْهَر .

وممــا قيل فى التّهانى بالفتوحات، وهزيمة جيوش الأعداء .

فمن ذلك ما كتب به المهلَّب بن أبى صُفْرة إلى الحجّاج بن يوسف الثقفىّ فى حرب الأزارقة : أما بعد فالحمــد لله الذى لا تنقطع موادُّ نعمته من خَلْقه حتى تنقطع موادّ الشكر . و إنا وعدونا كنّا على حالتين : يسرّنا منهم أكثر ممــا يسوءنا، و يسوءهم منّا ١٥ أكثر ممــا يسرّهم، فلم يزل الله عزوجل يزيدنا و ينقصهم، و يُعزّنا ويُذلُّهم، و يؤ يّدنا ويخذُلهم، و يمحّصنا ويمحَقُهم حتّى بلغ الكتابُ أجله، فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين .



وكتب الحارث بن عبــد الله بن أبى ربيعة حين وَلِى العراق من قِبَــل عبد الله آبن الزبير إليــه يُخْبره بهزيمة الخوارج : أما بعــد فإنا مذ خرجنا نؤُمّ هــذا العدو ٢٠

فى نعم من الله متّصلةٍ علينا ، ونقمةٍ من الله متتابعةٍ عليهم ، نُقْدِم ويُحْجمون، ونَجِدّ ويرحَلون، إلى أن حللَنا بسُوق الأهواز، والحمد لله رب العالمين .

ثم كتب إليه بعد هـذا الكتاب[(١)] : أما بعد فإنا لقينا الأزارقة بجِدّ وحَدّ ، وكانت فى الناس جولةٌ ثم ثاب أهل الحِفاظ والصبر بنيّاتٍ صادقة وأبدان شِداد وسيوف حِداد، فأعقب الله خير عاقبة، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا دَرِيئةَ رماحنا وضَرِيبةَ سيوفنا ، وقتل الله أميرهم آبن الماحوز، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأوّلها، والسلام .

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون لما فتح بغداد وقتل محمدا الأمين : أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيمَ أمير المؤمنين فى النَّسَب واللُّحمة ، لقد فرّق الله بينهما فى الولاية والحُرْمة، لمفارقته عصمةَ الدِّين، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين؛ قال الله عزّ وجلّ : (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)، ولا صلةَ لأحد فى معصية الله، ولا قطيعةَ فى ذات الله . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وقد قُتِل المخلوع ورَدّاه الله رِداء نَكْبة، وأحمدَ لأمير المؤمنين أمرَه، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده، والحمد لله المتولِّى لأمير المؤمنين بنعمته والراجع إليه بمعلوم حقّه والكائد له ممن ختَر عهده ونكَث عقده، حتى ردّ له الأُلفة بعد تفريقها ، وأحيا الأعلام بعد دروس أثرها، ومكّن له فى الأرض بعد شَتات أهلها .

ولما فتح المعتصم عَمُّورِيّة أكثر الشعراء من ذكر هذا الفتح ؛ فمن ذلك قول أبى تمّام حبيب بن أوس الطائىّ من قصيدته التى يقول فى أوّلها

---

(١) فى الكامل للبرد طبع أوربا ص ٦٤٠ : أن هذا الكتاب من المهلب الى الحارث .

السّيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ * فى حَدّه الحدُّ بين الجِدّ واللّعِبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائف فى * متونهنّ جَلَاءُ الشكِّ والرِّيَبِ
والعلمُ فى شُهُب الأرماح لامعةً * بين الخميسَيْنِ لا فى السبعة الشُّهبِ

جاء منها

فتحُ الفتوحِ تعالى أن يُحيطَ به * نظمٌ من الشّعْرِ أو نثرٌ من الخُطَبِ ٥
فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء له * وتبرُزُ الأرضُ فى أثوابها القُشُبِ

ومنها

وبرزةُ الوجه قد أعيَتْ رياضتُها * كِسْرى وصدّت صدودا عن أبى كَرِبِ
بِكرٌ فما ٱفترعتها كفُّ حادثةٍ * ولا ترقَّتْ إليها هِمّةُ النُّوَبِ
من عهدِ إسكَنْدَرٍ أو قبل ذاك فقد * شابت نَوَاصِى اللّيالى وَهْىَ لم تَشِبِ ١٠
حتى إذا مَخَضَ الله السنينَ لها * مَخْضَ الحَليبةِ كانت زُبْدَةَ الحِقَبِ
أتتهُمُ الكُرْبَةُ السوداءُ سادِرَةً * منها وكانَ ٱسمُها فرّاجةَ الكُرَبِ
لما رأت أُختَها بالأمسِ قد خَرِبَتْ * كان الخرابُ لها أعْدَى من الجَرَبِ

أشار فى هذا البيت إلى فتح أَنْقِرة . ومنها

لَبَّيْتَ صوتاً زِبَطْرِيًّا هَرَقْتَ له * كأسَ الكَرَى ورُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ ١٥

(٦٧) قيل : كانت الروم لما فتحت زِبَطْرة صاحت ٱمرأة من المسلمين : وامحمداه! وامعتصماه! فلما بلغه الخبر ركب لوقته يؤمّ الشام، وصاح : لَبَّيْكِ! لبيكِ! ولم يرجع إلى أن فتح أنْقِرة وعمّورِيّة . ومنها

خليفةَ الله جازى اللهُ سَعْيَكَ عن * جُرْثومة الدِّين والإسلامِ والحَسَبِ

إن كان بين صُرُوف الدّهر من رَحِم * موصولةٍ أو ذِمَامٍ غيرِ مُنْقَضِبِ

فبين أيّامِكَ اللاتى نُصِرْتَ بها * وبين أيّام بَدْرٍ أقربُ النَّسَبِ

وكتب أبو عبيد الله البكرىّ إلى المعتمد على الله المؤيَّد بنصر الله يهنّئه بالفتح الذى كان فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة : أطال الله بقاء سيِّدى ومولاى الجليل القدر، الجميل الذكر، ذى الأيادى الغُرّ، والنعم الزُّهْر؛ وهنأه ما مُنِحَه من فتح ونصر، وآعتلاءٍ وقهر؛ بطالع السعد يا مولاى أُبْتَ، وبسانح اليُمْن غُدْتَ، وبكَنَفِ الحِرْز عُذْتَ، وفى سبيل الظَّفَر سِرْتَ، وبقدم البِرّ سَعَيت، وبجُنّة العِصمة أَتَيت، وبسهم السَّداد رَمَيتَ فأصميت؛ صَدَرٌ عن أكرم المقاصد وأشرف المشاهد، وعودٌ بأجلّ ما ناله عائد وآب به وارد؛ فتوحٌ أضحكت مَبْسِم الدّهر، وسَفَرت عن صَفْحة البِشْر، وردّت ماضِيَ العُمْر، وأكبت(١) وارِىَ الكُفر؛ وهزّت أعطاف الأيّام طَرَبا، وسقت أقداحَ السرور نَخبا، وثنتْ آمال الشرك كَذِبا، وطوتْ أحشاء الطاغية رَهَبا؛ فذكرُها زادُ الراكب، وراحة اللاغب، ومُتْعة الحاضر، ونُقْلة المسافر

بها تُنْقَضُ الأحلاسُ فى كلِّ منزلٍ * وتُعْقَدُ أطرافُ الحبالِ وتُطْلَقُ

شمِلت النعمة، وجبرت الأُمّة، وجَلَت الغُمّة، وشفَت المِلّة، وبرّدت الغُلّة، وكَشفَت العِلّة .

كان دَاءَ الإشراكِ سيفُك وآشتدّت شَكاةُ الهُدَى وكان طبيبا

فغدا الدِّينُ جديدا، والإسلام سعيدا، والزمان حَميدا؛ وعَمود الدِّين قائما، وكتابُ الله حاكما؛ ودعوة الإيمان منصورة، وعَين الملك قريرة؛ فهنّأ الله مولانا

(١) أكبت : جعلته لا يورى؛ وفى الأصل «أكبت»، ولعله تحريف من الناسخ.

وهَنأنا هذه المِنَحَ البهيّةَ مطالعُها، الشَّهيّةَ مواقعُها، المشهورةَ آثارُها، المأثورةَ أخبارُها، ونصر الله أعلامَه ففي البرِّ تُحَلُّ وتُعْقَد، وعَضَد حُسامه فبالقِسط يُسَلُّ ويُغْمَد، وأيّد مذاهبه فبالتَّحَزُّم تُسْدَى وتُلْحَم، وأمّر كتائبه ففي الله تُسْرَج وتُلْجَم؛ فكم فادحِ خَطْبٍ كفاه، وظلامِ كَرْبٍ جَلاه، وميِّتِ حقٍّ أحياه، وحيٍّ باطلٍ أرداه؛ وكم جاحمِ ضلالةٍ أطفأ نارَه، وناجمِ فتنةٍ قلَّم أظفارَه، ومفلولِ سُنَّةٍ أرهَفَ شفارَه، ومستباحِ حُرْمةٍ حَمَى ذِمارَه؛ فلله هذه المساعى الكريمة، والمنازع القويمة، المتبلِّجة عن ميمون النَّقيبة ومحمود العزيمة؛ فقد تمثّل بها العهد الأوّل والقرن الأفضل الذى أُخْرِج للناس يأمُرُون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر، والذى سطع هذا السِّراج، وانتهج هذا المنهاج، فلا زالت الفتوح تتوالى عليه، وصنائع الله تتَّصل لديه، إدالةً من مُشاقّيه، وإذالةً لمحاربيه، وإبادةً لمناوئيه؛ وإنّ أجلّ هذه النعم فى الصدور، وأحقّها بالشكر الموفور، ما منّ الله به من سلامة مولاى التى هى جامعةٌ لعزِّ الدِّين وصلاح كافّة المسلمين، بعد أن صَلِي من الحرب نِيرانَها، فكان أَثْبَتَ أركانها وأصبرَ أقرانها

وقفْتَ وما فى الموت شكٌّ لواقف * كأنك فى جَفْن الرَّدَى وَهْوَ نائمُ

تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً * ووجْهُكَ وضَّاحٌ وثَغْرُكَ باسمُ

هنيئًا لضرب الهَامِ والمجْدِ والعُلَا * ووجهِك والإسلامِ أنّك سالمُ

فلله الحمد والإبداءُ والإلهام، وله المِنّة وعلينا متابعة الشكر والدوام. وقد فازت الكفُّ الكليم، بأعلى قداح المكلوم لدى المقام الكريم؛ وإنها لهى التالية للإصبع الدامية، فى المنزلة العالية

بَصُرْتَ بالراحة العُلْيا[1] فلم ترها * تُنالُ إلّا على جِسْرٍ من التّعبِ

(١) فى ديوان أبى تمام: الكبرى.

(٦٨) ومن كلام القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ جواب كتاب ورد عليه يُخبَر فيه بانتصار المسلمين، ابتدأه بقوله عز وجل: (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) وصلتْ بُشرى المجلس السامى — أعلاه الله وشيّده، وأسعده وأصعده، وشكر مشهَده وأنجح مقصِدَه، وملأ بالحسنات أمسَه ويومه وغدَه، وأهلك وعادى أعداءه وحُسَّدَه، واجتبّ بسيفه زرع الكفّار وذرّاه وحصده — بما منّ الله سبحانه من نُصْرة المسلمين عند لقاء عدوّهم؛ وما وَليهم الله من القوّة والإظهار، وما قَذَف فى قلوب الكفر من الخوف والحِذار؛ وشرح القضيّة شرحًا شرَح الصدور، واستوى فيها الغُيّاب مع الحضور، فكانت البشارة منه وكانت المباشَرةُ له، وما كلّ من بَشّر باشر، ولا كلّ مَن عار عاوَرَ؛ ولا كلّ من خبّر عن السيوف لقيها بوجهه، ولا كلّ من حدّث عن الرماح عانقها بصدره؛ فنفعه الله بالإسلام كما نفع الإسلام به، وأتمّ النعمةَ عليه كما أتمها فيه، وتقبّل جهاده الذى جلا فيه الكُرُبات، وابتغى فيه القُرُبات؛ ويُتوقّع أن هان العدوّ فى العيون، وظهر منه غيرُ ما كان فى الظنون، أن يكسر الله بكم مَصافّه ويفتح عليكم بلاده، ويُطهّر بسيوفكم الشام، ويَسرّ بنصركم الإسلام، ويشرّف بيوم نصركم الأيّام. والخير يُغْتَنَم إذا عنّتْ فُرَصُه، ويُصاد إذا أمكن الصائدَ قنصُه، والجهاد فرض على المُطيق تقتضيه عزائمه ولا تقتضيه رُخَصُه. وقد حضره المولى وحضر كلّ خير، وحضر من رأيه ما يكفى أمرَ العدوّ ولو لم يكن إلا رأيه لا غير، فكيف وفى يده من العَضْب، مثل ما فى صدره من القلب، كلاهما حديدٌ لا تَكِلّ مَضاربه، ولا تخوّنه ضرائبه، ولا تفنَى إذا عُدّدت عجائبه؛ فكم له من يوم أغرّ محجّل الأطراف، وليلة فى سبيل الله دهماء الأهوال بيضاء الأوصاف؛ والنفوس واثقة بأن الظّفر على يده يجرى، والمبشّر من جهته يُسْر ويسرى؛ وَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وكتب أيضا فى مثل ذلك: ورد كتاب المجلس - نصر الله عَزْمته، وشكرِ همّته، وأتمّ عليه نعمته، وصَرَف به وعنه صَرْفَ كلّ دهرٍ ومُلمّته ومُؤلمته، وأعان أولياءه على أن يُؤَدّوا خدمته، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته، وأجزل قِسْمه من الخير الذى يُحْسِن بين محبّيه قِسْمته - سافرًا عن مثل الصباح السافر، متحدّثا عن روض أفعاله بلسان النسيم السَّحَرِىّ الساحر، حاملا حديثَ بِيضه وسُمره حديث السامر. ٥

وهنّأ بالفتح وهو المهنَّأ به، وكيف لا يُهَنّأ بالفتح من هو فاتحُه! وكيف لا يشرح خبره من هو فاتح كلِّ صدرٍ وشارحه! ولقد دعا له لسان كلّ مسلم وساعدت لسانَه جوارحه، وعلم أنه باشر الحربَ وتولّى كِبْرَها، وأخمد جمرها، واقى أقرانها، وافترس فُرسانها، وجَبّن شجعانها، وشجّع جبانها، وأنفق الكريمين على النفس: النفسَ والمال، وحفظ على الإسلام الطَّرفين: الفاتحة والمآل. وإذا تأمّل المجلس الدنيا علم أن الذى ١٠ يبقى بها أحاديث، وإذا نظر إلى المال علم أن الّذى فى الأيدى منه مَواريث؛ فالحازم من ورث ماله ولم يُورثه لغيره، والسعيد من لم يرض لنفسه من الحديث إلا بخيره. وما يخفى عن أحد ما فعله، ولا ما بذله، ولا ما هانَ عليه، ولا ما أهان اللهُ كرائمَ المال بيديه؛ ولقد حلّت نعمة الله فى محلّها لديه، وكان كفأَها الكريمَ الذى أصدقها ما فى كفّيْه. ١٥

هٰـذا ثنائى وهاتيكم مناقبكم * يا أعينَ النّاس ما أبعدتِ إسهادى

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)، بل هو سبحانه يُوفى عباده مثاقيل الذّر. وللصابرين عنده الأجر بغير حساب لجلالة قدْر الصبر. والمجلس صبّر نفسه على المشقّات فأبْشِر بثوابها، وكثّر أعمال البِرّ فهو يدخل الجنّة بفضل الله من جميع أبوابها. وكما يهنّأ المجلس بالافتتاح فهو يُهنّأ بالجراح؛ ولا يَغسل ٢٠

ثوبَ العمل إلا الدمُ المسفوح ، وكلّ جُرْح إنما هو باب إلى الجنّة مفتوح . والحمد لله على أن أمتع الأمّة بنفسه التى بذلها ، وقد باعها له وأبقاها لنا وقبلها ، (وإنّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ) .

(٦٩)

وكتب المرحوم علاء الدين على بن القاضى محيى الدين بن الزكىّ إلى أخيه بهاء الدين مُبَشِّرا بفتح صَفَد، وكان هذا الفتح فى يوم الجمعة ثامن عشر شوّال سنة أربع وستين وستمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار دولة الترك فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس : يقبّل اليد الكريمة، ويبُثّ ما يعالجه من لواعج الأشواق التى تركته بين الأصحاب مُدَلَّها ، وسلبتْ لُبّه فلا أعلم عليه من دَلّها ، ويُنْهِى أن المملوك فارق كريم جنابه وتوجّه إلى صفَد المحروسة فوصل إليها فى تاريخ كذا، ووافاها والحصنُ قد تزعزعت أركانُه ، والكفرُ قد آنهدم بُنيانُه ، وشمّر عن ساق الهزيمة شيطانُه ، وحُمَاةُ الحرب قد وقفت فى مراكزها ، وكُماة الهيجاء قد آستعدّت لأخذ فُرَص النصر ومناهزها ، والرماحُ قد آهتزّت شوقًا إلى لقائهم ، والسيوفُ قد آلت إنها لا توافق على مُقامهم ، والمجانيقُ تزور حِماهم وتلك الزيارة لشقائهم ، وتُدَمِّر بحجارتها عليهم تدميرا ، وتُرِيهم من بأسها يومًا عَبُوسا قَمْطريرا ، وتصير بهم إلى الهَلاك وتعِدُهم جهنّم وساءت مصيرا ، والقِسِىُّ تُرسل إليهم المنايا فى أجنحة السهام ، وقد أحدقت بهم كُماة الترك كأنها ظِباءٌ بأعلى الرقمتين قِيام ، فمِنْ نازعٍ بقوسه وهو لمُهَج الكافرين مُنازع ، ومن متدرِّع بنحره نحو المنايا يسارع ، ومن واردٍ مَنْهَل المنيّة وآخر فى إثْره كارع ، ومن متدرِّع وحاسرٍ علِما أن ليس لقضاء الله دافع ، وما زادهم إلا إيمانًا وتسليما ، وما سلك بهم إلا صراطًا مستقيما ، وما آشترى أنفسهم وأموالهم إلا بالجنّة وأعدّلهم أجرًا كريما ، والسلطان ، عزّ نصره ، قد شحَذ شَبَوات

عزمه، وفوّق سديد سهمه ليفوز بجزيل سهمه، وهو يرتّب عساكره، ويهيّئ ميامنه ومياسره، وينفذ أوائله ويقدّم أواخره، ويحثّ صناديده ويثبّت رعاديده، ويسعر همّــة مساعره، ويذكى نارَ الحرب فى مجامره، ويقابل الأبراج ببروج يهدمونها، ويكلُ بالنّقوب نُقباء يحفرونها، ويَعِد للؤمنين مغانمَ كثيرةً يأخذونها، ويُعِــدّ لكلّ مقامٍ رجالا، ويرتّب لكلّ مُقاتلٍ من المســلمين قِتالا، ويبسُط لهم بقتل الكافرين آمالا، حتى قامت الحربُ على ساق، وضاق بأهل الشقاق الخناق، وبلغت الأرواح منهم التراقى، ودارت عليهم كُئوس المنايا فانتشى المَسْقِيّ والساقى، وأحدقت بهــم الجياد تصهل، وسُحب القسىّ تهطل، وكواذب الآمال تَعِــدهم وتَمْطُل، ونَحَرَصوا لأنفسهم الفَرحَ فكذّبتهم أسنّة الخِرْصان، ونظروا إلى الحياة بعين الطمَع فكحّلتهم بنات الحَنيّة المِرْنان، فلمّا أُشرِب[(١)] العجزَ نفوسُهم، وآستوى فى الشُّورى مرءوسهم ورئيسهُم، ومُنُوا بالمنايا من كلّ جانب، وسَمَح كلٌّ منهم بالمــال والذهب مذ علم أنّه ذاهب، وتحقّقوا أن لا ملجأ من السيف إلا إليه، ولا مُعَوّل بعد المعوّل إلا عليه، وتيقّنوا أن لا مُقام لهم ولا مَقَرّ، وقال الكافر يؤمئذ أين المَفَرّ، والمسلمون مثابرون على العمل الصالح يرفعونه، ومبادرون أَجَلَ عدوّهم يمزّقون منه كل ما يرقعونه، وإذا بصيحة كالصيحة التى تأخذهم وهم ينظرونها، أو الصعقة التى ينتظرونها، إذ أمرّت السيوفُ على رِقابهــم وهم يبصرونها، فارتجّت أرجاء الحِصن بالآصطخاب، ووقع الآختلاف بينهم والآصطراب، وقيل : إن الكافرَ قد طلب الأمان، وإنه ركب ظهر المَذلّة مذ ناوله الجزعُ العِنان، وإن الكفر قد دلّ للإيمــان، وإن شيطانه قد نَكَص على عَقِبه لمّــا تراءت الفئتان، فأمسكت المجانيق عن ضربها، وكفّت الحَنَايا

(١) فى الأصل : « اشراب » وهو عبر واضح .

عن إرسال شُهُبها ، وأقصرت ليوث الحرب الضارية عن وَثْبها ، فما كان إلا هُنَيهة وقد خرج رسول منهم حيث لا تنفع الرسائل ، وآخترق وشيج القنا وشوك النصال وظُبا المَناصل ، ورأى كثرةً هالته فكادت تَنْقَدّ تحت الذعر منه المفاصل ، ومشى إلى السلطان خاضعا وأعيا على السماطين يقوم كلما عوّجته الأفاكل (٧٠)

٥ وَقَبّلَ كُمًّا قَبّـل التُّرْبَ قبلَهُ * وكلُّ كَمِيٍّ واقفٌ مُتضائلُ

وأدّى الرسالة وإذا هى كما قال أبو الطيب دروع ، ورجع إلى أهله وفى قلبه من جيش الإسلام — كثّره الله — صدوع

فأَقْبَلَ من أصحابه وهو مُرْسَلٌ * وعاد إلى أصحابه وهو عَاذلُ

فأبَوْا لنصيحته قَبُولا ، وقالوا : قاتلك الله رسولا ، لقد خرجتَ عن سُنّة إخوانك ، ١٠ وألقيتَ إلى المسلمين فاضلَ عِنانك ، ولم ترقُب رِضا أَقِسّائك[1] ورُهْبانك ، والرُّعب قد خرج به عن قومه وآله ، وهو يُناشدهم اللهَ فى أموالهم وأنفسهم ويُنشدهم بلسان حاله

أمرتُهم أمرى بمُنْعَرَج اللِّوَى * فلم يستبينوا الرُّشْدَ إلّا ضُحَى الغَدِ

فلما آستحكمت مِرّة عِصيانهم ، وأبَوْا إلّا مغالاةً فى طغيانهم ، ولم يسمحوا بتسليم ١٥ ذلك الحِصن الحصين ، وقالوا : إنه على حفظ أرواحنا لقوىٌّ أمين ، أُرسلت عليهم من المجانيق حجارةٌ كالمطر ، إلا أنها ترمى بشَرَرٍ كالقصر فتهدِم قصوراً كالشَرَر ، فزعزعت منها بُروجًا وبُدنا ، وقالت : هذا جزاؤكم وإن عُدْتم عُدْنا ، ولَنُتْبِعَنّ بعدها آثاركم ونقلَع منكم قلاعا ومُدُنا ؛ فلما أكذبهم الحِصنُ فى آمالهم ، وأراهم الله قُربَ آجالهم ،

(١) لعله يريد القسوس ، ولم نجد هذا الجمع فى كتب اللغة التى بأيدينا .

وكان ذلك فى اليوم الأغرّ يوم الجمعة والفتح، سلكوا فى التسليم عادةً لم يسلُكوها، ورأوا من الجزَع خُطّةً ملكتهم ولم يملِكوها؛ فأجمعوا أمرهم وشركاءهم إلا أنه كان عليهم غُمّة، وطلبوا الذّمام ومن قبلها كانوا لا يرقبون فى مؤمنٍ إلًّا ولا ذِمّة؛ فألقَوْا إلى الإسلامِ يومئذ السلَمَ، ورأوا نور الله الظاهرَ أشهرَ من نار على عَلَم؛ فخرجوا من الحصن زَرَافاتٍ وأوزاعا، مُهْطعين إلى الداعى كيوم يخرجون من الأجداث سِراعا؛ ٥
فلو تراهم نحو المنايا يركُضون (كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ).

جرت الرياحُ على مَقَرِّ ديارِهمْ * فكأنّما كانوا عــــلى ميعادِ

وصدق الله المؤمنين وعده، وكان بصدق وعده حقيقا، (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا). فلما كان يوم السبت نادى فيهــم السيفُ بالرحيل، ولم يتزودوا من مَتاع الدنيا إلا القليل، وقام النصر على منابر الهامات خطيبا، وكثُر القتل فصار المُهنَّــد الصقيل خَضِيبا، وأجرى أوديةً من دِمائهم، ولم يغادر بقيّةً من ذَمائهم؛ وآستوى العبيد منهــم والأرباب، وصار فُرسانهم فرائس الذئاب، وآستمرءُوا المرْعى الوخيم فرعاهم الذّباب؛ ووجدوا غِبَّ البغى علينا، وقلنا: (هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا)؛ ١٥
وآب المسلمون بخير عميم، وفتح عظيم، وأجر كريم؛ وجعل الله الجنّة جزاء للسالمين منهــم والذاهبين، (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ). فليأخذ حظّه من هذه البشرى فإن لهــا من النصر العزيز ما بعدها، ومن المغانم الكثيرة ما يُنجز للأُمّة المحمديّة وعدها، ويثق بأن له، إن شاء الله، من ثواب هذه الغزوة أوفرَ نصيب، وأن سهــم عزمه فى نحور ٢٠

الأعداء، إن شاء الله، مصيب ؛ فقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« إنّ بالمدينة قومًا ما سِرْتم مَسِيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم » . والله لا يُخليه
من أجرها ، ولا يَحرِمه وافرَ بِرّها ، ويُتحفه من مقربات التهانى بما تكون له هذه
بمنزلة العنوان فى الكتاب ، والآحاد فى الحساب ، وركعةِ النافلة بالنسبة إلى الخمس ،
٥ والفجرِ الأول قبل طلوع طلعة الشمس ، وأن يديم على الإسلام والمسلمين حياة
مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين ، ويؤيّده بالملائكة المقربين ، ما دامت
السموات والأرضين ، إن شاء الله تعالى .

ومن إنشاء المولى المرحوم محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب كتبه عن
السلطان الملك الأشرف خليل إلى الملك المظفّر يوسف بن عمر صاحب اليمن قرين
١٠ كتاب السلطان الملك المنصور المسيّر إليه بالهناء بفتح طرابلس الشأم : أعزّ الله نُصرة
المقام وأوفد عليه كلّ بشرى أحسن من أختها ، وكلَّ تهنئة لا يُجَلِّيها إلا هو لوقتها ،
وكلَّ مُبهجةٍ يعجِز البيان والبنان عن نَبْتها ونعتها ، وتتبلّج فتودُّ الدرر والدرارى لو زُفّت
هذه إلى تَرَاقيها وسَمَتْ هذه إلى سَمْتها ، وصبّحه منها بكلّ هاتفةٍ أسجعَ من هواتف
الحمائم ، وبكلّ عارفةٍ أسرعَ من عَوَارف الزَّهر عند عزائم النسائم ، وبكل عاطفةٍ أعنّةَ
١٥ الإتحاف بالإيجاف الذى شكرت الصِّفَاح منه أعظمَ قادرٍ والصحائفُ أكرمَ قادم ،
والغزو الذى لا تُخَصّ تِهامةُ ببشراه بل جميع النجود والتهائم ، وذوو الصوارم والصرائم ،
وأولو القُوَى والقوائم ، وكلّ ثغرٍ عن ابتهاج أهل الإسلام باسم ، وكلّ بَرٍّ بَرٍّ بتوصيل
ما ترتّب عليه من ملاحم ، وكلّ بحرٍ عَذْبٍ يَمُونُ كلّ غازٍ لا يحبس عن جهاد الكفّار
فى عُقْر الدار الشكائم ، وكلّ بحرٍ مِلحٍ كم تغيّظ من مجاورة أخيه لأهل الشرك
٢٠ ومشاركتهم فيه فراحٍ وموجُه المتلاطم . المملوك يجدّد خدمةً يقتفى فيها أثر والده ، ويجرى

فى تبليغها على أجمل عوائده، و يستفتح فيها آستفناحًا تَحُفّ به من هٰنا ومن هٰا تُحَفُ محامده؛ و يصف ولاءً قد جعله أجمل عقوده وأكمل عقائده، و يشفعهما بإخلاص قد جعله ميلُه أحسن وسائله وقلبُه أزين وسائده؛ و يُطلع العِلم الكريم أن من سجايا المتعرّضين إلى الإعلان بشكر الله فى كلّ ما يعرِض للسلمين من نَصْر، و يُفْرَض لهم من أجرِ غزوٍ كم قعد عنه ملِكٌ فيما مضى من عصر؛ أن يقدُروا تلك النعمةَ حقّ قدرها من التحدّث بنعمتها، والتنبيه لسماع نَغْمتها؛ و إرسال أعِنّة الأقلام فى ميادين الطروس، و إدارة حِرْباء وصف خير حربٍ إلى مُواجهة خير الشموس . ولما كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة الوالد، خلّد الله سلطانه، قد أصبحت ذكرى للبشر، ومواقفُه للنصر فكم جاءت هى والقدرُ على قَدَر، وقد صارت سِيَرُها وسِيَرُها هٰذه شَذْوُ الأسمار، وهٰذه حادثّةٌ يستطيب منها حسنَ الحَدْو السُّفّار، فكم قاتلت من يليها من الكفّار، وكم جعلت من يُواليها وهو منصورها منصورا بالمهاجرين والأنصار . ولما أذلّ الله بيأسها طوائف التّتَار فى أقاصى بلاد العجم، وجعل حظّ قلوبهم الوجَعَ من الخوف ونصيبَ وجوههم الوَجَم، وأخلى الله من نسورهم الأوكارَ ومن اسودهم الأَجَم، وقصُرت بهم هممهم حتى صاروا يخافون الصبح إذا هجم والظنّ اذا رجَم، وصارت رؤيةُ الدماء تُفزعهم فلو آحتاج أحدهم لتنقيص دم لمرضٍ لأجنح من خوفه وما آحتجم؛ وأباد الله الأرمن فحلّ بالنَّيْل منهم الويل، وما شمّر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعدٍ إلا وشمّر هو من الذُّل الذَّيل، ولا اثارت الجياد من الخيـل عِثْيَرًا منعقدًا إلا وظنّوه مساءً قد أقبل أو ليـل؛ وآنتهت نوبة القتل بهم والإسار إلى التكفورليفون ملك الأرمن الذى كان يحمى سَرْحهم و يمّرد صَرْحهم، و يستنطق هَتْفَ التتار و يسترجع صـدْحهم؛ وتعتزّ طرابُلس الشأم بأنه خال إبرنسها الكافر، ولسان مشورته السفير

ووجه تدبيره السافر ، وطالما غرّ وأغرى وجرّ وأجرى وضرّ وأضرى ؛ فلما توكّل
مولانا السلطان وعزم ، وعزم فتوكّل ، وتحقق أن البلاء به قد نزل ، وما تشكّك أن
ذلك فى ذهن القَدَر قد تصوّر وتشكّل ، وأن يومه فى الفتك سيكون أعظم من أمسه
وأعظم منهما معاداة غده ، وأن نصر الله لن يُخلفه صادقُ موعده ، أكل يده ندامةً
٥ على ما فرّط فى جَنْب الله ، وساق الحتف لنفسه بيده فعمَر الله بروحه الخبيثة الدّرَكَ
الأسفل من النار ، وسقاه الحَتْف كأسا بعد كأس لم يكن لها غيرُ الهُلْك من خُمار ؛
وكانت طرابلس هى ضالّة الإسلام الشريدة ، و إحدى آبقاته من الأعوام العديدة ؛ وكلما
مرّت شمخت بأنفها ، وتأنّقت فى تحسين منازه منازهها وتزيين رَيحانها وعَصْفها ،
ومرّت وهى لا تُغازل ملِكا بطَرْفها ، وكلّما تقادم عهدها تكثرت بالأفواج والأمواج
١٠ من بين يديها ومن خلفها ؛ إذ البحر لها جِلْباب والسحاب لها خِمار ، وليس بها من البرّ
إلا بمقدار ساحة الباب من الدار ، كأنها فى سيف ذلك البحر جبلٌ قد ٱنحطّ ،
أو مَيْل ٱستواء قد خرج عن الخط ، وما قصد أحدٌ شطّها بنكاية إلا شطّ وٱشتطّ ؛
قدّر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العِنان ، وسبق جيشه اليها كلَّ خبر وليس
الخبر كالعِيان ، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادةُ قد أحرسته عيونَها وتلك المخاوف كلُّهن
١٥ أمان ، وقد ٱتخذ من إقدامه عليها خير حبائل ومن مفاجأته لها أمدّ عِنان ؛ وفى خدمته
جنود لا تستبعد مَفَازة ، وكم راحت وغدتْ وفى نفوسها للأعداء حَزَازة ؛ فامتطَوْا
بخيولهم من جبال لُبْنان تيجاناً لها صاغتها الثُّلوج ، ومعارجَ لا يُرافق بها غيرُ الرياح
الهُوج ، وٱنحطّت تلك الجيوش من تلك الجنادل ، ٱنحطاط الأجادل ، وٱندفعوا فى تلك
الأوعار ٱندفاع الأوعال ، ولم يَحفل أحد منهم بسَرَب لاصق ولا بجبل شاهق فقال :
٢٠ هذا منخفضٌ أو عالٍ ، وشرعوا فى التحصيل لما يُوهي ذلك التحصين ، وٱبتناءِ كلِّ

(٧٣)

سُور أمام أسوارها من التدبير الحسن والرأى الرصين، فما لبثوا إلا مقدار ما قيل لهم: دونَكم والاحتطاب، ونقلَ المجانيق على الخيل وعلى الرقاب، حتى جرُّوها بأسرعَ من جرّ النَّفَس، وأجرَوْها على الأرض سفائنَ وكم قالوا: السفينةُ لا تَجرِى على يَبَس، وفى الحال نقلت إليها فرأوا من مُتوقِّلها(١) من يمشى بها على رجلين ومنهم من يمشى على أربع، ووجّهت سهامُها وجوهَها إلى منافذها فما شوهدت منها عينٌ إلا وكان قُدّامَها منها إصبع، وأُلقِيت العداوةُ بين الحجارة من المجانيق وبين الحجارة من الأسوار، فكم نقَبت ونقِبت من فِلْذة كَبِدها عن أسرار، وأُوقِدت نيرانُ المكايد ثمّ فكم حولها من صافن ومن صافر، وكم رمتهم بشرر كالقصر فوقع الحافر كما يقال على الحافر، وما برحت سُوق أهل الإيمان فى نَفاق على أهل النِّفاق، وأكابرهم تُساق أرواحُهم الخبيثةُ إلى السياق، وكان أهل عكاء قد أنجدوهم من البحر بكلّ بَرّ، ورمَوا الإسلام بكلّ شررٍ وكلّ شرّ، فكان السهم الذى يخرج منها لا يخرج إلا مقترنا بسهام، وشُرُفات ذلك الثغر كالثنايا ولكنها الكثرة من بها لا تفترّ عن ابتسام، وما زالت جنود الإسلام كذلك، ومولانا السلطان لا تُرَى جماعةٌ مُقْدِمةٌ ولا متقدِّمةٌ إلا وهو يُرَى بين أولئك. واستمرّ ذلك من مُستهلّ شهر ربيع الأوّل إلى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر، فزحف عليها فى بُكْرة ذلك النهار زَحْفا يقتحم كلَّ هَضْبة ووَهْدة، وكلَّ صُلْبة وصَلْدة، حتى أنجز الله وعدَه، وفتحها المسلمون مجازا وفى الحقيقة فتحها وحدَه، وطاعت سناجق الإسلام الصُّفْر على أسوارها، ودُخِلت عليهم من أقطارها، وجاست الكَتّابة خلال ديارها، فاحتازها مولانا السلطان لنفسه مِلْكا، وما كان يكون له فى فتحها شريكٌ وقد نفى عنها شِرْكا، وكلّما قيل: هٰذه طرابُلُس فُتِحت قال النصر بمن قتل فيها من

(١) توقّل فى الجبل: صعد.

النُّجُد الواصلة وأكثر عكّا وأهل عكّا (١)، وأعاد الله قوّة الكُفر بها أَنْكاثا، وكان أخْذُها من مائة سنة وثمانين سنة فى يوم ثلاثاء وٱستُرِدَّتْ فى يوم الثلاثا . ولما عمّت هذه البشائر[و] وَكَلَ بها مولانا السلطان إلى كلّ من يستجلى حسان هذه العرائس، ويستحلى نفيس هذه النفائس، سيّر مولانا السلطان إلى مولانا بُشْرى فقعقع بها البريد، لِتُتْلى بأمر مولانا على كلّ من ألقى السمع وهو شهيد، وكما عمّ السرورُ بذلك كلّ قريب قصد أن يعُمّ الهناءُ كلّ بعيد. وأصدر المملوك هذه الخدمة يتحجّب بين يدى نجواها، ويتوثّب بعد هذه المفاتحة لكلّ سانحةٍ يحسن لدى المولى مستقرّها ومثواها . لا برح المقام يستبشر لكُماة الإسلام بكلّ فضل و بكلّ نُعمْى، و يفرَح لسَرْح الكفر إذا ٱنتُهِك واسفح المُلْك إذا بُجْى، ولسمع الشِّرك إذا يُصَمّ ولقلبه إذا يُصْمى .

وكتب المولى محيي الدين أيضا عن نفسه مطالعةً إلى السلطان الملك المنصور يهنّئه بهذا الفتح

هُنِّئْتَ يا ملكَ ٱلبَسِيطهْ * فتحًا به النُّعْمى مُحِيطه
وَبقِيتَ يا خيرَ ٱلملو * ك بسيفِك الدُّنيا مَحُوطَه

يقبّل الأرض و يبتهل إلى دُعاءٍ صالح يقدّمه بين يدى بِشْره و بُشْراه، وكلّ مقام محمود من الإجابة يحوّله فى سِرّه ونجواه، ويُهَنّئ بهذا الفتح الذى كم مضى مَلِكٌ وفى قلبه منه حَسْرة، وما ٱدّخر الله إلا لمولانا السلطان أجرَه وفخرَه . فالحمد لله على هذا النصر العزيز وهذا الفتح المبين، والظفر الذى أعطاه الله إيّاه فى شهر وقد أقامت جموعُ الكفر حتى حازت بعضَه فى مُدّة سبع سنين . وله الشكر على أن جعل الكفر من بعد قوةٍ أنكاثا، وجعل أخذ مدينة طرابلس من الكفّار فى يوم الثلاثاء وكان

(١) كذا وردت هذه الكلمات بالأصل، وهى كما يظهر قلقة غير واضحة .

(٧٣) أخْذُها من المسلمين فى يوم الثلاثا، وله المِنّة فى ردّ هذه الأخِيذة، وجعلها بين يدى مولانا السلطان مَنبوذة، ثم المنّة لله على أن سطّر فى سِيرة مولانا السلطان هذه السَّنَة، وجعلها ما بين نومة عين وٱنتباهتها فى أقرب من سِنَة، وردّ إباقها على المسلمين بعد أن أقامت هاربة عند الكفار مائةَ سنةٍ وستةً وثمانين سنة، والله يلحق بها فى الفتح أخواتِها من المُدْن، ولا يلبث إن شاء الله هاديا بها بعـدها مثل عَكّاء وصُور وصَيَدا حتى يراهنّ الى قبضته قد عُدْن، إن شاء الله تعالى . ٥

وكتب إلى الأمير حُسام الدين طرنطاى عن الأمير بدر الدين بيـدرا فى ذلك : المملوك يهنّئ بهـذا الفتح الذى كادت به هـذه الغزوة تزهو على غيرها من الغزوات وتَتِيه، وأشرقت الأرضُ بنور ربها ٱبتهاجًا بمـا أمضاه الله منه وما سيُمضيه، وبمـا سيُعطيه حتى يُرضيه، وذلك أنّ فتح طرابُلُس التى طالما شمخت بأنفها على الملوك، ١٠ وكم أبتْ على مستفتِح مما قال لغيره إباؤها: لله أبوك، وأخّر الله مدّتها إلى خير الأزمان، وفتحها على يدى سلطاننا الذى حقّق الله به آمالًا تنفذ إلا منه بسـلطان، فالحمد لله الذى عضَد هذا الملك من مولانا بخير من دبّر، وحماه منه بأقطع حُسامٍ جرّده الله لنقض ما أمَرّه، وما من فتوح ولا أمر ممنوح إلا ومولانا مَعْضَد عقوده، ومجهّز بريده، ومطلع سعودِه، ورافعُ علمه، ومُمْضِى سيفه ومُرضى قلمه . فأمْتع الله الأمة من مولانا ١٥ السلطان بسلطان يسترد لهم الحقوق ويتقاضى الديون، وأمتع الله سلطانها من مولانا بمن آراؤه أقفال الممـالك وسيوفه مفاتيح الحصون .

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبى ما كتب به عن الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة الشريفة إلى النائب بقلعة الجبل عنـد كسرة التتار بمَرْج الصُّفَّر فى شهر رمضان سنة ٱثنتين وسبعمائة : ٢٠

وبشّره بالفتح الذى أعاد الله به الأمّة خَلْقا جديدا، والنصرِ الذى أنزل الله فيه من الملائكة أنصارا للملّة وجنودا، والظفَرِ الذى أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن يَرْهَب خُمودا، والغزوةِ التى زلزل الله بها جبالَ أهلِ الشرك وقد تدفّقت على الأرض أمثالَ البحار عددا وعديدا . المملوك يقبّل اليد العالية التى لها من هذه النُّصرة وإن لم تبلغها أجرُ الرامى المسدِّد سهمَه، المعجِّلِ من التهانى غُنْمَه، الموفّرِ من المحامد الجزيلة قِسمَه؛ ويهنّئ المولى بهذا الفتح الذى مدّ الله به على الأُمّة جناح رحمته وفضله، ومنّ على أيّامنا الزاهرة فيه بالشأم وأهله، وبَرز فيه الإسلامُ كلُّه للشرك كلِّه؛ ولله الحمد الذى أعزّ دينَه ونصَرَه، وحصَد بسيوف الإسلام عدوَّ دينه بعد أن حَصَره، وأباد جيوشَ الشّرك وهم مائة ألف أو يزيدون، وأفْنى أحزاب أهل الكفر وكانوا أمثالَ الرمال لا يُعَدّون؛ ويُنهِى أنّ علمه الكريم قد أحاط بما كان من أمر هذا العدوّ المخذول ودخولِه إلى البلاد المحروسة بجيوشه وكتائبه وجُموعه وجُنوده من أشياع أهل الكفر وأحزاب الشرك . ولما تواصلت الأخبارُ بقُربه، وآستعدادِه بحزبه، ومهاجمتِه البلاد، وإيقاعِ الرُّعب فى قلوب أهلها بالتنوّع فى الفساد، ساق الرِّكابُ الشريفُ فى طلبه يَطوِى المَرَاحل، ويقطَع فى كلِّ يومٍ منزلتين بل منازل؛ ولما حلّ الركابُ الشريفُ بمَرْج الصُّفَّر على مَرْحلة من دِمَشْق المحروسة فى يوم السبت مستهلّ شهر رمضان المعظَّم زُيِّنت العساكرُ المنصورة لِلّقاء حال وصولها، وآستعدّتْ للحرب دون تشاغُلٍ بأسباب نُزولها، فوافى العدوّ المخذولُ فى مائة ألفٍ من جيوش تسيل كالرمال، وتعلو الجبالَ بأشدَّ من الجبال؛ وحين وصلوا حَملوا على المَيْمَنة بجُمْلتهم، وقصدوا إزاحتَها عن موقفها بجُمْلتهم؛ فتلقّتْهم الجيوشُ المنصورة بنفوس قد بايعت اللهَ على لقاء عدوّ الله وعدوّها، ووثِقت بما أعدّ الله لها من الجزاء فى رواحها فى سبيله وغُدُوّها؛

وصَدَمتهم صَدْمةً كسرَت حَدَّهم ، وأوهنت شِدّتهم وشَدَّهم ، وأزالت طَمَعَهم ، وأبانت ظَلَعَهم ، وسالت[١] عليهم الجيوشُ المنصورةُ من كلِّ جانب ، وحَمِيَت الحرب بين الكتائب الإسلاميّة وبين تلك الكتائب ، ودخل الليل ونار الحرب تشتعل ، والجياد من المحاجر تَحْفَى وبالجماجم تنتعِل ، فأوَوْا إلى جبالٍ اعتصموا بهضابها ، واحتمَوْا بتوعُّر مسالكها وضِيقِ عِقَابها ، وأحاطت بهم الجيوشُ المنصورةُ تَحُوسُهم[٢] لا لحِفْظهم ، وتضُمّ أطرافَهم لا لحُبّهم بل لبُغْضهم ، فكانوا — بعد كثرةِ مَن قُتِل منهم فى المعركة الأولى أو فرّ من أول الليل — جمعًا يناهز الأربعين ألف فارس ، فأصبحوا يعاودون القتال ، وينْزلون إلى أطراف الجبال للنّزال ، والجيوشُ المنصورة تلْزَمهم من كلّ جانب ، وتُحَكِّم فى أبطالهم القَنَا والقَوَاضب ، وجرت فى أثناء ذلك حملاتٌ ظهر فى كلٍّ منها خسارُهم ، وشهِد عدهم بما تكابدون قتلهم وإسارهم ، وبعد ذلك نزلوا من جانب واحد يطلبون الفِرار ، ويتوقّعون القتل إن تعذر الإسار ، فساقت[٣] حلفهم الجيوش المنصورة تتخطّفهم رِماحُها ، وتتلقّفهم صِفاحُها ، وتقاذفت بمن نجا منهم الفلَوات ، وغرّقتهم أمواجُ السَّراب قبل أمواج الفُرات ، فأُخذوا قَنْصًا باليد من بطون الأودية ورءوس الشِّعاب ، ولم يحصُل أحد منهم على الغنيمة بالإياب ، وقُتل أكثر مقدّمى التمانات[٤] وفرّ كبيرهم وأنّى له الفِرار ، وبين يديه مفاوز إن سلك منها تناولته بأرماح من العَطَش القِفار . فليأخذ المولى حظّه من هذه البُشرى التى تُنبئ عن الفتح العظيم

(١) فى الأصل «وأسالت» .

(٢) فى الأصل : لحرسهم بدرابه والحوس : القتل .

(٣) كذا بالأصل ولعله «فساقت» .

(٤) فى أحد الأصول «[illegible]» [illegible]

والفضل العميم ، والنُّصرة التى حفِظ الله بها على الإسلام البلادَ والثغورَ والأموالَ والحريم ؛ ويكتُبْ إلى البلاد بمضمونها ، ويَسُرّ قلوب أهل الثغور بمكنونها ؛ ويَستنهض المولى الأمّة لشكر الله عليها ،ومن ذا الذى يقوم بشكر ذلك ! ويعرِّفْهم مواقع هٰذه النُّصرة التى أنجد الله فيها الإسلام بالملائك ؛ ويَتَقَدَّمْ أمرُه بضرب البشائر بكلِّ مكان ، ويَشْهَر فى جميع الثغور أن عدوَّ الله وعدوَّ الإسلام دخل فى خبرِ كان ، وأن الله تعالى كسَرَ جيوش التتار كَسْرًا لا يُجْبَر صَدْعُه ، ولا يتأتّى إن شاء الله تعالى جَمْعُه ؛ والله تعالى يُسمعه من التهانى كلّ ما يَسُرُّ الإسلامَ وأهلَه ، ويشكر قولَه فى مصالح الإسلام وفعلَه ، إن شاء الله تعالى .

الباب الثانى

من القسم الرابع من الفن الثانى

فى المراثى والنوادب

والمراثى إنما جُعلت تسليةً لمن عضّته النوائب بأنيابها ، وفرّقت الحوادث بين نفسه وأحبابها ؛ وتأسيةً لمن سبق إلى هٰذا المَصْرع ، ونهِل من هٰذا المَشْرَع ؛ ووُثوقًا باللَّحاق بالماضى ، وعلمًا أنّ حادثة الموت من الديون التى لابدّ لها من التّقاضى ، وأنه لا سبيل إلى الخلود والبقاء ، ولا بدّ لكلّ نفس من الذَّهاب ولكلّ جسد من الفناء ؛ قال الله تعالى فى مُحكم تنزيله مخاطبة لرسوله : (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) ؛ فليرضَ من فُجِع بخليله وشقيقه ، وصاحبه وصديقه ، وأهله وولده ، وجمعه وعَدده ،

وماله ومدده، نفسَه الجامحةَ فى ميادين أسفها و بكائها، الجانحةَ إلى طلب دوائها من مَظانِّ أدوائها، بزِمام الصبر الجميل، لينال الأجرَ الكريم والثوابَ الجزيل؛ فقد أثنى الله تعالى على قومٍ بقوله : (وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ)؛ وقال تعالى إخبارا عن لُقْمان فى وصيّته لآبنه : (وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)؛ وليسترجعْ من أصابته مصيبة، أونزلت به بليّة، وطرَقته حادثةٌ أو ألمَّت به رزيّة، لما جعل الله تعالى للمسترجِع بفضله ومنّته، من صَلاته عليه و رحمتــه؛ قال الله عز وجل : (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) . وليتأسَّ الفاقد برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جعل الله فيه أُسوةً حسنةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وليقتدِ بأصحابه رضى الله عنهم ليفوز بثواب الصابر، ويحوز أجر الشاكر .



و باب الرثاء فهو باب فسيح الرّحاب والنوادى، فصيح اللسان فى إجابة المنادى ذى القلب الصادى؛ متباين الأُسلوب، مختلف الأطراف متباعد الشعوب؛ منــه ما يُصْمِى القلوب بنباله، ومنه ما يُسلّيها بلطيف مَقاله؛ ومنه ما يبعثها على الأسف، ومنه ما يصرِفها عن موارد التلف . وقد أكثر الشعراء القول فى هٰذا الباب، وٱرتقَوا الذِّرْوة العَلياء من هٰذه الهضاب؛ ووجدوا مكان القول ذا سعةٍ فقالوا، وأصابهم هجير اللوعة فمالوا إلى ظلّه وقالوا . قال الأصمعىّ قلت لأعرابىّ : ما بالُ المراثى أشرف أشعاركم؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقة . وعلى الجملة فالموت هو المصيبة التى لاتُدْفَع، والرزيّة التى لاتُرَدّ بكثرة الجموع ولا تُمنع؛ والحادثة التى لاتنصرف بالفِداء و إن جلّ مقــداره، والنازلة التى لا تتأخر عن وقتها بالدعاء و إن عظُمت فى غيرها آثارُه؛ وهو أحد الأربعة التى فُرِغ منها، وصُرِفت وجوهُ المطامع عنها . وقد قالت

الحكماء : أعظم المصائب كلِّها ٱنقطاع الرجاء . وقالوا : كلّ شيء يبدو صغيرا ثم يعظُم إلا المصيبة فإنّها تبدو عظيمةً ثم تصغُر . وقالوا : لا يكون البكاء إلا من فضل ، فإذا ٱشتدّ الحزن ذهب البكاء . قال شاعر

فلئن بَكَيناه لَحُقّ لنا * ولئن تركنا ذاك للصَّبْرِ

٥ فَلِمثله جَرَتِ العيونُ دمًا * ولمثله جَمُدت فلم تَجْرِ

وقيل : مرّ الأحنف بامرأة تبكى ميّتا ورجلٌ ينهاها ، فقال : دعها فإنها تندُب عهدًا وسفَرا بعيدا . قيل لأعرابيّة مات ٱبنها : ما أحسنَ عزاءكِ ! قالت : إنّ فقدى إيّاه آمننى كلَّ فقدٍ سواه ، وإنّ مُصيبتى به هوّنتْ علىّ المصائبَ بعده ، ثم أنشأت تقول

١٠ كنتَ السوادَ لمُقْلَتِى * فعمِى عليكَ النَّاظِرُ

مَن شاء بعدَكَ فليَمُتْ * فعليكَ كنتُ أُحاذِرُ

ليتَ المنازلَ والدِّيا * رَحفائرٌ ومَقابِرُ

إنِّى وغيرى لامحا * لةَ حيثُ صرتَ لصائرُ

وقد نقل أبو الفرج الأصفهانىّ أن بعض هذا الشعر لإبراهيم بن العبّاس بن محمد

١٥ ٱبن صُوْلٍ يرثى ٱبنا له فقال

أنت السوادُ لمقلةٍ * تبكى عليك وناظرُ

من شاء بعدكَ فليمُتْ * فعليكَ كنتُ أُحاذِرُ

ولم يزد على هٰذين البيتين شيئا . أخذ الحسن بن هانئ معنى البيت الأول فقال فى الأمين

طوى الموتُ ما بيني و بينَ محمدٍ * وليس لمـا تطـوى المنيّـةُ ناشرُ
وكنت عليه أحذَرُ الموتَ وحدَهُ * فـلم يبقَ لى شيءٌ عليـهِ أُحاذِرُ
لئن عَمَرَتْ دورٌ بمن لا نُحِبُّه * لقـد عَمَـرت ممن نُحِبُّ المقـابرُ

وقيل : مِن أحسن ما قيـل فى التعازى أنّ أعرابيًّا مات له ثلاثة بنين فى يوم واحد فدفنهم وعاد إلى مجلِسه ، فجعل يتحدّث كأن لم يفقِد أحدا ، فلِيمَ على ذلك ، فقال : ليسوا فى الموت ببديع ، ولا أنا فى المصيبة بأوحد ، ولا جدوَى للجزَع ، فعلام تلوموننى؟ وهٰذه ثلاثة الأقسام لارابع لهـا . وعزّى أعرابىّ رجلا فقال : لاأراك الله بعد مصيبتك ما يُنسِيكَها . وقيل : لمـا دفن على بن أبى طالب رضى الله عنه فاطمةَ رضى الله عنها تمثّل على قبرها بهٰذين البيتين

لكل ٱجتماعٍ من خليلين فُرْقـةٌ * وكلُّ الذى دون الممـات قليلُ
وإن ٱفتقادى واحدًا بعد واحد * دليـلٌ علىٰ ألّا يدومَ خَليـلُ



وعزّى على بن أبى طالب رضى الله عنه الأشعث بن قَيْس عن ٱبنه فقال : إن تحزَن فقد ٱستحقّت ذلك منك الرحِم ، وإن تصـبِر ففى الله خَلَفٌ من كلّ هالك ، مع أنك إن صبَرت جرى عليك القدرُ وأنت مأجور ، وإن جزِعت جرى عليك القدرُ وأنت موزور ، سرّك الله وهو بلاءٌ وفِتنة ، وحزَنك وهو ثواب ورَحمة .

وعزّى أكثم بن صَيفِىّ حكيم العرب عمرو بن هند الملك عن أخيه فقال : أيها الملك ، إن أهل هٰذه الدار سَفْر لا يحلّون عَقْد الرحال إلا فى غيرها ، وقد أتاك ماليس بمردودٍ عنك ، وٱرتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك من سَيَظْعَنُ ويدعُك ، فمـا أحسنَ الشكرَ للمنعِم والتسليمَ للقادر! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها فمـا بقاء

الفرع بعد أصله ! وآعلم أنّ أعظم من المصيبة سوءُ الخَلَف منها، وخيرٌ من الخير مُعطيه، وشرٌّ من الشرّ فاعلهُ .

وقال آبن السمّاك : المصيبة واحدة، فإن كان فيها جَزَعٌ فهى آثنتان. وقال أبو علىّ الرازىّ : صحِبت الفُضَيل بن عِياض ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا مُتبسِّما إلا يوم مات آبنه علىّ، فقلت له فى ذلك؛ فقال : إن الله أحبّ أمرا فأحببت ما أحبّ الله. وقال صالح المُرِّىّ : إن تكن مصيبتُك فى أخيك أحدثت لك خشيةً فنعم المصيبةُ مصيبتُك، وإن تكن مصيبتُك بأخيك أحدثت لك جَزَعًا فبئست المصيبةُ مصيبتُك. وقال علىّ بن موسى للفضل بن سهل يعزِّيه : التّهنئةُ بآجل الثواب أولى من التّعزِية على عاجل المصيبة . وعزَّى الرشيدَ رجلٌ فقال : كان لك الأجرُ يا أمير المؤمنين لابك، وكان العزاءُ لك لا عنك . أخذه الآخر فقال

كُن المُعَزَّى لا المُعزِّى به * إن كان لا بُدَّ من الواحد

وقال عمر بن عبد العزيز لآبنه عبد الملك وقد آشتدّ به الألم : كيف تجدُك يا بُنىّ؟ قال : أجدنى فى الموت فاحتسِبْنى، فإنّ ثواب الله خيرٌ لك منِّى؛ قال : والله يا بُنىّ لأن تكون فى ميزانى أحبُّ إلىّ من أن أكون فى ميزانك؛ قال : وأنا والله لأن يكون ما تُحِبُّ أحبُّ إلىّ من أن يكون ما أُحِبُّ . وعزَّى شبيب بن شبّة أبا جعفر المنصور بأخيه أبى العبّاس السفّاح فقال : جعل الله ثواب ما رُزِئْتَ لك أجرا، وأعقبك عليه صَبْرا، وختم لك بعافيةٍ تامّة، ونعمة عامّة، فثوابُ الله خيرٌ لك منه، وأحقُّ ما صُبِر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل .

ودخل البَلَاذُرِىّ على علىّ بن موسى الرِّضىّ يُعزِّيه بابنه فقال : أنت تجِلّ عن وصفنا، ونحن نقصُر عن عِظتك، وفى علمك ما كفاك، وفى ثواب الله ما عزّاك .

فهـذه نُبذة فى التعازى كافية ، وجُنّة لمن تحصّن بها من ذوى الفجائع واقيـة . فلنذكر المراثى .

ذكر شىء من المراثى والنوادب

(٧٧) ولنبدأ من ذلك بمـا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبشىء مما قيل عند وفاة رسـول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فمن ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ٥ وفاة ولده إبراهيم عليه السلام : «يا إبراهيم ، لولا أنّه أمرٌ حَقٌّ ووعدٌ صِدْقٌ وأن آخِرَنا سيلحَقُ أوّلَنا لَحَزِنّا عليك حُزْنًا هو أشدُّ من هٰذا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ، تبكى العينُ ويحزَن القلب ، ولا نقول ما يُسخِط الربّ » . ذكره الجوّانىّ النسّابة فى شجرة الأنساب ، وذكره غيره مختصرا .

١٠ ومنه ما روى أن فاطمة رضى الله عنها وقفت على قبره صلى الله عليه وسـلم وقالت

إنّا فقـدناك فقـدَ الأرض وابلَها * وغاب مذ غِبْتَ عنّا الوحىُ والكُتُبُ

فليت قبـلك كان الموتُ صادَفنا * لمـّا نُعيتَ وحالت دونك الكُثْبُ

ووقف علىّ رضى الله عنه على قبره صلى الله عليه وسـلم ساعة دُفن وقال : إنّ ١٥ الصّبر لجميلٌ إلا عنك ، وإنّ الجَزَع لقبيحٌ إلا عليك ، وإنّ المُصاب بك لجليل ، وإنه قبلك وبعدك لجَلَل . وقد ألمّ الشعراء بهذا المعنى ، فقال إبراهيم بن إسماعيل فى علىّ ابن أبى موسى الرضىّ

إنّ الرزيّةَ يا بن موسى لم تَدَعْ * فى العَينِ بعدك للمصائب مَدْمَعا

والصبرُ يُحْمَـدُ فى المواطنِ كلّها * والصبرُ أن نبكى عليك ونَجْزَعا

ووقف أعرابىّ على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قلتَ فقبِلنا ، وأمرتَ فحفظْنا ، وقلتَ عن ربّك فسمعنا (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا اللهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) ، وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا ؛ فما بقيت عينٌ إلا سالت

٥ ودخل عمر بن الخطّاب على أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما فى مرض موته ، فقال : ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كلّفتَ القوم بعدك تَعَبا ، وولّيتهم نصَبا ، فهيهات مَنْ شقَّ غُبارَك ! وكيف باللّحاق بك !

وقالت عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها وأبوها يُغَمَّض

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهه * ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

١٠ فنظر إليها وقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أُغمِى عليه ، فقالت

لَعَمْرُكَ ما يُغنِى الثراءُ عن الفَتى * إذا حَشْرَجت يومًا وضاق بها الصدرُ

فنظر إليها كالغضبان وقال : قولى : (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) ؛ ثم قال : آنظروا مُلاءتَىّ فاغسلوهما وكفّنونى فيهما ، فإن الحىّ أحوجُ إلى الجديد من الميّت . ووقفتْ رضى الله عنها على قبره رضى الله عنه فقالت : نضّر الله

١٥ وجهَك ، وشكَر لك صالحَ سَعيك ، فقد كنتَ للدنيا مُذِلًّا بإدبارك عنها ، وكنتَ للآخرة مُعزًّا بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رُزءك ، وأعظمُ المصائب بعده فقدَك إنّ كتاب الله لَيَعِدُ بحُسنِ الصبر فيك وحسن العِوَض منك ، فإنّا لنتنجّز موعودَ الله بحسن العَزاء عليك ، وأستعيضه منك بالآستغفار لك ؛ أَمَا لئن كانوا أقاموا بأمور الدنيا لقد قمتَ بأمر الدّين حين وَهَى

شَعْبه، وتفاقم صَدْعه، ورَجَفت جوانبه، فعليك السـلام ورحمة الله توديعَ غير قاليةٍ لك، ولا زاريةٍ على القضاء فيك . ثم آنصرفت .

ولمـا قُبض رضى الله عنه سُجِّى عليـه بالثوب فارتجّت المدينـة بالبكاء ودَهِش



القوم كيومَ قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه با كيًا مُسرعا مُسترجِعًا حتى وقف بالباب وهو يقول : رحمك الله أبا بكر، كنتَ والله أوّلَ القوم إسلاما، وأخلصَهم إيمانا، وأشدَّهم يقينا، وأعظمَهم غَناء، وأحفظَهم على رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وأحدَبَهم على الإسلام ، وأحناهم على أهله ، وأشبهَهم برسول الله صلى الله عليه وسـلم خُلُقا وفضلا وهَدْيا وسَمْتا ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، صدّقت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين كذّبه الناس، وواسيتَه حين بَخِلُوا، وقمتَ معه حين قعدوا، وأسماك الله فى كتابه صِدّيقا فقال : (وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّـدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)، يريد محمدا ويريدك . كنت والله للإسلام حصنا وعلى الكافرين عذابا، لم تُفلَلْ حُجّتُك، ولم تضعُف بصيرتُك، ولم تجبُن نفسُـك . كنت كالجبل الذى لا تحرّكه العواصف ولا تُزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفًا فى بدنك، قويًّا فى أمر الله ، متواضعًا فى نفسك ، عظيمًا عند الله ، جليلًا فى الأرض ، كبيرًا عند المؤمنين . لم يكن لأحد عندك مطمعٌ ولا لأحد عندك هَوَادة ، فالقوىّ عندك ضعيفٌ حتى تأخذَ الحقَّ منه، والضعيفُ عنـدك قوىٌّ حتى تأخذ الحقّ له ، فلا حرَمنا الله أجرك ، ولا أضلّنا بعدك . فانظر إلى هذا الأسـلوب العجيب ، وتأمّل هذا النمَط الغريب الذى جمع بين سلاسة الألفاظ وإيجازِها، وإصابةِ المعانى وإعجازها . ولا يُستكثَر على من أُنزِل القرءانُ بلغتهم، أن يكون هذا القول من بَدِيهتهم .

ولنذكر لُمْعَةً من رسائل البلغاء والفضلاء، ولَمْحةً من أشعار الأدباء والشعراء؛ فمن ذلك رسالة كتبها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدّ، إلى الوزير الفقيه أبى القاسم الهُورينى يعزّيه عن أخيه، ابتدأها بأن قال

لابُدَّ مِن فقدٍ ومن فاقدٍ * هيهاتَ مافى النّاس من خالدِ
كُن المُعَزّى لا المُعزى بِهِ * إن كان لابدّ من الواحدِ

إذا لم يكن بُدٌّ من تجرُّع الحِمام، وتشتُّت النِّظام، وآنصداع شَمْل الكرام، فمن الآتفاق السعيد والقدَر الحميد أن يرث أعمارَ البِنْيَةِ الكريمةِ مُشَيِّد عُلاها، وتسْلَم من القلادة وُسْطاها، فمدار الكِنانة على مُعَلَّاها، ونَخَارُ الحَلْبة بمُحرز مَداها؛ وفى هذه النُّبذة إشارةٌ إلى من فرَط من الإخوة النُّبلاء، ودرَج من السادة النُّجَباء؛ فإنهم وإن كانوا فى رتبة الفضل صُدورا، وغدَوا فى سماء النُّبل بدورا؛ فإنّ شمس عَلائك أبهرُ أضواءً وأزهرُ أنوارا، وظِلَّ جنابك على بنيهم ومُخلَّفيهم أندى آصالا وأبردُ أسحارا. نُعِى إلىّ — أوشك الله سلوانك، ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك! — الوزيرُ أبو فلان، برّد الله ثراه، وكرّم مثواه، فكأنّما طعَن ناعِيه فى كبِدى، وظَعَن باكيه بذخيرة جَلَدى؛ لا جرم أنّى دُفِعتُ إلى غمرة من التّبلُّد لو صُدِم بها النجمُ لحار، أو دُهِم بها الحَزْم لحار؛ ثم ثابتْ إلىّ نفسى وقد وقَذها الجَزَع، وعضّها الوجَع؛ فأطلْتُ الآسترجاع، وجمعت الجَلَد الشَّعاع؛ وها أنا عند الله أحتسبه جِمَاعَ فضائل، وجَمالَ محافل؛ وحديقةَ مكارم صَوّحت، وصحيفةَ محاسن دَرَست وآنمحت. وما آقتصرت من رسم التعزية المألوف، على القليل المحذوف؛ إلا لعلمى بأن المعزّى لا يُورد عليك غريبا، ولا يُسمعك من مواعظه عجيبا؛ فبك يقتدى اللّبيب، وعلى مثالك يحتذى الأديب، وإلى غَرَضك فى كل موطنٍ يُوفِى[1] المُصيب؛ وفى تجافى الأقدار عن حَوْبائك،

(١) كذا بالأصول: ولعله محرّف عن «يرمى».

وسقوطها دون فِنائك، مايدعو إلى حسن التعزية؛ لا صدَع الله جمْعك، ولا قرَع بنَبْأة المكروه سمعك .

(٧٩) ومن إنشاء القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى : ورد الخبر بمصرَع فلان الذى عزّ على المعالى، وعُزِّيت به الليالى؛ وسقط به نجمُ الشرف وهَوَى؛ وجفّ به روض الكرم وَذَوى؛ ونقصت الأرض من أطرافها، وَرَجفت الجبال من أعرافها؛ و بكت ٥ عليه السماء فإن يده كانت من سُحبها، وتناثرت له النجوم فإن عزمه كان من شُهُبها؛ وأظلمت فى عينى الدنيـا الظالمة، وتجرعتُ منها كأسًا لا تُسـيغها النفسُ كاظمة، وتقسّمت الأيامُ فريقين فى مودّتى وعداوتى، فآهًا على السالفة ولا مرحبًا بالقادمة ؛ وأصبحت أخوض المـاء وأحشائى تتقطّع غليلا ، وأرى الناس كثيرا بعينى و بقلبى قليـــلا ١٠

وما النّاسُ فى عَيْنَىَّ إلّا حجارةٌ * لبينِكَ والأعراسُ إلّا مآتمُ

فلقد استوحشت الدنيا لفقده ، وٱرتابت بنفسها مِنْ بعــده ، وعلمتْ حلاوةَ قربه بمرارة بُعــده ، وٱنصرف ذو و الأبواب عن بابه ، وٱجتنبت الآمال مَغْنى جنابه ، و بكت الرياض على آثار سحابه

فإنْ يُمْسِ وَحْشًا بابُه فلربّمـا * تناطَحُ أفواجًا عليه المواكبُ ١٥

ومن إنشائه أيضا رحمه الله تعالى : ما شككتُ — أطال الله بقاءك — حين ورد النعى بالمصائب التى قصَمت الظهورَ بمكروهها، وحَسَرت فيهـا الحَسَراتُ عن وجوهها؛ أن السماءَ على الأرض قد ٱنطبقت، وأن الأيّام ما أبقت والسـعادةَ قد أَبَقَتْ؛ والحياةُ لم يبق فى طولها طائل ، والصـبرَ بهجير اللوعة ظِلٌّ منسوخٌ زائل؛ وشمسَ الفضائل قد غرَبت وكيف بطلوعها، ونفس المكارم قد نُزِعت مـن بين ٢٠

ضلوعها، وغابَ الإسلامِ قد غاب منه أيُّ لَيْث، ورياض الآمال قد أقلع عن سُقياها أيّ غيث، فإنا لله وإنا اليه راجعون رضًا بحكمه، وتجلُّدًا على مارمى به الحادث من سهمه، وطُبًّا للقلوب على مَضَض البلاء وكَلْمه، وفرارًا من الجمع بين مصيبة الفاقد وإثمه، وسقى الله ذاك الضريحَ ما شاء أن يسقيه من سحاب كصوب يديه، ورحمه رحمةً تحُفّ بجانبيه، وآهًا للماء العَذْب كيف ٱرتشفته النوازل وأبقت المِلح، ثم آهًا للصباح الطّلْق كيف ٱغتالته الأصائل وأطلقت الجُنْح، ووا أسَفًا لتلك الذخيرة التى فذلكت بها الأيّام ذخائرى، والسريرةِ التى طالما صُنتها أن تمرّ بسرائرى، شفقًا عليها من سهام دهر بالذخائر مُولَعة، وسَترًا لها من عين زمان على السرائر مُوقَعة، ولئن صحب قلبى بعده أضلعى، وتحمّلتُ بعد فقده على ظَلَعى فإنّا غدًا على أثره، وإن كنّا اليوم على خبره. وقَصْرُ الحياة الى قُصور، كما أن محصول غرورها غرور. والتأدّبُ بأدب الله أولى ما خفّف به المسلوب عن مَنكبه، وطريقُ السّلوان لابدّ أن يُراجعه عَزْم مُنَكِّبه. فأنشُدها الله أمَا جعلتْ مُصيبتها مصيبةً على الشامت بما تلبَسه من صبر يَلْبِس عليه المصيبةَ فيُشبّهها بنِعْمة، وبما تستشعره(1) من تجلّد فى النازلة تُنْزَل عليها صلواتٌ من ربّها ورَحْمة، ولن ترى أعجب من مُصاب لا ترى به إلا مُصابا، وساكِنِ تُربٍ لم يبقَ بعده إلا من سقى بدمعه تُرابا، اشترك فيه الأُمّتان العربُ والعَجَم، وعُزِّى به العزيزان المجدُ والكرم، وٱستباح الدهرُ به الصيدَ فى الحَرَم

وتَشَابَهَ الباكُونَ فيه فلم يَبِنْ * دمعُ المُحِقِّ لنا من المُتَعَمِّلِ

وكتب أيضا فى مثل ذلك : أخّرتُ مكاتبة الحضرة — مدّ الله فى عمرها وفى صبرها وفى أجرها، وألهمها التسليم لحكم من هو غالبٌ على أمرها — إلى أن

(1) فى الأصل : «يستشعره» .

تنقضى نَبْوة الخَطْب، وتضعَ الأنفاسُ أوزارها للحرب، ويُخرِج ماءُ الجفن نارَ القلب، وتَراجَعَ الخواطرُ إلى عادتها، وتنظرَ فى الدنيا الّتى ما صُحِبت إلّا على عادياتها ومُعاداتها؛ فتكونَ الحضرة عرَفت من غير تعريف، ووَقفت على الحزم من غير توقيف؛ وتوفَّر عليها الثواب بغير مُشارِك، ورجعت إلى فهمٍ مُدرِكٍ وصوابٍ مُدارِك. وتأخير التعزية عن البادرة خلافُ ما شُرع فيها، ولكن إنما يحتاج أن يُثَبَّت مَن صبرُه هافٍ، ويُرَمَّ مَن تجلُّده عافٍ؛ وقد علم الله ٱهتمامى واغتمامى بفقد شيخها رحمه الله وعدَمها منه من لاعِوَض عنـه إلا ثواب الله الذى يُهَوِّن الوقائع، ويُوَطِّن على الروائع . وأسـباب التعزية غير واحدة، منها أنه إنما دَرَج فى السنّ التى هى مُعترك المنايا، ومنها أنه ما خرج عن الدنيا الى أن رأى منها خَلَفًا يهوّن الرزايا؛ ومنها أنه لقى الله بعملٍ صالح هو بمشيئة الله نجاتُه، ومنها أنه فارقها على الرضا عنها ويكفيها مرضاتُه، وعلى الدعاء المقبول لها ونعمت الجُنَن دعواته؛ ولكن للأُلّاف لا بدّ حسرةٌ إذا جَعَلتْ أقرانُها تنقطع؛ ومنها أن الحزن لو أُطيع والحزم لو أُضيع لمـا أفضى إلى مَراد، ولا أعاد ميّتًا قبل المَعاد؛ وأحقُّ متروك ما يأثم طالبه، ويُؤْجَرُ مُجانبه

عن الدهر فاصفَحْ إنّه غيرُ مُعْتِبٍ وفى غيرِ مَن قد وَارت التُّربُ فاطمَعِ

والحضرة تُعْلِمنى من لا حقةِ رجوعها إلى الله بعـد الٱسترجاع، ومن تسليم خاطرِ الحزن إلى حكم الله ما يسُرّ حاطر الٱستطلاع؛ وحسبه أبقاه الله تعالى من كلّ هالك، ولا يجزَع المحاسَب مِنْ فَذَا لك. ومثله مَنْ أخذ بعزائم الله فيما هو آخذ وتارك. جبرَ الله مُصابَه، وعظّم ثوابه، وسقى المـاضى وروّى ترابه، ولا تذهب النفس حسرةً لمـا شهدت العينُ ذَهابَه

وتخطّفتــه يدُ الردى فى غَيْبتى * هَبْنِى حضرتُ فكنتُ ماذا أصنَعُ؟

ومن إنشاء الشيخ ضياء الدين أحمد بن محمد القُرْطبيّ ما كتب به إلى الصاحب شرف الدين الفائزىّ يعزّيه فى مملوك تُوفّى له وكان الصاحب قد جزِع لفقده . ابتدأ كتابه بأن قال

فِدًى لك مَن يُقَصِّرُ عن مَداكا * فلا أحدٌ إذًا إلا فِداكا

٥ إنا لله و إنا إليه راجعون ، لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنة ، وسُنّة فى الأسى مُستحسنة ؛ و إنما الأنفسُ ودائعُ مُستودَعة ، وعَوارٍ مُسترجَعة ، ومواهبُ بيد الفناء مُستنزَعة

فالعمرُ نومٌ والمنيّةُ يَقْظَةٌ * والمرءُ بينهما خَيالٌ سارِى

وما برِح ذوو العزَمات يتلقَّون وارداتِ المصائب بصبرهم ، وما كان لِمؤمِنٍ ولا

١٠ مؤمِنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمرًا أن يكونَ لهم الخِيَرَةُ مِن أمرِهم ؛ و إنّ يد الله لمليّة بفيض المواهب ، وفى الله عوضٌ من كلّ بائن وخلفٌ من كلّ ذاهب ؛ و إذا سلم مولانا فى نفسه وولده ، فلا بأس إذا تطرّقت يدُ الردى إلى مِلْك يده

فأنت جوهرةُ الأعناقِ ، ما مَلَكت * كفّاكَ من طارف أو تالدٍ عَرَضُ

والحمد لله الذى جعل المصيبةَ عندك لا بك ، والرزيّةَ لك لا فيك .

١٥ * إذا سَلِمْتَ فكلّ الناس قد سلموا *

واذا تخطّتكما المنيّةُ فلها فى سواكما الخيار ، ولنا القِدْح المُعَلّى إذا أورى زَنْد هذا الاختيار . ولا بدّ فى مَشْرَع المنيّة من مفقودٍ وفاقد

كُن المُعَزَّى لا المُعزَّى به * إن كان لا بدّ من الواحد

وهذا فقد وهبه الله لمولانا من حيثُ إنه أخذه منه ، وأبقاه له من حيث رآه ذاهبًا

٢٠ عنه ، فهو بالأمس عاريةٌ مردودة ، واليوم ذخيرةٌ موجودة ، وكان عطيّةً مسلوبة ،

وهو الآن نعمةٌ موهوبة ، كنتَ له وهو الآن لك ، وفُزتَ به والسعيدُ من فاز بمـا ملك . وهٰذه دارٌ دواؤها داؤها (١) ، وبقاؤها فناؤها ؛ طالبها مطلوب ، وسالبها مسلوب ؛ و إنّ لنا فيمن سَلَف لعزاء ، ولنا برسول الله صلى الله عليه وسـلم ٱقتداء ؛ ولا بدّ من وُرود هذا المشرَع ، ومُلاقاة هذا المصرَع .

(٨١)

ومن إنشاء المولى شهـاب الدين محمود الحلبيّ ما كتب به عن بعض النوّاب إلى الأمير عزّ الدين الحمويّ النائب كان بدِمَشْق تعزيةً بولده :

أعز الله أنصار المقرّ الكريم العالى ، ولا هدَمت له الخطوب ركنا ، ولا بخأت له الحوادث حِمًى ولا طلبت عليه إذنا ، ولا هصَرتْ أيدى الأقدار من عروشه الناضرة غُصْنا ، ولا أذاقته الأيّام بعد ما مرّ أسفًا على من يحبّ ولا حُزنا ، ولا سلَبه الجزَع رداء الصّبر الذى يخصّه بجزيل الأجر و إن شركه فى الأسى والأسَف كلٌّ منّا . المملوك يقبّل اليد الكريمة ، ويُنْهِى أنه ٱتّصل به النبأ الذى صدَع قلبَه ، وشَغل بالبكاء طَرْفه وبالأسف لسانَه و بالحزن لُبَّه ؛ وهو ما قدّره الله تعالى من وفاة المولى الأمير ركن الدين عمر — تغمّده الله برضوانه — الذى ٱختار الله له مالديه ، وٱرتضى له البقاءَ الدائم على الفانى فنقله إليه ؛ على أن الدين فقد منه رُكْنًا شديدا ، ورأيًا سديدا ، وعزمًا وحزمًا مُعينًا مُفيدا ، وأميرًا أردنا أن يعيش سعيدا ، فأبى الله إلا أن يموت شهيدا ؛ فإنا لله و إنا اليه راجعون . لقد كان للرجاء فى ٱعتضاد الدولة القاهرة به أىّ مجال ، وللآمال فى الآنتظار ببأسه ظنونٌ تُحقّق أن الغلبة للدِّين دائما مع أن الحروب سِجال ؛ وللمواكب بطلوع طلعته أىّ إشراق ، وللعيون عن مشاهدة كماله وأبّهـة جلاله أىّ إغضاء وأىّ

---

(١) فى نسخة : دَوَاؤُها .

إطراق ؛ ولله أىّ بدر هَوَى من أُفُق[1] بروجه عن فلَك ، وأىّ شمس ما رأته الجوارى الكُنَّس إلا قلن : حاش لله ما هٰذا بَشَرًا إنْ هٰذا إلّا ملك ؛ وأىّ حِصن كانت منه ثمـار الشجاعة تُجتنَى ، وأىّ أسد براثنُه الصوارم وأَجَماته القَنَا ، لقد فتَّ فى عَضُد الدين مُصابُه ، وأذهب صحّةَ الأُنْس به وحلاوةَ وجوده أو صابُ فقدِه وصابه ؛ وكادت الصوارمُ أن تُشَقّ عليه غُمودَها ، والراياتُ أن تُقطِّع عليه ذوائبَها وتُغيِّر بنودَها ، والرماحُ أن تَعرِض على النار لتَقْصِف لا لِتُثَقِّفَ قُدُودَها ، والجيادُ أن تتعثّر للحزن بذُيُولها ، وتعتاضَ بالنَّوح عن صهيلها ؛ ولو أُنْصِف لأَكَنَّته القلوب فى ضمائرها ، ولو قُبِل الفداءُ لسَمَحت فيه النفوسُ بالنفائس ولو كانت الحياةُ من ذخائرها ، أو لو كان الحتف مما يُدَافَعُ بالجنود تحطّمت دونه القنا فى دروع عساكرها ؛ ولكنه السبيل الذى لا مَحِيدَ عن طريقه ، والمُعَرَّسُ الذى لابدّ لكل حىّ من النزول على فَرِيقه ؛ وهو الغاية التى تستَنُّ إليها النفوس ٱستنان الِجياد ، والحَلْبة التى كنّا نحن وهذا الدارجُ نَركُض إليهـا ولكن السابق كان الجواد ، على أن المتأخِّر لا بدّ له من اللَّحـاق ، وماذا عسى يُسَرّ البدرُ بكماله وهو يعلم أن وراءه المِحَاق ! وفى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يعلم أن كل رُزءٍ بعده جَلَل ، وإذا ٱنتقل العبد إلى الله تعالى غيرَ مفتون فى دينه ولا مُثْقَل الظهرِ من الأوزار حمِد فى غَدٍ مافعل ؛ وغُبِط بقدومه على أكرم الأكرمين مسرورا ، ولقِىَ الله وقد جعل فى قلبــه نورا وفى سمعه نورا وفى بصره نورا . والمولى أعزّه الله تعـالى أولى من تَلَقَّى أمرَ الله بالتسليم والرضا ، وقابل أقدارَه بأن الخِـيْرَةَ فيما قدّر وقضى ، وحمِــد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم أعظمُ خَلَف ، وأجملُ عوض يقال به للدّهر الذى ٱعتذر بدوام المَسَرّة فيهم : عفا اللهُ عمّا سلف ؛ وعلم أن

---

(١) فى الأصل : «من أفق بروجه» .

الخطْب الذى هدّ رُكن الدين باحترابه وآجتراحه ، قد صرفه إلى الأمد عن الإلمـام بساحة شهابه والتعرّض إلى حِمى نحره والنظرِ إلى حىّ صلاحه ، ففى بقائهـم ما يُرْغم العِـدى ، ويُعِزّ حزب الهدى ، ويُقيم كلًّا منهم فى خدمة الدولة القاهرة بين يدى المولى مقامَ الشِّبل المنتمِى للأسد ، ويُنْهِضهم من مصالح الإسلام مع ما يعلمه منهم من حسن الثّبات من الوالد وسُرعةِ الوَثَبات من الولد ، والله تعالى يُجزِل له من الأجر أوفاه ، ويحفظ عليه — وقد فعل — أُخراه ، ويجعله للإسلام ذُخرا ، ولا يُسمعه مع طول البقاء بعدها تعزيةً أخرى .

ومن أحسن الرثاء وأشجاه ما نطقت به الخَنْساء فى رِثائها لأخيها صَخْر ، فمن ذلك قولها

أَلَا يا صخرُ إن أبكيتَ عينى * لقــد أضحكتنى دهرًا طَوِيلَا
دفعتُ بك الجليلَ وأنت حَىٌّ * فمن ذا يدفعُ الخَطْبَ الجَلِيلا
إذا قَبُــح البُكاءُ على قَتِيــلٍ * رأيتُ بُكاءَكَ الحَسَنَ الجَمِيلا

وقالت أيضا فيه

أَلَا هَبِلت أمُّ الذيــن غَــدَوْا به * إلى القبر ، ما ذا يَحملون إلى القــبر !
وما ذا يُوارِى القــبرُ تحت تُرابِهِ * من الجُود ! يا بؤسَ الحوادثِ والدّهرِ !
فشأنَ المنــايا إذ أصــابك رَيْبُها * لِتَغْــدُ على الفِتْيانِ بعــدَك أو تَسْرى

وقالت

يُذَكِّرنى طلوعُ الشمسِ صَخْرًا * وأبكيه لكُلِّ غروبِ شمسِ
ولولا كثرةُ الباكِين حَوْلِى * على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما يبْكُون مثل أخى ولٰكنْ * أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأسِّى

وقالوا : أرثى بيت قالته العرب قول مُتَمِّم بن نُوَيرة فى أخيه مالك، وكان قد قتله خالد بن الوليد فى الرِّدة، وكان متمم قدِم العراق فأقبل لا يرى قبرًا إلا بكى، فقيل له : يموت أخوك بالمَلَا وتبكى على قبرٍ بالعراق! فقال

لقد لَامَنى عند القبورِ على البُكا * رفيقى لتَذْرافِ الدموع السّوافِكِ

٥ أمِنْ أجلِ قبرٍ بالمَلَا أنت نائح * على كلِّ قبر أو على كلّ هالك

وقال : أتبكى كلَّ قبرٍ رأيتَه * لقبرٍ ثوَى بين اللِّوى فالدَّكادِكِ

فقلت له : إن الشجَا يبعَثُ الشجَا * فدَعْنِى فهذا كلّه قبرُ مالكِ

معناه قد ملأ الأرض مُصابُه عِظَمًا فكأنه مدفونٌ بكلّ مكان، وهو أبلغ ما قيل فى تعظيم ميّت . وقيل أرثى بيتٍ قالته العرب قول المُحْدَث

١٠ علىٰ قبره بين القبورِ مَهَابةٌ * كما قبلها كانت على صاحب القبرِ

وقيل : بل قول الآخر

أرادُوا لِيُخْفُوا قبرَه عن عَدُوِّهِ * فطيبُ تراب القبرِ دلَّ على القبرِ

وقالوا : بل بيت غيره

فما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْك واحدٍ * ولٰكنّه بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّمَا

١٥ وقال الأصمعىّ : أرثى بيتٍ قالته العرب قول الشاعر

ومن عَجَبٍ أن بِتَّ مُستشعر الثَّرىٰ * وبِتُّ بما زوّدتَنى مُتمتِّعا

ولو أننى أنصفتُكَ الودَّ لم أبِتْ * خِلافَكَ حتى ننطوِى فى الثّرىٰ معا

ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مُطَير الأسدىّ

أَلِمّا بمَعْنٍ ثم قُولا لقبرِهِ : * سقتْكَ الغوادِى مَرْبَعًا ثم مَرْبَعا

٢٠ فتًى عيشَ فى معروفه بعد موته * كما كان بعد السَّيلِ مَجْراه مَرْتَعا

(٨٣)

أيا قبرَ معنٍ كنتَ أوّلَ حُفْرةٍ * من الأرض خُطّت للسماحة مَضْجَعا
ويا قبرَ معنٍ كيف واريتَ جُودَهُ * وقد كان منه البرُّ والبحرُ مُتْرَعا!
بلى قد وسِعْتَ الجُودَ والجودُ ميّتٌ * ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعا
ولما مضى معنٌ مضى الجودُ والنّدى * وأصبح عِرْنينُ المكارمِ أَجْدَعا

قال أبو هلال العسكرىّ : هذه الأبيات أرثى ما قيل فى الجاهلّية والإسلام. ٥

وقال بكر بن النطاح يرثى معقل بن عيسى

وحدّثنى عن بعض ما قال أنّه * رأت عينُه فيما ترى عينُ نائمِ
كأنّ النَّدى يبكى على قبر مَعْقِلٍ * ولم تَرَهُ يبكى على قبرِ حاتمِ
ولا قبرِ كَعْب إذ يجودُ بنفسه * ولا قبرِ حِلْفِ الجود قَيْسِ بن عاصمِ
فأيقنتُ أن الله فضّل معقِلاً * على كل مذكور بفضل المكارمِ ١٠

وقال آخر

لعمرُكَ ما وارى التراب فعالَه * ولكنّما وارَى ثيابًا وأعظُما

ومثله لمنصور النمرىّ

فإن تَكُ أفنته الليالى وأوشكت * فإنّ له ذِكْرًا سيبقَى اللياليا

وقال التيمىّ فى منصور بن زياد ١٥

أمّا القبورُ فإنّهنّ أوانسٌ * بفِناء قبرِكَ والديارُ قبورُ
عمّت صنائعهُ فعمّ مُصابهُ * فالناسُ فيه كلّهم مأجورُ
يُثنى عليكَ لسانُ من لم تُوله * خيراً لأنك بالثناء جدير
ردّت صنائعه إليه حياتَه * فكأنه من نشرها منشورُ
فالناس مأتمهم عليه واحدٌ * فى كلّ دار رَنّةٌ وزفير ٢٠

وقال آبن القزّاز المغربىّ

سأبكيك لا أنّ البكا عَدْل لوعتى * ولا أنّ وجدى فيك كفء تَنَدُّمى
وقلّ لعينى أن تَفِيضَ دموعُها * عليك ولو أنّ الذى فاض من دمى

وقال الخُرَيمىّ

٥ وأعددتُه ذُخرًا لكلّ مُلِمّة * وسهمُ الرزايا بالذخائر مُولَعُ
وإنى وإن أظهرتُ منّى جَلَادةً * وصانعتُ أعدائى عليه لَمُوجَعُ
ولو شئتُ أن أبكى دمًا لبكيتُه * عليه ولٰكن ساحةُ الصبرِ أوسعُ

وقال أبو هِلال العسكرىّ

على الرغم من أنف المكارمِ والعُلا * غدتْ دارُه قَفْرًا ومَغْناه بَلْقعا
١٠ ألم تر أنّ البأسَ أصبح بعده * أشلَّ وأنّ الجودَ أصبح أجْدَعا
مُرّا على قبرِ المُسَوَّدِ وآنظُرا * إلى المجد والعلياء كيف تخشّعا
فإن يك واراه الترابُ فكبِّرا * على الجودِ والمعروفِ والفضلِ أربعا
ولا تسأما نَوْحًا عليه مُكَرَّرًا * ونَوْحًا لفقد العارفات مرجَّعا
فما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْك واحد * ولكنّه بُنيانُ قوم تضعضعا
١٥ ولا تحسبا أنّى أُواريه وحده * ولٰكنّنى واريتُه والنّدى معا

وقال أيضا

ألستَ ترى موتَ العُلا والفضائلِ * وكيف غروبُ النجم بين الجنادلِ!
فما للمنايا أغفلت كلَّ ناقصٍ * ونقّبن فى الآفاق عن كلِّ فاضل؟
على الرغم من أنف العُلا سِيقَ للرّدى * بكلّ كريم الفعل حُرّ الشمائل
٢٠ على أنّ من أبقته ليس بخالدٍ * وليس آمرؤ يرجو الخلودَ بعاقل

رأيت المنـايا بيـن غادٍ ورائحٍ * فما للبرايا بيـن ساهٍ وغافلِ!
ولم أر كالدنيا حبيباً مُضِرّةً * ولم أر مثـل الموت حقًّا كباطل

وقال الرقاشىّ فى البرامكة

أَلَانَ ٱسترحْنا وٱستراحت رِكابُنـا * وقل الذى يُحْدَى ومن كان يحتدى
فقل للمطايا : قد أَمِنْتِ من السُّرى * وطَىِّ الفيافى فَدْفَدًا بعـد فدفدِ
وقل للمنـايا : قد ظفِرْتِ بجعفرٍ * ولن تظفَرِى من بعـده بمُسَوَّدِ
وقل للعطايا بعد فَضْـلٍ : تَعَطَّلِى * وقل للرزايا كلَّ يوم : تجدّدى
ودونَكَ سـيفًا برمكيًّا مُهَنّـدًا * أُصيب بسـيفٍ هاشمىٍّ مهنّـدِ

وقال آخر

سأبكيك للدنيـا وللدِّين، إنّنى * رأيتُ يد المعروف بعدك شُلَّتِ
ربيـعٌ إذا ضنّ الغمامُ بمـائه، * وليثٌ إذا ما المَشْرفيّـةُ سُلّتِ

وقال عبد الله بن المعتزّ

ألستَ ترى موت العُلا والمحامدِ * وكيف دفنّا الخَلْق فى قبر واحدِ
وللدهر أيّامٌ يُسِئْن عَوامدًا * ويُحسِنّ إن أحسنّ غيرَ عوامدِ

وقال أبو الطيِّب المتنبى

إنى لأعلم — واللبيبُ خبيرٌ — * أنّ الحيـاة وإن حرَصت غُرورُ
ما كنتُ أعلم قبلَ دفنك فى الثرَى[1] * أن الكواكب فى التّراب تغورُ
خرجوا به ولكلّ باكٍ حـوله * صَعَقاتُ موسى يومَ دُكَّ الطُّورُ

(١) كذا فى ديوان المتنبىّ طبع مطبعة هندية سنه ١٨٩٨ وفى الأصل « قبـل نزل فى الثرى » على حذف أن المصدرية .

حتّى أتوْا جَدَثًا كأنّ ضريحَــه * فى قلب كلّ موحّد محفـورْ
نبكى عليــه وما ٱســتقرّ قراره * فى اللحـدِ حتّى صافحتــه الحور

ومنهـا

صـبْرًا على المكروه فيه تكـرُّمًا(١) * إنّ العظيم على العظيم صَبورُ
٥ ولكلّ مفجوعٍ سواكم مُشـبِهٌ * ولكـلّ مفقود سـواه نظـيرُ

وقال آخر

كفى حَزَنًا أنّى تخلّفتُ بعــده * أدورُ مع الباكين فى عَرَصاتِهِ
وصارت يمينى ما حلفتُ بقبره * وكانت يمينى قبلها بحيـاتِهِ

وقال آخر

١٠ وكنتُ أخاف الدهرَ ما كان باقيًا * فلمّا تولّى مات خوفى على الدهر

وقال آخر

ولمـا دعوتُ الصّبْرَ بعدك والبُكا * أجاب البكا طوعًا ولم يُجِبِ الصبرُ
وإن ينقطِعْ منك الرجاءُ فإنه * سيَبْقى عليك الحزنُ ما بقِيَ الدهرُ

وقال آخر

١٥ فوالله لو أسطيعُ قاسمتُــه الرّدى * فمُتْنـا جميعًا أو يُقاسِمُنى عُمْرى
ولكنّما أرواحُنا ملكُ غــيرنا * فمالىَ فى نفسى ولا فيه من أمرِ
أحَمّــلُهُ ثِقْـلَ التراب وإنّنى * لأخشى عليه الثقل من مَوْطِئِ الذّرّ
وما أنا بالوافى وقد عشتُ بعدهُ * وربَّ ٱعتراف كان أبلغَ من عُذرِ

وقال آخر

٢٠ يا راحلًا لم يُبْــقِ لى * من بعده فى العيش نفعـا

(١) فى الديوان : «صبرا بنى إسحاق فيه تكرما» .

ضاقت عليَّ الأرضُ فيـــك وضقتُ بالإخوان ذَرْعا
ورعَيْتُ فيـك النجمَ يا * من كان يحفظنى ويرعى
أبكيك بالشـــعر الذى * قد رقّ حتى صار دمعا

وقال تاج الملوك بن أيّوب يرثى أخاه

لو كان يَشفِى الدمعُ غُلّةَ واجدٍ لشفَى غليلى فيضُ دمعى الهامرِ ٥
هيهاتَ لا بردَ الغليلُ وقد ثوى من كان من عُدَدى وخير ذخائرى
يا لَلرجالِ لِنَكبةٍ قد أذهبتْ جَلَدَ الجليدِ وحُسْنَ صبرِ الصابرِ
طرَقتْ فتى المُلْك المعظّم فانثنى من بعـد بهجته كرَبْعٍ داثرِ

ومنهـا

جبلٌ هوى فارتجّت الدنيـا له فكأنّمـا ركبت جناحَىْ طائرِ ١٠

ومنهـا

مَنْ للنوائب يومَ تفترس الورى * قَسْرًا بأنيـاب لهـا وأظافرِ
أضحى وحيـدًا فى التراب كأنّه * ما سار بين مواكب وعساكرِ
قـد كان لا تَعْصِى البريّةُ أمرَه * فانقـاد ممتثـلًا لأمر الآمرِ
مولاى دعـــوةَ والهٍ غادرتَه * وَقْفًـا على نُوَب الزمانِ الغـادرِ ١٥
هل من سـبيل للزيارة عنـدها * هيهاتَ حال الموتُ دون الزائرِ
لو كان خصمك غيرَ حادثة الرّدى * لرددتُه بذوابـل وبواتـرِ
أو كان يُدرِكُ ثأرَ من أودى به * رَيْبُ المنون لكنتُ أوّلَ ثائرِ
لكنه الموتُ الذى قهـر الورى * من حيث لا تَثنيـه قدرةُ قادرِ

وقال كمال الدين بن النبيه يرثى الأمير على بن الخليفة الناصر لدين الله

النـاس للموت كخيـل الطِّرادْ * فالسـابقُ السابقُ منها الجـوادْ
والله لا يدعـو إلى داره * إلا مَنِ آستصلح من ذا العبادْ
والموت نقّـادٌ، على كفّه * جواهرٌ يختـار منها الجيـادْ
والمرء كالظـلّ ولا بدّ أنْ * يزولَ ذاك الظلُّ بعد آمتدادْ
لا تصلُحُ الأرواحُ إلّا إذا * سرى إلى الأجسام هذا الفسادْ
أرغمتَ ياموتُ أنوفَ القَنَا * ودُسْتَ أعناقَ السيوفِ الحِدادْ
كيف تخرّمتَ أميرًا وما * أنجـده كلُّ طويلِ النِّجادْ
مصيبةٌ أذكتْ قلوبَ الورى * كأنما فى كلِّ قلبٍ زِنادْ
نازلةٌ عمّت فمِنْ أجلها * سنَّ بنو العبّاسِ لُبْسَ السـوادْ
ماتمـةٌ فى الأرض لكن لهـا * عُرْسٌ على السبع الطِّباقِ الشِّدادْ
طرقتَ ياموتُ كريمًا فلم * يقنَعْ بغـير النفس للضيفِ زادْ
قصمتَه من سِدرة المُنْتهى * غُصْنًا فشُلّتْ يد أهل العنـادْ
يا ثالثَ السِّبطينِ خلّفتنى * أهيم من همِّىَ فى كلِّ وادْ
يا نائمًا فى غمَـرات الرّدى * كحّلْتَ أجفانى بمِيلِ السُّهادْ
ويا ضجيـعَ التُّرب أسقمتَنى * كأنما فَرْشِىَ شوكُ القَتَـادْ
دُفنتَ فى التُّرب ولو أنصفُوا * ما كنتَ إلّا فى صميم الفُـؤادْ
خليفـةَ الله آصطبِر وآحتسِبْ * فما وَهَى البيتُ وأنت العِمادْ
فى العلمِ والحلم[1] بكم يُقتَـدى * إذا دجا الخطبُ وضَلّ الرشادْ
وأنت لُجُ البحـرِ ما ضـرّهُ * أن سال من بعض نواحيه وادْ

(١) فى الاصل : «فالعلم والحلم» .

ولما مات الإخشيد محمد بن طُغج رثاه جماعه من الشعراء منهم محمد بن الحسن آبن زكريّا فقال

فى الرزايا روائــعُ الأوجالِ * والــبرايا دَرِيئـةُ الآجال
وكذا الليلُ والنهارُ آعتبـارٌ * للورٰى فى تفكُّر الأحوالِ
كلُّ شىءٍ وإن تمادى مداه * قَصْـرُه للفَـناء أو للزَّوال
وأرى كلَّ عِيشــةٍ لأُناسٍ * كونُها مُؤذِنٌ بوَشْك آنتقالِ
كلُّ ذى جِدّةٍ – إذا ما الجديدا * نِ ألَحّا عليه – مُـودٍ بال
ما لخَلْقٍ من المَنونِ مَفَـرٌّ * لا ولا دون بطشِها من مآلِ
كلُّ غيث الأيّام إن أخلف الغيـ * ـثُ أطلَّتْ سحابُه بانهـمال
فجعتنا بواهب لا نـراه * يَخْلُقُ الوجهُ عنـده بابتـذالِ
فجعتنا ببهجة الأرض فى الأر * ض وشمسِ الضُّحٰى وبدرِ اللّيالى
فجعتنا بمن حَمٰى حُرمة الإسـ * ـلام من حادث ومن خَتّال
فجعتنا بالباسـلِ البَطَـل السا * مى غداةَ الوغٰى إلى الأبطالِ
فجعتنا بالواهب المُجـزِلِ المر * تاح حين السؤال للسُّؤَّالِ
عجبٌ إذ دنتْ إليـه المنايا * وحِمٰى عِزِّه المنيـعُ العالى
أين من يشترى المدائحَ والشكـ * ـرَ بأسـنى وَفْـرٍ وأوفى نَوالِ
قطع الموتُ وَصْلنا منه كرهًا * والرّدٰى قاطعٌ لكلّ آتّصالِ
رحمـةُ الله والسلام عليـه * فى الضُّحٰى والعِشاء والآصال
وسقى الله حُفـرةً ضُمِّنَتْـهُ * شكرَ واهٍ من الحَيَا هطّال

٥
١٠
١٥
(٨٧)

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ابنه فقال

إن خبا بدرُه فقد لاح للأُمّةِ لما خَبَا طلوعُ الهلالِ

نُوره مُشرقٌ مُضيءٌ مدى الدهـرِ منيرٌ وليس ذا اضمحلالِ

وقال أبو الطيب المتنبي يرثيه

٥ هو الزمانُ مُشتٌّ بالذى جمعا * فى كلّ يوم نرى من صَرْفه بِدَعا

لو كان ممتنعٌ تُغنيه مَنَعَتُه * لم يصنع الدهرُ بالإخشيد ما صنَعا

ذاق الحِمامَ فلم تدفَعْ كتائبُه * عنه القضاءَ ولا أغناه ما جمَعا

لقد نَعَى من نعاه كلَّ مفتخَر * وكلَّ جُود لأهل الأرض حين نَعَى

لله ما حلّ بالإسلام حين ثَوى! * لقد وهَى شَعْبُ هذا الدين فانصدعا

١٠ فمن تراه يقود الخيلَ ساهمةً * سدَّ الفضاءِ وملْءَ الأرض ما وَسعا

ترى الحُتُوفَ عُلوقًا فى أسنّته * لدى الوَغى وشهابَ الموت قد لَمَعَا

لو كان يسطيع قبرٌ ضمّه لسعى * إليه شوقًا ليلقاه وإن شَسَعَا

فليَعْجب الناسُ من لحدٍ تضمّن مَنْ * تضمّن الرزقَ بعد الله فاضْطَلعا

لو يعلم اللحدُ ما قد ضمّ من كرمٍ * ومن نخَارٍ ومن نَعْماء لاتّسعا

١٥ يا لَحْدَه إن تَضِقْ عنه فلا عجبٌ * فيه الحِجا والنُّهى والبأسُ قد جُمِعا

يا لحدُ طُلْ إنّ فيك البحرَ مُحتبِسا * واللّيثَ منهصرا والجُودَ مجتمِعا

يا يومَهُ لم تَخُصّ الفجعَ أسرتَهُ * كلُّ الورى بِرَدَى الإخشيد قد فُجِعا

يا يومه لم تدع صبرًا لمصطبرٍ * ولم تدعْ مَدْمَعًا إلّا وقد دمَعا

أردى الرِّفاقَ رَدَى الإخشيد فانقرضُوا * فما ترى منهُمُ فى الأرض منتجعا

٢٠ يأيها الملك المُخْلِى مجالسَه * أحميتَ أعينَنا الإغماضَ فامتنعا

ومنهـا

لئن مضيتَ حميدَ الأمر مفتقَدًا * لقد تركتَ حميدَ الأمر مُتّبَعا

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ولد الإخشيد

ثَبْتُ الجَنان فلا نِكْسٌ ولا وَرَعٌ تلقاه مستَتِرًا بالحزم مُدَّرِعا

أعطت أبا القاسم الأملاكُ بيعتَها * ولو أبت أخذت أسيافُه البِيَعا

وآنقاد أعداؤه ذُلًّا لهيبته * وظَلّ متبوعُهم من خوفه تَبَعا

أضحت به هِمَمُ الغِلمان عاليةً كأنّ مولاهُمُ الإخشيدُ قد رَجَعا

وقال مُهَلْهِل بن يموت يَرْثيه أيضا

أيّ عزٍّ مضى من الإسلام! * أيّ ركن أضحى حديثَ آنهدامِ!

ذاق موتًا محمد بن طُغُجٍّ هو ليثُ الشَّرى وغيثُ الغَمامِ

فَقَدَ الناسُ مُولِيَ الإنعامِ * فهُمُ سائمون كالأنعامِ

مات ربّ العُلا وراعي الرعايا * والسرايا وكافل الأيتامِ

أين ما كنتَ فيه من عِزّك البا * ذخ والمُرْتقى عزيزِ المَرامِ!

أين ذاك الحجابُ والمُلك والهيـ * ـبةُ أين الزِّحامُ وقت الزحامِ!

من أميرٍ وقائدٍ وخطيرٍ ورئيسٍ وماجدٍ وهُمامِ

كلّهم مطرِقٌ لديك من الهيـ * ـبةِ خوفَ الإجلال والإعظامِ

أين تلك الخيامُ حولك إن عرّستَ والأُسْدُ حول تلك الخيامِ

من عديد وعُدّة لك ما بيـ * ـن قُعود فيها وبين قِيامِ

لم يُطِقْ جمعُهم دفاعَ الرّدى عنـ * ـك ولم يمنعوك منعَ آعتصامِ

أسلمتك الخيولُ قَسْرًا وقد كنـ * ـتَ عليها سُورًا على الإسلامِ

خانك السيفُ وهو يصدُر عن أمـ * ـرك مُستعديًا بغير آحتجامِ

خذل الرمحُ وهو عونُك لو با * ن لقاءٌ وثار نَقْعُ قتام
لم تردّ القسيُّ عنك سهامَ الـ * ـحَتْف والحتفُ عندها فى السهام
ما وقتك الحِرابُ حربَ المنايا * حين وافاك جيشُها من أمام
لم يُحَصِّنك ما ٱقتنيتَ من الآ * لات من جَوْشَنٍ ولا من لَام(١)
حكم الموتُ فيك من بعد ما كنـ * ـتَ تُرى حاكماً على الأحكام
فقدَتْك الفُسطاط وجدًّا مدى الدهـ * ـر ومن بعدها بلاد الشام
فُجِعت يثربٌ ومكّةُ والبيـ * ـتُ إلى زمزمٍ أَجَلُّ والمَقام
عمّ فيك المُصابُ فاشترك العا * لَمُ فى الرُّزء منه والآلام
حسبنا الله عزّ من حَكَمٍ يجـ * ـرى على الحاكمين بالأحكام
كلّ شىء إلى زوال، ومن ذا * نال مُلكَ الدنيا بغير ٱخترام
أين أين الملوك فى سالف الدهـ * ـر دهتهم حوادث الأيّام
أين من قد كانوا يُخافَون فى البأ * س ويُرْجَون للعطايا الجِسام
ليس يبقى إلّا الإله تعالى * مَنْ له الملك ثابتًا بالدّوام
أيهذا الأمير بل يا أبا القا * سم يا بن السمَيْدَع القَمْقام
إرض حكم الإله فى المَلِك الما * ضى وسلّم لنافذ الأحكام
وهناك الذى بلغتَ من الأمـ * ـر وما حزته بحسن ٱنتظام
ما كمثل الذى رُزئت ولا مثـ * ـل الذى قد مَلكتَ فى ذا العام
أنت مثل الإخشيد فانهض بما مُلِّـ * ـكتَ بالجِدّ منك والإعتزام

وقال بعض الشعراء يَرْثى الوزير يعقوب بن كِلّس وزير العزيز بن المُعِزّ خليفة مصر (٨٩)

إن التصبُّرَ فى الأمور جميلُ * إلّا عليك فما إليه سبيلُ

---

(١) لام : مخفف "لأم" جمع "لأمة" وهى الدرع .

يا حاملًا ثِقَلَ العُـلا وكأنه لِعُلوِّ هِمّتـه بها محمـولُ
يا واهبًا فوق المُنى وكأنه * لسخائه ممّا يجود بخيـلُ

جاء منها

يا تُرْبُ لا تأكُل لسانًا طالما * وَالَى به التحميدُ والتهليـلُ
يا تُرْبُ لا تَعْنُف بكفٍّ طالما قد كان يُؤلم ظهرَها التقبيـلُ

ومنهـا

يادهرُ تعلمُ ماجنيتَ على الورى؟ * خَطْبٌ لعمرُك إن علمتَ جليلُ
ما كان ضرّك لو مَهَلت بمثله * يا دهرُ إنك بعـدها لَعَجول

ومن المراثى المشهورة التى عُنى بها وآتصلت أسباب الشارحين بسببها المرثيـةُ العَبْدونيّـة التى نظمها الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون يَرثى بها بنى مسلمة المعروفين ببنى الأفطس، وهى من أمهات القصائد ووسائط القلائد، فإنه ذكر فيها عدّة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جُنّةً تقيهم من وثَباته، ودبّت [عليهم] [1] الأيام بصروفها، وسقتهم المنيّة بكأس حُتوفها . وها نحن نذكرها ونزيدها تبيانا بشرح من آستبهمت أخبارُه، وخَفِيت على المُطالِع آثارُه

وأوّل القصيدة

الدهرُ يفجَعُ بعـد العَيْنِ بالأَثَرِ * فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّوَرِ
أنهاكَ أنهاكَ لا آلُوكَ مَعْـذِرَةً * عن نومةٍ بين نابِ اللَّيثِ والظُّفُرِ
فالدهرُ حربٌ وإن أبدى مُسالَمَةً * فالبيضُ والسُّمْرُ مِثْلُ البِيضِ والسُّمُرِ
ولا هَوادةَ بين الرأس تأخذه * يدُ الضِّرابِ وبين الصارمِ الذَّكَرِ
فلا تغُرَّنْكَ من دنياكَ نومتُها * فما صناعةُ عينيها سوى السَّهَرِ

(١) زيادة نراها لازمة .

ما لِلّيالِي — أقال الله عَثْرتنا * من اللّيالى وخانتها يدُ الغِيَرِ —

فى كلِّ حينٍ لها فى كلِّ جارحةٍ * منّا جِراحٌ وإن زاغت عن البصرِ؟

تَسُرُّ بالشيء لكن كى تَغُرَّ به * كالأَيْمِ[(١)] ثار إلى الجانى من الثمرِ

كم دولةٍ وَلِيتْ بالنصر خدمتَها * لم تُبْقِ منها! وسَلْ ذكراكَ من خَبَرِ

٥ هوت "بدارا" وفلّت غَرْبَ قاتله * وكان عَضْباً على الأملاك ذا أُثُرِ

"دارا" الذى ذكره هو دارا بن دارا آخر ملوك الفرس، وقاتله الإسكندر؛ وسنذكر إن شاء الله أخبارهما فى فنّ التاريخ

وٱستَرْجعت من بنى ساسانَ ما وَهَبت * ولم تَدَعْ لبنى يونانَ من أَثَرِ

بنو ساسان هم الفرس الأُخَر ولهم دولة مشهورة ٱنقرضت فى الإسلام . وبنو يونان (٩٠)

١٠ أيضا من الملوك أرباب الدول المشهورة ، ومن مشاهير ملوكهم الإسكندر ٱبن فيلِبُّس . وسترد إن شاء الله أخبارهم

وأتْبَعَتْ أُختَها طَسْماً ، وعاد على * عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ

أخت طسم جَدِيس، وهما أبناء عمّ كثر نسلهما وهم العرب العاربة، وسنذكر أخبارهما إن شاء الله فى وقائع العرب . وعاد هم قوم هود . وجرهم هو ٱبن عوف

١٥ ٱبن زُهَير بن أنس بن الهَمَيْسَع بن حِمْيَر بن سَبأ الأكبر بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، وقيل : إن العمالقة من ولد جرهم . أراد بذكرهم أنهم كلّهم أبادهم الموت

وما أقالت ذوى الهيئاتِ من يَمَنٍ * ولا أجارتْ ذوى الغاياتِ من مُضَرِ

اليمن كلّهم بٱتفاق العلماء بالأنساب من ولد قحطان، ومنهم ملوك نذكرهم إن شاء الله فى التاريخ . ومُضَر بن نِزار بن مَعَدّ بن عَدْنان، وقد تقدم ذكرهم فى الأنساب

٢٠ ومزّقت سَبأً فى كلِّ قاصيةٍ * فما ٱلتقى رائحٌ منهم بمُبْتَكِرِ

(١) الأيم : الأفعى .

سبأ الذى أشار إليه هو سبأ بن يَشْجُب بن يعرُب بن قحطان، وآسمه عبد شمس، وإنما قيـل فيه سـبأ لأنه أوّل من أدخل بلادَ اليمن السَّبْى . وكان له عشرة أولاد سكن الشأم منهـم أربعة وهم لَخْم وغَسّان وجُذَام وعاملة، وسكن اليمن منهم ستّة: كِنْدة ومَذْحِج والأزْد وأنمار، [1] وقد ذكر الله عز وجل تمزيقهم بقوله : (وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)، وسنذكر أخبار سيل العَرِم وسدّ مأرب

وأنفذتْ فى كُلَيْبٍ حكمَها ورَمَتْ * مُهَلْهِـلًا بين سمع الأرض والبصرِ

كُلَيب الذى ذكر هو كليب بن ربيعة بن الحارث الذى ضرب به المثل فقيل: "أعزّ من كُلَيْب وائل" . وأشار آبن عبدون فى هذا البيت إلى ما كان من قتـل جسّاس بن مُرّة كليبا وما وقع بين بكر وتَغْلِب من الحروب التى نشرحها إن شاء الله فى وقائع العـرب . وقوله " ورمت مهلهـلا بين سمع الأرض والبصر " كأنه أراد ما حكى أنه قتل فى موضع لم يطّلع عليه أحد، وهو مثل، يقال: فعل كذا وكذا بين سمع الأرض وبصرها إذا فعله خاليا

ولم تَرُدّ على الضِّلّيل صحّتَـه * ولا ثَنَت أَسَدًا عن ربِّها حُجُرِ

الضلّيل الذى أشار إليه هو آمرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمرو، والحارث هو آكل المُرَار، وسُمّى آمرؤ القيس بالضِّلّيل لأنه ترك ملكه وتوجّه إلى قيصر يطلب منه جيشا يأخذ به ثأر أبيه من بنى أسد . وإشارته إلى الصحة لقول آمرئ القيس فى قصيدته السينّية

---

(١) لم يذكر فى الأصل سـوى هؤلاء الأربعة وترك بياضا بمقدار مايسع الاسمين الباقيين، والأصل منقول عن شرح هـذه القصيدة لأن يدرون بالحرف الواحد ولم يذكرهما هو أيضا . وفى كتاب المعارف لابن قتيبة أن أولاد سبأ بن يشجب هم حمير وكهلان وعمرو والأشعر وأنمار وعاملة ومرّ . ولعلّ شارح هذه القصيدة أراد بهؤلاء العشرة فروعه مطلقا وهذا لا يمكننا تعيين الاثنين الباقيين بالضبط .

وبُدِّلْتُ قُرْحًا داميًا بعد صحّةٍ * لعلّ منايانا تحوّلن أَبْؤُسا

لقد طمَح الطمّاحُ من بُعدِ أرضه * ليُلْبِسنى من دائه ما تلبّسا

والطمّاح رجل من بنى أسد أرسله قيصر إلى آمرئ القيس بحُلّة مسمومة، فلما لبِسها تقطّع ومات بأنقِرة. وإشارته إلى أسد لأن بنى أسد كانوا قتلوا حُجْر بن الحارث يوم ما قِط

ودوّخت آلَ ذُبْيانٍ و إخوتَهم * عَبْسًا، وعضّت بنى بَدْرٍ على النّهَرِ

أشار إلى ما كان بين عبس وذبيان من الحروب بسبب داحِس والغَبْراء. وسيرد ذلك فى وقائع العرب إن شاء الله تعالى

وألحقت بعَدِىٍّ بالعراق على * يد آبنه أحمَرَ العينين والشعَرِ

أراد عدىّ بن زيد بن أيوب بن زيد مَناة بن تميم الشاعر. وأحمر العينين والشعر هو النُّعْمان بن المُنْذِر، وكان عدىّ هذا ترجمانا لأبْرَوِيز وكاتبه بالعربيّة، فلما مات قابوس بن المنذر تلطّف عدىّ وتحيّل على أبرويز حتى ولّى النعمان إمْرة العرب وقدّمه على إخوته وكان أدمّهم، ثم آتهمه النعمان أنه وشى به، فآحتال عليه حتى ظفر به وحبسه ثم قتله بالعراق، فتلطّف آبنه زيد بن عدىّ ونوصّل حتى خدَم أبرويز على عادة أبيه، وأوقع بين أبرويز والنعمان حتى قتله أبرويز، على ما يرد إن شاء الله تعالى فى التاريخ. والله أعلم

وأشرفت بخُبَيْبٍ فوق فارعةٍ * وألصقت طَلْحَةَ الفيّاضَ بالعَفَرِ



أشار إلى خبيب بن عدىّ الأنصارىّ وهو بَدْرِىّ وأُسِر فى السريّة التى خرج فيها مَرْثَد بن أبى مَرْثَد وآنطلق به المشركون إلى مكّة وآشتراه حجر بن إهاب التميمىّ حليف بنى نَوْفل لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقتله بأبيه، وكان خبيب قتل الحارث

أبا عقبة يوم بَدْر، فصلبه عقبة على خشبة بالتَّنْعيم وقتله . وطلحة الفيّاض هو طلحة آبن عبد الله التيمى ّ أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله وسلم، قتل يوم الجمَل، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى

ومزّقت جعفرًا بالبِيض، وآختاست … من غيـلِه حَمْزَةَ الظلّامَ للجُزُرِ

٥ جعفر الذى ذكره هو جعفر بن أبى طالب أخو علىّ رضى الله عنهما قُتل فى غَزْوة مُؤتة . وحمزة هو آبن عبد المطّلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل يوم أُحُد قتله وحشىّ غلام جُبَيْر بن مُطْعِم؛ وجعله ظَلّاما للجزر وصفه بالكرم

وبلّغَتْ يَزْدَجِرْدَ الصِّينَ وآختزلتْ … عنه سوى الفُرْسِ جمعَ التُّرك والخَزَرِ

ولم تَرُدّ مواضى رُسْـتَم وَقَنَا … ذى حاجبٍ عنه سَعْدًا فى آبنة الغِيَرِ

١٠ يزدجرد الذى ذكر هو آبن شهريار آخر الملوك الساسانيّة؛ و رُسْتَم هو الأرمينىّ وهو الذى قاتل سعد بن أبى وَقّاص وقُتِل يوم القادسيّة، على ما يأتى شرح ذلك فى مواضعه إن شاء الله تعالى

وخَضّبت شَيْبَ عُثمانٍ دَمًا، وخَطَتْ … إلى الزُّبيْرِ، ولم تستحْيِ من عُمَـرِ

أشار فى هذا البيت إلى مقتل عمر بن الخطّاب وعثمان آبن عفّان والزبير بن العَوّام

١٥ رضى الله عنهم . وسترد إن شاء الله أخبارهم

وما رَعَتْ لأبى اليَقْظانِ صُحْبَتَه … ولم تُزَوِّدْه إلّا الضَّيْحَ فى الغُمَرِ

أبو اليقظان هو عمّار بن ياسر العَنْسىّ قُتـل بصفّين وكان مع علىّ؛ وعنـه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَقْتل عَمّارًا الفئةُ الباغية »؛ ولمـا قُتل كانت الراية يومئذ بيـده فعطِش فدعا بشربة من المـاء فأُتى بضَيْحة[1] فشربها ثم قال : أخبرنى

٢٠ (١) الضيحة : الشربة من الضياح أو الضيح بالفتح فيهما : اللبن الرقيق الممزوج .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللبن آخر شربة أشربها فى الدنيا، فقُتل يومئذ رضى الله عنه

وأجزرتْ سيفَ أشقاها أبا حَسَنٍ * وأمْكَنَتْ من حُسَيْنٍ رَاحَتَىْ شَمِرِ

أشقاها هو عبد الرحمن بن مُلْجَم المُرادىّ قاتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لقوله صلى الله عليه وسلم : "ياعلىّ، أشقاها الّذى يخضِب هٰذه من هٰذه" وأشار إلى لحية علىّ ورأسه . والحسين الذى ذكره هو الحسين بن علىّ . وشَمِر هو شمر آبن ذى الجَوْشن وهو الذى أرسله عُبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد يحرّضه على قتل الحسين؛ وقيل : إن شمرا لم يباشر قتلَ الحسين، والذى قتله سِنَان بن أبى أنس النخَعىّ، وشمر فهو المُجْهز والمحرِّض على قتله فلذلك ذكره

ولَيْتها إذ فَدَتْ عَمْـرًا بخارجةٍ * فدت عليًّا بمن شاءت من البَشَرِ

عمرو الذى أشار إليه هو عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سَهْم آبن عمرو بن هُصَيْص بن كعب، أمير مصر لمعاوية بن أبى سفيان. وخارجةُ رجل من سهم بن عمرو؛ وكان من خبره أن الخوارج كانت قد آجتمعت على قتل علىّ ومعاوية وعمرو، فكان الذى آنتَدَب لقتل عمرو زَادَوَيْه مولى بنى العنبر، ورَصَده إلى ليلة الميعاد التى آتّفقوا على الفتك بهم فيها، فآشتكى عمرو تلك الليلة من بطنه ولم يخرج للصلاة وآستخلف خارجةَ ليصلّى بالناس، فلما قام فى المحراب وثب عليه زادويه وهو يظنّ أنه عمرو بن العاص فقتله؛ وأُخِذ زادويه وأُدخِل على عمرو، فسمع الناس يخاطبونه بالإمرة فقال : أَوَ ما قتلتُ عمرا؟ قيل له : [لا](١) إنما قتلت خارجة، فقال : "أردتُ عمرًا وأراد الله خارجة" فلذلك قال : "وليتها إذ فدت عمرا بخارجة"

(١) زيادة من شرح القصيدة العبدونية لابن بدرون، طبع ليدن سنة ١٨٤٦ م .

وفى ٱبن هندٍ وفى ٱبن المصطفى حَسَنٍ * أتتْ بمُعْضِــلة الألبـاب والفِكَرِ
فبعضُنا قائل : ما ٱغتـاله أحــدٌ * وبعضنا ساكتٌ لم يُؤْتِ من حَصَرِ

ٱبن هند الذى أشار إليه هو مُعاوية بن أبى سُفْيان، أراد ما كان بينه وبين الحسن ٱبن علىّ فى أمر الخلافة . وأراد بالبيت الثانى ما وقع الٱختلاف فيه من أن الحسن مات مسموما وأن معاوية وعد زوجة الحسن جَعْـدَة بنت قَيْس الكِنْدىّ بمـائة ألف درهم ويزوّجها لٱبنه يزيد إن قتلت الحسن، ففعلت وسمّته؛ ولمـا مات الحسن وَفَى لهـا بالمـال وقال : حبُّ حياة يزيد منعنى تزويجَــه منك؛ وقيل مات الحسن حَتْفَ أنفه . والله أعلم

وعمّمت بالرّدى فَوْدَىْ أبى أَنَس * ولم تَرُدّ الرّدى عنــه قَنَا زُفَـر

أبو أنس هو الضحّاك بن قيس الفِهْرىّ . يشــير إلى ما وقع بينه وبين مَرْوان ٱبن الحَكَم بمَرْج راهط، وكان الضحّاك يدعو لٱبن الزُّبير فقُتِل الضحّاك، على ما نذكره إنّ شاء الله فى أخبار مروان؛ وكان زفر بن الحارث الكلابىّ مع الضحاك ففرّ عنه

وأرْدَتِ ٱبنَ زِيادٍ بالحسين فلم * يَبُؤْ بشِسْعٍ له قد طار أو ظُفُـرِ

أشار إلى عُبيد الله بن زياد بن أبيه عامل يزيد بن معاوية على العراق، وهو الذى جهّز عمر بن سعد لحرب الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . وقوله "يبؤ بشسع له" أخذه من قول مُهَلْهِل حين قتل بُجَير بن الحارث وقال : بُؤْ بشِسْعِ نعل كُلَيْب

وأنزلتْ مُصْعَبًا من رأس شاهقةٍ * كانت به مُهْجَةُ المختـار فى وَزَرِ[1]

أشار إلى مصعب بن الزبير بن العوّام وقتله؛ والشاهقة هى الكوفة جعلها شاهقة لمَنَعتها وكثرة رجالهـا، وأراد ما كان بين مصعب وعبد الملك بن مروان من الحرب

(١) الوزر : الملجأ والمعتصم .

التى قُتِـل فيها مصعب . والمختار الذى ذكره هو المختار بن أبى عُبَيد بن مسعود آبن عمرو الثقفىّ، أشار إلى ما كان بينه وبين مصعب من الحرب وقتـل المختار، وسنورد كلّ هذه الوقائع إن شاء الله فى التاريخ .

ولم تُرَاقِبْ مكانَ آبنِ الزُّبَيْرِ ولا * راعتْ عِياذَتَهُ بالبيت والحَجَرِ

أراد عبدَ الله بن الزبير، وكان يسمَّى العائذ لأنه كان يقول : أنا العائذ بالبيت، وقتله الحجّاج بن يوسف الثقفىّ لمـا وجّهه عبد الملك لحربه .

ولم تدعْ لأبى الذِّبّان قاضيَهُ * ليس اللَّطِيمُ لها عمْرُو بمُنتَصِر

أبو الذبّان هو عبد الملك بن مروان بن الحكم، سُمّى بذلك لبَخَره. وقوله "قاضيه" لأنه كان مظفَّرا على أعدائه فإنه غلَب من كان يناوئه فى سلطانه مثـل عبد الله ومصعب آبنى الزبير، وعمرو بن سعيد، وعبد الرحمن بن الأشعث، ما منهم إلا من قُتِل وحَكَمَ فيه قاضيه وهو سيفه، ولم يُغْنِ ذلك عنه لمـا أتته منيّته. وأما اللطيم فهو عمرو بن سـعيد الأشدق، سُمّى بذلك لمَيَلٍ كان فى فمه فقيـل له من أجله : لطيم الشيطان، وقتله عبد الملك بن مروان .

وأظفَرتْ بالوليدِ بن اليزيدِ ولم * تُبْقِ الخلافةَ بين الكأس والوَتَرِ

الوليد هذا هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهو الذى يقال له : الجبَّار العنيد، أشار إلى ظَفَر يزيد بن الوليد بن عبد الملك به وقتله . و [قوله] (1) ولم تبق الخلافة بين الكأس والوتر، أراد بذلك ما كان عليه الوليد من الاشتهار باللهو واللعب

ولم تُعِدْ قُضُبَ السفّاح نابيـةً * عن رأس مَرْوانَ أو أشياعه الفُجُرِ

(1) من عادته أن يذكر هذه الكلمة فلعلها سقطت من الناسخ .

السفّاح هو أبو العبّاس عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن عبّاس، وهو أوّل خلفاء الدولة العبّاسيّة، يشير إلى ظفره بمروان بن محمد وقتلِه، وآنقراضِ دولة بنى أُميّة وقتلهم على يديه

وأسبلتْ عَبَراتٍ للعيون على * دمٍ بفَخٍّ لآل المصطفى هَدَرِ

أشار فى هــذا البيت إلى ذكر من قتل بفخّ وهم الحســين بن علىّ بن حسن بن حسن بن علىّ، والحسن بن محمد بن الحسن بن الحسن بن علىّ، وعبد الله بن إسحاق آبن إبراهيم بن الحسن بن الحسن، على ما نذكره فى التاريخ إن شاء الله تعالى

وأشرقتْ جعفرًا والفضــلُ يَنْظُره * والشيخُ يحيى بريقِ الصارمِ الذَّكَرِ

أشار فى هــذا البيت إلى قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك ونكبةِ البرامكة فى أيّام الرشيد

وأخفرتْ فى الأمينِ العهدَ، وآنتدبت[(١)] * لجعفرٍ بآبنــه والأعبُــدِ الغُــدُرِ

الأمين هو محمد بن هارون الرشيد، يشير إلى ما كان بينه وبين أخيه المأمون وإلى العهد الذى كان الرشيد كتبه بينهما . وجعفر الذى أشار إليه هاهنا هو المتوكّل آبن المعتصم، أراد ما كان من قتــل باغر التركىّ له بمواطأةٍ من آبنه المنتصر، على ما نورده فى أخباره

ورَوّعتْ كلَّ مأمونٍ ومُؤتمنٍ * وأسلمت كلَّ منصورٍ ومُنْتَصِرِ

المأمون هو عبد الله بن الرشيد وهو أوّل من لُقّب بالمأمون، ولُقّب به بعد ذلك ولد من أولاد المعتمد بن عبّاد ويحيى بن ذى النون صاحب طُلَيْطُلَة . والمؤتمن فأوّل من لقّب به مَرْوان بن الحَكَم على قول من يقول إنه كان لبنى أُميّــة ألقاب، ثم لُقّب به القاسم بن الرشــيد . وكان الرشيد لمــا كتب العهد بين الأمين والمأمون

(١) كذا فى شرح القصيدة العبدونية لآبن بدرون، وفى الأصل : «وانتبدت» .

جعل آبنه المؤتمن بعد المأمون ، وجعل أمر المؤتمن إلى أخيه المأمون إذا أفضت الخلافة إليه إن شاء أمضاه و إن شاء خلعه ، فلمّا أفضت الخلافة إلى المأمون أزال المؤتمن فارتاع لذلك . وتلقّب بالمؤتمن محمد بن ياقوت مولى المعتضد صاحب فارس ، وتلقّب به سلامة الطولونىّ ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ثم تَسَمّى بالمنصور . وأما المنصور فأوّل من لُقّب به هشام بن عبد الملك بن مروان على تلك الرواية ، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله بن علىّ العبّاسىّ ، ثم أبو طاهر إسماعيل بن القائم بن المهدىّ صاحب أفريقية ، ثم محمد بن أبى عامر بالأندلس ، وتلقّب به آبن زيرى الصِّنْهاجىّ ، وتلقّب به سابور صاحب بَطَلْيُوس ، وعبد الله آبن محمد بن مسلمة التُّجِيبىّ ، وحفيده يحيى بن محمد بن عبد الله ، وعبد العزيز آبن أبى عامر ، ثم تلقّب به جماعة من الملوك بعد نظم هذه المرثية . وأما المنتصر فهو محمد بن المتوكل ؛ وممن تلقّب بالمنتصر مِدْرار بن اليَسَع صاحب سِجِلْمَاسَة . وكلّ هؤلاء أبادهم الموت

وأعثرتْ آلَ عبّاسٍ – لَعًا لَهُمُ – بذيْل زَبّاء[1] من بِيضٍ ومن سُمُرِ

أشار فى هذا البيت إلى ما كان من تغلّب الأتراك والدَّيْلم على خلفاء الدولة العبّاسيّة حتى لم يبق لهم إلا آسم الخلافة ، على ما سيرد فى أخبارهم . وقوله : بذيل زبّاء من بيض ومن سمر تنبيها على كثرة عدد المتغلّبين على الأمر وقدرتهم على السلاح

ولا وَفَتْ بعهود المُسْتعينِ ولا * بما تأكَّدَ للمعتزّ من مِرَرِ

المستعين هو أحمد بن المعتصم العبّاسىّ ، أشار إلى ما كان من قيام المعتزّ على المستعين وهرب المستعين من سَامُرّا إلى بغداد . والمعتزّ هو أبو عبد الله محمد بن المتوكّل ، وسترد أخبارهم إن شاء الله تعالى

وأَوثقتْ فى عُراها كلَّ مُعْتَمِدٍ * وأشرقتْ بقَذَاها كلَّ مُقتدِرِ

(١) الزباء : الداهية الشديدة .

المعتمد هو أبو العبّاس بن المتوكل، وهو أوّل من لُقّب بهذا اللقب، وتلقّب به محمد ٱبن عبّاد بإشبيلِيَةَ . والمقتدر هو أبو الفضل جعفر بن المُعْتَضِد، وهو أوّل من لُقِّب بالمقتدر، ثم لُقّب به أحمد بن سليمان بن هود الجُذاميّ بسَرَقُسْطَة . ثم أخذ ٱبن عبدون فى رثاء بنى الأَفْطس فقال

بنى المُظَفَّـرِ والأيّامُ ما بَرِحَتْ * مَراحِلاً والورى منها على سَـفَرِ

سُحْقًـا ليومكمُ يومًا ولا حَمَلَتْ * بمثـله ليـلةٌ فى مُقْبِـلِ العُمُرِ

مَنْ للأَسِرَّةِ أو مَن للأَعِنّـة أو * مَن للأَسِـنَّة يُهْدِيها إلى الثُّغَـرِ

مَنْ للبَراعةِ أو مَن لليَراعةِ أو * مَنْ للسماحـة أو للنفع والضَّرَرِ

أو رَفْعِ كارثةٍ أو دفـعِ آزفةٍ * أو قَمعِ حادثةٍ تَعْيَا على القــدر

من للظُّبَى[(١)] وعَوَالِى الخَطِّ قد عُقِدت * أطرافُ أَلْسُنِها بالعِىِّ والحَصَرِ

وطُوِّقَتْ بالثنايا[(٢)] السُّودِ بِيضُهُـمُ * أَعْجِبْ بذاك وما منها سوى ذَكَرِ

وَيْحَ السماحِ وويحَ الجُودِ لو سَلِما * وحسرةَ الدينِ والدنيا على عُمَرِ!

سَقَتْ ثرى الفضلِ والعبّاسِ هاميةٌ * تُعْـزَى إليهم سَمَاحًا لا إلى المطرِ

ثلاثةٌ ما ٱرتقى النسرانِ حيث رَقُوا[(٣)] * وكلُّ ما طار مِنْ نَسْرٍ ولم يَطِرِ

ثلاثةٌ ما رأى العَصْرانِ مثلَهُـمُ * فضلًا ولو عُزِّزَا بالشمس والقمرِ

ومرّ من كلّ شىء فيـه أطيبُـهُ * حتى التمتّعُ بالآصالِ والبُكَرِ

مَن للجلال الذى عمّت مهابتُـهُ[(٤)] * قلوبَنا وعيونَ الأنجُمِ الزُّهُرِ

(١) كذا فى شرح ابن بدرون، وفى الأصل : "من للعدى ..." . (٢) كذا فى شرح ابن بدرون طبع ليدن سنة ١٨٤٦ وفى الأصلين : "وطرّقت بالثنايا ..." . ولعل المراد بالثنايا ما يعلو السيوف من الصدأ لإهمالها بعــد موت أصحابها . وفى هامش شرح ابن بدرون اشارة الى أنه فى نسخة أخرى "وطوقت بالمنايا السود ..." الخ . (٣) كذا فى شرح ابن بدرون، وفى الاصل : "رقا" .
(٤) فى شرح ابن بدرون : "عضّت مهابته" .

أين الإباءُ الذى أرسَوْا قَوَاعدَه * على دعائمَ من عِزٍّ ومن ظَفَرِ!
أين الوفاءُ الذى أصفَوْا مَشاربَه * فلم يَرِدْ أحدٌ منها على كَدَرِ!
كانوا رواسىَ أرضِ الله، منذ نأَوْا * عنها ٱستطارت بمن فيها ولم تَقِرِ
كانوا مصابيحها فمذ خَبَوْا غَبَرتْ * هذى الخليقةُ يالله فى سَدَرِ
كانوا شَجَا الدهرِ فاستهوتهم خُدَعٌ * منه بأحلام عادٍ فى خُطَا الخَضِرِ
مَنْ لى ولا مَن بهم إن أَطْبقتْ مِحَنٌ * ولم يكن وِرْدُها يُفْضِى إلى صَدَرِ؟
من لى ولا من بهم إن أظلمت نُوَبٌ * ولم يكن ليلُها يُفضى إلى سَحَرِ؟
مَن لى ولا مَن بهم إن عُطِّلت سُنَنٌ * وأُخفِيت ألسُنُ الأيّامِ والسِّيَرِ؟
على الفضائل إلا الصبْرَ بعدهُمُ * سلامُ مُرْتَقِبٍ للأجر (١) مُنتظِرِ
يرجو عسى، وله فى أختها طَمَعٌ * والدهرُ ذو عُقُبٍ شَتَّى وذو غِيَرِ
قرّطتُ آذانَ مَن فيها بفاضحةٍ * على الحسان (٢) حَصَى الياقُوتِ والدُّرَرِ

ومن اجود الرثاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه مراثى أبى تمّام حبيب بن أوس الطائىّ فمن ذلك ما قاله يرثى به غالب بن السعدىّ

هو الدهرُ لا يُشْوِى وهنّ المصائبُ * وأكثرُ آمالِ الرجالِ كواذبُ
فيا غالبًا، لا غالبٌ لرزيّةٍ * بل الموتُ لا شكّ الذى هو غالبُ
وقلتُ: أخى، قالوا: أخٌ من قرابة؟ * فقلت لهم: إن الشُّكُولَ أقاربُ
نسيبىَ فى رأيٍ وعزمٍ ومَنْصِبٍ (٣) * وإن باعدتنا فى الأُصول المَنَاسبُ

(١) كذا فى شرح ابن بدرون، وفى الاصل: "مرتقب للأمر ...".
(٢) كذا فى شرح ابن بدرون، وفى الأصل: "من الحسان ...".
(٣) فى ديوان أبى تمام: "ومذهب".

كأنْ لم يقل يومًا: كأنّ، فتنثنى * إلى قوله الأسماعُ وهى رواغب[1]
ولم يصدَع النادى بلفظة فيْصَلٍ * سِـنانيّـةٍ فى صَفْحتيها التجارِبُ[2]

ومنها .

مضى صاحبى وآستخلف البَثَّ والأسى * علىّ، فَلِى من ذَا وهاذاك صاحبُ
عجِبْتُ لصبرى بعده وهو ميّتٌ * وكنتُ آمرأً أبكى دمًا وهو غائبُ
على أنها الأيّام قد صِرْنَ كلُّها * عجائبَ حتّى ليس فيها عجائبُ

(٩٥)

وقال يرثى محمد بن الفضل الحِمْيَرىّ

ريبُ دهرٍ أصمّ دون العِتابِ * مُرْصَدٌ بالأوجالِ والأوصابِ
جَفّ دَرّ الدنيا فقد أصبحتْ تكـتالُ أرواحَنا بغير حسابِ
لو بدتْ سافرًا أُهينتْ ولٰكن * شَغَفَ الخَلْقَ أنّها فى النِّقابِ
إنّ ريبَ الزمان يُحْسِن أن يُهـدِى الرزايا إلى ذوى الأحسابِ
فلهٰذا يجِفّ بعد آخضرارٍ * قبلَ رَوْضِ الوِهادِ روضُ الروابى

جاء منها

ذهبتْ يا محمدُ الغُرُّ من أيـامك الواضحاتِ أىَّ ذَهابِ
عبَس اللحدُ والثرى منك وجهًا * غيرَ ما عابسٍ ولا قطّابِ
أطفأ اللحدُ والثرى لُبك المسـروجَ فى وقت ظلمة الألبابِ
وتبدّلتَ منزلًا ظاهرَ الجدْ * بِ يُسَمّى مُقَطَّعَ الأسبابِ
منزلًا مُوحِشًا وإن كان معمو * رًا بُجُلِّ الصديق والأحبابِ
يا شهابًا خَبَا لآلِ عُبَيد الله أعْزِزْ بفقد هٰذا الشهابِ

(١) كذا فى الديوان، وفى الأصل : "وهى لواعب" . (٢) فى الديوان :

ولم يصدع النادى بخطبة فيصل * سـنانيّة قد درّبتها التجارب

وقال فى الأصل : ويروى، ثم وضع تحت بعض الكلمات ما هو مذكور فى رواية الديوان .

ومنها

أنزلتْــه الأيّامُ عن ظهرها من * بعـــد إثبات رجله فى الرّكابِ
حين تمّ[1] الشباب وٱغتـدت الدنـ * ـيا إليـه مفتوحـةَ الأبوابِ
وحكى الصارمَ المُحَـلَّى سـوى أنّ * حُـلاه جـواهرُ الآدابِ
قصـدتْ نحـوَه المنيّـةُ حتّى * وهبتْ حُسـنَ وجهه للـتراب

٥

وقال يرثى إسحاق بن أبى رِبْعِىّ

أىُّ ندًى بين الثرى والجُيُوبِ[2] * وسُـؤْدُدٍ لَدْنٍ ورأىٍ صليبِ
يا بن أبى رِبْعِىٍّ ٱسـتُقْبِلَتْ * من يومك الدنيا بيومٍ عصيبِ
شَـقّ جيوبًا من أناسٍ لو ٱسـ * ـطاعوا لشقّوا ما وراء الجيوبِ
كنتَ على البعـد قريبًـا فقد * صرتَ على قربك غيرَ القريبِ
راحتْ وفودُ الأرضِ عن قبره * فارغةَ الأيدى مِلاءَ القـلوبِ
قـد عَلِمَتْ ما رُزِئَتْ، إنمـا * يُعْرَفُ فقدُ الشمس بعد المغيبِ
إذا البعيـدُ الوطنِ ٱنتـابه * حَـلَّ إلى نَهْىٍ ووادٍ خصيبِ
أَدنَتْه أيدى العِيسِ من ساحةٍ * كأنها مَسْقِط رأس الغـريبِ
أظلمت الآمالُ من بعـده * وعُرِّيت من كلّ حُسْنٍ وطِيبِ
كانت خُـدُودًا صُقِلَت بُرْهةً[3] * واليوم صارت مألَفًا للشُّحوبِ
كم حاجةٍ صارت رَكُوبًا به * ولم تكن من قبله بالركوبِ
حـلّ عِقَالَيْهـا كما أطلقَتْ * من عُقَد المُزْنة ريحُ الجَنُوبِ
إذا تيَمَّمْـناه فى مطلَبٍ * كان قَلِيبًا ورِشَاءَ القَلِيبِ

١٠

١٥

(٩٦)

(١) فى الديوان: سامى الشباب. (٢) كذا فى الأصل، وفى بعض نسخ الديوان: "الجُنُوب" وفى بعض آخر: "الجَبُوب" والجبوب: الأرض الغليظة (٣) كذا فى الديوان، وفى الأصل "صقلت مرة".

٢٠

ونعمـــة منـــه تسربَلْتُهـا * كأنّهـا طُـــرّةُ بُرْدٍ قَشِيبِ
من اللّواتى إن وَنَى شاكرٌ * قامت لُمسْدِيها مَقَامَ الخَطِيبِ
متى تُنَـخْ ترحــلْ بتفضـيله * أو غاب يومًا حضرت بالمغيبِ
فما لنا اليـــومَ ولا للعُـــلا * من بعده غيرُ الأَسَى والنحيبِ

وقال يَرْثِى أحمد بن هارون القرشىّ ٥

دأبُ عينِى البكاءُ، والحزن دابى * فاتركينى — وُقِيتِ مابى — لِمَابِى
سأُجَرِّى بقاءَ أيّامِ عُمْـــرِى * بين بَثِّى وعَبْرتى وآكتئابى
فيك يا أحمد بنَ هارون خَصَّت * ثم عمّت رَزِيّتِى ومُصَـــابى
فجعتنى الأيّامُ فى الصادق الطـــــقِ فَتَى المَكْرُمات والآدابِ
بخليـلٍ دون الأخلاء [لا][1] بل * صاحبِى المصطفى على أصحابى ١٠
أفلمّـا تَسَرْبَلَ المجـدَ وآجتا * ب من الحمـد أيّمـا مُجتابِ،
وتراءته أعـــينُ الناظـــريه * قمـرًا باهـرًا ورِئْبَالَ غابِ،
وعلا عارضَـيْهِ ماءُ النَدَى الجا * رى وماءُ الحَجَا وماءُ الشبابِ،
أرسلتْ نحـــوَه المنيّـــةُ عيناً * قطّعت منـــه أوثقَ الأسبابِ؟

وقال يرثى أبا الصقر ١٥

لو صُحّح الدمعُ لى أو ناصحَ الـكمدُ * لقلّما صحِـبانى الرُّوحُ والجســـدُ
خانَ الصفاءَ أخٌ خان الزمانُ له * أخًا فـلم يتخـوّن جسمَه الكمدُ
تَساقُطُ الدمعِ أدنى ما بُليتُ به * لِلْوجـــد إذ لم تَساقَطْ مُهْجةٌ ويدُ
فوالذى رَتَكت[2] تَطْوِى الفِجاجَ له * سفائنُ البرّ فى خدّ الثرى تَخِدُ
لأَنْفَدَنّ أسًى إن لم أمُتْ أسَفًا * وينفَدُ العُمر بى أو ينفَدَ الأمدُ ٢٠

---

(١) زيادة عن الديوان . (٢) رتك من باب ضرب : عدا فى مقاربة خَطْو .

عنّى إليك فإنّى عنك فى شُغُلٍ * لى منه يومٌ سيُبْلِى مهجتى وغدُ
وإنّ بُجْرِيَّةً نابت جَأَرْتُ لها(١) * إلى ذُرَى جَلَدى فاستُؤهل الجَلَدُ
هى النوائب فاشجَىْ أوفَعِى عظةً * فإنها شجر(٢) أثمارها رَشَدُ
هُبّى تَرَىْ قَلَقًا من تحته أَرَقٌ * يحدوهما كَمَدٌ يحنو له الجسد(٣)
صَمّاء سم العِدا فى جنبها ضَرَبٌ * وشُرْب كأس الردى فى ظِلّها شَهَدُ
هنالك أم النُّهى لم تُودِ من حَزَنٍ * ولم تَجُدْ لبنى الدنيا بما تجِدُ
لو يعلمُ الناس علمى بالزمانِ وما * عاثت يداه لما ربّوْا ولا وَلدوا
لا يُبعد اللهُ ماجدًا أقام به * شخصُ الحجا وسقاه الواحدُ الصَّمَدُ
ياصاحبَ القبر، دعوى غيرِ مُتَّئِبٍ(٤) * إن قال: أودَى الندى والبدرُ والأسد
بات الثرى بأخى جَذْلانَ مُبتهجًا * وبِتُّ يحكم فى أجفانىَ السَّهَد
لَهْفِى عليك وما لهفى بمُجْديةٍ * ما لم يَزُرْك بنفسى حَرُّ ما أجد
أمسى أبو الصقر يعفُو التربُ أحسنَه * دُونِى ودَلْوُ الرَّدى فى مائه يَرِد!
ويلٌ لأمك، أَقْصِرْ إنه حَدَثٌ * لم يعتقد مثلَه قلب ولا خَلَد(٥)
عاق الزمانُ شقيقَ الجُود(٦) لم يَقِهِ * أهلٌ ولم يَفْدِه مالٌ ولا ولدُ
حين ٱرتوى الماءَ وٱفترّت شبيبتُه * عن مَضْحَك للعالى ثَغْرُه بَرَدُ
وقيل: أحمدُها، بل قيل: أمجدُها * بل قيل: أَنْجَدُها إن فرّت النُّجُد
رؤدُ الشباب كنَصْل السيف لا جَعَدٌ * فى راحتيه ولا فى عُوده أَوَدُ
سقى الحبيس ومحبوسًا ببرزخه * من السُّمِىّ كغيث الوَدْق يطّرد

(١) فى الديوان: "وإن بجيريّةٌ" بالتصغير، والبجريّة: الداهية.

(٢) فى الديوان: "فإنها فُرَض": جمع فرضة وهى موضع الآستقاء.

(٣) فى الديوان: "يعنو له الجسد". (٤) متئب: مستحٍ أو منخذل.

(٥) كذا فى الديوان "خلد" وفى الأصل: "جلد". (٦) فى الديوان: "رضيع الجود".

بحيث حــلَّ أبو صــقر فودَّعه * صـفوُ الحياة ومن لذَّاتها الرَّغَد
بحيث حل فقيدُ المجــد مغتربًا * ومُــورثًا حَسَراتٍ ليس تُفْتَقَــدُ

وقال يرثى عُمَيْرَ بن الوليد

أعيدى النَّـوحَ مُعْوِلَةً أعيدى * وزيدى فى بكائك ثم زيدى
وقُــومى حَاسِرًا فى حاسِراتٍ * خَوَامِشَ للنُّحــور وللخُدود
هو الخطبُ الذى ٱبتدع الرَّزَايا * وقال لأعين الثَّقَلين جودى
ألا رُزِئَتْ خُرَاسانٌ فتاها * غداةَ ثَوَى عُمَــيْرُ بن الوليــد
ألا رُزِئتْ بمسئول مُنيــلٍ * ألا رُزئت بمِتْــلاف مُفيــد
ألا إنّ النــدى والجودَ حَلَّا * بحيث حَلَلْتَ من حُفَرِ الصَّعيد
بنفسى أنت من ملكٍ رمتْه * منيّتُه بسهــمِ رَدًى سَــديدِ
تجلَّتْ غَمْــرةُ الهيجاءِ عنــه * خَضِيبَ الوجه من دمه الجَسِيد
فيابحرَ المَنُــون ذهبتَ منــه * ببحر الجُــود فى السـنة الصَّلُود
ويا أســد المنون فَرَسْتَ منه * غداةَ فرسته أسـدَ الأســود
أبِالبطل النَّجِيد فتكتَ منه؟[1] * نعم، وبقاتل البَطَلِ النَّجيــد
تراءى للطِّعان وقــد تراءتْ * وجوهُ الموت من حُمْــرٍ وسُودِ
فيالكِ وَقْعــةً جَلَلًا أعادتْ * أَسًى وصَــبابةً جَلَدَ الجليــدِ
ويالكِ ساعةً أهدتْ غَليــلًا * الى أكبادنا أبدَ الأَبيــدِ
ألا أبلــغْ مَقَــالِتيَ الإمامَ الــ * ــخليفةَ والأمينَ بنَ الرشــيدِ
بأن أميرَنا لم يَأْلُ عــدلًا * ونُصْحًا فى الرعايا والجنــود
أفاض نوالَ راحــتِه عليهم * وسامح بالطَّريف وبالتَّليــد

(١) فى الديوان: فتكت منّا .

وأضحى دونهم للموت حتّى * سقاه الموتُ من مَقِرٍ هَبِيدِ (١)
وما ظَفِروا به حتى قَراهم * قشاعِمَ أَنْسُرٍ وضِباعَ بِيدِ
بطعنٍ فى نحورهمُ رَشيقٍ * وضربٍ فى رءوسهمُ عَتيدِ
فيا يومَ الثلاثاء اصْطَبَحْنا * غداةً منك هائلةَ الوُرود
ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا * بفقدٍ فيك للسَّنَد العَميد
وكم أسخنتَ فينا من عيونٍ * وكم أعثرتَ فينا من جُدودِ
فما زُجِرتْ طيورُك عن سَنيحٍ * ولا طلعتْ نجومُك بالسُّعود
ألا يا أيها الملكُ المُرَدَّى * رداءَ الموت فى جَدَثٍ جديد
حضرتُ فِناءَ بابك وآعترانى * شَجًى بين المُخَنَّق والوَريد
رأيت به مطايا مُهْمَلاتٍ * وأفراسًا صَوافِنَ بالوَصيد
فكنتَ عَتادَ إما فكِّ عانٍ * وإمّا قتلِ طاغيةٍ عَنُود
رأيتُ مؤمِّليك عَدَتْ عليهم * عوادٍ صَعَّدتْهم فى كَئُود
وأضحتْ عند غيرك فى هبوطٍ * حظوظٌ كُنَّ عندك فى صُعود
وأصبحت الوفودُ إليك وَقْفًا * على أن لا مُفادَ لمستفيد
فكلُّهُمُ أعدّ اليأسَ وقفًا * عليك ونصَّ راحلةَ القعود
لقد سخِنت عيونُ الجود لمّا * ثَوَيتَ وأُقْصِدت غُرَرُ القصيد

وقال يرثى محمد بن حُمَيد الطوسىّ

كذا فليَجِلَّ الخطبُ وليَفْدَحِ الأمرُ * فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذرُ
تُوُفِّيت الآمالُ بعد محمدٍ * وأصبح فى شُغْلٍ عن السفَر السَّفْرُ
وما كان إلا مالَ من قلّ مالُه * وذُخْرًا لمن أمسى وليس له ذخرُ

(١) المقر: السمّ أو الصبر أو شبهه، والهبيد: الحنظل.

وما كان يدرى المجتدى جودَ كَفِّه * إذا ما ٱستهلّت أنه خُـــلِق العسرُ
ألا فى سبيل الله مَنْ عُطِّلت له * فِجاجُ سبيـــلِ الله وٱنثغر الثغـــرُ (١)
فتًى كلّمـا فاضت عيونُ قبيلةٍ * دمًا ضحكت عنه الأحاديثُ والذكرُ
[فتًى دهرُه شـطرانِ فيما ينوبُه * ففى بأسه شطرٌ وفى جوده شطرُ] (٢)
فتًى مات بين الضرب والطعن ميتةً * تقـوم مقـام النصر إذ فاته النصرُ ٥
وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفه * من السَّلّ (٣) وٱعتلّتْ عليه القَنَا السُّمْرُ
وقد كان فَوْتُ الموت سهلًا فردّه * عليه الحِفاظُ المُرّ والخُـلُق الوَعْرُ
ونفسٌ تَعَافُ العارَ حتى كأنّه * هو الكفر يوم الرَّوع أو دونه الكفرُ
فأثبت فى مستَنْقَع الموتِ رجـلَه * وقال لها : من تحت أخمصك الحشرُ
غدا غُدوةً والحمـدُ نَسْج ردائه * فلم ينصرف إلا وأ كفانُه الأجرُ ١٠
تردَّى ثيابَ الموت حُمْرًا فمـا أتى * لها الليل إلا وهى من سندسٍ خُضْرُ
كأنّ بنى نَبْهـان يوم وفاته * نجومُ سماءٍ خرّ من بينها البدرُ
يُعَزّون عن ثاوٍ تُعَزّى به العُلا * ويبكى عليه الجودُ والبأسُ والشعرُ
وأنّى لهم صـبرٌ عليـه وقد مشى * إلى الموت حتى ٱستُشْهِدا هو والصبر!
فتًى كان عَذْبَ الرُّوح لا عن غضاضةٍ * ولكنّ كِبْرًا أن يكون له كِبْر (٤) ١٥
فتًى سـلبته الخيل وهو حِمًى لهـا * وبزّته نارُ الحرب وهو لهـا جمـرُ
وقد كانت البِيضُ المآثير فى الوَغَى * بواترَ فهى الآن من بعـده بُتْرُ
أمن بعـد طىّ الحادثات محمّـدًا * يكون لأثواب العُلا أبدًا نشرُ!
[إذا شجرات العرف جُذّت أصولُها * ففى أىّ فرعٍ يوجد الورقُ النَّضرُ!] (٢)

(١) لم نجده فى القاموس ولا فى اللسان . (٢) زيادة من الديوان . (٣) فى الديوان : ٢٠
"من الضرب" . (٤) رواية الديوان : فتًى كان عذب الروح لا من غضاضة * ولكنّ كبرا أن يقال به كِبْر

لئن أبغض الدهرُ الخؤونُ لفقده * لَعَهْدِى به ممن يُحَبّ له الدهرُ
لئن غدرتْ فى الرَّوع أيّامُه به * لَمَا زالت الأيام شيمتُها الغدرُ
لئن أُلْبِست فيه المصيبةَ طيءٌ * لَمَا عُرِّيت منها تميمٌ ولا بَكْرُ
كذلك ما ننفكّ نفقد هالكًا * يشاركنا فى فقده البدو والحَضْرُ
٥ سقى الغيثُ غيثًا وارَتِ الأرضُ شخصَه * وإن لم يكن فيها سحابٌ ولا قَطْرُ
وكيف آحتمالى للسحاب صنيعةً * بإسقائها قبرًا وفى لحده البحرُ
ثَوَى فى الثَّرَى من كان يحيا به الثرى * ويغمُر صَرْفَ الدهر نائلُه الغَمْرُ
مضى طاهرَ الأثواب لم تبقَ روضةٌ * غداة ثَوَى إلا آشتهت أنّها قبرُ
عليك سلام الله وقفًا فإنّنى * رأيت الكريم الحُرَّ ليس له عمرُ

١٠ وقال يرثى إدريس بن بدر السامىّ

دموعٌ أجابت داعِىَ الحزنِ هُمَّعُ * تَوَصَّلُ منّا عن قلوبٍ تَقَطَّعُ
عفاءٌ على الدنيا طويلٌ فإنّها * تَفَرّقُ من حيث آبتدَتْ تَتَجمّعُ
تبدّلت الأشياءُ حتى لخلتُها * ستَثْنِى غروبَ الشمس من حيث تطلُعُ
لها صيحةٌ فى كل رُوحٍ ومهجةٍ * وليست لشىء ماخلا القلبَ تُسْمِعُ
١٥ أإدريسُ ضاع المجدُ بعدك كلُّه * ورأىُ الذى يرجوه بعدك أضيَعُ
وغُودِرَ وجهُ العُرْف أسودَ بعدما * يُرَى وهو كالبِكْر الكَعَاب تَصَنَّعُ
وأصبحت الأحزانُ لا لمبرّة * تُسلِّم شزْرًا والمعالى تُوَدَّعُ
وضلّ بك المرتادُ من حيث يهتدى * وضرّت بك الأيّامُ من حيث تنفَعُ
وأضحت قَرِيحات القلوب من الجَوَى * تَقِيظُ[1] ولكنّ المدامع تربع[2]

٢٠ (١) تقيظ : يشتدّ حرّها وفى الأصل والديوان : "تقاظ" .
(٢) تربع : تخصب .

عيونٌ حفظنَ الليلَ فيك محرّمًا * وأعطينك الدمعَ الذى كان يُمنَعُ
وقد كان يُدعَى لابسُ الصبر حازمًا * فأصبح يُدعَى حازمًا حين يجزَعُ
وقالوا عزاءً : ليس للموت مدفعٌ * فقلت : ولا للحزن للمرء مـــدفعُ
لإدريس يومٌ ما تزال لذكره * دموعى وإن سكّنتُها تتفزّع
ولمـا نَضَا نَضا ثوبَ الحيـاة وأَوْقعت * به نائبـاتُ الدهرِ ما يتـــوقّعُ
غدا ليس يدرى كيف يصنع مُعْدِمٌ * دَرَى دمعُه من وجده كيف يصنَعُ
وماتت نفوس الغالبيّين كلّهـــم * وإلّا فصبرُ الغالبيّين أجمـع
غَدَوْا فى زوايا نعشـــه وكأنّما * قُرَيشٌ قريشٌ حين مات مُجمِّعُ
ولم أنسَ سَعْىَ الجُود خلف سريره * بأكسف بالٍ يستقيمُ ويظلَعُ
وتكبيرَه خمسًا عليـــه مُعَالِنًا * وإن كان تكبيرَ المصلّين أربعُ
وماكنت أدرى، يعلم الله، قبلها * بأن الندى فى أهله يَتَشَيَّعُ
وقمنا فقلنا بعد أن أُفْرِدَ الثرى * به ما يقـال فى السحابة تُقْلِـعُ

هذا مأخوذ من قول مسلم

وأذهب كما ذهبت غَوادِى مُزنةٍ * أثـــنى عليها السهلُ والأوعارُ

ألم تك ترعانا من الدهر إن سَطا * وتحفَظُ من أموالنا ما نُضَيِّعُ
وتبسُط كفًّا فى الحقوق كأنّمـا * أناملُها فى البأسِ والجود أذرُعُ
وتلبَسُ أخلاقًا كِرامًا كأنّهـا * على العِرض من فَرْط الحَصانة أدرُعُ
وتربط جاشًا والكُماةُ قلوبُهـــم * تَزَعْزَعُ خوفًا من قَنًـا تتزعزعُ
وأُمنيّةَ المُرْتاد يحضرك النـــدَى * فيشفَعُ فى مثـــل القَلَا[1] فيُشـفَّعُ
فأُنْطِق فيه حامـــدٌ وهو مُفْحَمٌ * وأُفْحِم فيه حاســـدٌ وهو مِصْقَعُ

(١) فى ديوان أبى تمام : * فيشفع فى ملء الملا فيشفّع *

ألا إنّ فى ظُفْر المنيّــة مُهجةً * تظَلّ لها عينُ العُلا وهى تدمَعُ
هى النفس إنْ تبكِ المكارمُ فقدَها * فمن بين أحشاء المكارمِ تُنْزَعُ
ألا إنّ أنفًا لم يَعُدْ وهو أجدعٌ * لفقدك عند المكُرمات لأجدَعُ
وإن آمرأً لم يُمْسِ فيك مُفجَّعًا * بمحموده، فى عقــله لمُفجَّـــعُ

٥ وقال يرثى القاسم بن طَوْق بن مالك

جوًى ساور الأحشاءَ والقلبَ واغلُهْ * ودمعٌ يَضيم[1] العينَ والجفنَ هاملُهْ
وفاجــعُ موت لا عدوٌّ يخافه * فيُبقِى، ولا يُبْقى صديقًا يُجامِلُهْ
وأىُّ أخى عِزٍّ وذى جَــبَرِيّةٍ[2] * ينـابذه أو أىُّ رامٍ يناضــلُهْ
إذا ما جرى مَجْرى دم المرء حُكْمُه * وبُثّت على طُرق النفوس حَبَائلُهْ!
١٠ فلو شاء هٰذا الدهرُ أَقْصَر شرُّه * كما قَصَرت عنّا لُهَـاهُ ونائـــلُهْ
سنشكوه إعلانًا وسرًّا ونيّـــةً * شكيّةَ مَن لا يستطيع يُقاتلُهْ
فمَن مبلغٌ عنّى ربيعــةَ أنّه * تقشّعَ طَلُّ الجُـود عنها ووابلُهْ
وأنّ الحِجَا منها آستطارت صُدوعه * وأنّ الندى منهـا أُصيبت مَقاتلُهْ
مضى للزِّيالِ القاسمُ الواهبُ اللُّهَى * ولـــو لم يُزَايلنا لكنّا نُزَايلُهْ
١٥ ولم يعلموا أنّ الزمان يريده * بفجعٍ ولا أنّ المنايا تُراسِلُهْ

ومنهـا

طــواه الردٰى طَىَّ الرِّداء وغُيِّبت * فضـائلُه عن قومه وفَوَاضِــلُهْ
طوى شِيَمًا كانت تروحُ وتغتدِى * وسائلَ من أعيتْ عليـــه وَسَائلُهْ
فياعارضًا للعُــرْف أقلَــعَ مُزْنُه * وياواديًا[3] للجــود جَفَّت مَسايِلُهْ

٢٠ (١) كذا بالأصل: ولعله محرّف عن «يطُمّ» بمعنى يملأ. (٢) فى الديوان: «وأى أخى عزاء أو جبريّة». (٣) كذا فى الديوان، وفى الأصل: «و يا واديا للعرف».

وقال يرثى محمد بن حُمَيد ويسمّى لحطبة، وقيل : لحطبة أخوه

بأبى وغيرِ أبى — وذاك قليلُ — * ثاوٍ عليـه ثرى النَّبـاج مَهِيلُ
خَذَلتـه أُسرته كأنّ سَراتَهـم * جهلوا بأن الخـاذلَ المخذولُ
أكّالُ أَشْـلاءِ الفوارس بالقَنَا * أضحى بهنّ وشِـلْوُهُ مأكولُ
(١٠١)
كُفِّى، فقتلُ محمـدٍ لِىَ شاهدٌ * أنّ العزيزَ مع القضـاء ذليـلُ ٥

ومنها

هيهـات لا يأتى الزمان بمثـله * إنّ الزمانَ بمثـله لَبخيلُ
ما أنتَ بالمقتولِ صـبرًا إنّمـا * أَمَلِى غداةَ نَعِيِّـك المقتولُ

ومنها

من ذا يحـدّث بالبقاء ضميره! * هيهات ! أنت على الفَنَاء دليـلُ ١٠
ياليت شـعرى بالمكارم كلِّهـا * ماذا، وقد فقدتْ نداك، تقولُ؟

ومنها

يايومَ لحطبـةٍ لقـد أبقيت لى * حُرَقًا أرى أيّامهـا سـتطولُ
ليثٌ لوَ انّ الليث قام مقامه * لانْصـاعَ(١) وهو يَرَاعةٌ إجْفيلُ
لمّـا رأى جمعًا قليلا فى الوغَى * وأولو الحِفاظ من القليل قليـلُ ١٥
لاقى الكريهـةَ وهو مُغْمِدُ رَوْعه * فيهـا ولكنْ بأْسُـه(٢) مسـلولُ
ومشى إلى الموت الزُّؤام كأنمـا * هو من محبّته إليه خليـلُ

ومنها .

أضحتْ عِراصُ محمـدٍ ومحمـدٍ * وأخيهـما وكأنّهن طُـلولُ
أبنى حُمَيـدٍ ليس أوّلَ ما عفـا * بعد الأسود من الأسـود الغِيلُ ٢٠

---

(١) انصاع : انفتل راجعا مسرعا . (٢) كذا فى الديوان، وفى الأصل : "ولكن سيفه ...".

مازال ذاك الصبرُ وهو عليكُمُ * بالموت فى ظلّ السيوف كفيلُ
مستبسلون كأنّما مُهُجاتُهُم * ليست لهم إلا غداةَ تسيلُ
أَلِفوا المنايا فالقتيلُ لديهمُ * من لم يُخَلِّ العيشَ وهو قتيلُ[1]
إن كان ريبُ الدهر أثكلنيكمُ * فالموتُ أيضا ميِّتٌ مثكولُ

٥ وقال يعزّى مالك بن طَوْق

أمالكُ إنّ الحزنَ أحلام حالمٍ * ومهما تدُمْ فالحزنُ ليس بدائمِ
أمالكُ إفراطُ الصبابة تاركٌ * حِنًا وٱعوجاجًا فى قَناة المكارمِ
تأمّلْ رُوَيْدًا هل تَعُدَّنّ سالمًا * إلى آدمٍ أم هل تعدُّ ٱبنَ سالم!
متى تُرْعِ هذا الموتَ عينًا بصيرةً * تجِدْ عادلًا منه شبيهًا بظالمِ
١٠ فإن تكُ مفجوعاً بأبيضَ لم تكن * تشُدُّ على جدواه عقدَ التمائمِ
بفارس دُعْمِيٍّ وهَضْبةِ وائلٍ * وكوكبِ عتّابٍ وحمزةِ هاشمِ
شَجَا الريحَ فازدادتْ حنينًا لفقده * وأحدثَ شَجْوًا فى بُكاء الحمائمِ
فمن قبله ما قد أُصيب نبيُّنا * أبو القاسم النورُ المبينُ بقاسمِ
وخُبِّرَ قَيْسٌ بالجليّةِ فى ٱبنه * فلم يتغيّر وجهُ قيس بن عاصمِ
١٥ وقال علىٌّ فى التعازى لأشعثٍ * وخاف عليه بعض تلك المآثم:
أتصبر للبلوى عزاءً وحِسبةً * فتُؤجَرَ، أم تسلو سلوّ البهائم؟
خُلقنا رجالًا للتجلّد والأسى * وتلك الغَوانى للبُكا والمآتمِ
وأىُّ فتًى فى الناس أحرضُ من فتًى[2] * غدا فى خِفارات الدموع السَّواجمِ

---

(١) فى نسخة من الديوان : "من لا تجلى الحرب وهو قتيل" وفى نسخة أخرى منه : "من لم يخل
٢٠ الحرب ..." .

(٢) من حرض ككرم طال همه وسقمه وفسد .

وهل من حكيم ضيّع الصبرَ بعدما * رأى الحكماءُ الصبرَ ضربةَ لازمِ
فلا بَرِحت تسطو ربيعةُ منكم * بأرقمَ عطّافٍ وراء الأراقمِ
فأنت وصِنواك الشقيقانِ إخوة * خُلقتم سَعُوطًا للأنوف الرواغم
ثلاثة أركان، وما آنهدّ سؤددٌ * إذا ثبتت فيـــه ثلاثُ دعائم

وقال يَرثى عُمَيْرَ بن الوليد

كفُّ الندى أمستْ بغير بَنانِ * وقَناتُه أضحت بغير سِـــنانِ
جبلُ الجبال غدتْ عليــه مُلمةٌ * تركته وهو مهـــدَّمُ الأركانِ
أَنْعى عُمَـيْرَ بن الوليـــد لغارةٍ * بِكْرٍ من الغارات أو لعَوَانِ
أنعى فتى الفِتْيانِ غيرَ مكذَّبٍ * قولى، وأنعَى فارس الفُرسانِ
عَثَر الزمانُ ونائبـاتُ صروفِه * بمُقيلنا عثراتِ كلِّ زمانِ
لم يترك الحَدَثانُ يوم سـطا به * أحدًا نَصُـول به على الحَدَثانِ
قد كنتَ حَشْوَ الدرع ثم أراك قد * أصبحتَ حشوَ اللّحد والأكفانِ
شُغِلت قلوبُ الناس ثم عيونُهم * مذ مُتَّ بالخفَقانِ والهَمَلانِ
وٱستعذبوا الأحزانَ حتى إنّهم * يتحاسدون مَضاضـةَ الأحزانِ
ما يرعَوِى أحدٌ إلى أحدٍ ولا * يشــتاق إنسانٌ إلى إنسانِ
أأصاب منك الموتُ فرصةَ ساعةٍ * فعـدَا عليك وأنتما أَخَوانِ!
مَن الذى أبقَى ليومِ تكرُّمٍ (١) * ومن الذى أبقى ليوم طِعانِ!

(١) كذا بالأصل، والذى بالديوان
من الذى يُبقَى ليوم كريهة * ومن الذى يُدعَى ليوم طعان

وقال يرثى آبنا له

كان الذى خِفتُ أن يكونا * إنّا إلى الله راجعونا
أمسى المُرَجَّى أبو علىٍّ * مُوسَّدًا فى الثرى يمينَا
حين آستوى وآنتهى شبابًا * وحقّق الرأىَ والظنونا
أُصِبْتُ فيه وكان عندى * على المصيبات لى مُعينا
كنتُ كثيرًا به عزيزًا * وكنتُ صَبًّا به ضَنِينا
دافعتُ إلا المَنُونَ عنه * والمرءُ لا يدفع المنونا
آخرُ عهدى به صريعًا * للموت بالداء مُستكينا
إذا شكا غُصّةً وكَرْبًا * لاحَظَ أو راجَعَ الأنينا
يُدير فى رَجْعه لسانًا * يمنعه الموتُ أن يُبينا
يشخصُ طورًا بناظرَيْه * وتارةً يُطْبِق الجُفُونا
ثم قضى نَحْبَه وأمسى * فى جَدَثٍ للثرى دفينا
باشَرَ بَرْدَ الثرى بوجهٍ * قد كان من قبله مَصُونا
بَعيد دارٍ قريب جارٍ * قد فارق الإلف والقَرينا
بُنَىَّ ياواحدَ البنينا * غادرتَنى مُفْرَدًا حزينا
هوّن رُزْئى بك الرزايا * علىّ فى الناس أجمعينا
آليتُ أنساك ما تجلّى * صبحُ[1] نهارٍ لمُصْبِحينا
وما دعا طائرٌ هديلًا * ورجّعتْ والهٌ حنينا
تصرّف الدهرُ بى صُروفًا * وعاد لى شأنه شؤونا

(١) كذا فى الديوان، وفى الأصل: "شمس نهار".

وجزّ فى اللحم بل بَرَاه * وآجتثّ من طلحتى فُنُونا
أصـاب منّى صميمَ قلبى * وخفِتُ أن يقطع الوَتِينـا
والمرء رهنٌ بحالتيه * فشـدّةً مرّةً ولِينـا

ومما قيل فى شواذّ المراثى؛ من ذلك ما قالته جَلِيلة بنت مُرّة أخت جسّاس زوج كُلَيْب لما قتل أخوها جسّاس زوجها كليبا؛ وكان نساء الحىّ لما آجتمعن للمأتم قلن لأخت كليب : رَحِّلى جليلة عنك فإن قيامها فيه شماتةٌ وعار علينا عند العرب، فقالت لها : اخرجى عن مأتمنا، فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا؛ فخرجتْ وهى تجرّ أعطافها، فلقيها أبوها مُرّة فقال لها : ما وراءك ياجليلة؟ فقالت : ثُكْل العَدَد، وحزن الأبد، وفقدُ حليل، وقتل أخ عن قليل، و بين ذلك غَرْس الأحقاد،(١) وتفتّت الأكباد؛ فقال لها : أَوَ يَكُفُّ ذلك كرمُ الصّفْح و إغلاء الدّيَات؟ فقالت جليلة : أُمنيّةُ مخدوعٍ وربِّ الكعبة، أَبالبُدْن تدع لك وائل دم ربِّها!(٢) قال : ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رِحلَةَ المعتدى وفراق الشامت! و يلٌ [غدًا](٣) لآل مُرّة، من الكَرّة بعد الكرّة! وبلغ قولها جليلة فقالت : وكيف تشمت الحُرّة بهتك سِتْرها وترقُّب وتْرها! [أسعد الله أختى، ألا قالت : نَفْرة الحياء وخوف الأعداء](٣) ثم أنشأت تقول

يابنـة الأقوام إن لُمْتِ فلا * تَعْجَـلى باللّـوم حتّى تسألى
فإذا أنتِ تبيّنْتِ الـذى * يُوجب اللـوم فلُومى وآعذُلِى
إن تكن أخت آمرئ لِيمَتْ على * جَزَعٍ منها عليـه فافعـلى

(١) كذا فى الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٢١٦ طبعة بولاق وفى الأصل : « و بين رُزْأين : عرس الأحقاد ... » . (٢) فى الكامل لابن الأثير : « تدع لك تغلب .. » .
(٣) زيادة من الكامل لابن الأثير .

جلّ عندى فعلُ جَسّاس فيا * حسرتا عما آنجلت أو تنجلى
فعل جسّاس على ضَنّى به * قاطعٌ ظهرى ومُدْنٍ أَجَلى
لو بعين فُقِئت[1] عينٌ سوى * أختها وآنفقأت لم أحفل
تحمِلُ العينُ قَذَى العين كما * تحمِلُ الأمّ أَذَى ما تفتلى[2]
إنّنى قاتلةٌ مقتولةٌ * فلعلّ الله أن يرتاحَ لى
يا قتيلًا قوّض الدهرُ به * سقفَ بيتَىّ جميعًا من علِ
ورمانى فقده من كثَبٍ[3] * رَميةَ المُصْمِى به المُستأصَلِ
هدم البيتَ الذى آستحدثتُه * وبدا[4] فى هدْم بيتى الأوّلِ
يا نسائى دونكنّ اليوم قد * خصّنى الدهرُ برُزءٍ مُعضِلِ
مسّنى فقدُ كُلَيب بلظّى * من ورائى ولظّى مُستقبلى
ليس من يبكى ليومين كمن * إنما يبكى ليوم ينجلى
دَرَكُ الثائر شافيه وفى[5] * دَركى ثأرِىَ ثُكْلُ المُثْكِلِ
ليتَه كان دَمِى فآحتلَبوا * دِرَرًا منه دما من أكحَلِى

(١٠٤) ولما مات معاوية بن أبى سفيان آجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدروا على الجمع بين التهنئة والتعزية، حتى أتى عبد الله بن هَمّام فقال : يا أمير المؤمنين، أجزل الله أجرك على الرزيّة، وبارك لك فى العطيّة، وأعانك على الرعيّة؛ فقد رُزئت عظيما، وأُعطِيتَ جسيما؛ فآشكر الله على ما أُعطيت، وآصبر على ما رُزيت؛ فقد فقدت

---

(١) فى رواية أخرى أشار اليها هامش الأصل : «مذيت عين سوى» .
(٢) افتلى الصغير : رباه . (٣) فى رواية أشير إليها فى هامش الأصل : «ورمانى قتله ...» .
(٤) فى الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٢١٦ طبع بولاق : «وآنثنى فى هدم ...» .
(٥) فى الكامل لابن الأثير : «يشتفى المدرك بالثأر وفى ...» .

خليفة الله، وأُعطيت خلافة الله ؛ ففارقت جليــلا ، وأُعطيت جزيلا ؛ إذ قضى معاوية نحبه، ووليت الرياسة ، وأُعطيت الســياسة ؛ فأورده الله موارد السرور، ووفّقك فى جميع الأمور

فاشكر يزيدُ فقــد فارقتَ ذا مِقَةٍ * وآشكر حِباءَ الذى بالملك حَاباكَا[1]

[أصبحت تملك هذا الخلق كلهمُ * فأنت ترعاهـــمُ والله يرعاكا][2]

لارُزْءَ أعظمُ فى الأقوام قد علموا * ممـا رُزِئتَ، ولا عُقْبَى كعُقباكا

وفى معاوية البـاقى لنـا خَلَفٌ * إذا نُعِيتَ ولا نسـمعْ بمَنْعاكا

ففتح للناس باب الرثاء وجَرَوْا على منواله .

وقال أبو نُوَاس الحسن بن هانئ يعزّى الفضل بن الربيع عن الرشيد و يهنّئه بالأمين

تَعَزَّ أبا العبّاس عن خير هالكٍ * بأكرمِ حىٍّ كان أو هــو كائنُ

حوادثُ أيّام تدور صروفُهـا * لهنّ مَسَاوٍ مرّةً ومَحَاسِنُ

وَفى الحىّ بالميْتِ الذى غيّب الثرى * فما أنت مغبونٌ ولا الموتُ غابِنُ

وقال أبو تمّـام يَرثى المعتصم ويهنّئ الواثق

ما للـــدموع تروم كلّ مَرَامِ * والجفنِ ثاكلَ هَجْعــةٍ ومَنـامِ

يا حُفــرةَ المعصوم تربُك مُودَعٌ * ماءَ الحيــاةِ وقاتــلَ الإعـدامِ

إن الصفائح منكِ قد نُضِدت على * مُلْقَى عظامٍ لو علمتِ عظامِ

فَتقَ المدامعَ أن لحدك حلّه * سكنُ الزمان ومُمْســك الأيّامِ

ومصرِّفُ المُلْك الجَمُــوح كأنه * قــد زُمّ مُصْــعَبُه له بزِمامِ

(١) رواية الكامل للمبرد (ص ٧٨٥ طبع ليبزج سنة ١٨٦٤) .

إصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقــة * وآشكر بلاء الذى بالملك أصفاكا

(٢) زيادة من الكامل .

هدمتْ صروفُ الدهر أرفعَ حائطٍ * ضُرِبت دعائمه على الإسلامِ
دخلتْ على مَلِك الملوك رُواقَه * وتسرّبتْ لمُقَوِّم القُوّامِ
مفتاحُ كلِّ مدينةٍ قد أُبْهِمت * غَلَقًا ومُخْلِى كلِّ دارِ مُقَامِ
ومُعَرِّف الخلفاء أنّ حظوظها * فى حيِّز الإسراج والإلجام
أخذ الخلافةَ عن أسِنّته التى * منعتْ حِمَى الآباء والأعمام ٥
فلسُورة الأنفال فى مِيراثه * آثارُها ولسُورة الأنعام
ما دام هارونُ الخليفةَ فالهُدَى * فى غِبْطة موصولةٍ بدوام
إنّا رحلنا واثقين بواثقٍ * بالله شمس ضُحًى وبدر تِمَامِ
لله أىّ حياةٍ انبعثت لنا * يوم الخميس وبعد أىّ حِمامِ (١٠٥)
أودى بخير إمامٍ اضطربت به * شُعَب الرجال وقام خيرُ إمامِ ١٠
تلك الرزيّةُ لا رزيّةَ مثلُها * والقِسْمُ ليس كسائر الأقسامِ

جاء منها

نقضٌ كرَجْعِ الطَّرْف قد أبرمتَه * يابن الخلائف أيّما إبرام
ما إن رأى الأقوامُ شمسًا قبلها * أفَلَتْ فلم تُعقبهمُ بظَلامِ
أكْرِمْ بيومهمُ الذى مَلَّكْتَهُمْ * فى صدره وبعامهم من عامِ ١٥

ثم أخذ فى مدح الواثق .

وفى هذه الواقعة يقول ابن الزيّات

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطفقتْ * عليك أيد بالتُّرْب والطينِ
اِذهب فنعم المعينُ كنتَ على الدُّنيا ونعم الظهير للدينِ
لن يجبُرَ الله أمّةً فقدتْ * مثلَك إلا بمثلِ هارونِ ٢٠

ومن أشدّ الرثاء صعوبةً على الشاعر وأضيقه مجالًا أن يرثى آمرأة أو طفلا .
وقد أُخِذ على المتنبّى فى قوله يَرْثى أُمّ سيف الدولة بن حَمْدان

سلامُ الله خالِقنا حَنُوطٌ * على الوجه المُكَفَّنِ بالجمالِ

وقالوا : ماله ولهذه العجوز يصف جمالها ! ووبّخه الصاحب بن عبّاد فى قوله فيها

رواق العز فوقك مُسْبَطِرٌّ * ومُلْكُ علىٍّ آبنك فى كَمالِ ٥

قال أبو الحسن على بن رَشيق الأزدى فى كتابه المترجم بالعمدة وبالأغانى أيضا :
أشدّ ماهجّن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة من الهجاء أنه قرنها "بفوقك" فجاء عملا
تامّا لم يبق فيه إلا الإفضاء . وإن يكن المتنبى أخطأ فى هذا فلقد أجاد فى غيره ،
والفاضل من عُدّت سَقَطاته ، وحُفِظت هَفَواته وفَلَتاته ، وآنظر إلى قوله فى أخت
سيف الدولة ١٠

يا أخت خير أخٍ يا بنتَ خير أب * كناية بهما عن أشرف النَسَب
أُجِلّ قدرَكِ أن تُدْعَىْ مُؤَنَّثةً * ومن يَصِفْكِ فقد سمّاكِ للعَرَب

وقوله أيضا

ولو كان النساء كمن فقدْنَا * لفُضِّلت النساءُ على الرجالِ
مَشى الأُمراءُ حولَيْها حُفَاةً * كأنّ المَرْوَ من زِفِّ[1] الرئال ١٥

ومن جيّد مارُثِى النساء به وأشدّه تأثيرًا فى القلب وإثارةً للحزن قول آبن عبد الملك
ابن الزيّات فى أمّ ولده

أَلَا مَن رأى الطفل المفارِقَ أُمَّه * بعيدَ الكَرى عيناه تبتدرانِ
رأى كلَّ أُمٍّ وآبنَها غيرَ أُمّه * يبيتانِ تحت الليل يَنْتجيانِ
وبات وحيدًا فى الفِراش تجُنُّه * بلابلُ قلبٍ دائمِ الخَفَقانِ ٢٠

(١) الزف : ريش النعام .

ومنها بعد أبيات

ألا إنّ سَجْلًا واحدًا قد أرقتُــه * من الدمع أو سَجْلين قد شَـفيانِى

فلا تَلْحيانِى إن بكيتُ فإنمـا * أداوِى بهـذا الدمـع ما تَريان

و إنّ مكانًا فى الثَّرى خُطَّ لحـدُه * لمن كان من قلبى بكلّ مكانـ

أحقُّ مكانٍ بالزيارة والهوى، * فهـل أنتمـا إن عُجْتُ منتظـران؟ ٥

فهَبْنى عزمتُ الصـبْرَ عنها لأنّنى * جَليـدٌ فمن بالصـبر لأبن ثمـانِ

ضعيفِ القُوٰى لايعرف الأجرَحِسْبةً * ولا يأتَسِى بالناس فى الحَدَثانِ

ألا مَن أمنيـه المُنٰى وأُعِدُّهُ * لعَــثْرة أيّامٍ وصَرْفِ زَمانِ

ألا مَن إذا ما جئتُ أكرَمَ مجلِسى * و إن غبتُ عنـه حاطَنى و رعانى

فلم أر كالأقدار كيف تُصيبنى * ولا مثلَ هذا الدهرِ كيف رمانى ١٠

وقال أبو تمّـام يرثى جارية له

ألم ترنى خلَّيْتُ عينى وشانَهَـا * ولم أحفِـلِ الدنيا ولا حَدَثانَها

لقـد خوّفتْنى النائباتُ صروفَها * ولو أمّنتنى ما قبِلتُ أَمانَهـا

وكيف على نار الليالى مُعَرِّسى * إذا كان شيبُ العارضَيْنِ دُخانَها

أُصِبتُ بخَوْد سوف أغبُرُ بعدها * حليفَ أسًى أبكِى زمانى زمانَها ١٥

عِنانٌ من اللذّات قد كان فى يدى * فلما مضى الإلفُ آستردّتْ عِنانَها

منحتُ الدُّمٰى هجرى فلا مُحْسِناتِها * أَوَدّ ولا يهوٰى فؤادى حسانَها

يقولون : هل يبكى الفتى لخريدةٍ * متى ما أراد آعتاض عشرًا مكانَها!

وهل يستعيضُ المرءُ من خَمْس كَفّه * ولو صاغ من حُرّ اللُّجَين بنانَها!

وقال أبو الفتح كُشاجم يعزّى بابنة

تأسّ يا أبا بكر * لموت الحُرَّة البِكْرِ
فقد زوّجتَها القبرَ * وما كالقبر من صِهْرِ
وعُوِّضتَ بها الأجرَ * وما كالأجر من مَهرِ
زِفافٌ أُهديت فيه * من الخِدْرِ إلى القبرِ
فتاةٌ أسبغ الله * عليها أفضل السِّترِ
ورزءٌ أشبهَ النعمـ * ـةَ فى الموقِع والقَدْرِ
وقد يُختار فى المكرو * هِ للمرء وما يدرى
فقابلْ نعمةَ الله * وما أولاك من شكرِ
وعَزِّ النفسَ عما فا * ت بالتسليم والصبرِ

وقال أبو مروان بن أبى الخصال الأندلسىّ فى مثل ذلك

ألا ياموتُ كنت بنا رَءوفًا * فجدّدت الحياة لنا بزَوْرَهْ
حمِدتُ لفعلك المأثور لمّا * كفيتَ مئونةً وسترتَ عورهْ
فأنكحها الضريحَ بغير مَهْر * وجهّزنا الفتاةَ بغير شَوْرهْ

(١٠٧)

وقال أبو تمّام حبيب بن أوس الطائىّ فى ٱبنين لعبد الله بن طاهر ماتا صغيرين فى يوم واحد من قصيدة

نجمان شاء الله ألّا يطلُعا * إلا ٱرتدادَ الطَّرْف حتى يأفُلَا
إنّ الفجيعةَ بالرياض نواضرًا * لأجَلُّ منها بالرياض ذوابِلَا
لو يُنْسَآنِ لكان هذا غاربًا * للمكرُماتِ وكان هذا كاهِلَا
لَهْفى على تلك الشواهد فيهما * لو أُمْهِلتْ حتى تكونَ شمائلَا

لَغَدَا سكونهما حِجًا وصِباهما * حِلْمًا وتلك الأرْيَحِيّةُ نائلا
إنّ الهـلالَ إذا رأيتَ نُمُوّه * أيقنتَ أن سيكونُ بدرًا كاملا

وقال أبو الحسن الأنبارى فى محمد بن بقيّة وزير عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة آبن بُوَيْهِ لمّا صَلبه عضُدُ الدولة بن رُكن الدولة بن بُوَيْهِ عند خلع بختيار، وهى من نوادر المراثى

عُلُوٌّ فى الحيـاةِ وفى المماتِ * لَحَقٌّ أنت إحدى المُعجـزاتِ
كأنّ النّاسَ حولك حين قاموا * وفودُ نَدَاكَ أيّامَ الصِّـلاتِ
كأنّك قائمٌ فيهـمْ خطيبًا * وكُلُّهـمُ قِيامٌ للصّـلاةِ
مَدَدْتَ يديْك نحوَهُمُ جميعًا[1] * كمـدِّهما إليهـمْ بالهِبَـاتِ
ولمّا ضاق بطنُ الأرض عن أنْ * يَضُمَّ عُلَاكَ من بعـد المماتِ
أصاروا الجوَّ قبرَك وآستنـابوا * عن الأكفانِ ثوبَ السافياتِ
لِعُظْمِك فى النفوس بَقِيتَ تُرْعَى * بحُـرّاس وحُفّـاظ ثِقـاتِ
وتُشْعَلُ عنـدك النيرانُ ليـلًا * كذلك كنتَ أيّامَ الحيـاةِ
ولم أَرَ قبلَ جِذْعك قطُّ جذعًا * تمكّنَ من عِناقِ المكرُماتِ
ركبتَ مطيّةً من قبلُ زيدٌ * عَلَاها فى السنين الذاهباتِ

أشار فى هذا البيت إلى زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب لمّا قُتِلَ وصُلِب فى أيّام هشام بن عبد الملك

وممّا يدخل فى هذا الباب و يلتحق به ما يطرأ من الحوادث التى تعُمّ بها البليّة، وتشمَل بسببها الرزيّة، كآستيلاء أهل الكفر على بلد من بلاد الإسلام، وهزيمتهم لجيشه اللُّهام، فمن ذلك ما كتب به القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ إلى الأمير

(١) كذا بالأصل، وفى احدى النسخ "اقتفاء" وهو محرّف عن "احتفاء".

عزّ الدين سامة لما آستعاد الفرَنج ـ خذلهم الله تعالى ـ مدينة بيروت : ابتدأ كتابه بأن قال بعد البسملة: قال الله سبحانه فى كتابه العزيز مُسلّيا لنبيّه الكريم صلى الله عليه وسلم : (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ)، فإذا كان من الناس من خان الله و رسوله صلى الله عليه وسلم فكيف لا يخون الناسُ الناسَ ! وأين المُوفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرون فى البأساء والضرّاء وحين الباس؛ ٥

وقد كانوا إذا عُدّوا قليـلًا * فقد صاروا أقلَّ من القليلِ

والمولى ـ أعزّه الله بنصره، وعوّضه أحسن العِوَض من أجره، وكتب له ثوابَ تسليمه إليه وصبره ـ ليس بأوّل من وَثِق بمن خان، وقضيّةُ بيروت بأوّل مقدور قال الله له : كن فكان ؛ والقدر السابق لا يدفعه الهمّ اللاحق ، ومن الخَجَلات المستعارة خَجْلة الواثق، والموثوقُ به لائقٌ به الخجلُ الصادق؛ ومعاذ الله أن ينكّس المجلس رأسَه حياء، أو أن يَسْخَط لله قضاء، أو أن يأسفَ على مال نقله من مُودَعه الذى لا يُؤمَن من الآفات عليه، إلى مُودَع الله الذى يحفظه إلى أن يأتيَه به أحوجَ ما كان إليه، والحمد لله الذى جعل مصائبنَا فى الدنيا فوائدَنا فى الأُخرى، ثم الحمد لله الذى جعل البادرةَ للعُدوان والعاقبـةَ للتقوى . وقد علم الله أنى مُقَاسِمه ومُساهِمه، ومُضمِرٌ من الهم بما آتفق من هذا المقدور ما مُقَدّره عالمه، غير أنّه لاحيلةَ لمن لا حيلة له إلا الصبر، و إن صـبرَ جرى عليه القدَر و جرى له الأجْر، و إن لم يصبر جرى عليه القـدَر وكُتِب عليه الوِزْر، وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب صاحبُه فقد أنعم الله عليه، حيث أخرج ما فى يديه وأبقى يديه؛ والمـال غاد ورائح، والمـال بالحقيقة هو العمل الصالح، وإن آجتمع مُوصلها بحضرته فهو يُنْهِى ماعندى، و يُؤَدّى حقيقةَ ودّى، ورأيه الموفَّق . ٢٠

وقال المظفَّر الأَبِيوَرْدِىّ لما آستولى الفَرَنْج على البيت المقدس فى سنة آثنتين وتسعين وأربعمائة قصيدة منها

مَزَجنا دماءً بالدموع السواجِم * فلم يبقَ منها عُرضةٌ للمزاحم (١)

وشرّ سلاح المرءِ دمعٌ يُفِيضُه * إذا الحربُ شبّت نارُها بالصوارم

فإيهًا بنى الإسلام! إن وراءكم * وقائعَ يُلْحِقْنَ الذُّرى بالمَنَاسِم

أتَهْوِيمةً فى ظِلّ أَمْنٍ وغِبْطة * وعيشٍ كنُوّار الخميلةِ ناعِمِ!

وكيف تنام العينُ مِلْءَ جُفونها * على هَبَوات أيقظتْ كلَّ نائم

وإخوانُكم بالشأم يُضْحِى مَقِيلُهم * ظهورَ المَذَاكِى أو بطونَ القَشَاعِم

يسومُهُمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ * تجرُّونَ ذيلَ الخَفْض فعلَ المُسَالِم

وكم من دماء قد أُبِيحتْ، ومن دُمًى * تُوارِى حياءً حُسْنَها بالمعاصِم

بحيث السيوفُ البيضُ مُحْمَرَّةُ الظُّبى * وسُمْر العَوَالِى داميات اللَّهَاذِم

وبين آختلاس الطعنِ والضرب وقفةٌ * تَظَلُّ لها الوِلْدانُ شِيبَ القَوادِم

وتلك حروبٌ مَن يَغِبْ عن غِمارها * ليسلم يَقْرَعْ بعدها سِنَّ نادم

سَلَلْنَ بأيدى المسلمين قَوَاضِبًا * ستُغْمَد منهم فى الطُّلَى والجماجم

يكادُ بهن المُستجِنّ بطَيْبَه * يُنادى بأعلى الصوت: يا آل هاشم

أرى أمّتى لا يشرَعون إلى العِدا * رماحَهُمُ والدينُ واهى الدعائم

ويجتنبون النارَ خوفًا من العِدا * ولا يحسَبون العارَ ضربةَ لازم

أترضى صناديدُ الأعاريبِ بالأذَى * ونُغْضِى على ذُلٍّ كُمَاةُ الأعاجم!

فليتهمُ إذ لم يَذُودوا حميّةً * عن الدين ضنُّوا غَيْرةً بالمحارم

وإن زَهِدوا فى الأجر إذ حَمِش الوَغى * فهلّا أتَوْه رغبةً فى المغانم!

(١) كذا بالأصل، وفى الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٢ طبع أوروبا * فلم يبق منها عرصة للمراحم *

لئن أذعنت تلك الخياشيم للثرى * فلا عَطَسوا إلّا بأجدع راغـــمِ
دعوناكُمُ والحربُ ترنُو مُلِحّةً * إلينا بألحاظِ النسور القشاعـمِ
تُراقِبُ فيـــنا غارةً عربيّـــةً * تُطيـل عليها الرومُ عَضّ الأباهِمِ
فإن أنتُمُ لم تغضَبوا عند هٰذه * رمتـــنا إلى أعدائنا بالجـــرائم

وقال عَلاء الدين علىّ الأوتارىّ الدمشقىّ فى مثل ذلك لما آستولى التتار على دِمَشْق فى سنة تسع وتسعين وستمائة ٥

لك عِلْمٌ بما جرى يا سُهادِى * من جفونى على آفتقاد رُقادِى
لم أجد عند شِدّتى مُؤنِسًا لى * غيرَ سُهْدِى مُلازِمًا لسَوَادى
وحبيبُ العين الرقادُ جفاها * مُذ رآها حليفـــةَ الأنكادِ
أحسن الله يا دِمَشْقُ عزاكِ * فى مَغانيـك يا عِمادَ البـلادِ ١٠
وبرُسْــتاق نَيْرَبيــك مع المِـزّة مع رَوْنَقٍ بذاك الوادى
وبأُنْس بقَاسِيُونَ وناسٍ * أصبحوا مَغْنَمًا لأهل الفسادِ
طَرَقتهمْ حوادثُ الدهر بالقتـــ * ـــلِ ونَهْبِ الأموال والأولادِ
وبنات مُحَجَّبات عن الشمــ * ــسِ تناءت بهنّ أيدى الأَعَادِى
وقُصُور مُشَيَّدات تَقَضَّتْ * فى ذُرَاها الأيّام كالأعيادِ ١٥
وبيوت فيها التِّلاوةُ والذكـ * ـرُ وعالى الحديث بالإســنادِ
حَرّقوها وخرّبوهـا وبادَتْ * بقضـاء الإلٰه ربِّ العبادِ
وكذا شارعُ الْعُقَيْبَـة والقصـــ * ـــر وشاغُورُها وذاك النادِى
أصبحوا اليومَ مثلَ أمس تَقَضَّى * وبَكَتهم سماؤهم والغَوَادِى
ولَكَمْ سُورُها حَوَى مِن مُعنًّى * مُقْرَحِ القلبِ والحشى والفُؤادِ ٢٠
إن بكى لا يُفِيـده أو تَشَكّى * وَجَد المُشْتَكَى حليفَ سُـهادِ

يشتكي فوق ما آشتكاه بأضعا * فٍ فيغدو وهمّه فى آزديادِ
فالغَلَا والجَلَا مع الجوع والعُرْ * يِ ونهب الأقواتِ والأزوادِ
والحصارُ الشديدُ والحبسُ والخو * فُ مع السادة العُرَاةِ المَكَادِى (١)
ويوَزْدِ الأموالِ من غير وُجْدٍ * بآعتساف الغُتْم (٢) الغِلاظِ الشدادِ
كاترالجا كبر خوار أنت يا عيـ * ـه لمحمود غازان قان البلادِ (٣)
يا تُرى هل لكَرْبنا من مُجيرٍ * أم لتشديد أسْرنا من مُفَادِى
لهف نفسى على جُيوش تولّت * ثم ولت جريحة الأكبادِ
كلّ نَدْبٍ عَضْبٍ حَمِىً كَمِىٍّ * أمجدٍ أصيدٍ شجاعٍ جوادِ
إن سطا فى هِباته كان بحرًا * أو سطا خلتَه من الآسادِ
أو بَدَا حاملًا تخالُ عَنْترًا * أو غدا سابق الجوادِ فغادى
إنْ أتانى مُبَشّرٌ بِلقاهم * حاز رُوحى ومُهْجتى وقيادى
ولثمت التراب شُكْرًا وعفّر * ت خدودى على بلوغ مُرادى
لست أرجو غير البشير شفيعًا * عند ربِّى فى المنّ بالإنجادِ
فهو الصادق الذى وعد الديـ * ـنَ بنصرٍ جارٍ على الآبادِ
غير أن الفساد يكسب ذُلًّا * ويُعمِّى الفسادُ طُرْقَ السَّدادِ
وآرتكاب الفسادِ يُورث فقرًا * وخرابُ البيوتِ عُقْبَى الفسادِ
يا حبيبَ الإلهِ لا تتخلَّ * عن عُصاة غمرتَهم بالأيادى

(١) المكادى : جمع "مُكْدِى" اسم مفعول من كداه بمعنى حبسه .

(٢) الغتم جمع أغتم وهو من لا يفصح .

(٣) ورد هذا البيت هكذا بالأصل وقد سألت عنه كثيرين من المشتغلين باللغة الفارسية فقيل لنا إن بعض ألفاظه فارسية وبعضها الآخر ظن أنه تركى ولم يدر ما هو .

يا حبيبَ الإلٰهِ قد مسّنا الضــر * فجُـدْ بالإســعاف والإسعادِ
يا حبيبَ الإلٰهِ تُبْنـا إلى اللـــه وأنت العِــمادُ حتّى المَعَـادِ
مَنْ لأسْرى كَسْرى حَيارى دَهَتْهم * دَهَمتهم جِيـادُ أهــلِ العِنَادِ
واضع اللقط فى الحساب عناه * لو يعِشْ حصرُ كثرةِ الأعدادِ
منهُــمُ الطفـلُ والصبيّةُ والشا بُّ ينُـادى، فمن يُجيب المنادى!
ويُنَـادَى عليهـــمُ برغيفٍ * وبنَزْرٍ بَخْس بسُوق الكَسَادِ
عُوِّضوا عن سرورهم بغرور * وقصور البلاد سُكْنى البَوَادى
وبأهـــل الوداد شــرُّ أُنَاس * وبلِينِ المِهادِ شوكَ القَتَـادِ
أىُّ عينٍ عليهمُ ليس تبكى * أىُّ قلب عليهــمُ غيرُ صادى!
فلأنت الرحـــيم قلبًـا ولُبًّـا * ولأنت الهـادى لسُبْل الرَّشادِ
ولأنت البــديعُ خَلْقًا وخُلْقًـا * ولأنت الســميع للإنشـادِ
ولأنت الطِّرازُ فى كلِّ معـنًى * ولسيفِ المقال شــبهُ النِّجاد
ولأنت الحاوى فُنُونَ صِفاتٍ * دون حصر لهـا فَنَاءُ المِدَادِ
ولأنت الممدوح من فوق عرشٍ * بعـــدُ ماذا يقول قُسُّ الإيادى
جُلُّ قَصْدِ الفصيح بالنظم معنًى * نَشْرُ فضل الممدوحَ بين العبـادِ
فإذا كان مُنشئ المـدحِ رَبِّى * عاد مدحُ الفصيح جمعَ سَوَادِ
فعليـكَ الصلاةُ يرجو بها الأمـــنَ علىٌّ من سائر الأنكادِ

وحيث انتهينا من المراثى والنوادب إلى هـذه الغاية فلنذكر نُبْذَة من الزهد والتوكّل .

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الثانى فى الزهد والتوكل

وهذا الباب ــ وفقنا الله و إياك لقصدنا، وألهمنا سلوكَ سبيل رشدنا، وآستعملَنا فى مَرَاضيه، وجنّبنا عن الآلتفات بالقول والفعل إلى معاصيه ــ من هذا الفن هو واسطة عِقْده، وعضُد زَنْده، وقائم مُرْهَفه وحَدّ فِرِنْده، وشَبَا سِنَانه، ومَثْنَى عِنانه، و إنسانُ حَدَقته وحدقة إنسانه؛ وكيف لا وهو للنفس دُرّة تاجها، وطبيبُ عِلاجها، وواضح مِنْهاجها، ودليلها المُرشد إذا ضلّ الدليل، ومُنْجيها من الهول الأعظم إذا فرّ المرء من الأخ والأمّ والأب والآبن والصاحبة والخليل. فتأمله أيها المُطالع بعين قلبك قبل ناظرك، وآتخذه من أحصن جُنَّتك وأعدّ عُدَدك وأنفس ذخائرك؛ ورُضْ به نفسك إذا جمَحتْ، وسكّن به آمالك إذا مالت إلى المطامع وجَنَحتْ. وآعلم أن الدنيا ظلٌّ زائل، وعدوٌّ قد نَصَب لك الشِّباك ومدّ الحبائل، وأنك لا بدّ مسئول عما آكتسبتَه منها، فليت شعرى ما أعددتَ لجواب المُسَائل؟ فهى العدوّ الذى أشبه بالصديق، والغادر الماكر الذى ما أخوفنى أنّ مَكْرَه بى و بك سحيق؛ فاقتصر على القليل منها، وآعلم أنك سترحل فى غد عنها، وأن الموت نازلٌ بك فلا ينفعك ما جمعته من مال وخَوَل، ولا يصحبك من الدنيا إلا ما قدّمته لآخرتك من صالح العمل؛ وأنّ مالك سيقتسمه من لعلّه لا يشكرك عليه، وماذا ينفعك شكره أن لو فعل! وغاية ماينالك من دنياك، و إن بلغتَ منها مُناك، وطال بها مَدَاك، أن تمتّع بزَهْرتها، وتنال من لذّتها؛ وقد علمتَ بالمشاهدة من حالك وحال غيرك مايؤول أمر مَلاذّها إليه فى العاجل، وما يُتَوقَّع لمن آقتصر من دنياه عليها فى الآجل؛ فالمأكل والمَشْرب صائران إلى ماعلمته و إنما تحصل اللذّة بهما قبل الازدراد؛ والمَنْكح

والمركب فأنت وهما فى الموت والفَنَاءِ على مِيعاد، والملابس فستُخْلِقها الأيّام بعد الجِدّة ، والمساكن فستُعَفِّى الليالى آثارَها ولو بعد مُدّة؛ فإذا علمت أن مآل الدنيا إلى الزوال، وقُصَاراها إلى الآنتقال؛ وملاذّها فإلى هذه الغاية، والعمر فيها و إن طال سريعُ النهاية؛ فتقلّل منها حسب طاقتك، وآقتصر على ما تَسُدّ به بعض خَلّتك وفاقتك؛ وآعمل لآخرتك التى لا ينقضى أَمَدُها، ولا يفْنَى من النعيم الدائم مَدَدُها . ٥
وقد أمرتك الخير وليتنى به لو آئتمرت ، وأوضحتُ لك سبيل الرشاد وليتنى به لو مَرَرت

أمرتُكَ الخيرَ لكن ما آئتَمَرْتَ به ... وما آستقمتُ فما قولى لك : استقم !

وسأورد إن شاء الله على سمعك من هذا الباب ما إن تمسّكت به كان سببا لإرشادك، وذخيرةً تجدها فى يوم معَادِك . ١٠

ذكر بيان حقيقة الزُّهد

قال الإمام الأوحد العالم زين الدين حجّة المتكلّمين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالىّ الطُّوسىّ رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بإحياء علوم الدين : إعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين؛ وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات، لأن أبواب الإيمان كلّها كما قال السلف ترجع إلى عَقْد وقول وعمل . وكأنّ القول لظهوره أُقيم مقام الحال، إذ به يظهر الحال الباطن، وإلا فليس القول مرادًا بعينه؛ وإذا لم يكن صادرا عن حال سُمّى إسلاما ولم يسمَّ إيمانا؛ والعلم هو السبب فى الحال يجرى مَجْرى المُثْمِر، والعمل يجرى مجرى الثمرة . ١٥

فأما الحال فنعنى بها ما يُسمَّى زهدا، وهو عبارة عن آنصراف الرغبة عن الشىء إلى ما هو خير منه؛ فكلّ من عدل عن شىء إلى غيره بمعاوضة و بيع وغيره فإنّما عدل ٢٠

(١١٢) عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته فيه؛ فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يُسَمَّى [زهدا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمّى][(١)] رغبةً وحبّا؛ فإذًا يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبًا فيه[(٢)] هو خير من المرغوب عنه . وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عمّا ٥ ليس مطلوبا فى نفسه لا يسمَّى زاهدا، فتارك التراب والحجارة والحشرات لا يسمّى زاهدا، لأن ذلك ليس فى مَظِنّة الرغبة، وإنما يسمَّى زاهدا تاركُ الدراهم والدنانير . وشرط المرغوب فيه[(٢)] أن يكون عنده خيرًا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة، فالبائع لا يُقْدِم على البيع إلا والمُشتَرَى عنده خيرٌ من المَبِيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدًا فيه، وبالإضافة إلى العوض رغبةً وحبّا؛ ولذلك قال الله تعالى : ﴿وَشَرَوْهُ ١٠ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وشَرَوْه بمعنى باعوه، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمِعوا أن يخلُوَلهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحبّ إليهم من يوسف فباعوه طَمَعًا فى العِوَض . فإذًا كلُّ من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا، وكلُّ من باع الآخرةَ بالدنيا فهو أيضا زاهدٌ ولكن فى الآخرة؛ ولٰكنّ العادة جارية بتخصيص ٱسم الزهد بمن زهد فى الدنيا، كما خُصِّص ٱسم الإلحاد بمن يميل ١٥ إلى الباطل خاصّة، وإن كان هو الميل فى وضع اللسان . قال : ولما كان الزهد رغبةً عن محبوبٍ بالجملة لم يُتَصوَّر إلا بالعدول إلى شىء هو أحبّ منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأحبّ محال . والذى يرغب عن كلّ ما سوى الله تعالى حتى الفِرْدَوْس ولا يحبّ إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق . والذى يرغب عن كل حظٍّ يُنَال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة بل طمِع فى الحُور العِين والقُصور

٢٠ (١) زيادة عن الاحياء .
(٢) كذا فى الاحياء، وفى الأصل : «إليه» .

والفواكه والأنهار فهو أيضا زاهد ولكنّه دون الأوّل ؛ والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض، كالذى يترك المـال دون الجاه، أو يترك التوسّـعَ فى الأكل ولا يترك التجمّل فى الزينة فلا يستحقّ آسم الزهد مطلقا ؛ ودرجته فى الزهّاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين، وهو زهـدٌ صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة، فإنّ التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظّ النفس . والمُقْتصِر على ترك المحظورات لا يسمَّى زاهدا، وإن كان زهـد فى المحظور وآنصرف عنه ولكنّ العادة تخصّص هـذا الآسم بتارك المباحات . فإذًا الزهد عبارةٌ عن رغبةٍ عن الدنيا عدولًا إلى الآخرة، أو عن غير الله عدولًا إلى الله، وهى الدرجة العليا . وكما يُشْـترَط فى المرغوب فيـه[1] أن يكون خيرًا عنده ، فيُشْترَط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورًا عليه، فإنّ ترك ما لا تَقْدَر عليه محال، وبالترك يتبيّن زوال الرغبة ؛ ولذلك قيـل لآبن المبارك : يا زاهد ؛ فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز، إذ جاءته الدنيا راغمةً فتركها، وأما أنا ففيم زهدتُ !

* * *

وأما العلم الذى هو المُثْمِر لهذا الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرًا بالإضافة إلى المأخوذ، كعلم التاجر بأن العِوَض خيرٌ من المَبِيع فيرغب فيه، وما لم يتحقّق هـذا العلم لا يُتَصَوَّر أن تزول الرغبـة عن المَبِيع . فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خيرٌ وأبقى، أى لذّاتها خيرٌ فى نفسها وأبقى . فبقـدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوَى الرغبةُ فى البيع والمعاملة ؛ حتّى إنّ من قوِىَ يقينه يبيع نفسـه وماله، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ اللهَ آشْـتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

(١) كذا فى الإحياء، وفى الأصل : «المرغوب إليه» .

وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...) الآية، ثم بيّن أن صَفْقتهم رابحة فقال تعالى : (فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ)؛ فليس يُحتاج من العلم فى الزهد إلا إلى هٰـذا القدْر وهو أنّ الآخرة خيرٌ وأبقى؛ وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إمّا لضعف علمه ويقينه، وإما لآستيلاء الدنيا والشهوة فى الحال عليه ولكونه مقهورًا فى يد الشيطان، (١١٣) وإما لآغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يومًا فيومًا إلى أن يختطفه الموتُ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفَوْت . قال : وإلى تعريف خَسَاسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى : (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)، وإلى تعريف نَفَاسة الآخرة الإشارةُ بقوله عزّ وجل : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ)، فنبّه على أنّ العلم بنفاسته هو المُرَغِّب عن عِوَضه . قال : ولمّا لم يُتَصَوَّر الزهد إلا بمعاوضةٍ ورغبةٍ عن محبوب فى أحبَّ منه قال رجل : اللّهُمّ أَرِنِى الدنيا كما تراها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَا تَقُلْ هٰـذا ولٰكنْ قل اللّهمّ أَرِنى الدنيا كما أَرَيْتَها الصالحين من عبادك"، وهذا لأن الله يراها حقيرةً كما هى، وكلّ مخلوق فهو بالإضافة إلى جَلاله حقير، والعبدُ يراها حقيرةً فى حقّ نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له[1]، ولا يُتَصَوَّر أن يرى بائعُ الفرس وإن رغِب عن فرسه كما يرى حشرات الأرض [مثلا][2]، لأنّه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيًا عن الفرس؛ والله تعالى غنىٌّ بذاته عن كلّ ما سواه، فيرى الكلَّ فى درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراها متفاوتة بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذى يرى تفاوتَها بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره .

(١) كذا فى الاحياء، وفى الأصل : "الى ما هو خير منه" . (٢) زيادة عن الإحياء .

* * *

وأما العمل الصادر عن حال الزهـد : فهو تركٌ وأخذٌ، لأنه بيعٌ ومعاملة واستبدالُ الذى هو خير بالذى هو أدنى. فكما أنّ العمل الصادر من عقد البيع [هو ترك المَبِيع] [1] و إخراجه عن اليد وأخذ العِوَض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكُلِّيَّة وهى الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدّماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبّها ويُدخل حبَّ الطاعات ويُخرج من اليد والعين ما أخرجه من القلب، ويُوَظّف على اليـد والعين وسائر الجوارح وظائف من الطاعات، وإلّا كان كمن سـلّم المَبِيع ولم يأخذ الثمن. فإذا وفّى بشرط الجانبين فى الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذى بايع به. فإن الذى بايعه بهذا البيع وَفِيٌّ بالعهد. فمن سلم حاضرا فى غائب وسـلّم الحاضر وأخذ يسعى فى طلب الغائب سُـلّم إليه الغائبُ حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممـا يُوثَق بصـدقه وقُدْرته ووفائه بالعهد. وما دام مُمْسِكا للدنيا فلا يصح زهـده أصـلا. ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهـد فى بنيامين وإن كانوا قد قالوا : (لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا)، وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد يوسف حتى شفع فيـه أحدهم فترك؛ ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عنـد العزم على إخراجه إلا عنـد التسليم والبيع. فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج. فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط، ولست زاهدًا مطلقا. وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يُتصوَّر منك الزهد، لأن ما لا تقدر عليه لا تقدر على تركه. وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيّل [إليـك] [2] أنّ الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها، فلا ينبغى أن تتدلّى بحبل

(١) كذا فى الأخيرة، وفى الأصل: «[illegible]».

(٢) زيادة من الأخيرة.

غروره دون أن [تستوثق و] تستظهر بمَوْثِق(١) غليظ(٢) من الله تعالى، فإنّك إذا لم تجرّب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من ظانٍّ بنفسه كراهةَ المعاصى عند تعذّرها فلما تيسّرت له أسبابها من غير مُكَدِّر ولا مخوف من الخلق وقع فيها . وإذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات فإيّاكَ أن تثق بوعدها فى المباحات. والموثِق الغليظ الذى تأخذه عليها أن تجرّبها مرّة بعد مرّة فى حال القدرة، فاذا وفَتْ بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرًا و باطنًا فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما، ولكن تكون من تغيُّرها على حذَر، فإنّها سريعة النقض للعهد، قريبةُ الرجوع إلى مقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما تركت فقط وذلك عند القدرة . قال : وليس من الزهد بذل المال على سبيل السخاء والفُتُوّة وعلى سبيل استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع ، فذلك كلّه من محاسن العادات ولا مدْخل له فى العبادات ، إنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة . [فأمّا كل نوع من الترك فإنه يُتصوّر ممن لا يؤمن بالآخرة(١)] فذلك قد يكون مروءة وفتوّةً وسخاءً وحسن خُلُق، وحسن الذكر ومَيْل القلوب من حظوظ العاجلة ، وهى ألذّ وأهنأ من المال ؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمةً عفوًا وصفوًا وهو قادرٌ على التنعّم بها من غير نقصانِ جاه وقبح اسم وفوات حظٍّ للنفس، فتَرَكها خوفًا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبًّا لما سوى الله، و يكون مُشركا فى حبِّ الله غيرَ الله؛ أو تركها طَمَعًا فى ثواب آخرَ فترك التمتّع بأَشْرِبة الدنيا طمعًا فى أشربة الجنّة، وترك التمتّع بالسرارى والنسوان طمعًا فى الحُور العِين، وترك التفرُّج فى البساتين طمعًا فى بساتين الجنّة وأشجارها، وترك التزيُّن والتجمُّل بزينة الدنيا طمعًا فى زينة الجنّة، وترك المطاعم

(١) زيادة عن الاحياء .
(٢) كذا بالاحياء . وفى الأصل : «بموثق عليك» .

اللذيذة طمعًا فى فواكه الجنّـة وخوفًا من أن يقال له : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) فآثر فى جميع ذلك ما وُعِد به فى الجنّـة على ما تيسّر له فى الدنيا عفوًا صفوا، لعلمه بأن ما فى الآخرة خيرٌ وأبقى، وما سوى هـذه فمعاملات دُنيويّة لا جَدْوَى لهـا فى الآخرة أصلا . وحيث قدّمنا هذه المقدّمة من أحوال الزهد فى الحال والعلم فلنذكر بيان فضيلة الزهد وذم الدنيا . ٥

ذكر فضيلة الزهد وبغض الدنيـا

قال الله تعالى : (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)، فنسب الزهد الى العلماء ووصف أهله بالعلم، وذلك غاية الثناء، وقال تعالى : (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) جاء فى التفسير : على ١٠ الزهد فى الدنيا، وقال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) قيل : معناه أيّهم أزهد فى الدنيا، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ)، وقال تعالى : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) ... إلى قوله : (وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) . وقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "من أصبح وهمّه الدنيا شتّت الله عليـه أمره ١٥ وفرّق عليـه ضَيْعته وجعل فقره بين عينَيْه ولم يأته من الدنيـا إلا ما كُتِبَ له ومن أصـبح وهمّه الآخرةُ جمع اللهُ له أمره وحفظ عليه ضَيْعته وجعـل غناه فى قلبـه وأتته الدنيـا وهى راغمة"، وقال صلى الله عليه وسـلم : "إذا رأيتم العبدَ قد أُوتِى مَنْطِقًا وزهدًا فى الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقَّن الحكمة"[1]، وقال تعالى : (وَمَنْ يُؤْتَ

(١) الذى فى الاحياء «اذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا و زهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فإنه يُلقى الحكمة» ٢٠

الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)؛ ولذلك قيل : من زهد فى الدنيا أربعين يومًا أجرى الله ينابيعَ الحكمةِ فى قلبه وأطلق بها لسانه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أردت أن يحبَّك الله فآزهَدْ فى الدنيا" فجعل الزهد سبباً للمحبّة؛ فمن أحبّه الله فهو فى أعلى الدرجات، فينبغى أن يكون الزهد فى أفضل المقامات . ولما سئل
٥ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامَ) وقيل له : ما هذا الشرح؟ قال : "إن النُّور إذا دخل القلب آنشرح له الصدر وآنفسح"، قيل : يارسول الله، هل لذلك من علامة ؟ قال : "نعمْ التجافى عن دار الغرور والإنابةُ إلى دار الخلود والآستعداد للموت قبل نزوله"؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آستَحْيُوا من الله حقّ الحياء" قالوا : إنا نستحيي[(1)]
١٠ من الله، قال: تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون"،فبيّن أن ذلك يناقض الحياء من الله . وقدم وفدٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنّا مؤمنون؛ قال : "وما علامة إيمانكم؟" فذكروا الصبرَ على البلاء، والشكرَ على الرخاء، والرضا بمواقع القضاء، وتركَ الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء؛ قال : "إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تَنَافَسُوا فيما عنه ترحلون"؛ فجعل الزهد
١٥ تكملةَ إيمانهم . ورُوِى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ فى أصحابه بإبل عِشار حُفّل وهى الحوامل، وكانت من أحبّ أموالهم إليهم وأنْفَسِها عندهم، لأنها تجمع بين اللحم واللبن والوبر والظَّهْر، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغضّ بصرَه، فقيل له : يارسول الله، هذه أنْفَسُ أموالنا، لم لا تنظر إليها؟ فقال : قد نهانى الله عن ذلك، ثم تلا قوله تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
٢٠ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) . وروى مسروق عن

(١) الذى بإحياء العلوم : «إنا لنستحيي منه تعالى، فقال : ليس كذلك، تبنون الخ» .

عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت : يارسول الله، ألا تستطعم الله فيُطْعِمَك ؟ قالت : و بكيت لِمَا رأيت به من الجوع. فقال : " ياعائشة والذى نفسى بيده لو سألت ربِّى أن يُجْرِىَ معى جبالَ الدنيا ذَهَبًا لأجراها حيثُ شئتُ من الأرض ولكن ٱخترتُ جُوعَ الدنيا على شِبَعها وفقر الدنيا على غِناها وحزن الدنيا على فرحها يا عائشة إنّ الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة إن الله لم يرضَ لأُولى العزم من الرسل إلا الصبرَ على مكروه الدنيا والصبرَ عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن يُكَلِّفنى ما كلَّفهم فقال (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) والله مالى بُدٌّ من طاعته وإنّى والله لأصبِرَنّ كما صَبَرُوا جهدى ولا حَوْلَ ولا قُوَّة إلّا بالله" .

وروى عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنّه حين فُتِح عليه الفتوحاتُ قالت له ٱبنته حفصة : ٱلبَسْ لَيِّنَ الثياب إذا وفَدَت عليك الوفود من الآفاق، ومُرْ بصَنْعة طعامٍ تَطْعَمُه وتُطعِم من حضر. فقال : ياحفصة ، ألستِ تعلمين أنّ أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته" قالت : بلى. قال : ناشدتُكِ الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لَبِث فى النبوّة كذا وكذا سنةً لم يشبَع هو ولا أهل بيته غُدْوَةً إلّا جاعوا عشيَّة ، ولا شبِعوا عشيَّةً إلا جاعوا غُدْوة؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنةً لم يشبَعْ من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم إليه [يوما] (١) طعامًا على مائدة فيها ٱرتفاع فشقّ ذلك عليه حتى تغيّر لونُه ثم أمر بالمائدة فرُفعت ووُضع الطعامُ على دون ذلك أو وُضع على الأرض؟ ناشدتك الله ، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عَبَاءَة مَثْنيّة فثُنِيَت له ليلةً أربعَ

(١) زيادة عن الإحياء .

طاقات فنام عليها، فلما ٱستيقظ قال: "منعتمونى قيامَ الليلة بهذه العَبَاءة ٱثنوها باثنتين كما كنتم تَثْنُونها" ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يَضَعُ ثيابه لتُغْسَل فيأتيه بِلَالٌ فيُؤْذِنه بالصّلاة فما يجد ثوبًا يخرُجُ به إلى الصلاة حتى تجِفّ ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صَنَعَتْ له أمرأةٌ من بنى ظَفَر كساءَيْنِ إزارًا ورِداء وبعثَت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مُشتمل به ليس عليه غيرُه قد عَقَد طَرَفيه إلى عُنُقه فصلّى كذلك؟ فما زال [يقول](١) حتى أبكاها، وبكى عمر رضى الله عنه وٱنتحب حتى ظَنَنّا أنّ نفسه ستخرُج . وفى بعض الروايات زيادةٌ من قول عمر وهو أنّه قال : كان لى صاحبانِ سَلَكا طريقًا فإن سلكتُ غيرَ طريقهما سُلِكَ بى طريقٌ غيرُ طريقهما، وإنّى والله سأصبِر على عَيْشهما الشديد لَعَلّى أُدرك معهما عيشهما الرَّغيد . وعن أبى سَعيد الخدرىّ رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لقد كان الأنبياء قبلى يُبْتَلَى أحدُهم بالفقر فلا يَلْبَس إلا العَبَاءة وإن كان أحدهم لَيُبْتَلَى بالقَمْل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحبَّ إليهم من العَطَاء إليكم" . وعن ٱبن عبّاس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لما ورد موسى عليه السلام ماءَ مَدْيَن كانت خُضْرة البَقْل تُرى فى بطنه من الهُزَال" . وفى حديث عمر رضى الله عنه أنه لما نزل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ الآية﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَبًّا للدُّنيا! تبًّا للدِّينار والدرهم!" فقلنا : نهانا الله عن كَنْز الذهب والفضّة فأىَّ شىءٍ ندّخر؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "ليتّخِذْ أحدُكم لسانًا ذاكرا وقلبًا شاكرا وزوجةً صالحةً تُعينه على أمر آخرته" . وفى حديث حُذيفة رضى الله عنه عن النبىّ صلى عليه وسلم "مَنْ آثر الدنيا

(١) زيادة من الإحياء .

على الآخرة ٱبتلاه الله تعـالى بثلاث همًّا لا يُفارق قلبَـه أبدا وفقرًا لا يَسْتَغْنِى أبدا وحِرْصًا لا يشبَعُ أبدا" . وقال صلى الله عليه وسلم : "لا يستكمل العبدُ الإيمانَ حتّى يكون ألّا يُعْرَف أَحَبَّ إليـه مِن أن يُعْرَف وحتى تكون قِلّةُ الشيء أحبَّ إليه من كثرته" . وقال المسيح عليه السلام : الدنيا قَنْطرة فٱعبُرُوها ولا تعمُرُوها . وقيل له : يا نبيّ الله، لو أمرتنا أن نبتنى بيتًا نعبُدُ الله فيه! قال : ٱذهبوا فٱبنوا بيتًا على المـاء، فقالوا : كيف يستقيم بُنْيانٌ على المـاء! قال : وكيف تستقيم عبادةٌ مع حُبّ الدنيا! وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ ربّى عَرَض علىّ أن يجعل لى بَطْحاء مكة ذهبا فقلت لا يا ربّ ولكن أجوع يومًا وأشبَعُ يوما فأمّا اليوم الذى أجوع فيـه فأتضرّعُ إليك وأدعوك وأمّا اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأُثْنى عليـك" . وعن ٱبن عبّاس رضى الله عنهما قال : "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريلُ معه فصعِد على الصّفا، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحقّ ما أمسى لآل محمد كفُّ سَوِيق ولا سَفّةُ دقيق، فلم يكن كلامه بأسرَعَ من أن سمِـع هدّةً من السماء أفظعتْه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال : لا، ولكن هـذا إسرافيل قد نزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيلُ فقال : إنّ الله عز وجلّ سمِـع ما ذكرتَ، فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعْرِض عليك إنْ أحببتَ أن أُسَـيِّر[1] معك جبالَ تِهامة زُمُرّدًا وياقوتًا وذهبا وفِضّة فعلت، وإن شِئْتَ نبيًّا مَلِكًا وإن شئت نبيًّا عبدا، فأومأ إليه جبريلُ أن تواضَعْ لله، فقال : "نبيًّا عبدا" ثلاثا . وقال صلى الله عليه وسلم "إذا أراد الله بعبد خيرًا زَهّده فى الدنيا ورَغّبه فى الآخرة وبَصّره بعيوب نفسه" . وقال صلى الله عليه وسلم : "من أراد أن يُؤْتيه الله علماً بغير تَعَلُّم وهُدًى بغير هِداية فليَزْهَدْ فى الدنيا" .

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «أن تسير ...» .

وقال صلى الله عليه وسلم : "من آشتاق إلى الجنّة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لهَـا عن الشهوات ومن ترقَّب الموت ترك اللذّات ومن زَهِـد فى الدنيا هانت عليه المصائب" . والأحاديث فى ذلك كثيرة وفيما ذكرناه منها كفاية ، فلنذكر ما جاء من ذلك فى الأثر .

٥ قيل : جاء فى الأثر : لاتزال لا إله إلّا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يَسْألوا ما نقص من دُنياهم ، وفى لفظ آخر: ما لم يُؤْثِروا صَفْقة دنياهم على دِينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين . وعن بعض الصحابة رضى الله عنهـم أنه قال : تابعنا الأعمالَ كلَّها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زُهد الدنيا . وقال بعض الصحابة لصـدر التابعين : أنتم أكثر أعمالًا وآجتهادًا من أصحاب رسول الله ١٠ صلى الله عليه وسلم وكانوا خيرًا منكم ، قيل : ولم ذاك؟ قال : كانوا أزهدَ فى الدنيا منكم . وقال عمر رضى الله عنـه : الزهادة فى الدنيا راحةُ القلب والجسد . والآثار أيضا فى ذلك كثيرة فلا نُطوِّل بسردها .

ذكر بيـان ذم الدنيا وشىء من المواعظ والرقائق الداخلة فى هذا الباب

١٥ وقد ورد فى كتاب الله عز وجل كثيرٌ فى ذمّ الدنيا وصَرْف الخلق عنها ودَعْوتهم إلى الآخرة ، وهو أيضا مقصود الأنبيـاء ولذلك بُعثوا ، فلا حاجةَ إلى الآستشهاد بالآيات لظهورها . فلنذكر نُبْـذة من الأخبار والآثار الواردة فى ذلك ، وذلك من جملة ما آختاره الغزالىّ رحمه الله فى كتابه المترجم بإحياء علوم الدين ، فمن ذلك ما رُوِى (١١٧) عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه مرّ على شاة ميّتة فقال : "أتَرَوْنَ أن الشاة هيِّنةٌ على ٢٠ أهلها"؟ قالوا : مِن هَوَانِها عليهم أَلقَوْها ، قال : "والذى نفسى بيده لَلدنيا أهونُ على

الله من هـٰذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدِل عند الله جَناح بَعُوضة ما سَقَى كافرًا منها شربة [ماء](١)". وقال صلى الله عليه وسلم : "الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ما كان لله منها" . وقال صلى الله عليه وسلم : "حُبُّ الدنيا أُسُّ كلِّ خَطيئة" . وقال صلى الله عليه وسلم : " ياعَجَبًا كلَّ العَجَب لِلْمُصَدِّق بدار الخُلود وهو يسعى لدار الغرور! " . ٥

ورُوِى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مَزْبَلة فقال : " هَلُمُّوا إلى الدنيا وأخذ خِرَقًا قد بَلِيَتْ على تلك المزبلة وعظامًا قد نَخِرت فقال هٰذه الدنيا" وهـذه إشارةٌ إلى أنّ زِينتها ستخلق مثل تلك الخِرَق . وأنّ الأجسام التي تُرَى بها ستصير عظاما بالية . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : لا تتّخذوا الدنيا رَبًّا فتتَّخِذَكم عبيدا ، اكنِزُوا كَنْزَكم عند من لا يُضيِّعه ، فإنّ صاحب كنز الدنيا يخاف ١٠ عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة . وقال أيضا : يامعشر الحَوَارِيِّين ، إنى قد أَكْبَبْتُ لكم الدنيا على وجهها فلا تَنْعَشوها بعدى . فإنّ من خبث الدنيا أنّ الله عُصِى فيها ، و إن من خبث الدنيا أنّ الآخرة لا تُدْرَك إلا بتركها ، أَلَا فاعبُرُوا الدنيا ولا تعمُروها ، واعلموا أن أصلَ كلِّ خَطيئة حبُّ الدنيا ، وربَّ شهوة أورثتْ حُزْنًا طويلا . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله جلّ ثناؤه لم يخلُقْ ١٥ خلقًا أبغضَ إليه من الدنيا و إنه منذ خَلَقها لم ينظر إليها" . وقال صلى الله عليه وسلم : " ألهاكم التكاثُرُ يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيتَ أو لبست فأبليتَ أو تصدّقت فأبقَيْتَ !" . وقال صلى الله عليه وسلم : " الدنيا دار من لا دارَ له ومالُ من لا مالَ له ولها يجمع مَن لا عقلَ له وعليها يُعادِى من لا علمَ له

٢٠

(١) زيادة عن الإحياء .

وعليها يَحْسُد من لا فِقْهَ له ولهـا يسعى من لا يَقِينَ له". وقال صلى الله عليه وسلم: "من أصبح والدنيا أكبرُ همِّه فليس من الله فى شىء وألزم الله قلبـه أربعَ خِصال همًّا لا ينقطع عنه أبدا وشُغْلًا لا يتفرّغ منه أبدا وفقرًا لا يبلغ غناه أبدا وأَمَلًا لا يبلغ منتهاه أبدا". وقال أبو هُريرة رضى الله عنه: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا هُريرة أَلَا أُرِيك الدنيا جميعا بمـا فيها" قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدى وأَتَى بى واديًا من أودية المدينة، فإذا مَزْبَلة فيها رُءوس نَاس وعَذِرات وخِرَقٌ وعظام، ثم قال: "يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرِصُ كحِرْصكم وتأمُلُ آمالَكم هى اليـوم عظامٌ بلا جِلْد ثم هى صائرة رمادًا وهٰـذه العَذِرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قَذَفُوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامَوْنَها وهٰـذه الخِرَق البالية كانت رِياشَهم ولباسَهم فأصبحت الرياح تُصَفِّقها وهـذه العظام عظام دَوَابِّهم التى كانوا ينتجعون عليها أطرافَ البـلاد فمن كان باكيًا على الدنيا فليَبْك"، قال: فما بَرِحْنا حتى اشتدّ بكاؤنا. وقال صلى الله عليه وسلم: "الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لا ينظر إليها وتقول يوم القيامة: يارب اجعلنى لأدنى أوليائك نصيبًا اليوم فيقول اسـكُتى يالا شىء إنى لم أَرْضَكِ لهم فى الدنيـا أأرضاك لهم اليوم"! . وقال صلى الله عليه وسلم: "لَيَجِيئَنَّ أقوامٌ يوم القيامة وأعمالهم كجبال تِهامة فيُؤْمَرُ بهم إلى النار" قالوا: يارسول الله، مُصَلِّين؟ قال: "نعم [كانوا](1) يُصَلُّون ويَصُومون ويأخذون هَنَةً من الليـل فإذا عرض لهم من الدنيا شىء وَثَبُوا عليـه". وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خُطَبـه: "المؤمن بين مخافتين بين أَجَل قد مضى لايدرى ما الله صانعٌ فيـه وبين أجلٍ قـد بَقِى لايدرى ما الله قاضٍ فيه فليتَزَوّد العبدُ من نفسه لنفسه ومن دنيـاه لآخرته ومن حياته لِمَوْته ومن

(1) زيادة عن الاحياء.

شَبابه لِهَرَمه فإن الدنيـا خُلِقَتْ لكم وأنتم خُلِقْتم للآخرة والذى نفسى بيـده ما بعد الموت مُسْتَعْتَب ولا بعـد الدنيا من دار إلا الجَنّة أو النار". وقال صلى الله عليـه وسلم : "احذروا الدنيا فإنهـا أسحرُ من هَارُوتَ ومَاروتَ" . وقال عليه السلام لأصحابه : "هل منكم مَن يريد أن يُذْهِب الله عنه العَمى و يجعلَهُ بصـيرا أَلَا إنه من رغِب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبَه على قَدْر ذٰلك، ومن زَهِد فى الدنيا وقَصُر أملُه فيها أعطاه الله علمًا بغـير تَعَلُّم وهُدًى بغـير هِداية ألا إنه سيكون بعـدكم قوم لا يستقيم لهم المُلْك إلا بالقتل والتَّجَبُّر ولا الغـنى إلا بالفَخْر والبُخْل ولا المحبّـة إلا باتّبـاع الهوى أَلَا فمَنْ أدرك ذٰلك الزمان منكم فصَـبَرَ للفقر وهو يقدِر على الغِنٰى وصَبَرَ على البَغْضَاء وهو يقدِر على المحبّة وصَبَرَ للذُّلّ وهو يقدِر على العِزّ لا يريد بذلك إلا وجهَ الله تعـالى أعطاه الله ثوابَ خمسين صِدّيقا" . وقال عيسى بن مريم عليه السـلام : وَيْلٌ لصاحب الدنيا ! كيف يموت ويتركها ، وبأَمَنُها وتَغُرّه ، ويَثِق بها وتخـذُله ! ، وويلٌ للمغترّين ! كيف أرتْهم ما يكرهون ، وفارقهم ما يحبّون ، وجاءهم ما يُوعَدون ! وويلٌ لمن الدنيا هَمُّه ، والخطايا عملُه كيف يفتضح غدًا بذنبه ! وقيل له : علِّمنا علمًا واحدًا يحبّنا الله عليه ، قال : أَبْغِضوا الدنيا يحبَّكم الله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو تعلمون ما أعلم لضَحِكتم قليـلًا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة" .

ومن الآثار فى ذلك ما حكاه داود بن هلال قال : مكتوبٌ فى صحف إبراهيم عليه السلام : يادنيا ، ما أهونَك على الأبرار الذين تصنّعْتِ وتزيّنْتِ لهم ! إنى قذفتُ فى قلوبهم بغضَك والصدودَ عنك . وما خلقتُ خَلقًا أهونَ علىّ منك ، كلّ شأنك صغير ، وإلى الفناء تصيرين ، قضيتُ عليك يوم خلقتُك أَلّا تدومى لأحد ولا يدوم أحدٌ لك وإن بَخِل بك صاحبُك وشحّ عليك ، طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهـم على

الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة! طوبى لهم، مالهم عندى من الخير إذا وفدوا إلىّ من قبورهم [إلا] (١) النورُ يسعى أمامهم والملائكةُ حافُّون بهم حتى أُبَلِّغهم مايرجُون من رحمتى . وقال عمّار بن سعيد : مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقرية فإذا أهلُها موتى فى الأفنية والطرق، فقال : يامعشر الحواريّين، إن هؤلاء ماتوا عن سَخْطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لَتدافنُوا؛ فقالوا : ياروح الله، وَدِدْنا أنّا علمنا خبرهم، فسأل اللهَ تعالى فأوحى إليه : إذا كان الليل فنادِهم يُجيبوك؛ فلما كان الليل أشرف على نَشْز، ثم نادى يا أهلَ القرية، فأجابه مُجيب لَبّيْكَ ياروح الله؛ فقال: ما حالكم وما قِصّتكم؟ قال : بِتْنا فى عافية وأصبحنا فى الهاوية؛ قال : وكيف ذاك؟ قال (٢) : لحُبِّنا الدنيا وطاعتِنا أهلَ المعاصى؛ قال : وكيف كان حبّكم للدنيا؟ قال : حُبّ الصبيّ لأُمّه، إذا أقبلت فرِح بها، وإذا أدبرت حزِن وبكى عليها؛ قال : فما بال أصحابك لا يُجيبونى؟ قال : لأنهم مُلْجَمون بلُجُم من نار بأيدى ملائكةٍ غِلاظ شِداد؛ قال : فكيف أجبتنى من بينهم؟ قال : لأنّى كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم، فأنا مُعَلّق على شَفِير جهنّم لا أدرى أنجُو منها أم أُكَبُّ فيها؛ فقال المسيح للحواريّين : لَأَكْلُ الخبز الشعير بالملح الجَرِيش ولُبْسُ المُسُوح والنوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدنيا والآخرة . قيل : وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : أن يا موسى لا تركَنَنّ إلى حبّ الدنيا فلن تأتينى بكبيرة هى أشدّ منها .

وقال لُقْمان لابنه : يا بُنَىّ، إن الدنيا بحر عميق وقد غرِق فيه ناسٌ كثير، فلتكن سفينتُك فيها تَقْوى الله عز وجل، وحَشْوُها الإيمان بالله تعالى، وشِراعُها التوكّل على الله عز وجل، لعلك تنجو وما أراك ناجيا . وقال بعض الحكماء : إنك لن تُصبح

(١) زيادة عن الاحياء ج ٣ ص ١٨٨

(٢) فى الأصل وفى الاحياء : «قالوا» والسياق يقتضى الإفراد .

فى شىء من الدنيا إلا وقد كان له أهلٌ قبلك و يكون له أهلٌ بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عَشاءُ ليـلةٍ وغداءُ يوم ، فلا تَهلِكْ فى أَكْلة ، وصُم [عن](١) الدنيا وأَفْطِر على الآخرة ، و إنّ رأس مال الدنيا الهوى و ربحها النار .

وقيـل لبعضهم : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخْلِق الأبدان ، و يُجَدِّد الآمال ، و يُقَرِّب المنيّة ، و يُبْعِد الأُمْنيّة ؛ قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفِر به تَعِب ، ومن فاته نَصِب . و فى ذلك قيل

ومَنْ يَحْمَدِ الدنيا لعيش يَسُرُّه ❊ فسوف لعمرى عن قريب يَلُومُها
إذا أَدْبرتْ كانتْ على المرءِ حَسْرَةً ❊ و إن أقبلتْ كانتْ كثيرًا هُمُومُها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإنّ عيشَها نَكَد ، وصفوها كَدَر ، وأهلَها منها على وجل ، إمّا بنعمة زائلة ، أو بليّة نازلة ، أو منيّة قاضية . وقال أبو حازم : إيّاكم والدنيا ، فإنه بلغنى أنه يُوقف العبدُ يوم القيامة إذا كان مُعظِّمًا للدنيا فيقال : هذا عظَّم ما حقّره الله . وقال ٱبن مسعود : ما أصبح أحدٌ من النـاس إلا وهو ضَيْفٌ وماله عارية ، فالضيف يرتحل والعارية مردودة . وفى ذلك قيل

وما المـالُ والأهلون إلّا وديعةٌ ❊ ولا بُدّ يومًا أنْ تُرَدَّ الودائعُ

وزار رابعةَ العـدويّةَ أصحابُها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمّها ، فقالت : أَمسِكوا عن ذكرها ، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ، ألا من أحبّ شيئا أكثر من ذكره . وقال رجل لعلىّ رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا الدنيا ؛ فقال : وما أَصِفُ لكم مِنْ دار مَنْ صَحّ فيها ما أَمِنَ ، ومن سَقِم فيها نَدِم(٢) ، ومن ٱفتقر

(١) الزيادة عن الاحياء .

(٢) كذا بالأصلين ، وفى الاحياء (ج ٣ ص ١٩٢) : «مَن صحّ فيها سقِم ، ومن أمن فيها ندم» .

فيها حزن، ومن آستغنى فيها فُتن، فى حَلالها الحِسابُ، وفى حرامها العذاب . وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا) : من قال ذا ؟ مَنْ خلقها مَن هو أعلم بها، إياكم وما شَغَل من الدنيا فإن الدنيا كثيرةُ الأشغال، لا يفتح رجلٌ على نفسه بابَ شغل إلا أوشك ذلك البابُ أن يفتح عليه عَشْرةَ أبواب . وقال أيضا : مسكينٌ آبنُ آدم رَضِى بدار حلالُها حساب، وحرامُها عذاب، إن أخذه من حلّه حُوسب به، وإن أخذه من حرامٍ عُذِّب به، آبن آدم يستقلّ ماله ولا يستقلّ عمله، يفرَح بمصيبته فى دِينه ويجزَع من مصيبته فى دنياه . وقال داود الطائىّ : يابن آدم، فرِحتَ ببلوغ أملك، وإنّما بلغتَه بآنقضاء أجلك، ثم سوّفتَ بعملك، كأنّ منفعته لغيرك . وقال بِشْر : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طُولَ الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم : ما فى الدنيا شىء يَسُرّك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن : أَهِينوا الدنيا، فوالله ما هى لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها . وقال أيضا : إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أعطاه عطيّةً من الدنيا ثم يُمسك، فإذا نفِد أعاد عليه، وإذا هان عليه عبدٌ بَسَط له الدنيا بَسْطا . قال الجنيد : كان الشافعى رحمه الله من المُريدين الناطقين بلسان الحقّ فى الدين، وَعَظ أخًا له فى الله تعالى وخوّفه بالله فقال : يا أخى، إنّ الدنيا دَحْضٌ مَزِلّة، ودار مَذَلّة، عُمْرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفُرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يَسار، فآفْزَع إلى الله وآرضَ برزق الله . لا تَسْتسلف من دار بقائك فى دار فَنائك، فإنّ عيشك فَىءٌ زائل، وجدارٌ مائل، أكثِرْ من عملك، وقَصِّرْ من أملك . وهذا من أبلغ المواعظ والترغيب .

ومن المواعظ ما قاله أبو الدرداء رضى الله عنه : والله لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصُّعُدات [تجأرون و](1) تبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارسَ

(١) زيادة عن الاحياء .

لهـا ولا راجع إليها إلّا ما لا بدّ لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الأمل، فصارت الدنيـا أملك بأعمالكم وصرتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شرٌّ من البهائم التى لا تدع هواها مخافةً ممـا فى عاقبتـه. ما لكم لا تحابُّون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين [الله][1]؛ ما فرّق بين أهوائكم إلا خُبْث سرائركم، ولو اجتمعتم على البرّ لتحاببتم. ما لكم تناصحون[2] فى أمر الدنيـا ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يُحبّه ويُعينه على أمر آخرته! ما هذا إلا من قلّة الإيمـان فى قلوبكم. لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرّها كما تُوقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنّها أملك بأموركم. فإن قلتم: حبّ العاجلة غالب، فإنّا نراكم تَدَعون العاجل من الدنيا للآجل ممـا تكُدّون أنفسكم بالمشقّة والاحتراف فى طلب أمرٍ لعلكم لا تُدركونه. فبئس القوم أنتم! ما حقّقتم إيمانكم بما يُعْرَف به الإيمان البالغ فيكم. فإن كنتم فى شكٍّ ممـا جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأتونا لنبيّن[3] لكم ولنريكم من النور ما تطمئنّ إليه قلوبكم. والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم؛ إنكم لتتبيّنون صواب الرأى فى دنياكم وتأخذون بالحزم فى أموركم. مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تُصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، يتبين ذلك فى وجوهكم ويظهر على ألسنتكم، وتسمُّونها المصائب وتُقيمون فيها المآتم؛ وعامّتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبيّن ذلك فى وجوهكم[4] ولا يتغيّر حالٌ بكم! إنى لأرى الله قد تبرّأ منكم. يلقى بعضكم بعضًا بالسرور، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبَه بمـا يكره مخافةَ أن يستقبله صاحبُه بمثـله، فاصطحبتم[5] على

---

(١) زيادة عن الإحياء. (٢) فى الأصلين: «مالكم لاتناصحون فى أمر الدنيا» بدخول لا النافية والسياق يقتضى حذفها. وفى الإحياء: «ما لكم تناصحون فى أمر الدنيا ولا تناصحون فى أمر الآخرة ولا يملك أحدكم ...». (٣) كذا فى الإحياء، وفى أحد الأصلين: "فأتونا فلنبيّنن لكم ولنريكم" بتوكيد الأوّل وفى أصل آخر هكذا من غير توكيد. (٤) كذا فى الإحياء، وفى الأصلين: «ثم لا يتبين ذلك فى وجوههم». (٥) كذا فى الإحياء، وفى الأصل: «فأصبحتم على الغل ...».

الغِلّ، ونبتت مراعيكم على الدِّمَن، وتصافيتم على رفض الأجل . ولَوَددت أن الله أراحنى منكم وألحقنى بمن أُحبّ رؤيته، ولو كان حيًّا لم يصابركم . فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم، وإنْ تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا . واللهَ أستعين على نفسى وعليكم .

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله تعالى : «أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أُنزل آدمُ عليه السلام من الجَنّة إليها عقوبة؛ فاحذرْها يا أمير المؤمنين، فإنّ الزاد منها تركُها، والغِنَى منها فقرها؛ لها فى كل حين قتيل؛ تُذِلّ من أعزّها، وتُفقر من جمعها؛ هى كالسمّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه؛ فكن فيها كالمُداوِى جراحتَه، يَحْتمى قليلا مخافةَ ما يكره طويلا، ويصبر على شدّة الدواء مخافة طول الداء؛ فاحذر هذه الدار الغدّارة الختّالة الخدّاعة التى قد تزيّنت بخُدَعها وفتنت بغرورها، وحلّت بآمالها، وسوّفت بخطّابها؛ فأصبحت كالعروس المجلوّة[(١)]، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهى لأزواجها كلّهم قالية؛ فلا الباقى بالماضى معتبِر، ولا الآخر بالأوّل مزدجِر، والعارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مدّكر؛ فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغترّ وطغى ونسى المعاد، فشغل لبّه حتى زلّت [به][(٢)] قدمه، فعظُمت ندامته، وكثُرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألّمه، وحسرات الفوت بغُصّته؛ وراغب فيها[(٣)] لم يدرك فيها ما طلب، ولم يروّح نفسه من التعب؛ فخرج بغير زاد، وقدِم على غير مِهاد؛ فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون لها، فإنّ صاحب الدنيا كلما اطمأنّ فيها إلى سرورٍ أشخصته إلى مكروه؛ السارّ فيها أهلَها غارّ، والنافع فيها غدّار[(٤)] ضارّ؛ وقد وُصل الرخاءُ فيها بالبلاء، وجُعل البقاء فيها

(١) فى الأصل «المجليّة» والفعل واوى كما فى القاموس . (٢) زيادة من الاحياء .
(٣) كذا فى الاحياء وفى الأصلين : «ومن راغب» بزيادة «من» والسياق يأباها .
(٤) كذا فى الإحياء، وفى الأصلين : «والنافع فيها غدا ضارّ» .

إلى فَناء، فسرورها مشوبٌ بالأحزان، لا يرجع منها ما ولّى وأدبر، ولا يُدْرَى ما هو آتٍ فينتظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كَدَر، وعيشُها نكد، وآبن آدم فيها على خطر، ومن البلاء على حَذَر، فلو كان الخالق لم يُخبر عنها خبرا، ولم يضرب لها مثلا، لكانت الدنيا أيقظت النائم ونبّهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر، وفيها واعظ! فما لها عند الله، جل ثناؤه قَدْر، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عُرضت على نبيّك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا يَنْقصه ذلك عند الله جناحَ بعوضة فأبى أن يقبلها إذ كره أن يُخالف على الله أمره، أو يُحِبّ ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وَضع مليكه. فزَوَاها[1] عن الصالحين آختبارا. وبَسطها لأعدائه آغترارا، فيظنّ المغرور المقتدر عليها أنه أُكْرِم بها، ونسي ما صنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شدّ الحجر على بطنه. ولقد جاءت الرواية عنه عن ربّه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغنى مُقبلاً فقل: ذَنْبٌ عُجِّلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلًا فقل: مرحبًا بشعار الصالحين. فإن شئتَ آقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى بن مريم عليه السلام فإنه كان يقول: إدامى الجوع، وشعارى الخوف، ولباسى الصوف، وصِلائى فى الشتاء مشارق الشمس، وسراجى القمر، ودابّتى رجلاى، وطعامى وفاكهتى ما تُنبت الأرض، أبيت ليس لى شىءٌ وأُصبح وليس لى شىءٌ وليس على الأرض أغنى منّى.

وقال بعضهم لبعض الملوك: إن أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها من بُسط له فيها وأُعطى حاجتَه منها، لأنه يتوقّع آفةً تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جَمْعه فتفرِّقه، أو تأتى سلطانَه فتهدمه من القواعد، أو تدبّ إلى جسمه فتُسْقمه، أو تَفْجَعه بشىء هو ضنين به من أحبابه. فالدنيا أحقّ بالذمّ، هى الآخذة لما تُعطى، الراجعة فيما

(١) زواه زَيًّا و زُوِيًّا: نحّاه.

تَهَب؛ بينا هى تُضْحِك صاحبَها إذ أضحكت منه غيرَه، و بينا هى تبكى له إذ بكت عليه، و بينا هى تبسُط كفَّه بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد؛ تعقِد التاج على رأس صاحبها اليوم وتُعَفِّره فى التراب غدا؛ سواء عليها ذَهاب ما ذهب و بقاء ما بقى، تجد فى الباقى من الذاهب خَلَفا، وتَرْضَى بكُلٍّ من كلٍّ بَدَلا .

٥ وعن وهب بن مُنَبِّه أنه قال : لما بعث الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يَرُوعنّكما لباسُه الذى لبِس من الدنيا، فإنّ ناصيته بيدى ليس ينطِق ولا يطرِف ولا يتنفّس إلا بإذنى، ولا يُعجبنّكما ما مُتِّعَ به منها فإنما هى زَهْرة الدنيا وزينة المُتْرَفين، فلو شئتُ أن أُزَيِّنكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ قدرته تعجِزُ عمّا أُوتيتما لفعلت، ولكنِّى أرغب بكما عن ذلك فأَزْوِى

١٠ ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائى. إنى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلَكة، وما ذاك لهوانهم علىّ ولكن ليستكملوا نصيبَهم من كرامتى سالمًا مُوَفّرا، إنما يتزيّن لى أوليائى بالذُّلّ والخضوع والخوف والتقوى تَنْبُت فى قلوبهم فتظهر على أجسادهم، فهى ثيابهم التى يلبَسون، ودِثارهم الذى يُظهرون، وضميرُهم الذى يستشعرون، ونجاتُهم التى بها يفوزون، ورجاؤهم الذى إيّاه يأْمُلون،

١٥ ومجدهم الذى به يفخَرون، وسيماهم التى بها يُعْرَفون؛ فإذا لقيتَهم فاخفِضْ لهم جَناحك وذلِّل لهم قلبك ولسانك؛ واعلم أنّ من أخاف لى وليًّا فقد بارزنى بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يوما [خطبة] (١) فقال فيها :

اعلموا أنكم ميِّتون، ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومَجْزِيُّون بها،

٢٠ فلا تَغُرّنكم الحياة الدنيا، فإنّها بالبلاء محفوفة، و بالفَناء معروفة، و بالغدر موصوفة؛

(١) زيادة عن الاحياء .

وكلّ ما فيها إلى زوال، وهى بين أهلها دُوَلٌ وسِجال، لا تدوم أحوالهـا، ولا يسلَم من شرها نُزّالها، بينا أهلُها فى رخاءٍ وسرور، إذا هم منها فى بلاءٍ وغرور، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنمـا أهلها فيها أغراضٌ مُستهدَفَةٌ ترميهم بسهامها، وتُقْصِيهم بحمامها، وكلٌّ حتفُه فيها مقدور، وحظُّه فيها موفور. وآعلموا عبادَ الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيلِ مَنْ ٥ قد مضى ممن كان أطولَ منكم أعمارا، وأشدّ منكم بَطْشًا وأَعْمر ديارا، وأبعد آثارا، فأصبحت أصواتهم هامدةً وخامدةً من بعد طُول تقلُّبها، وأجسادُهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، آستبدلوا بالقصور المشيَّدة، والسُّرُر والنمارق الممهَّدة، الصخورَ والأحجارَ المُسْنَدة، فى القبور اللاطئة المُلْحَدَة، فمحلُّها مُقترِب، وساكنُها مُغترِب، بين أهل عِمارةٍ مُوحشين، وأهل مَحَلَّة مُتشاغلين، لا يستأنسون بالعُمْران، ولا يتواصلون ١٠ تواصُلَ الجيران والإخوان، على ما بينهم من قرب المكان والجوار، ودنوّ الدار، وكيف يكون بينهم تواصـلٌ وقد طحنهم بكَلْكَله البِلَى، وأكلتهم الجنادل والثرى، وأصبحوا بعد الحياة أمواتا، وبعد غَضَارة العيش رُفاتا، فُجِع بهم الأحباب، وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات! كلّا إنّهـا كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يومِ يُبْعَثون. فكأنْ قد صِرْتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدة ١٥ فى دار المَثْوَى، وآرتُهِنتم فى ذلك المَضْجَع، وضمّكم ذلك المُستودَع، فكيف بكم لو قد عاينتم الأمور، وبُعْثِرت القبور، وحُصِّل ما فى الصدور، ووُقِفْتم للتحصيل، بين يدى الملك الجليل، فطارت القلوب، لإشفاقها من سالف الذنوب، وهُتِكت عنكم الحجب والأستـار، وظهرت منكم العيوب والأسرار، هنالك تُجْزَى كلُّ نفسٍ ما كسبت. إن الله عز وجل يقول ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا ٢٠ بِالْحُسْنَى﴾، وقال تعالى ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ

يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ». جعلنا الله وإيّاكم عاملين بكتابه، مُتّبعين لأوليائه، حتّى يُحِلّنا وإيّاكم دارَ المُقَامة من فضله، إنّه حميد مجيد .

ومما يلتحق بهذا الفصل ويدخل فيه، خطبة قَطَرِيّ بن الفُجَاءة وسترد في كلام البلغاء في باب الكتابة .

وقال بعضهم : يا أيها الناس، ٱعملوا على مَهَل، وكونوا من الله على وَجَل، ولا تغترّوا بالأَمَل، ونسيان الأجل؛ ولا تركَنوا إلى الدنيا فإنّها غدّارة خدّاعة، قد تزخرفتْ لكم بغُرورها، وفتنتكم بأمانيها، وتزيّنت لخُطّابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة، العيونُ إليها ناظرة، والقلوبُ عليها عاكفة، والنفوسُ لها عاشقة؛ فكم من عاشقٍ لها قتلتْ، ومطمئنٍّ إليها خذلتْ؛ فٱنظروا إليها بعين الحقيقة فإنّها دارٌ كثُرت بوائقُها، وذمّها خالقها؛ جديدها يبلَى، ومالكها يفنَى؛ وعزيزُها يَذِل، وكثيرها يَقِلّ؛ وحيّها يموت، وخيرها يفوت؛ فٱستيقظوا من غفلتكم، وٱنتبهوا من رقدتكم؛ قبل أن يقال : فلانٌ عليل، أو مُدْنَفٌ ثقيل، فهل على الدواء من دليل، أو على الطبيب من سبيل؛ فيُدْعَى لك الأطبّاء، ولا يُرْجَى لك الشفاء؛ ثم يقال : فلان أوصَى، ولماله أحصَى؛ ثم يقال : قد ثَقُل لسانه فما يكلّم إخوانه، ولا يعرف جيرانه؛ وعرِق عند ذلك جبينُك، وتتابع أنينُك، وثبت يقينك[1]، وطمَحت جُفونك، وصدَقت ظنونك؛ وتلجلج لسانُك، وبكى إخوانك؛ وقيل لك : هذا ٱبنك فلان، وهذا أخوك فلان، ومُنِعْتَ الكلامَ فلا تنطق؛ ثم حلّ بك القضاء، وانتُزِعت نفْسُك من الأعضاء، ثم عُرِج بها الى السماء؛ فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأُحْضِرت

(١) كذا في الإحياء، وفي الأصلين : «وثبت نفسك ...» .

أكفانك، فغسّلوك وكفّنوك، فانقطع عُوّادك، وآستراح حُسّادك، وآنصرف أهلك إلى مالك، وبقيت مُرْتَهَناً بأعمالك .

وقال بعض الحكماء : الأيّام سِهام، والناسُ أغراض، والدهر يرميك كلَّ يوم بسهامه، ويتخرّمك بلياليه وأيّامه، حتّى يستغرق جميع أجزائك، فكم بقاءُ سلامتك مع وقوع الأيّام بك، وسرعةِ الليالى فى بدَنك! لو كُشِف لك[1] عما أحدثت الأيامُ فيك من النقص لآستوحشتَ من كلّ يوم يأتى عليك، وآستثقلت ممرّ الساعات بك، ولكنّ تدبير الله فوق تدبير الآعتبار، وبالسلو عن غوائل الدنيا وُجد طعمُ لذّاتها، وإنّها لأمرّ من العَلْقم إذا عَجَمها الحكيم، وقد أعيت الواصفَ لعيوبها بظاهر أفعالها، وما تأتى به من العجائب أكثر مما يُحيط به الواعظ . اللّهم أرشدنا للصواب .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال : أيها الناس، إنكم خُلِقتم لأمرٍ إن كنتم تصدِّقون [به][2] فإنكم حَمْقَى، وإن كنتم تكذّبون به إنكم لَهَلْكَى[3]، إنما خُلقتم للأَبَد، ولكنكم من دارٍ الى دارٍ تُنْقلون . عباد الله، إنكم فى دارٍ لكم فيها من طعامكم غَصَص، ومن شرابكم شَرَق، لا تصفو نعمةٌ تُسَرُّون بها إلا بفراق أُخْرى تكرهون فراقها، فآعملوا لما أنتم صائرون إليه خالدون فيه، ثم غلبه البكاء ونزل .

ذكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه

فأما درجاته فقد قال الغزالى رحمه الله : إنها تتفاوت بحسب تفاوت قوّته على درجاتٍ ثلاث :

الأولى وهى السفلى منها : أن يزهَد فى الدنيا وهو لها مُشتهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتةٌ ولكنّه يجاهدها ويَكُفّها، وهذا يسمَّى التزهُّد، وهو مبدأ الزهد

(١) كذا فى الاحياء، وفى الأصل : «لو كشفت عما ...» .

(٢) زيادة عن الاحياء . (٣) الذى فى الاحياء : «وان كنتم تكذّبون به فإنّكم هلكى» .

فى حق من يصل الى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد . والمتزهِّد يُذيب أوّلا نفسَه ثم كسبه، والزاهد يُذيب أوّلا كسبَه ثم يُذيب نفسه فى الطاعة لا فى الصبر على ما فارقه. والمتزهِّد على خَطَر، فإنه ربما تغلِبه نفسُه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها فى قليل أو كثير .

٥ الثانية : الذى يترك الدنيا طوعا[1] لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمِع فيه كالذى يترك درهمًا لأجل درهمين فإنّه لا يشُقّ عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل . ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه . فيكاد يكون مُعْجَبًا بنفسه وبزهده، ويظنّ بنفسه أنّه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرًا منه؛ وهذا أيضا نقصان .

١٠ الثالثة وهى العليا : أن يزهد طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنّه ترك شيئًا إذ عَرف أنّ الدنيا لا شىء، فيكون كمن ترك خَزَفَةً وأخذ جوهرةً فلا يرى ذلك معاوضةً ولا يرى نفسه تاركا شيئا [والدنيا بالإضافة الى الله ونعيم الآخرة أخسّ من خزفة بالإضافة الى جوهرة[2]]؛ فهذا هو الكمال فى الزهد، وسببه كمال المعرفة . وأما أقسامه فمنها ما هو مضاف إلى المرغوب فيه والمرغوب عنه؛ فأمّا المرغوب فيه

١٥ فهو على ثلاث درجات :

الأولى وهى السفلى : أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر مابين يدى العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار. وفى الخبر : "إن الرجل ليُوقَف فى الحساب حتّى لو وردتْ

---

(١) كذا فى الإحياء، وفى الاصل : «طاعة» .

٢٠ (٢) زيادة من الإحياء .

مائةُ بعيرٍ عطاشًا على عَرَقه لصَدَرَتْ رِوَاء"؛ فهذا زهد الخائفين وكأنّهم رَضُوا بالعدم لو أُعْدِموا فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم .

الدرجة الثانية : أن يزهد رغبةً فى ثواب الله ونعيمه واللّذات الموعودة فى جنّته من الحُور والقصور وغيره ، وهذا زهد الراجين ، فإنّ هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا فى وجودٍ دائم ونعيم سَرْمَدٍ لا آخر له . ٥

الدرجة الثالثة وهى العليا : ألا يكون له رغبة إلا فى الله وفى لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ، ولا إلى اللذّات ليقصد نيلَها والظفرَ بها ، بل هو مستغرق الهمّ بالله تعالى ، وهو الموحّد الحقيقىّ الذى لا يطلب غير الله تعالى ، لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكلّ مطلوب معبود . وكلّ طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه . وطلبُ غير الله من الشرك الخفىّ ، وهذا زهد المحبّين وهم العارفون ، لأنه لا يحبّ الله ١٠ تعالى خاصّة إلا من عرفه ؛ وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنّه لا يقدِر على الجمع بينهما لم يحبّ إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف لذّة النظر إلى وجهه الكريم ، وعرف أن الجمع بين تلك اللذّة وبين لذّة التنعّم بالحُور العِين والنظر الى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن ، فلا يحبّ إلّا لذّة النظر ولا يُؤْثِر غيره . قال : ولا تَظُنَّنّ أن أهل الجنّة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذّة الحُور والقُصور ١٥ مُتّسعٌ فى قلوبهم ، بل تلك اللذّة بالإضافة إلى لذّة نعيم الجنّة كلذّة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخَلْق بالإضافة الى الاستيلاء على عُصفور واللعب به ، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبىّ الطالب للّعب بالعصفور التارك للذّة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذّة الملك لا لأن اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى وألذّ من الاستيلاء بطريق الملك على كافّة الخلق . ٢٠

(١٣٤)

وأما المرغوب عنه ، فقد كثرت فيه الأقاويل ؛ قال الغزالىّ رحمه الله : لعلها تزيد على مائة قول ، وأشار إلى كلام محيط بالتفاصيل فقال : المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل .

أما الإجمال فى الدرجة الأولى : فهو كلّ ما سوى الله فينبغى أن يزهد فيه حتّى ٥ يزهد فى نفسه أيضا .

والإجمال فى الدرجة الثانية : أن يزهد فى كلّ صفةٍ للنفس فيها مُتعةٌ ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكِبْر والرياسة والمال والجاه وغير ذلك .

وفى الدرجة الثالثة : أن يزهد فى المال والجاه وأسبابهما ، إذ إليهما ترجع جميع ١٠ حظوظ النفس .

وفى الدرجة الرابعة : أن يزهد فى العلم والقدرة والدينار والدرهم [والجاه][1] ، إذ الأموال وإن كثُرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثُرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة ؛ قال : وأعنى به كلّ علم وقدرة مقصودهما ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها . قال : ١٥ فإن جاوزتَ هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فتكاد تُخْرِج ما فيه الزهدُ عن الحصر ، وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعةً منها فقال : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا) ، ثم ردّه فى آية أُخرى إلى خمسة فقال : (ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ) ٢٠ ثم ردّه فى موضع آخر إلى آثنين فقال : (وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) ، ثم ردّ الكلّ

(١) زيادة عن الإحياء .

فى موضع آخر إلى واحد فقال : (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَى)، فالهوى لفظٌ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا، فينبغى أن يكون الزهد فيه . قال : فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلّها . وقال أبو سليمان الدارانىّ : سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا، والزهد عندنا ترك كلّ شىء يشغَلك عن الله عز وجل، وقرأ قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)، قالَ : هو القلب الذى ليس فيه غيرُ الله . فهذا بيان أقسامه بالإضافة إلى المرغوب فيه وعنه .

وأما أحكامه فتنقسم إلى فرض ونفل وسلامة، فالفرض هو الزهد فى الحرام، والنفل هو الزهد فى الحلال، والسلامة هو الزهد فى الشبهات، فهذه درجاته وأقسامه وأحكامه على سبيل الآختصار .

ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

(١٢٥ ب) قال الغزالىّ رحمه الله : اعلم أنّ ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهمّ، فالفضول كالخيل المسوّمة — إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفّه بركوبها وهو قادر على المشى — وغيرِ ذلك مما لا ينحصر، ثم حصر المهمّ الضرورىّ فتميّز ما عداه أنّه فُضول . قال : والمهمّ أيضا يتطرّق إليه فضول فى مقداره وجنسه[1] وأوقاته على ما يشرحه من قوله . قال : والمهمّات ستّة أمور وهى : المطعم، والملبس، والمسكن وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه يطلب لأغراض .

فالمهمّ الأوّل المطعم، ولا بدّ للإنسان من قُوتٍ حلال يُقيم صُلبه، ولكن له طولٌ وعرض ووقت؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه قد لا يقنع به، وهو لا يقصُر إلا بقصر الأمل، وأقلّ درجات الزهد فيه الآقتصار على

(١) كذا فى الاحياء، وفى الأصل : «وحسبه ...» .

قدر دفع الجوع عند شدّته وخوف المرض، ومن هذا حاله فإذا آستقل بما تناوله لم يدّخر[1] من غَدائه لعَشائه، وهذه الدرجة العليا .

والثانية : أن يدّخر لشهر أو أربعين يوما .

والثالثة : أن يدّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهّاد، ومن آدّخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدًا محال، لأنّ من أمّل بقاءً أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدّا فلا يتمّ منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرضَ لنفسه الأخذ من أيدى الناس، كداود الطائىّ فإنّه ورِث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها عشرين سنة، فهذا لا يضادّ الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد .

وأما عرضه فبالإضافة الى المقدار، وأقل درجاته فى اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مُدّ، وهو ماقدّره الله تعالى فى إطعام المساكين فى الكفّارة، وما وراء ذلك فهو آتساع وآشتغال بالبطن . ومن لم يقدِر على الآقتصار على مُدّ لم يكن له من الزهد فى البطن نصيب .

وأما بالإضافة الى الجنس فأقلّه ما يَقوت وهو الخبز من النُّخالة ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلاه خبز البُرّ غير منخول، فإذا مُيِّزت النُّخالة منه وصار حُوّارَى فقد دخل فى التنعُّم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله .

وأما الأُدْم، فأقلّه المِلح أو البقل والخلّ، وأوسطة الزيت أو يسيرٌ من الأدهان، وأعلاه اللحم وذلك فى الأسبوع مرّة أو مرّتين ، فإن صار دائما أو أكثر من مرّتين فى الأسبوع خرج من آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا فى البطن أصلا .

(١) كذا فى الاحياء، وفى الأصل : «ولم يدخر» بالواو .

وأما بالإضافة إلى الوقت فأقلّه فى اليوم والليلة مرّة وهو أن يكون صائما ثم يُفطر فى وقت الإفطار، وأوسطه أن يصوم و يشرب ليلةً ولا يأكل ، و يأكل ليلة ولا يشرب ، وأعلاه أن ينتهى إلى أن يَطْوِىَ ثلاثة أيام وأسبوعا وما زاد عليه . وآنظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليــه وسلم وأصحابه فى كيفيّة زهــدهم فى المطاعم وتركهم الأُدم وآقتصارهم على ما يُمسك الرمَق . قالت عائشة أمّ المؤمنين رضىَ الله عنها : كانت تأتى علينا أربعون ليلة وما يُوقَد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباحٌ ولا نار، قيل لها : فبم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالأسودَين التمر والمــاء . وجاء أهل قُبَاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم بشربةٍ من لبن مَشُوبةٍ بعسل، فوضع القدحَ من يده وقال : "أَمَا إنّى لست أُحرّمه ولكنّى أتركه تواضعًا لله تعالى" . وأُتِي عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنــه بشربة من ماء بارد وعسل فى يومٍ صائف فقال : آعزِلوا عنّى حسابها . وقال يحيى بن مُعاذ الرازىّ : الزاهدُ الصادق ، قوتُه ما وَجد ، ولباسه ما سَتر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجَعه ، والخَلوة مجلِسه ، والآعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والربّ أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأْنه ، والحياء شِعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر مُعتمَده ، والتوكّل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حِرفته ، والجنّة مَبلغُه إن شاء الله تعالى .



المهم الثانى الملبس ، وأقل درجاته ما يدفع الحَرّ والبرد و يستر العورة ، وهو كِساء يتغطّى به ؛ وأوسطه قميصٌ وقَلَنْسُوة ونعلان ؛ وأعلاه أن يكون معه مِنــديل وسَرَاويل ؛ وما جاوز هــذا من حيث المقدار فهو مُجاوِز حدّ الزهد . وشرط الزهد ألّا يكون له ثوبٌ يلبســه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود فى البيت ؛ فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد . هذا من

حيث المقـدار . وأما الجنس، فأقلّه المُسُوح الخشنة، وأوسطه الصوف الخشن، وأعلاه القطن الغليظ .

وأما من حيث الوقت، فأقصاه مايستُر سنَة، وأقلُّه ما يبقَى يوما، وقد رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر [وإن كان يتسارع الجفاف إليـه][1]، وأوسطه ما يتماسك عليه شهرا ومايقاربه . فطلبُ ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل، وهو مُضادّ للزهد إلا إذا كان المطلوب خشونته وقد يتبَع ذلك قوّتُه ودوامُه . فمن وجد زيادة من ذلك فينبغى أن يتصـدّق به، فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبًّا للدنيا . ولينظر إلى أحوال الأنبياء صـلى الله عليهم والصحابة رضى الله عنهـم كيف تركوا الملابس . قال أبو بُردة أخرجتْ لنا عائشةُ رضى الله عنها كساءً مُلبَّدًا وإزارًا غليظا فقالت : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين . وقال صلى الله عليه وسلم : "إنّ الله تعـالى يُحبّ المتَبذِّل الذى لا يُبالِى ما لبِس" . وفى الخبر : "ما من عبدٍ لبِس ثوب شُهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزِعه وإن كان عنده حبيبا" . وآشترى رسول الله صلى الله عليه وسـلم ثوبًا بأربعة دراهم وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا، وآشـترى سراويل بثلاثة دراهم، وكان يلبَس شَمْلتين بَيْضاوَيْنِ من صوف وكانت تسمَّى حُلّةً لأنهما ثوبان من جنس واحد . وربمـا كان يلبس بُردين يمـانيّين أو سَحُوليّين . ولبس صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبًا سِيَراء[2] من سُندس قيمته مائتا درهم، فكان أصحابه يلمُسونه ويقولون : يارسول الله، أَنزَل هذا عليك من الجنّة ! تعجُّبا، وكان قد أهداه إليه المُقَوْقِس ملك الإسكندرية، فأراد أن يُكرمه بلُبسه ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وَصَله به، ثم حرّم لُبسَ الحرير والديباج . وقد صلّى رسول الله

(١) زيادة من الاحياء .

(٢) السيراء بكسر السين وفتح التحتية ممدودا : ضرب من البرود فيه خطوط صفر .

صلى الله عليه وسلم فى خَمِيصةٍ لها علم[١] فلما سلّم قال : "شَغَلنى النظرُ إلى هـذه آذهبوا بهـا إلى أبى جَهْم وأْتونى بأَنْبجَانيّتِهِ[٢]"، يعنى كساءه، فآختار لبس الكساء على الثوب الناعم . وكان شِراك نعله قد أَخْلق فأُبْدِل بسَـيْرٍ جديد فصلّى فيه ، فلما سلّم قال : "أَعِيدوا الشِّراك الخَلَق وآنزِعوا هـذا الجديد فإنّى نظرت إليه فى الصلاة" . وعن جابر رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضى الله ٥ عنها وهى تطحَن بالرحا وعليها كساء من وبر الإبل[٣]، فلما نظر إليها بكى وقال : "يافاطمة تجرّعى مرارةَ الدنيا لنعيم الأبد"، فأنزل الله عليه (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) . [وقد أوصى أمته عامّة بآتباعه اذ قال : "من أحبنى فَلْيَسْتَنّ بسنّتى". وقال : "عليكم بسُنّتى وسُنة الخلفاء الراشدين من بعدى عَضُّوا عليها بالنواجذ" . وقال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ)[٤]] . وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠ عائشة رضى الله عنها خاصة وقال لها : "إنْ أردتِ اللُّحُوق بى فإيّاكِ ومجالسةَ الأغنياء ولا تنزِعى ثوبا حتى تُرَقّعيه" . وعُدَّ على قميص عمر رضى الله عنه آثنتان وعشرون[٥] رقعة بعضها من أَدَم . وفى الخبر : "من ترك ثوب جَمال وهو يقدِر عليه تواضعًا لله تعالى وآبتغاءً لوجهه كان حقًّا على الله أن يدّخر له من عبقرىّ الجنّة فى أتخات الياقوت" وقال عمر رضى الله عنه : آخلَوْلِقُوا وآخشوشنوا، وإيّاكم وزِىَّ العجم كسرى وقيصر. ١٥ (١٣٧) وقال الثورىّ وغيره : البس من الثياب ما لا يُشَهِّرك عند العلماء ولا يُحقّرك عنـد الجهال . وقال بعضهم : قوّمت ثوبى سُفْيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانيق . والأخبار فى التقلّل من اللباس كثيرة فلا نطوّل بسردها .

(١) الخميصة : ثوب خز أو صوف مُعْلَم . (٢) الأنبجانىّ : نسبة الى منبج كمجلس موضع ٢٠ بالشأم ، يقال فى النسبة اليه منبجانىّ وأنبجانىّ بفتح بائهما على غير قياس .

(٣) كذا فى الاحياء ، وفى الأصلين : «من أجلّة الابل ...» . (٤) زيادة عن الإحياء .

(٥) كذا بالأصل ، وفى الاحياء ج ٤ ص ٢٢٣ طبع بولاق : «اثنتا عشرة رقعة» .

المهم الثالث المسكن ، وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات ، أعلاها ألّا يطلب موضعا خاصّا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصُّفَّة ، وأوسطها أن يطلب موضعا خاصّا لنفسه مثل كُوخ مبنيّ من سَعَف أو خُصّ أو ما يشبهه ، وأدناها أن يطلب حُجرة مبنيّة إما بشراء أو إجارة . فإن كان قدرُ سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم تكن فيه زينةٌ لم يُخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد ، فإنْ طلب التشييد والتجصيص والسعة وآرتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكليّة حدّ الزهد فى المسكن . قال : والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى ، وأقلّ الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو من الفضول ، والفضول كله من الدنيا ، وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا أراد الله بعبدٍ شرًّا أهلك ماله فى الماء والطين" . وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يَضع لَبِنة على لبنة ولا قَصَبة على قصبة . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خُصًّا فقال : "ما هذا" قلنا : خصٌّ لنا قد وَهَى ؛ قال : "أرى الأمر أعجل من ذلك" . وآتخذ نوح عليه السلام بيتًا من قَصَب فقيل له : لو بَنَيت ! فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال الحسن : دخلنا على صَفْوان بن مُحْبِرِز[1] وهو فى بيت من قَصَب قد مال عليه ، فقيل له : لو أصلحته ! فقال : كم من رجلٍ قد مات وهذا قائم على حاله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من بنى فوق ما يكفيه كُلِّف أن يحمله يوم القيامة" . وفى الخبر "كلّ نفقةٍ للعبد يُؤْجَر عليها إلا ما أنفقه فى الماء والطين" . وجاء فى تفسير قوله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) أنه الرياسة والتطاول فى البُنيان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) كذا بالأصلين . وفى كتابى الخلاصة والتهذيب فى أسماء الرجال « صفوان بن مُحْرِز » .

"كلّ بناءٍ وبالٌ على صاحبه يوم القيامة إلا ما أَكَنّ من حرّ وبرد" . ونظر عمر رضى الله عنه فى طريق الشأم إلى صَرْح قد بُنى بجَصّ وآجُرّ، فكَبّر وقال : ما كنت أظنّ أن يكون فى هذه الأمّة من يبنى بُنيان هامان لفرعون . وكان ارتفاع بناء السلف قامةً وبَسْطة . قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى إلى السقف . وقال عمرو بن دينار : إذا علّى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه مَلَك : إلى أين يا أفسق الفاسقين . وقال الفُضَيْل : إنّى لا أعجب ممن بنى وترك ولكنّى أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر . وقال ٱبن مسعود : يأتى قومٌ يرفعون الطين، ويَضَعون الدين، ويستعملون البراذين، يصلُّون إلى قِبْلتكم، ويموتون على غير دينكم .

المهم الرابع أثاث البيت، وللزهد فيه أيضا درجات، أعلاها حال عيسى عليه السلام إذ كان لا يصحبه إلا مشطٌ وكُوز فرأى إنسانا يمشُط لحيته بأصابعه فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفَّيه فرمى بالكوز؛ وهذا حكم كلّ أثاث فإنه إنما يراد لمقصودٍ فإذا ٱستُغنى عنه فهو وبالٌ فى الدنيا والآخرة، وما لا يُستغنى عنه فيُقتصر فيه على أقلّ الدرجات وهو الخَزَف فى كلّ ما يكفى فيه الخزف ولا يُبالَى أن يكون مكسور الطرَف إذا كان المقصود يحصل به . وأوسطها أن يكون له أثاثٌ بقدر الحاجة صحيحٌ فى نفسه، ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد كالذى معه قَصْعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها؛ وكان السلف يستحبّون ٱستعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف . وأدناها[1] أن يكون له بعدد كلّ حاجةٍ آلةٌ من الجنس النازل الخسيس، فإنْ زاد فى العدد أو فى نَفاسة الجنس خرج من جميع أبواب الزهد وركن الى طلب الفضول . ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة

(١) هذا ما يقتضيه التقسيم، وفى الأصلين : «وأعلاه» وفى الاحياء «وأعلاها» .

أصحابه رضى الله عنهم . قالت عائشة رضى الله عنها : كان ضِجَاع(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وِسادةً من أَدَم حَشْوُها لِيف . وقال الفُضَيْل : ما كان فِراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عَباءةً مَثْنيّة ووسادة حشوها ليف . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مَرْمولٍ(٢) بشريط ، فجلس فرأى أثر السرير فى جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمر ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما الذى أبكاك يآبن الخطاب" ؟ قال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيّه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط ! فقال صلى الله عليه وسلم : "أما ترضى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة" ! ، قال : بلى يا رسول الله قال : "فذلك كذلك" . ودخل رجل على أبى ذَرّ فجعل يقلِّب بصره فى بيته فقال : يا أبا ذَرّ ، ما أرى فى بيتك متاعًا ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتا نوجّه إليه صالح متاعنا ؛ فقال : إنه لا بدّ لك من متاع ما دمتَ هاهنا ؛ فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدِم عُمَيْر بن سعد أمير حِمْص على عمر قال له : ما معك من الدنيا ؟ فقال : معى عصاى أتوكّأ عليها وأقتل بها حيّةً إن لقيتها ، ومعى جِرابى أحمل فيه طعامى ، ومعى قَصْعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ، ومعى مَطْهَرتى أحمل فيها شرابى ووَضُوئى للصلاة ، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تَبَعٌ لما معى ؛ فقال عمر : صدقتَ ، رحمك الله .

(١) كذا فى الأصلين والاحياء ولم نجده فى كتب اللغة التى بين أيدينا ، وفى لسان العرب ونهاية ابن الأثير «ضِجْعَة» وقالا فى تفسيره : الضجعة بالكسر من الاضطجاع وهو النوم كالجلسة من الجلوس وبفتحها المرة الواحدة ، والمراد ما كان يضطجع عليه فيكون فى الكلام مضاف محذوف وتقدير الكلام كانت ذات ضجعته أو ذات اضطجاعته ... " . (٢) الرمل : النسج ، والسرير المرمول هو الذى ينسج له شريط ويجعل ظهرا له اهـ قاموس . وقد ورد الحديث فى نهاية ابن الأثير وفى لسان العرب «واذا هو جالس على رمال سرير» وفى رواية أخرى «على رمال حصير» والرمال كحطام وركام ما رُمل أى نسج ، والمراد أن هذا السرير قد نسج وجهه بالسعف ولم يكن عليه وطاء سوى الحصير .

وقدم رسول الله صلى الله عليـه وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها ستْرا وفى يديها قُلْبَين من فضّـة فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أبو رافع فقال : "من أجل الستر والسِّوارين". فأرسلت بهما بلالًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : قد تصدّقتْ بهما فضَعْهما حيث ترى . فقال : "آذهبْ فبعه وآدفعه إلى أهل الصُّفَّة" . فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم ، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "بأبى أنتِ قد أحسنتِ" . وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه ، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبًا قطّ ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه .

المهم الخامس المنكح . قال الغزالىّ : وقد قال قائلون : لا معنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته ، وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال : قد حُبِّب إلى سيِّد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهنّ ! ووافقه آبن عُيَيْنة ، وقال : كان أزهدُ الصحابة علىّ آبن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربعُ نسوة وبضعَ عشرةَ سُرِّيَّة . قال الغزالىّ : والصحيح ما قاله أبو سليمان الدارانىّ إذ قال : كلّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم . والمرأة قد تكون شاغلا عن الله . قال : وكَشْفُ الحقّ فيه أنّه قد تكون العُزُوبة أفضل فى بعض الأحوال فيكون ترك النكاح من الزهد ، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد ! وإن لم يكن عليـه آفة فى تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح آحترازًا عن مَيْل القلب إليهنّ والأنس بهنّ بحيث يشـتغل عن ذكر الله فتركُ ذلك من الزهد ، وإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك آحترازا من لذّة النظر والمضاجعة والمواقعـة فليس هذا من الزهد أصلا ، فإنّ الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثيرُ أمّة

محمد صلى الله عليه وسلم من القُربات . واللذّة التى تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضرّه إذا لم تكن هى المقصد والمطلَب؛ وهذا كمن ترك أكْل الخبز وشُرب المـاء آحترازًا من لذّة الأكل والشرب ، وليس ذلك من الزهد فى شىء لأن فى ترك ذلك فواتَ بدنه ، فكذلك فى ترك النكاح آنقطاعُ نسله ، فلا يجوز أن يترك النكاح زهدًا فى لذّته من غير آفةٍ أُخرى . قال : وأكثر الناس تشغَلهم كثرة النسوان فينبغى أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمالُ المرأة فلينكح واحدةً غير جميلة وليراعِ قلبه فى ذلك . قال أبو سليمان : الزهد فى النساء أن تختار المرأةَ الدُّون أو اليتيمة على المرأة الجميـلة والشريفة . وقال الجُنَيْد : أُحِبّ للمريد المبتدى ألّا يشغل قلبه بثلاث وإلّا تغيّر حالُه : التكسّب، وطلب الحديث، والتزوج. فقد ظهر أن لذّة النكاح كلذّة الأكل والشرب، فما شغل عن الله تعالى فهو محذور فيهما جميعا .

المهم السادس : ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال والجاه. [أما الجاه](1) فمعناه ملك القلوب بطلب محلّ فيها ليُتَوَصّل به إلى الآستعانة فى الأغراض والأعمال. وكلّ من لا يقدِر على القيام بنفسه فى جميع حاجاته وآفتقر إلى من يخدُمه آفتقر إلى جاه لا محالة فى قلب خادمه، لأنه إن لم يكن له عنده محلٌّ وقدْر لم يقم بخدمته، وقيام القدر والمحلّ فى القلوب هو الجاه. قال : وإنما يُحتاج إلى المحلّ فى القلوب إما لجلْب نفع أو لدفع ضرر أو الخلاص من ظلم . فأمّا النفع فيُغنى عنه المـال ، فإنّ من يخدُم بأُجرة خدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما يُحتاج إلى الجاه فى قلب من يخدم بغير أُجرة. وأما دفع الضرر فيُحتاج لأجله إلى الجاه فى بلد لا يكْمُلُ فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدِر على دفع شرِّهم إلا بمحلٍّ له فى قلوبهم أو محلّ له عنـد

(١) الزيادة عن الاحياء .

السلطان ؛ وقدر الجاه فيه لا ينضبط . والخائض فى طلب الجاه سالك طريق الهلاك ؛ بل حق الزاهد ألّا يسعى لطلب المحل فى القلوب أصلا ، فإن آشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحلّ فى القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفّار فكيف بين المسلمين .

وأما التوهّمات والتقديرات التى تُحْوِجُ[1] إلى زيادة فى الجاه على الحاصل بغير كسب فهى أوهام كاذبة ، إذ مَن طلب الجاه لم يخلُ عن أذى فى بعض الأحوال ، فعِلاج ذلك بالآحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه ، فإذًا طلبُ المحلّ فى القلوب لا رخصة فيه أصلا ، واليسير منه داعٍ إلى الكثير ، وضراوتُه أشدّ من ضراوة الخمر ، فليُحترز من قليله وكثيره .

* * *

وأما المال فهو ضرورىّ فى المعيشة أعنى القليل منه ، فإن كان كسوبا فإذا آكتسب حاجة يومه فينبغى أن يترك الكسب ، هذا شرط الزهد ، فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهّاد وأقويائهم جميعا ؛ وإن كانت له ضَيْعة ولم تكن له قوة يقين فى التوكّل فأمسك منها مقدار ما يكفى ريعه لسنةٍ واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكلّ ما يفضُل عن كفاية سنة ، ولكن يكون من ضعفاء الزهّاد . قال : وأمر المنفرد فى جميع ذلك أخفّ من أمر المُعِيل . وقد قال أبو سليمان : لا ينبغى أن يُرهق الرجل أهلَه إلى الزهد بل يدعوهم إليه فإن أجابوا وإلّا تركهم وفعل بنفسه ما شاء . قال : والذى يُضطرّ الإنسان إليه من الجاه والمال ليس بمحذور ، فالزائد منه على الحاجة سمٌّ قاتل ، والآقتصار على قدْر الضرورة دواءٌ نافع ، وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن

(١) كذا فى الاحياء ، وفى الأصل : «تخرج ...» .

سمًّا قاتلا فهو مضرّ ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواءً نافعا لكنّه قليل الضرر ؛ والسمّ محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره فمن آحتاط فإنما يحتاط لنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه ، ومن آستبرأ لدينه وترك ما يَريبه إلى ما لا يريبه وردّ نفسه إلى مَضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة ، والمقتصر على [قدر][1] الضرورة والمهمّ لا يجوز أن يُنْسَب إلى الدنيا ، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرطُ الدين والشرط من جملة المشروط .

وقد رُوى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجةٌ فذهب إلى صديقٍ له يستقرضه شيئا فلم يُقرضه فرجع مهموما ، فأوحى الله تعالى إليه : لو سألتَ خليلك لأعطاك ؛ فقال : يا ربّ ، عرفتُ مَقْتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئا ؛ فأوحى الله إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فعلى هذا يكون قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبالٌ فى الآخرة ؛ وهو أيضا فى الدنيا كذلك ، يعرفه من يخبُرُ أحوال الأغنياء وما عليهم من المِحْنة فى كسب المال وجَمْعِه وحفظه وآحتمال الذُّل فيه ؛ وغاية سعادته به أن يسلَم لورثته فيأكلوه ، وربما يكونون أعداءً له ، وقد يستعينون به على المعاصى فيكون هو مُعينا لهم عليها ؛ ولذلك شُبِّه جامع الدنيا ومتّبع الشهوات بدود القزّ إذ لا يزال ينسِج على نفسه حيّا[2] ثم يروم الخروج فلا يجد مَخْلَصًا فيموت ويهلِك بسبب عمله الذى عمِله بنفسه ، فكذلك كلّ من آتبع شهوات الدنيا ؛ قال الشاعر

كَدُودٌ كدودِ القزّ ينسِج دائما * ويَهلِك غمًّا وَسْطَ ما هو ناسِجُهْ

قال : ولما آنكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مُهْلِكٌ نفسه بأعماله وآتّباعه هوى نفسه إهلاكَ دود القزّ نفسَه رفضوا الدنيا بالكلّيّة ، حتى قال الحسن : رأيت سبعين

(١) الزيادة عن الاحياء . (٢) كذا فى الاحياء وفى الأصل : « ينسج على نفسه حتى يقتلها ثم يروم » .

بَدْرِيًّا كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم ، وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشدّ فرحا منكم بالخِصْب والرخاء، لو رأيتموهم قلتم : مجانين، ولو رأوا خِيارَكم قالوا : ما لهؤلاء من خَلَاق ، ولو رأوا شِرارَكم قالوا : ما يُؤْمن هؤلاء بيوم الحساب .
وكان أحدهم يعرض له المالُ الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يُفسد علىّ قلبى .
فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده ، والذين أمات حُبُّ الدنيا قلوبهم ٥
فقد أخبر الله عنهم فقال : (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)، وقال تعالى : (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)، وقال تعالى : (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)، فأحال ذلك كلّه على الغفلة وعدم الفكر . وقال بعضهم : ما من
يوم ذَرَّ شارقُه إلا وأربعة أملاكٍ يُنادون فى الآفاق بأربعة أصوات : ملكان بالمشرق ١٠
وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالمشرق : يا باغى الخير هلمّ ، ويا باغى الشرّ أَقْصِرْ، ويقول الآخر : اللّهم أَعْطِ مُنفقا خَلَفا ، وأَعط مُمسكا تلفا ، ويقول اللذان بالمغرب أحدهما : لِدُوا للموت وابنوا للخراب ، ويقول الآخر : كُلُوا وتمتّعوا لطول الحساب .

ذكر بيان علامات الزهد

قال الغزالىّ رحمه الله تعالى : اعلم أنّه قد يُظَنّ أنّ تارك المال زاهد، وليس ١٥
كذلك ، فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحبّ المدح بالزهد، فكم من الرَّهَابين(١) من ردّوا أنفسهم كلّ يوم إلى نَزْرٍ يسير من الطعام ولازموا ديرًا لا باب له ، وإنما مسرّة أحدهم معرفة الناس حالَه ونظرُهم إليه ومدحُهم له ، فذلك لا يدلّ على

(١) الرهابين جمع رهبان : الكثير الخوف .

الزهد دلالةً قاطعة بل لا بدّ من الزهد فى المال والجاه جميعا حتى يكمُل الزهد فى جميع حظوظ النفس من الدنيا(١)؛ بل قد يدّعى جماعةٌ الزهد مع لُبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخوّاص فى وصف المدّعين إذ قال : وقوم آدّعَوا الزهد ولبِسوا الفاخر من الثياب يُمَوِّهون بذلك على الناس ليُهْدَى إليهم مثل لباسهم لئلا يُنْظَرَ إليهم بالعين التى يُنْظَرُ بها الى الفقراء فيُحقروا فيُعْطَوْا كما يُعْطَى المساكين و يحتجّون لأنفسهم بآتّباع العلم وأنّهم على السنّة وأنّ الأشياء داخلةٌ إليهم وهم خارجون منها، و إنما يأخذون [ما يأخذون](٢) بعِلّة غيرهم؛ هذا إذا طُولبوا با لحقائق وأُلجئوا إلى المضايق . وكلّ هؤلاء أَكَلَة الدنيا بالدين لم يُعْنَوْا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فآدّعَوْها حالًا لهم ، فهم مائلون إلى الدنيا مُتّبعون للهوى . هذا كلام الخوّاص .

قال الغزالىّ رحمه الله : فإذًا معرفة الزهد أمرٌ مُشكل، [بل حال الزهد على الزاهد مشكل(٢)] فينبغى أن يعوّل فى باطنه على ثلاث علامات :

العلامة الأولى : ألّا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود، كما قال الله تعالى : (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) ، بل ينبغى أن يكون بالضدّ من ذلك وهو أن يحزن لوجود المال و يفرح لفقده .

العلامة الثانية : أن يستوى عنده ذامّه ومادحه؛ فالأولى علامة الزهد فى المال، والثانية علامة الزهد فى الجاه .

العلامة الثالثة : أن يكون أُنسه بالله عز وجل، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة، إذ لا يخلو القلب من حلاوة المحبّة، إما محبّة الدنيا و إما محبة الله، وهما فى القلب كالماء

(١) كذا فى الاحياء، وفى الأصل : «حتى يكمل الزهد بل فى جميع الخ» .
(٢) زيادة فى الاحياء .

والهواء فى القَدَح ، فالمـاء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان ؛ وكلّ من أَنِس بالله آشتغل به ولم يشتغل بغيره . وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلّق الإيمان بظاهر القلب أحبّ الدنيا والآخرة جميعًا وعمِل لهما ، و إذا بَطَن الإيمان فى سو يداء القلب و باشره أبغض الدنيا ولم ينظر إليها ولم يعمل لها . وقد و رد فى دعاء آدم عليه السلام : اللّهمّ إنى أسألك إيمـانًا يُباشر قلبى . وقال أبو سليمان : من شُغِل بنفسه شُغِل عن الناس ٥ وهذا مقام العاملين، ومن شُغِل بربّه شُغِل عن نفسه وهذا مقام العارفين . والزاهد لا بدّ أن يكون فى أحد هٰذين المقامين .



و بالجملة فعلامة الزهـد آستواء الفقر والغنى والعِـزّ والذُّلّ والمدح والذمّ ، وذلك لغلبة الأُنس بالله . ويتفرّع عن هذه العلامات علاماتٌ أُخَر مثـل أن يترك الدنيا ولا يبالى مَنْ أخذها؛ وقيل : علامته أن يترك الدنيا كما هى فلا يقول : أَبنى رباطًا ١٠ أو أَعمُرُ مسجدا ؛ وهـذا من كلام الأستاذ أبى علىّ الدقاق . وقال آبن خفيف : علامته وجود الراحة فى الخروج من الملك . وقال الجُنَيد : علامته خلوّ القلب عمّا خلت منه اليد . وقال أحمد بن حنبل وسُفيان : علامة الزهـد قِصَر الأَمل . وقال رجل ليحيى بن مُعاذ : متى أدخل حانوت التوكّل وألبَس بُرد الزهد وأقعد مع الزاهـدين ؟ فقال : إذا صرتَ من رياضتك لنفسك فى السرّ إلى حدّ لو قطع الله ١٥ عنـك الرزق ثلاثة أيّام لم تضعُف فى نفسك، فأمّا مالم تبلُغ هـذه الدرجة بجلوسك على بساط الزاهدين جهـل ثم لا آمن عليك أن تفتضح . قالوا : ولا يتمّ الزهد إلا بالتوكّل؛ فلنذكر التوكّل .

ذكر ما ورد فى التوكل من فضيلته وحقيقته

أما فضيلته فقد قال الله تعالى : (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، وقال الله تعالى : (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)، وقال تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) وقال تعالى : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)، وناهيك بذلك مقاما . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُرِيتُ الأُمم فى الموسم فرأيت أُمّتى قد ملئوا السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيئتهم فقيل لى أَرَضيت قلت نعم قال ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنّة بغير حساب قيل من هم يا رسول الله قال هم الذين لا يكتوُون ولا يتطيّرون ولا يَسْتَرْقُون وعلى ربّهم يتوكّلون" . وقال صلى الله عليه وسلم : "من ٱنقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى مئونة (١) رزقه من حيث لا يحتسب ومن ٱنقطع الى الدنيا وكله الله إليها" .

⁂

وأما حقيقة التوكل فقد قال الغزالىّ رحمه الله : التوكّل مشتقّ من الوَكالة يقال : وَكَل أمره إلى فلان أى فوّضه إليه وٱعتمد عليه (٢) [فيه] (٣)؛ ويسمّى الموكول إليه وكيلا، ويسمّى المفوَّض إليه مُتّكلا (٤) عليه ومُتَوَكّلا عليه مهما ٱطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتّهمه فيه . ثم قال بعد أن ضرب لذلك أمثلة يطول شرحها : وٱعلم أن حالة التوكّل فى القوّة والضعف ثلاث درجات :

الأولى : أن يكون حاله فى حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل .

---

(١) فى الاحياء ج ٤ ص ٢٣٢ «كفاه الله كل مئونة ورزقه ...» . (٢) الزيادة عن الاحياء .
(٣) كذا فى الاحياء، وفى «الأصل الموكل اليه ...» . (٤) كذا فى الأصل .

الثانية وهى أقوى : أن يكون حاله مع الله تعـالى كحال الطفل فى حق أمّه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع الى سـواها ولا يعتمد[1] إلا إياها ، فإن رآها تعلّق فى كل حال بها ، و إن نابه أمرٌ فى غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه : يا أمّاه ، وأوّل خاطر يخطر على قلبه أمه لوثوقه بكفالتها وكفايتها وشفقتها .

الثالثة وهى أعلاها : أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميّت بين يدى الغاسل يقلّبـه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير . قال : وهذا المقام فى التوكل يُثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقةً بكرمه وعنايته ، وأنه يُعطى ٱبتداء أفضلَ ممـا يُسأل . وقد تكلّم المشايخ فى التوكّل و بيان حدّه وٱختلفت عباراتهم وتكلّم كلّ واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه .

قال أبو موسى الدّيلى : قلت لأبى يزيد : ما التوكل؟ فقال : ما تقول أنت؟ قلت : إن أصحابنـا يقولون : لو أنّ السباع والأفاعى عن يمينك و يسارك ما تحـرّك لذلك سرّك ، فقال أبو يزيد : نعم هذا قريب ، ولكن لو أنّ أهل الجنة فى الجنّة يتنعّمون ، وأهلَ النار فى النار يُعَذّبون ، ثم وقع بك تمييزٌ عليهما خرجت من جملة التوكّل . وسُئل أبو عبد الله القرشى عن التوكّل فقال : التعلّق بالله تعالى فى كلّ حال ، فقال السائل : زِدْنى ، فقال : ترك كلّ سبب يُوَصِّل إلى سبب حتى يكون [الحقّ][2] هو المتولّى لذلك . وهذا مثـل توكّل إبراهيم الخليل عليه السـلام إذ قال له جبريل : ألك حاجةٌ ؟ فقال : أمّا إليك فلا ، إذ كان سؤاله يُفضى الى سبب فترك ذلك ثقةً بأن الله يتولّى ذلك .

---

(١) كذا فى الاحياء ، وفى الأصل : «يعتم» .

(٢) زيادة عن الاحياء .

قال أبو سعيد الخراز : التوكّل اضطراب بلا سكون، وسكونٌ بلا اضطراب؛ أشار بالأوّل إلى فزعه إلى الله تعالى وابتهاله وتضرّعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمّه؛ وبالثانى إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به[1]. وقال أبو على الدقّاق : التوكّل على ثلاث درجات : التوكّل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكّل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. وقال : التوكّل بداية، والتسليم وسائط، والتفويض نهاية. وقال : التوكّل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحّدين.

وسئل ابن عطاء عن حقيقة التوكّل فقال : ألّا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدّة فاقتك إليها، ولا تزولَ عن حقيقة السكون إلى الحقّ مع وقوفك عليها. وقال أبو نصر السرّاج : شرط التوكّل ما قاله أبو تُراب النَّخْشَبِىّ وهو طرح البدن فى العبودية وتعلّق القلب بالربوبيّة والطّمأنينة إلى الكفاية، فإن أُعْطِى شكر[2]، وإن مُنِع صبر. وكما قال ذو النُّون : التوكّل تركُ تدبير النفس والانخلاعُ من الحول والقوّة. وقال أبو بكر الدقّاق : التوكّل ردّ العيش إلى يومٍ واحد وإسقاطُ همّ غد.

وسئل ذو النون : ما التوكّل؟ فقال : خلع الأرباب، وقطع الأسباب؛ فقال السائل : زدنى؛ فقال : إلقاءُ النفس فى العُبوديّة وإخراجُها من الرُّبوبيّة. وقال مَسْروق : التوكّل الاستسلام لجَرَيان[3] القضاء والأحكام. وقال أبو عثمان : التوكّل الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه. وقيل : التوكّل الثقة بما فى يد الله واليأس مما فى يد الناس. وقيل : التوكّل فراغ السرّ عن التفكّر فى التقاضى فى طلب الرزق.

(١) كذا فى الاحياء، وفى الأصل : «وبالثانى الى سكون القلب الى التوكل وثقة به».

(٢) فى الأصلين : «سكن» والسياق يقتضى ما أثبتناه. (٣) فى الأصل «بجريان» بالباء، ولم نجد هذا الفعل يتعدى بالباء.

ذكر بيـان أعمـال المتوكلين

قال الغزالى رحمـه الله : قد يُظَنّ أن معنى التوكُّل تركُ الكسب [بالبدن](١) وترك التدبير بالقلب ، والسقوطُ على الأرض كالخِرْقة المُلقاة وكاللحم على الوَضَم ، وهذا ظنّ الجهّال ، فإنّ ذلك حرامٌ فى الشرع ؛ والشرع قد أثنى على المتوكّلين فكيف يُنال مقامٌ من مقامات الدين بمحظورات الدين! بل إنما يظهر تأثير التوكّل فى حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده(٢) . وسعىُ العبد باختياره إمّا أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالآدّخار ، أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتداوى من المرض . فمقصود حركات العبد لا يعدو هذه الحالات الأربع التى هى جلبُ النافع أو حفظُه أو دفعُ الضارّ أو قطعـه . ثم ذكر شرط التوكّل ودرجاته فى كل واحد منها ، وقرن ذلك بشواهد الشرع ، فقال ما مختصره ومعناه :

* * *

أما جلب النافع ، فالأسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظنًّا يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقةً تامّة ولا تطمئنّ إليه .

فالدرجة الأولى المقطوع به كالطعام إذا وُضـع بين يدى الرجل وهو جائع محتاج إلى تناوله فامتنع من مدّ يده إليـه وقال : أنا متوكّل ، وشرط التوكل ترك السعى ، ومدُّ اليد إليه سعىٌ وحركة ، وكذلك مضغه بالأسنان وآبتلاعه بإطباق أعالى الحنك على أسفله ؛ فهذا جنون وليس من التوكّل فى شىء ، فإنه إن آنتظر أنّ الله تعالى يخلق فيه شِبَعًا دون الخبز أو يسخِّر ملَكا يمضغه ويُوصله إلى معدته فهذا رجلٌ جهل سنّة الله تعالى ؛ وكذلك لو لم يزرع الأرض وطمِع أنّ الله تعالى يخلق نباتًا من غير بَذْر أو تلد

(١) الزيادة عن الإحياء ، ج ٤ ص ٢٥٣ (طبعة بولاق) . (٢) كذا فى الإحياء ، وفى الأصل : «معبود عنه» .

زوجه من غير مباضعةٍ كَمْرِيم ، فكلّ ذلك جنون ؛ بل يجب عليه أن يعلم أن الله تعالى خالق الطعام واليد والأسنان وقوّة الحركة ، وأنّه الذى يُطعمه ويَسقيه ، وأن يكون قلبه وآعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام ، فليمدّ يده ويأكل فإنّه متوكّل .

(١٣٣) والدرجة الثانية الأسباب التى ليست متعيِّنة ، لكن الغالب أن المسبَّبات لا تحصل ٥ دونها وآحتمالُ حصولها دونها بعيدٌ كالذى يفارق الأمصار والقوافل ويسافر فى البوادى التى لا يطرُقها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير آستصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا فى التوكّل ، بل آستصحاب الزاد فى البوادى سنّة الأوّلين مع الآعتماد على فضل الله عزّ وجل لا على الزاد ؛ ولكن فعل ذلك جائز ، وهو من أعلى مقامات التوكل وهو فعل الخواص . قال الغزالىّ فإن قلت : فهذا سعىٌ فى الهلاك وإلقاء النفس إلى التَّهْلُكة ، ١٠ فآعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قد راضَ نفسَه وجاهدها حتى صبَرت عن الطعام أسبوعا أو ما يقاربه بحيث إنه لا يناله ضيق قلب ولا تشويش خاطر ؛ والثانى أن يكون بحيث يقوى على التقوُّت بالحشيش وما يَتفق من الأشياء الخسيسة ، فإنه لا يخلو غالبَ الأمر فى البوادى فى كلِّ أسبوع أن يلقاه آدمىّ أو ينتهى إلى مَحَلّة أو قرية أو إلى حشيش يتقوّت به ؛ وعلى هذا ١٥ كان يُعَوِّل الخوّاص ونظراؤه من المتوكّلين . وقد كان الخوّاص مع توكُّله لا تفارقه الإبرة والمِقْراض والحبل والركوة ، ويقول : هذا لا يقدح فى التوكّل .

وأمّا لو آنحاز الى شِعب من شِعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرُقه طارق فيه وجلس متوكّلا فهو آثم به ساع فى إهلاك نفسه .

وأما القاعد فى البلد بغير كسب فليس ذلك حراما ، لأنه لا يبعد أن يأتيه ٢٠ الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخّر عنه ؛ فإن أَغلق بابَ البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعلُه ذلك حرام ، فإن فتح باب البيت وهو بطّال غير

مشغول بعبادة فالكسب والخروج له أولى، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يُشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . و إن كان مشغول القلب بالله غير متطلّع إلى الناس ولا إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزق، بل تطلّعه إلى فضل الله تعالى وآشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكّل، فإن الرزق يأتيه لامحالة، فلو هرب العبد من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه . ٥

قال آبن عباس رضى الله عنهما : آختلف الناس فى كلّ شىء إلا فى الرزق والأجل [فإنّهم](١) أجمعوا أن لا رازق ولا مُميت إلا الله تعالى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو توكّلتم على الله تعالى حقّ تَوَكُّله لرزقكم(٢) كما يرزُقُ الطيرَ تغدو خِماصًا وتروح بِطانا ولزالت بدعائكم الجبال" . وقال عيسى عليه السلام : آنظروا الى الطير لا تزرَع ولا تحصُد ولا تدّخر والله تعالى يرزقها يومًا بيوم، فإن قلتم نحن أكبر بطونا، فآنظروا إلى الأنعام كيف قيّض الله تعالى لها هذا الخلق [للرزق](١) . وقال أبو يعقوب السوسى : المتوكّلون تجرى أرزاقُهم على أيدى العباد بلا تعبٍ منهم وغيرُهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم : العبيد كلّهم فى رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذلّ كالسُّؤّال، و بعضهم يأكل بتعب كالتجّار، و بعضهم بامتهانٍ كالصنّاع، و بعضهم بعزٍّ كالصوفيّة، يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة . ١٠ ١٥

والدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التى يُتوهّم إفضاؤها إلى المسبّبات من غير ثقةٍ ظاهرة كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الآكتساب و وجوهه، وذلك يُخرج بالكلّيّة عن درجات التوكّل كلّها، وهو الذى الناسُ كلّهم فيه من التكسُّب بالحيل الدقيقة آكتسابًا مباحا لمالٍ مباح . هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى فى جلب النافع، وذكر لذلك أمثلة ونظائر تركناها آختصارا . ٢٠

(١) زيادة عن الاحياء . (٢) كذا فى الاحياء، وفى الأصلين : «لرزقتم ... ...» .

*
* *

وأما حفظ النافع فهو التعرض لأسباب الآدّخار، فمن حصل له مال بإرثٍ أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله فى الآدّخار ثلاث أحوال :

الأولى : أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت فيأكل إن كان جائعا، ويلبس إن كان عاريا، ويشترى مسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويُفرّق البـاقى فى الحال ولا يدّخر منه إلا ما أرصده لمحتاج؛ فهذا هو المُوفى بموجب التوكّل تحقيقًا، وهى الدرجة العليا .

الحالة الثـانية المقابِلةُ لهـذه المُخرِجة له عن حدود التوكّل : أن يدّخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكّلين أصلا .

الحالة الثـالثة : أن يدّخر لأربعين يوما فما دونها، فهذا يُوجب حرمانَه من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكّلين . وقال الخوّاص : لا يخرج بأربعين يومًا ويخرج بمـا زاد عليها .

*
* *

وأما دفع الضار عن النفس والمـال فقد قال الغزالىّ رحمه الله : ليس من شرط التوكل ترك الأسـباب الدافعـة للضرر، أمّا فى النفس فكالنوم فى الأرض المَسْبعة أو فى مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المـائل أو السقف المتكسّر، فإنّ ذلك مَنْهىّ عنه وصاحبُه قد عرّض نفسه إلى الهلاك بغير فائدة . وأمّا فى المـال فلا يَنقص التوكّلَ إغلاق باب البيت عند الخروج منه ولا أن يُعقَل البعيرُ . فهـذه أسباب عُرِفت بسنّة الله تعـالى، فقد رُوى عن أَنَس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : جاء رجل على ناقة فقال : يا رسول الله، أدعُها وأتوكل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آعقِلْها وتوكّل" .

* * *

وأما إزالة الضرر فقد قال الغزالىّ رحمه الله تعـالى : إن الأسـباب المزيلة للضرر تنقسم إلى مقطوع به كالمـاء المزيل لضرر العطش ، والخـبز المزيل لضرر الجوع ؛ و إلى مظنون كالفَصْد والحِجامة وشرب الدواء وسائرأبواب الطبّ ؛ و إلى موهوم كالكىّ والرُّقْية . ٥

أمّا المقطوع به فليس من التوكّل تركه بل تركه حرامٌ عند خوف الموت .

وأما الموهوم، فشرط التوكّل تركه ، إذ بتركه وَصف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المتوكّلين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم يتوكّل من ٱستَرْقَى وٱكتوى" . وقال سعيد بن جُبَير : لدغتنى عقربٌ فأقسمتْ علىّ أُمى لَتَسْتَرْقِيَنّ، فناولتُ الراقى يدى التى لم تُلدغ . ١٠

وأما الدرجة الوسطى وهى المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عنـد الأطبّاء ففعلُ ذلك لا يُناقض التوكّل بخلاف الموهوم، وتركُه ليس بمحظور بخلاف المقطوع به . وقد تداوى رسـولُ الله صلى الله عليه وسـلم وأمر بالتداوى وقال : "ما من داءٍ إلا وله دواءٌ عرَفه من عرفه وجهِله من جهله إلّا السام" يعنى الموت ؛ وتضافرت الأحاديث بالأمر بالدواء . ١٥

ومنهم من رأى أنّ ترك التداوى قد يُحمد فى بعض الأحيان إذا ٱقترن به أحد أسباب ستة :

الأول : أن يكون المريض من المكاشَفين وقـد كُوشف بأنه ٱنتهى أجله وأنّ الدواء لا ينفعـه، وتحقّق ذلك إما برُؤْيا صادقةٍ أو بحَدْس وظنّ أو بكشف محقق كحال أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه لمـّا قيل له فى مرض موته : لو دعَوْنا لك طبيبا ! ٢٠

فقال : الطبيب نظر إلىّ وقال إنّى فعّال لما أُريد، وكان رضى الله عنه من المكاشَفين، والدليل على ذلك أنّه قال لعائشة رضى الله عنها فى أمر الميراث : إنما هنّ أُختاك، وما كان لها إلا أُختٌ واحدة وكانت آمرأته حاملا فولدت أُنثى، فلا يبعد أن يكون كوشف بآنتهاء أجله ، ومحال أن يُنكر التداوى وقد رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فعَلَه . ٥

الثانى : أن يكون المريض مشغولا بحاله و بخوف عاقبته وآطّلاع الله تعالى عليه، فيُنسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرّغ قلبه للتداوى شُغلًا بحاله ، كحال أبى ذَرّ لمّا رَمِدتْ عيناه فقيل له : لو داويتَهما ! فقال : إنّى عنهما مشغول، فقيل له : لو سألت الله أن يعافيك ! فقال : أسأل فيما هوأهمّ علىّ منهما . وكحال أبى الدرداء فإنه قيل له فى مرضه : ما تشتكى؟ قال : ذنوبى، قيل : فما تشتهى؟ قال : مغفرة ربى، قالوا : ١٠ أَلَا ندعو لك طبيبا؟ قال : الطبيب أمرضنى . ويكون حال هذا كالمصاب بموت عزيز من أحبابه أو كالخائف من ملك فيشغَله ذلك عن ألم الجوع . (١٣٥)

الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يُؤْمر به بالإضافة إلى علّته موهوم كالكىّ والرقية، فترَكه للتوكّل، كالربيع بن خَيْثَم فإنّه أصابه فالج فقيل له : لو تداويت ! فقال : لقد هَمَمت ثم ذكرت عادًا وثمود وقرونًا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطبّاء ١٥ فهلَك المُداوِى والمداوَى ولم تُغْنِ الرُّقَى شيئا ، أى إنّ الدواء غير موثوق به .

الرابع : أن يقصد العبد ترك التداوى آستيفاءً للمرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى وليجرّب نفسه فى القدرة على الصبر .

الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوبٌ وهو خائفٌ منها عاجزٌ عن تكفيرها فيرى المرضَ إذا طال تكفيرا ، وتَرَك التداوى خوفا من أن يُسرع زوالُ المرض ٢٠

ورغب فى مضاعفة الأجر، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "حُمّى يومٍ كفّارةُ سنة" .

السادس : أن يستشعر العبد فى نفسه مبادئ البَطَر والطُّغيان بطول مدّة الصحّة فيترك التـداوى خوفًا من أن يُعاجله زوال المرض فتعاودَه الغفلة والبطر والطغيان أو طولُ الأمل والتسويفُ فى تدارك الفائت وتأخيرِ الخـيرات، فإنّ الصحة تُحرّك الهـوى وتبعث على الشهوات وتدعو إلى المعاصى ، وأقلّها أنْ تدعو إلى التنعّم فى المباحات وهو تضييع الأوقات وإهمال الربح العظيم فى مخالفـة النفس وملازمةِ الطاعات . وإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا لم يُخلِه عن التنبيه بالأمراض والمصائب، ولذلك قيـل : لا يخلو المؤمنون من عِلّة أو قِلّة أو ذِلّة . قال : فلما أن كثُرت فوائد المرض رأى جماعة تركَ الحيلة فى زوالها ، إذ رأَوْا لأنفسهم مَزِيدًا فيهـا لا من حيث رأوا التداوى نُقصانا ، وكيف يكون ذلك نقصانا وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم !

فهذه نُبذة كافية فى مقامى الزهد والتوكل . فلنذكر الأدعية .

البـاب الرابع
من القسم الرابع من الفن الثـانى
فى الأدعيـــة

وهذا الباب — يتقبل الله منا ومنك وفينا وفيك صالح الدعوات ، وجعلنا وإياك ممن آعتمد على كرمه ومنّته فى الحركات والسكنات ، ووفقنا للتضرّع والسكون إلى فضله ، وعاملنا بما هو من أهله لا ما نحن من أهله — هو مَشْرَع الظمآن إلى موارد الكرم العذبة ، ومَفْزَع الحـيران اذا ألمّتْ به الضائقة وحصرته الكُربة ، فبه يُتوسل إلى الله تعـالى فى مطالب الدنيا والآخرة ، ويُتوصل إلى النعم الوافية والخيرات الوافرة ، كيف لا وقد

أمرنا الرب العظيم بالدعاء والإنابة ، ووعدنا وهو الوفيّ الكريم بالقبول والإجابة ؛ وترادفت بفضله الأخبار الصحيحة ، وجاءت بشرفه الآثار الصريحة ؛ على ما ستقف على ذلك إن شاء الله تعالى واضحا ، وتعوّل عليه مقيما وظاعنا وغاديا ورائحا ؛ فلازمه فى سائر أحوالك ، وتعاهدْه فى بُكَرك وآصالك ؛ فستجنى إن شاء الله منه ثمار غَرْسك ، وتجد حلاوة ذلك فى قلبك وأنسَه فى نفسك .

واعلم أن للدعاء ، كما قال ابن عطاء ، أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا ، قال : فإن وافق أركانَه قوى ، وإن وافق أجنحته طار فى السمٰوات ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه أَنْجح . فأركانه حضور القلب والرقة والإستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب . وأجنحته الصدق . ومواقيته الأسحار . وأسبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم . قال الله عز وجل : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة أكنت ترى لبعض دعائك الإجابة ولا ترى لبعضه فيقول نعم فيقول له أما إنك ما دعوتنى بدعوة إلا وقد استجبتُ لك فيها أليس دعوتنى يوم كذا وكذا فرأيت الإجابة فيقول نعم ويقول ودعوتنى يوم كذا وكذا فلم تر الإجابة فيقول نعم فيقول فإنى ادخرتها لك فى الجنة فلا يُبقى له دعوة إلا بيّنها له حتى يتمنّى المؤمن أنّ دعواته كلها كانت ذخائره فى الآخرة" .

وعن النعمان بن بَشير رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الدعاء هو العبادة" قال : وقرأ (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ليس شىءٌ أكرم على الله من الدعاء" . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الدعاء ينفع

ممـا نزل ومما لم ينزل فعليكم عبادَ الله بالدعاء" . وعن أنس رضى الله عنه قال، قال
رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "إن الله عز وجل حيٌّ كريم يستحيي إذا بَسَـط
الرجلُ إليـه يديه أن يردَّهما صِفْرًا ليس فيهما شيء" . وعن أبى سـعيد الخُدْرِيّ
رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "دعوة المسلم لا تُرَدّ إلا بإحدى
ثلاث ما لم يدعُ بإثم أو قطيعـةِ رَحِم إمّا أن يسـتجيبَ الله له فيما دعا أو يدّخره ٥
فى الآخرة أو يَصرِف عنه من السوء بقدر ما دعا" . وعن أنس رضى الله عنه قال :
قيل يا رسول الله : إنا ندعو بدعاء كثيرٍ منه ما نرى إجابتَه ومنه مالا نرى إجابتـه
فقال : "والذى نفسى بيده ما من أحدٍ يدعو بدعوة إلا آستُجِيب له أو صُرِف عنـه
مثلُها شرّا" قالوا : يا رسول الله، إذًا نُكثر قال : " الله أكثر وأكثر" ثلاث مرات .
وعنه رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "دعوة فى السرّ تَعدِل سبعين دعوةً ١٠
فى العَلَانِيَة". وعن أبى سعيد الخُدرِىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : "إن لله عز وجل فى الليل والنهار عُتَقاءَ من النار ولكلّ مسـلِمٍ ومسلمةٍ
فى كلّ يومٍ وليلة دعوة مستجابة" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله
عليه وسلم قال : "إن الله تعالى يقول من ذا الذى دعانى فلم أُجِبْه وسألنى فلم أُعْطِه
وآستغفرنى فلم أَغْفر له وأنا أرحم الراحمين". وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ١٥
صلى الله عليه وسلم قال : "إذا فتح الله على عبدٍ بابَ الدعاء فلْيُكثر فإنّ الله يَستجيب
له" . وعن آبن عمر رضى الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "من
فُتِح له بابٌ فى الدعاء فُتِحت له أبواب الإجابة" . وعن أبى هريرة عن النبيّ صلى
الله عليه وسلم أنه قال : " من لم يسألِ الله يغضَبْ عليه " . وعن جابر بن عبد الله
رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ٢٠
فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) الآية فقال صلى الله عليه وسلم: "اللّهم إنّكَ

أَمرتَ بالدعاء وتوكّلت بالإجابة لبّيك اللّهــم لبّيك لبيك لا شريك لك لبيــك إنّ الحمــد والنعمة لك والملك لا شريك لك أشهد أنّك فردٌ أحد صَمَــدٌ لم يَلِد ولم يُولد ولم يكن له كُفُوًا أحد وأشهد أنّ وعدك حقّ ولقاءك حقّ والجنة حق والنـار حق وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنّك تبعث من فى القبور" . هذا مما ورد فى الحث على الدعاء . ٥

* * *

وأما ما ورد فى نفع الدعاء ودفعه للبلاء؛ رُوى عن رسول الله صــلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن أنواع البِرّ كلّها نصفُ العبادة والنصف الآخر الدعاء". وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ينفع حَذَرٌ من قَدَر والدعاء ينفع ممــا نزل ومما لم ينزل وإنّ الدعاءَ لَيَلْقَى البلاءَ فيعتلجان إلى يوم ١٠ القيامة" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء ينفع ممــا نزل وممــا لم ينزل وإنّ الدعاء لَيردّ القضاء المُبْرَم وإن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فلا يزال أحدُهما يدفع صاحبَه إلى يوم القيامة" . وعن سَلْمان الفارسىّ رضى الله عنــه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يردّ القضاءَ إلا الدعاءُ ولا يزيد فى العمر إلا البِرّ". وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ١٥ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدعاء سِلاحُ المؤمن وعِمادُ الدِّين ونورُ السموات والأرض" .

* * *

وأما ما ورد فى الإلحاح فى الدعاء وهيئة الذِّلّة والإنابة؛ قال الله تعالى : (ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ٢٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله يحبّ المُلِحِّين فى الدعاء". وعن أبى هريرة

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ادعوا الله وأنتم مُوقِنون بالإجابة وآعلموا أنّ الله عز وجل لا يستجيب دعاءً من قلب ساهٍ لاهٍ" . وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه فى الدعاء حتى يُرى بياض[1] إبطيه . وعن آبن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا جعل باطن كفّيه إلى وجهه . وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سلوا الله ببطون أكفّكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم" . وعن آبن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن ربكم عز وجل حييٌّ كريم يستحيي أن يرفع العبد يديه فيردّهما صِفْرا لا خير فيهما فإذا رفع أحدُكم يده فليقل ياحيّ لا إله إلا أنت يا أرحم الراحمين ثلاث مرات ثم إذا ردّ يده فليُفرغ ذلك الخير على وجهه" . وعن عمر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مدّ يديه فى الدعاء لم يردّهما حتى يمسح بهما وجهه . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الإخلاص هكذا ورفع أصبعا واحدا من اليد اليمنى والدعاء هكذا وجعل بطونهما مما يلى السماء والآبتهال هكذا ومدّ يديه شيئًا وجعل ظهر الكفّ مما يلى السماء" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أقربُ ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجد فأكثِروا الدعاء" .

* * *

وأما ماورد من كراهية آستعجال الإجابة ورفع البصر والسجع فى الدعاء

قال تعالى : (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ) . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يستجابُ لأحدكم ما لم يعجّل

(١) فى الأصلين هكذا «بيان» والتصحيح عن الاحياء ج ١ ص ٢٨٧ .

فيقول قد دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لى". وعنه صلى الله عليه وسلم : "لا يزال العبد بخير مالم يستعجل" قالوا :وكيف يستعجل؟ قال : "يقول قد دعوت الله مرارا فلا أراه يستجيب لى" . وعن أبى هريرة رضى الله عنــه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام عن رفع أبصارهم عند الدعاء فى الصلاة إلى السماء أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارُهم". وعن ٱبن عبّاس رضى الله عنهما قال: إيّاك والسجْعَ فى الدعاء فإنّى شهِدت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك .



وأما ما ورد فيمن تجاب دعواتهم. قال الله عز وجل : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ). وقال تعالى : (وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ). ورُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "خمسُ دَعَواتٍ لا تُرَدّ دعوةُ الحاجّ حتّى يصــدُر ودعوة الغازى حتى يرجع ودعوة المظلوم حتى يَنتصِر ودعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الأخ لأخيــه بالغيب وأسرعُ هؤلاء الدعوات إجابةً دعوةُ الأخ لأخيه بالغيب " . وعن أبى هريرة رضى الله عنــه أن النبيّ صلى الله عليه وســلم قال : "ثلاثُ دعوات مستجابات لاشكّ فيهنّ دعوةُ الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم". وفى حديث آخر : "دعوة الصائم بدل دعوة الوالد" . وعن ٱبن عبّــاس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ حين بعثه إلى اليمن : "إنّك تأتى قومًا أهلَ كتابٍ فاتّق دعوة المظلوم" . وعنه صلى الله عليه وسلم : " الإمام العادل لا تُرَدّ دعوته". وقال صلى الله عليه وسلم : "ثلاثة لا تردّ دعوتهم إمامٌ مُقْسِط ودعوة الصائم ودعوة المظلوم تُفتح لها أبواب السماء و يقول الله عز وجل لأنصرنّك ولو بعد حين" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "دعاء الوالد لولده مثل دعاء النبيّ لامّته". وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أسرعُ الدعاء إجابةً دعوةُ غائب لغائب". وعن أبى الدرداء، رضى الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "دعوةُ الرجل لأخيه بظهر الغيب تعدل سبعين دعوةً مستجابةً ويُوكل الله عز وجل ملكا يقول آمين ولك مثل ما دعوت". وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب إلّا قال له ملَكٌ عن يمينه وملك عن شماله ولك مثله". وعن ٥ أبى أُمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حامل القرآن له دعوة مستجابة". وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا دخلت على المريض فسَلْه يدعو لك فإنّ دعاءه كدعاء الملائكة". وعن أنس رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أُلهم الدعاء لم يُحرَم الإجابةَ لأن الله تعالى يقول (ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ومن أُلهم التوبةَ لم يحرم ١٠ القَبولَ لأن الله تعالى يقول (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) ومن أُلهم الشكر لم يحرم الزيادةَ لأن الله تعالى يقول (وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) ومن أُلهم الاستغفارَ لم يحرم المغفرةَ لأن الله تعالى يقول (ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) ومن أُلهم النفقةَ لم يحرم الخلَفَ لقوله تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ).

ذكر الأوقات التى تُرجى فيها إجابةُ الدعاء ١٥

قال الله عز وجل: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ) وقال تعالى: (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا). وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ينزل الله حين يبقى ثُلثُ الليل إلى السماء الدُّنيا فيقول من يسألنى فأُعطيَه ومن يدعونى فأستجيبَ له ومن يستغفرنى فأغفرَ له". وعنه صلى الله عليه وسلم: "تُفتح أبوابُ السماء ويُستجاب دعاءُ المسلم عند إقامة الصلاة وعند ٢٠

نزول الغيث وعند زَحْف الصفوف فى سبيل الله وعند رُؤية الكعبة" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا فاءت الأفياء وهبّت الرياح فآرفعوا إلى الله حوائجكم فإنهـا ساعة الأوّابين إنه كان للأوّابين غفورا " . وعن أبى أُمامة قال قلت : يا رسول الله، أىّ الدعاء أسمع؟ قال : "جوف اللّيل وأدبار المكتوبات" . وعن آبن عمر قال : أفضلُ الساعات مواقيت الصّلاة فادعوا فيها . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم: "خيرُ يومٍ طلعت فيه الشمس يوم الجمعة إن فيه لساعةً لا يوافقها عبدٌ يصلّى يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إيّاه". وقد آختلف فى آبتداء وقت هذه الساعة فقيل : أوّلُ ساعة من طلوع الشمس، وقيل : آخرُ ساعة من غروبها، وقيل : عند جلوس الإمام على المنبر، وقيل : من الزوال إلى آبتداء الصلاة، وقيل : من بعد العصر إلى الغروب، وقيل : إنها تنتقل فى ساعات اليوم كما تنتقل ليلة القَدْر فى شهر رمضان . رُوى عن أبى بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ قال : قال لى عبد الله بن عمر رضى الله عنهم : أَسمعتَ أباك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ساعة الجمعة؟ قال: نعم، سمعته يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ساعة الجمعة يقول : "هى ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاةُ" . وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها عن أبيها صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه" فقلت : يا أبت، أىّ ساعة هى؟ قال : "إذا تدلّى نصف الشمس للغروب"، فكانت فاطمة رضى الله عنها إذا كان يوم الجمعة تأمر غلاما لها يقال له زيد يرصُد لها الشمس ، فإذا تدلّى نصف الشمس للغروب أعلمها، فتقوم فتدخل المسجد فتدعو حتى تغرب الشمس وتصلّى . وحيث ذكرنا هذه المراتب فلنذكر الأدعية المنصوص عليها .

ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها

قد أورد الشيخ أبو العباس أحمــد بن علىّ بن يوسف القرشىّ البُونى رحمه الله تعـالى دعوات الساعات فى اللُّمعة النورانيّــة[1] فبدأ بيوم الأحد وذكر دعاء كل ساعة منه، ثم ذكر يوم الاثنين فقال: ساعة كذا يُدعَى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الأحد، ثم ذكر يوم الثـلاثاء فقال : ساعة كذا يدعى فيهـا بدعاء ساعة كذا من يوم الاثنين وكذلك فى بقيّة ساعات الأيام والليالى، يذكر كلّ ساعة ويُحيل فى دعائها على ساعة من اليوم أو الليلة التى قبلها؛ فرأيت أن الراغب فى الدعاء يحتاج فى معرفته إلى كشف طويل وتحقيق إلى أن يصل إلى تلك الساعة من يوم الأحد، وربما تعذّر ذلك على كثير من الناس، فرتّبت الأدعيــة على ما ستقف إن شاء الله تعـالى عليه ليسهُل على المتناول طريقها ويدنو من المحاول تحقيقُها؛ فقلت وبالله التوفيق :

دعاء يُدْعَى به فى الساعة الأولى من يوم الأحد . وفى الثامنة من ليـلة الاثنين وفى العاشرة من يوم الاثنين . وفى الخامســة من ليلة الثلاثاء وفى السابعــة من يوم الثلاثاء . وفى الثانية من ليلة الأربعاء وفى الرابعة من يوم الأربعاء . وفى الحادية عشرة من ليلة الخميس وفى الأولى من يوم الخميس . والحادية عشرة من ليـلة الجمعة والعاشرة من يوم الجمعة . وفى الثامنة من ليلة السبت، وفى السابعة من يوم السبت . وفى الخامسة من ليلة الأحد، وهو :

"ربّ اغمِسنى فى بحر [من][2] نور هيبتك حتى أخرجَ منه وفى وجهى شعاعات هيبةٍ تخطَف أبصار الحاسدين من الجنّ والإنس فتُعميهم عن رمى سهام الحسد فى قرطاس

(١) فى الأصلين : "اللاحة النورانية" وصحة الاسم ما ذكرناه، وفى دار الكتب المصرية منه نسختان خطيتان تحت رقمى (١٩٩٣ و ٨٥ م تصوّف) .

(٢) زيادة من اللمعة النورانية .

نعمتى، وآحجُبنى عنهم بحجاب النور الذى باطنُه النورُ وظاهرُه النار، أسألك باسمك النور و بوجهك النور يا نور النور أن تحجُبنى فى نور آسمك بنور آسمك حجاباً يمنعنى من كلّ نقصٍ يُمازج منّى جوهرًا أو عَرَضا إنّك نُور الكلّ ومنوّر الكل بنورك» .

قال البُونى : تدعو بهذا الدعاء ثمانيا وأربعين مرة فى هذه الساعة على وضوء بعد صلاة ركعتين فيما يتعلق بسؤال الهيبة و إقامة الكلمة وقهر العدوّ، ويناسب هذا الدعاء من القرآن قوله تعالى : (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) الآية ، قال : من قرأ هذه الآية هذا العدد المتقدّم فى بيت مظلم وعيناه مغلوقتان شاهد أنوارا عجيبة تملأ قلبه، وإن آستدام ذلك تشكّلت له فى عالم الحس . وهو ذكر يصلح لأرباب الهمم وأهل الخلوات، وكاتبه وحامله تظهر له زيادات فى قوى نفسه وقهر عدوّه وخَصْمه لم يكن يعهدها من قبل؛ ومن أمكنه أن يداوى به العلل الكائنة فى الرأس خصوصا من البرودة وجد تأثير ذلك لوقته .

دعاء يدعى به فى الساعة الثانية من يوم الأحد والتاسعة من ليلة الآثنين وفى الحادية عشرة من يوم الآثنين، وفى السادسة من ليلة الثلاثاء وفى الثامنة من يوم الثلاثاء، وفى الثالثة من ليلة الأربعاء وفى الخامسة من يوم الأربعاء، وفى الثانية عشرة من ليلة الخميس وفى الثانية من يوم الخميس ، وفى الحادية عشرة من يوم الجمعة ، وفى التاسعة من ليلة السبت وفى الثامنة من يوم السبت ، وفى السادسة من ليلة الأحد وهو :

«ربّ فرّحنى بما ترضَى به عنّى فرحًا يُبهجنى بجميل المَسَارّ ، حتى لا ينبسط شيءٌ من وجودى إلا بما بسطه جودك العلىّ . ربّ فَرّحنى بنيل المراد منك بفناء إرادتى منّى حتى لا يكون فى كَوْنِى إرادةٌ إلا إرادتك محفوظةً من عوارض التكوين ، وأَبهج

بذلك فى سرّ سمـاء الأفراح فى الوجودَيْن برزق الباطن والظاهر ، إنك باسطُ الرزق والرحمة يا ذا الجودِ الباسطِ ياذا البسط والجود » .

هذا الذكر من ذكره فى ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرة أذهب الله تعـالى عن قلبه الحزن وعن صـدره الحَرَج والضّيق ، وتجلى عنه كل همّ وغمّ ، وبه يدعو المسجونون والمأسورون والمحزونون فيفرّج الله تعالى عنهم ، وذلك بعد صـلاة تسليمتين ، والآيات[1] المناسبة لهذا القَسَم (فَرِحِينَ بِمَـا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) الآية ، (قُلْ بِفَضْـلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ) الآية[1] . قال البُونى : ويقـدّم على ذكر هـذه الآيات ٱللّٰهُمّ ٱجعلنى من الفَرِحين بمـا آتاهم الله من فضـله ، يقول ذلك[2] بعد الذكر الأوّل مثل العدد المذكور ، فيرى المهموم من فضـل الله تعالى به عجبا ، ويزداد [به][3] ذو السرور سرورا لايعرف سببه . ويصلح هـذا الذكر لأرباب الفيض من أهل الخَلَوات فإنّهم يَسْتَرْوِحون منه أُنسا فى خَلَواتهم ومخاطبات بألفاظ مختلفة بقدر الفيض والمقام والسبب ، يعرف ذلك من كانت له إحاطةٌ بكشف أسرار الدعوات والأسماء.

دعاء يُدْعَى به فى الساعة الثالثـة من يوم الأحد ، والعاشرة من ليلة الآثنين وفى الثانية عشرة من يوم الاثنين ، وفى السابعة من ليلة الثلاثاء وفى التاسعة من يوم الثلاثاء ، وفى الرابعة من ليلة الأربعاء وفى السادسة من يوم الأربعاء ، وفى الأولى من ليلة الخميس وفى الثالثة من يوم الخميس ، وفى الأولى من ليلة الجمعة وفى الثانية عشرة من يوم الجمعة ، وفى العاشرة من ليلة السبت وفى التاسعة من يوم السبت ، وفى السابعة من ليلة الأحد . وهو :

(١) كذا فى اللمعة النورانية ، وفى الأصل «والآية» .

(٢) كذا بالأصل : وفى اللمعة النورانية : «يضاف بعد الذكر الأوّل مثل هذا العدد المذكور» .

(٣) زيادة من اللمعة النورانية .

« ربّ قَلّبــنى فى أطوار معارف أسمــائك تقليبا تُشْهدنى به فى ذَرّات وُجودِى ما أودعتــه ذرّات[1] وجودَى الملكِ والمَلَكُوت حتّى أُعاين سَرَيان سرّ قدرك[2] فى معالم المعلومات فلا يبقى معلوم إلا و بيدى سِرّ دقيقةٍ منه مجذوبةٍ بيد الكمال ونور الطوع ؛ وأذهبْ[3] ظلمة الإكراه حتى أتصرّف فى المُهَج بمُبهجات المحبّة إنك أنت المحبّ المحبوب يا مقلّب القلوب » .

قال : من دعا بهذا الأسم والذكر ستَّ عشرةَ مرة بعد صــلاة ثلاث تسليمات قلب الله قلبــه عن كل خاطر فيه نقصٌ[4] إلى كلّ خاطر فيه كمالٌ [فى حقّه][5]، و يصلح لأرباب الاستخارات ، وفيه لسرعة قضاء الحاجات معنى بديع ؛ والآيات[6] المناسبة له (قَوْلُهُ الْحَقُّ [وَلَهُ الْمُلْكُ) ، وقوله تعالى][5] : (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَـارِ) إلى آخر الآية ، وقوله تعــالى : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الآية ؛ وما يناسب ذلك من القرآن .

وهو ذكر يصلح لأرباب القــلوب من تكرار الخواطر والوساوس ، وله فى تقلّب الأحوال أمور عجيبة عظيمة لمن فهم ذلك ؛ وكذلك من كتب الذكر كله وعلّقه عليه عصمه الله فى تقلّباته من الآفات حتى فى أمور دنياه وآخرته .

---

(١) كذا فى اللعــة ، وفى أحد الأصلين « ما أودعته فى دورات » وفى الأصــل الآخر « ما أودعته من ذرات... » .

(٢) فى إحدى نسخ اللعة المخطوطة « سرّ قدرتك... » .

(٣) كذا فى اللعة النورانية وفى الأصلين : « مجذوبة بيد كمال يبدو الكمال ونور الطلوع أذهب » الخ .

(٤) كذا فى اللعة النورانية ، وفى الأصلين : « قلب الله قلب كل من خاطره فيه نقص ... » .

(٥) زيادة من اللعة النورانية .

(٦) كذا فى اللعة النورانية ، وفى الأصلين : « والآية ... » .

دعاء يدعى به فى الساعة الرابعة من يوم الأحد، وفى الحادية عشرة من ليلة الآثنين وفى الأولى من يوم الآثنين، وفى الثامنة من ليلة الثلاثاء وفى العاشرة من يوم الثلاثاء، وفى الخامسة من ليـلة الأربعاء وفى السابعة من يوم الأربعاء، وفى الثانيـة من ليلة الخميس وفى الرابعة من يوم الخميس، وفى الثانية من ليلة الجمعـة والأولى من يوم الجمعة، وفى الحادية عشرة من ليلة السبت وفى العاشرة من يوم السبت، وفى الثامنة من ليلة الأحد . وهو :

«ربّ قابلنى بنور آسمك مقابلة تملأ وجودى ظاهرا و باطنا حتى تمحو منّى حظوظ الأشكال كلها فيبدو لى فى وجودى ومن وجودى سرّ ما كتبه قلم تقـديرك من كل مُسـتودَع فى مُسْتَقَرّ ومستقرٌّ فى مسـتودع فلا يخفى علىّ ما غاب عنّى فأنظرنى بك وأنظر مَنْ سواى بنور اسمك (١) فأرى الكمال المطلق فى الملك المطلق، يا مُودِع الأنوار قلوبَ عباده الأبرار يا سريعُ يا قريبُ» .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى ساعة من هذه الساعات ست عشرة مرة ثم قصـد أىّ حاجة أراد، أسرع اللهُ تعالى قضاءها ونمّى له ما يملكه من مال أو جاه أو حال أو مقام . ومن خاصّة هذا الذكر وضع البركة فى أىّ شىء وُضع عليه . و يصلح هذا الذكر لطالبى المكاشفات من أرباب الخَلَوات فإنهم اذا داوموا هذا الذكر أُلْقِى إليهم الخاطر الصحيح . قال : وإن أضيف له يا سريعُ يا قريبُ يا مُبين ظهر له ما يريد من كشف العواقب فى الأفعال المرتبطة بعالَم الغيب والشهادة .

دعاء يدعى به فى الساعة الخامسـة من يوم الأحد، وفى الثانية عشرة من ليـلة الآثنين وفى الثانيـة من يوم الآثنين، وفى التاسعة من ليلة الثلاثاء وفى الحادية عشرة

---

(١) كذا فى اللمعة النورانية . وفى الأصل : «أ نيتك» .

(٤٤١)

من يوم الثلاثاء، وفى السادسة من ليلة الأربعاء وفى الثامنة من يوم الأربعاء، وفى الثالثة من ليلة الخميس وفى الخامسة من يوم الخميس، وفى الثالثة من ليلة الجمعة وفى الثانية من يوم الجمعة، وفى الثانية عشرة من ليلة السبت وفى الحادية عشرة من يوم السبت، وفى التاسعة من ليلة الأحد . وهو :

٥ «ربّ أسألك مددا رُوحانيًّا تقوَى به قُواى الكلّية والجزئيّة حتى أَقهر بمبادئ نفسى كلّ نفسٍ قاهرة فتنقبض لى رِقابُها آنقباضًا تسقُطُ به قُواها ، فلا يبقى فى الكون ذو رُوح إلّا ونارُ القهر أخمدت ظهورَه، يا شديدُ ياذا البطش يا قهّارُ يا جبّارُ أسألك بما أودعته عزرائيل من قُوى أسمائك القهريّة فآنفعلت له النفوسُ بالقهر أن تكسونى(١) ذلك السرّ فى هذه الساعة حتى أُلَيِّن به كلّ صعب، وأُذِلّ به كلّ منيعٍ بقوّتك ياذا القوّة المتين» .

١٠

قال : من دعا بهذا الدعاء فى ساعة من هذه الساعات تسعا وثمانين مرة، ثم دعا على ظالم أُخِذ لوقته ، وذلك بعد صلاة خمس تسليمات بالفاتحة لاغير . ويناسب هذا الدعاء من آى القرآن العظيم (وَكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) . قال : فى هذا الذكر قمع الجبابرة، وقطع دابر الظالمين، وخراب ديار المـاردين، وما شابه ذلك . وهو ذكر يليق بالسالكين فى مبادئ الرياضات والمنتهين فى مقامات التجلّى إلى الخلوة، وهو من الأسرار العجيبة، ولا يذكره من غلبته الشيخوخة إلّا وجد فى قلبه خفقانا بالخاصيّة، ولا يذكره محمومٌ إلا برئ من حُمّاه لوقته، وإن كتبه وعلّقه عليه دامت صحّته .

١٥

دعاء يدعى به فى الساعة السادسة من يوم الأحد، وفى الأولى من ليلة الآثنين وفى الثالثة من يوم الآثنين، وفى العاشرة من ليلة الثلاثاء وفى الثانية عشرة من يوم

٢٠

(١) كذا فى إحدى نسخ اللمعة النورانية، وفى الأصلين : "واكسنى ..." .

الثلاثاء، وفى السابعـــة من ليلة الأربعاء وفى التاسعة من يوم الأربعاء، وفى الرابعة من ليلة الخميس وفى السادسة من يوم الخميس، وفى الرابعة من ليلة الجمعة وفى الثالثة من يوم الجمعة، وفى الأولى من ليـلة السبت وفى الثانيـــة عشرة من يوم السبت، وفى العاشرة من ليلة الأحد . وهو :

"رب صَفِّنى [من كدرات الأغيار] (١) صـفاء من صفّته يدُ عنايتك من نقص التكوين (٢) حتى يتجـلى فى مرآة قلبى ومستوى نفسى كلُّ آسم آنطبع فى قُوّة جبرائيـل فقوِى به على كشف ما فى اللوح من أسرار أسمـائك ومجامع رسائلك، فكلّ نفس منفوسة آمتدّت لهـا من دقائقه (٣) دقيقةٌ (٣) طرفها منه والثانى لمن هو به، ومجامع هـذه الدقائق (٣) فى دقيقة الآسم الجبرائيلى العالم العليم العلّام، ياذا الكرم الذى علّم بالقلم، فمواد الوحى والإلهام والتحديث والفهم تسرى بنفحة منه فى هذه الساعة إلى مثلها . إلهى مَنْطِقْنِى بالدقيقة العظمى منه حتى أتلقّ عنك بما به تلق [عنك جبرائيل] (١) مما أملأُ به وجودى بلا ميـلٍ لغلبة حتى أتلذّذ بمصافاتك تلذُّذ جبريل برسـائلك، إنك علّام الغيوب" .

قال : من دعا به خمسا وعشرين مرة فى ساعة من هـذه الساعات أُلْهم رشـدَه فى عواقب أموره . والآسم اللائق بهـذا الدعاء يا علّام الغيوب يا عالم الخفيّـات وماشاكل هـذا النمط من الأسماء، ومن القرآن العظيم (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) الآية . قال : وهو من الكبريت الأحمر وبعضه من الدِّرياق الأكبر . وهذا الذكر للذى فُتِح عليه بابٌ من المعارف فإنّه مهما آستدامه أُلْهم قلبُه إلى علوم جايلة، ويُخاطب

(١) زيادة من اللمعة النورانية .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللمعة النورانية، وفى الأصلين : «من نقص التلوين ...» .

(٣) كذا فى الأصلين بالدال فى هذه الكلمات، وفى اللمعة النورانية بالراء فيها جميعا .

فى نفسه بإلقاءات(١) من وحى الإلهام، ويخاطبه الحيوان بمعنى يفهمه فيستفيد علوما عظيمة، يعرف ذلك أرباب المنازلات لفهم الحديث .

دعاء يدعى به فى الساعة السابعة من يوم الأحد، وفى الثانية من ليلة الاثنين وفى الرابعة من يوم الاثنين، وفى الحادية عشرة من ليلة الثلاثاء وفى الأولى من يوم الثلاثاء، وفى الثامنة من ليلة الأربعاء وفى العاشرة من يوم الأربعاء، وفى الخامسة من ليلة الخميس وفى السابعة من يوم الخميس، وفى الخامسة من ليلة الجمعة وفى الرابعة من يوم الجمعة، وفى الثانية من ليلة السبت وفى الأولى من يوم السبت، وفى الحادية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

« ربّ أوقفنى موقف العزّ حتّى لا أجد فىّ ذرّةً ولا رقيقةً ولا دقيقةً إلا وقد غشّاها من عزّ عزّتك ما منعها من الذُّلّ لغيرك، حتى لا أشهدَ ذلّ مَنْ سواى لعزّتى بك مُؤيّدا برقيقة من الرعب يخضع لها(٢) كلّ شيطان مَرِيد، وجبّارٍ عَنِيد، وأَبقِ علىّ ذلّ العبوديّة فى العزّة بقاءً يبسط لسانَ الاعتراف، ويقبِض لسانَ الدعوى، إنك العزيز الجبّار المتكبّر القهّار » .

قال : من دعا بهذا الدعاء فى هذه الساعة أو فى ساعة من هذه الساعات ستّ عشرة مرة بعد صلاة(٣) وحضور قلب نُصِر على أىّ عدوٍّ قصده ظاهرا وباطنا .

دعاء يدعى به فى الساعة الثامنة من يوم الأحد، وفى الثالثة من ليلة الاثنين وفى الخامسة من يوم الاثنين، وفى الثانية عشرة من ليلة الثلاثاء، وفى الثانية من يوم

(١) كذا فى اللمعة النورانية، وفى الأصل : بألقاب .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللمعة النورانيــة وفى نسخة أخرى منها «حتى يخضع له ...» وفى الأصلين : «حتى يخضع به ...» .

(٣) فى هامش إحدى نسخ اللمعة النورانيــة . «ثلاث تسليمات ...» وكتب عليها كلمة «صح» وأشار إلى موضعها بعد كلمة «صلاة» .

الثلاثاء، وفى التاسعة من ليلة الأربعاء وفى الحادية عشرة من يوم الأربعاء، وفى السادسة من ليلة الخميس وفى الثامنة من يوم الخميس، وفى السادسة من ليلة الجمعة وفى الخامسة من يوم الجمعة، وفى الثالثة من ليلة السبت وفى الثانية من يوم السبت، وفى الثانية عشرة من ليلة الأحد . وهو :

«إلهى أطلع على وجودى شمس شهودى منك فى الأكوان والألوان حتّى أمشىَ بمـا أشهدتنى فى آفاق الملكوت فأكشفَ منه معنى كلمـةِ التكوين فينفعلَ لى كلُّ مكوَّنٍ آنفعاله للكلمة بإذنك الذى سخّرت به ما فى الوجودين بلا ظلمةِ وَضْع ولا ظلمة طبع، إنك منوِّر الكلّ بكلّك ومنوّر الأنوار بنورك الذى صدورُه عن آسمك النورِ والظاهر والحىّ والقيُّوم، كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» الآية .

قال البُونى : لا يذكر أحدٌ هذا الذكر فى ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرة إلا كساه الله نُورا يجد ذلك فى نفسه، و يُيسّر عليه المقسوم من الرزق، وتسرى كلمته فى الأسباب سَرَيانا عجيبا . وهو ذكر يصلح لأرباب المكاشفات يُثبت لهم ما يكاشفون .

دعاء يدعى به فى الساعة التاسعة من يوم الأحد، وفى الرابعة من ليلة الآثنين وفى السادسة من يوم الآثنين، وفى الأولى من ليلة الثلاثاء وفى الثالثة من يوم الثلاثاء، وفى العاشرة من ليلة الأربعاء وفى الثانية عشرة من يوم الأربعاء، وفى السابعة من ليلة الخميس وفى التاسعة من يوم الخميس، وفى السابعة من ليلة الجمعة وفى السادسة من يوم الجمعة، وفى الرابعة من ليلة السبت وفى الثالثة من يوم السبت، وفى الأولى من ليلة الأحد . وهو :

«سيِّدى أدخلنى فى بواطن رياض آسمك من الباب الخاصّ الذى لا يُحْجَب بنورٍ ولا بظلمة ولا بشىء منه ولا بشىء خارجٍ عنـه، وأطلق يد قُوَاى فى نيل النعمة،

وألهمنى تحقيق ذوق كلّ مَذُوق منه حتى أكونَ بك فيه وأكونَ فيه بك مبتهجًا منك وبك، ربّ إنك لطيفٌ عَطُوف رحيم رحمن » .

قال : هذا الذكر بخاصيّة فيه يجلب الفرح ويُذهب الحزن ويُطيب الوقت ويجلو الكرب ؛ ومن دعا به أربعين مرة فى ساعة من هذه الساعات على طهارة[1] وآستقبال فُرِّج به كربُه وآنجلى غمُّه .

دعاء يدعى به فى الساعة العاشرة من يوم الأحد ، وفى الخامسة من ليلة الآثنين وفى السابعة من يوم الآثنين ، وفى الثانية من ليلة الثلاثاء وفى الرابعة من يوم الثلاثاء، وفى الحادية عشرة من ليلة الأربعاء وفى الأولى من يوم الأربعاء، وفى الثامنة من ليلة الخميس وفى العاشرة من يوم الخميس، وفى الثامنة من ليلة الجمعة وفى السابعة من يوم الجمعة، وفى الخامسة من ليلة السبت، وفى الرابعة من يوم السبت، وفى الثانية من ليلة الأحد . وهو :

«يا مَن نسبةُ العلوم إلى علمه نسبةُ لا شيءٍ لشيء لا يتناهى ، أظهرت الحروفَ بالقلم فكان لها صريف فى ألواح الملكوت قام لها مقام مخارج الحروف من الحلق والصدر واللّها واللسان، كلّ جنس صدر عنه آسمٌ لا يعلم تركيبه سوى مَلَك قلمك ، وكلّ نوع صدر عنه مركّبا، فلوح إسرافيل أظهره بقوّة ما فى آحاد كليّاته من جزئيّات تراكيبه ، أسألك بهذا السرّ الخفىّ الذى وقف العقل دونه وتقدّم إليك السرّ بسرٍّ أودعته فيه

(١) فى هامش إحدى نسختى اللمعة النورانية : « وصلاة ثلاث تسليمات » وكتب عليها كلمة « صح » وموضعها بعد كلمة « طهارة » .

يوم إمكان وجوده، أسألك كشف حجاب الغيب حتى أُعاينَ الغيب[(١)] بما به حَىَّ الرُّوح الباقى، يا حىّ، ياهْ يا هو، يا أنت يا مهيمنُ يا خالقُ يا بارئُ أنت هو» .

قال البُونى : هذا الذكر من ذكره فى ساعة من هذه الساعات مائةَ مرة يُسِّر له قضاءُ أىّ حاجة قصدها بغير مشقّة .

٥ دعاء يدعى به فى الساعة الحادية عشرة من يوم الأحد، وفى السادسة من ليلة الأثنين وفى الثامنة من يوم الأثنين، وفى الثالثة من ليلة الثلاثاء وفى الخامسة من يوم الثلاثاء، وفى الثانية عشرة من ليلة الأربعاء وفى الثانية من يوم الأربعاء، وفى التاسعة من ليلة الخميس وفى الحادية عشرة من يوم الخميس، وفى التاسعة من ليلة الجمعة وفى الثامنة من يوم الجمعة، وفى السادسة من ليلة السبت وفى الخامسة من يوم السبت، وفى الثالثة من ليلة الأحد . وهو : ١٠

«يامن لوجوده العلىّ باعتبار حكمته إلى كلّ موجود حصل من وجوده[(٢)] آسم يليق به هو مفتاحه الخاصّ، ومعناه المغيّب، وحقيقته الوجودية وسرّه القابل؛ فما فى الأكوان جوهر فرد من جواهر آحاد العالم العُلوىّ والسُّفلىّ إلا ومقاليد أحكامه متعلّقة باسم من أسمائه، وآجتماعُها بِرقائقها بيد آسمك الذى آستأثرتَ به عن جميع خلقك فلم يظهر لهم إلا ما ناسب الأفعال، فأسماؤك إلٰهى لا تُحْصَى، ومعلوماتك لا نهايةَ لها، ١٥ أسألك غمسةً فى بحر هذا النور حتى أعود إلى الكمال الأوّل فأتصرّف فى الكون باسم الكمال تصرُّفًا يَنْفى النقص بالوقوف على عبوديّة النقص، إنّك المُعزّ المُذلّ اللطيف الخبير العَدْل المُجِيب» .

---

(١) فى اللعة النورانية : المغيب .

٢٠ (٢) كذا فى إحدى نسخ اللعة النورانية، وفى الأصلين : «من جوده ...» .

قال : مَن ذكر هذا الذكر ستّ عشرة مرة فى ساعة من هذه الساعات ثم سأل الله تعالى فيها رزقا[(١)]، وتيسيرَ أسباب، وسكونَ بحر هائج[(٢)]، وسلطانٍ غاصب، ونفسٍ متمردة من شيطانى الإنس والجنّ وماناسب ذلك إلّا أجيب له لوقته، وذلك على طهارة وصلاة[(٣)] وجمع همة فى موضع خال من الأصوات .

٥ دعاء يدعى به فى الساعة الثانية عشرة من يوم الأحد، والسابعة من ليلة الاثنين والتاسعة من يوم الاثنين، وفى الرابعة من ليلة الثلاثاء وفى السادسة من يوم الثلاثاء، وفى الأولى من ليلة الأربعاء وفى الثالثة من يوم الأربعاء، وفى العاشرة من ليلة الخميس وفى الثانية عشرة من يوم الخميس، وفى العاشرة من ليلة الجمعة وفى التاسعة من يوم الجمعة، وفى السابعة من ليلة السبت وفى السادسة من يوم السبت، وفى الرابعة من ١٠ ليلة الأحد . وهو :

«تعاليتَ يامن تَقَاصر كلُّ فكرٍ عن حصر معنًى من معانى أسمائه، فكل علوٍ ورفعة فمن ذلك العلو والرفعة[(٤)] صدورُه ظاهرا و باطنا؛ تقدّس مجدك يا من أستارُ عرشه أظهر فيها كبرياءه ومجده، أسألك بالصفات التى لا تَعَلُّقَ لها بموجود، ياذا العظمة والكبرياء والجلال والجمال والبهاء، أسألك الأُنس بمقابلات سِرّ القَدَر أُنسا ١٥ يمحو آثار وحشة الفكر حتى يطيب وقتى بك فأطيب بوقتى لك، فلا يتحرك ذو طبع لمخالفتى إلا صَغُر لعظمتك وقُصِم بكبريائك، إنك جبّار الأرض والسماء، وقاهر الكلّ بقهرك يامجيب» .

---

(١) كذا فى اللغة النورانية، وفى الأصل : «ثم سأل الله تعالى فمن سأله فيها رزقا ...» .

(٢) كذا فى إحدى نسخ اللغة النورانية، وفى الأصلين : «بحر هائل» .

(٣) فى إحدى نسخ اللغة بعد كلمة «صلاة» بين الأسطر : «ثلاث تسليمات» . ٢٠

(٤) كذا فى اللغة النورانية، وفى الأصلين : «فمن دون ذلك العلو الخ» .

قال البُونى : من ذكر هذا الذكر سبعا وعشرين مرة فى ساعة من هذه الساعات ودعا [بما يريده] كُفِى لوقته [شرّ ما يحاذره][1] . فهذه دعوات ساعات الأيّام واللّيالى .

ذكر ما يدعى به فى المساء والصباح ، والغدوّ والرواح ؛ والصلاة والصوم ، والجماع والنوم ؛ والوِرْد والصدَر ، والسفر والحضر ؛ وغير ذلك .

فأما ما يقال عند المساء والصباح ؛ فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه وقد سأله فقال : يارسول الله مُرْنى بشىء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ ، فقال : "قل اللّهمّ عالم الغيب والشهادة فاطرَ السمٰوات والأرض ربَّ كلّ شىء ومليكه أشهد أن لا إلٰه إلّا أنت أعوذُ بك من شرّ نفسى وشرّ الشيطان وشرْكه قلهن إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ وإذا أخذتَ مَضْجَعَك" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أَصبح يقول : "أصبحنا على فِطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبيّنا[2] محمد صلى الله عليه وسلم وملّةِ أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال : "أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمةُ والخَلْق والأَمر واللّيل والنهار وما سَكَن فيهما من شىء لله وحده لا شريكَ له اللّٰهم آجعل أوّلَ هذا النهار لنا صَلاحا وأوسطَه فَلاحا وآخرَه نَجاحا أسألك خيرَ الدنيا وخير الآخرة يا أرحم الراحمين" . وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا أصبح : "اللّهمّ بك أَصبحنا وبك أَمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور" . وإذا أمسى قال : "اللّٰهم بك أمسينا وبك نحيا وبك نموت" . وعنه صلى

(١) الزيادة عن إحدى نسختى اللمعة النورانية . (٢) فى كتاب الأذكار للنووى ص ٣٩ : كذا وقع فى كتاب ابن السنى ، ثم قال هو غير متبع ولعله صلى الله عليه وسلم قال ذلك جهرا ليسمعه غيره فيتعلمه اهـ .

الله عليه وسلم أنه قال: "من قال حين يصبح أو يمسى اللّهم أنت ربّى لا إله إلّا أنت خلقتَنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما آستطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوءُ [لك](١) بنعمتك [عليك](١) وأبوءُ بذنبي فآغفر لى إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت فمات من يومه أو من ليلته دخل الجنة". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من قال لا إله إلّا الله وحده لا شريكَ له له الملكُ وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير بعد ما يصلّى الغداة عشر مرّات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيّئات ورفع له عشر دَرَجات وكنّ له عِدْل رقبتين من ولد إسماعيل وكنّ له حجاباً من الشيطان حتّى يُمسى فإن قالها حين يُمسى كان له مثلُ ذلك وكنّ له حجاباً من الشيطان حتى يُصبح"، وفى رواية: "من قالها فى يومٍ مائةَ مرّة كانت له عِدْل عشر رقابٍ وكُتِبت له مائة حسنة ومُحِيت عنه مائةُ سيّئة وكانت له حِرْزًا من الشيطان يومه ذلك حتّى يُمسى ولم يأت أحد بأفضلَ مما جاء به إلا رجلٌ عمِل أكثر منه ومن قال سبحانَ الله وبحمده فى اليوم مائةَ مرة حُطّت خَطَاياه وإن كانت مثل زَبَد البحر". وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من قال حين يُمْسى أعوذ بكلمات الله التامّات كلّها من شرّ ما خلق لم تضرّه لَدْغة عقرب حتى يُصبح". وعنه صلى الله عليه وسلم: "من قال حين يُصبح فى أوّل يومه أو فى أوّل ليلته بسم الله الذى لا يَضُرّ مع آسمه شيءٌ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاثا لم يضرّه شيءٌ فى ذلك اليوم أو تلك الليلة". وعنه صلى الله عليه وسلم: "من قال إذا أَصبح بسم الله العلىّ الأَعْلى الذى لا ولدَ له ولا صاحبةَ ولا شريكَ أَشهد أنّ نوحا رسول الله وأنّ إبراهيم خليلُ الله وأنّ موسى نَجِىُّ الله وأنّ داود خليفةُ الله وأنّ عيسى روحُ الله وكلمتُه ألقاها الى مريم وأنّ محمدا رسول الله وخاتَمُ النبيّين لا نبىَّ بعده لم تلسعه حيّة ولا عقرب ولم يخَفْ من سلطان ولا كاهن ولا ساحر حتى يُمسى وإذا قالها إذا أَمسى لم يخف شيئا من ذلك حتى يُصبح".

(١) زيادة عن صحيح البخارى.

* * *

وأما ما يقال عند النوم، رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "وإذا أخذتَ مضجعَك فتوضّأْ وضوءَك للصَّلاة ثم ٱضطجِع على شِقِّك الأيمن ثم قل أسلمتُ وجهى إليك وفوضتُ أمرى اليك وألجأتُ ظهرى إليك رهبةً و رغبةً إليك لا ملجأً ولا منجى منك إلا إليــك اللّهم آمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ ونبيِّــك الذى أرسلتَ فإن متّ من ليلتك متّ على فِطرة الإســلام وٱجعلهنّ آخرما تتكلّم به" . قال البَرَاء بن عازِب : فردّدتها على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلما بلغتُ اللهم آمنتُ بكتابك الذى أنزلت قلت : ورسولِك قال : "ونبيِّك الذى أرسلتَ" . وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من اللّيل يقول : "اللهم لك الحمــدُ أنت نورُ السمٰوات والأرض ولك الحمدُ أنت قيّام السمٰوات والأرض ومَن فيهنّ أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنّة حق والنــار حق والساعة حق اللّهم لك أسلمتُ وبك آمنت وعليك توكّلت وإليك أنبتُ وبك خاصمتُ وإليك حاكمتُ فاغفر لى ما قدّمتُ وما أخّرت[(١)] وما أسررْت وما أعْلنت أنت إلٰهى لا إله إلا أنت" .

* * *

وأما ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما ، رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وســلم أنه قال : "إذا وَلَجَ الرجلُ بيتَه فليقُلْ باسم الله اللّهم إنّى أسألك خيرَ المَوْلِج وخيرَ المَخْرَج باسم الله وَلجْنا وباسم الله خرجْنا وعلى الله توكّلنا ثم ليسلِّمْ على أهله" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "إذا دخل الرجلُ بيته فقال باسم الله قعد الشيطانُ على الباب وقال ما مِنْ مَقِيلٍ فهل من غَدَاء فإذا أُتِى بغَدَائه فقال باسم الله

(١) كذا فى رواية الأذكار للنووى من رواية الصحيحين ، وقد ورد فى الأصل بدون ما الموصولة إلا فى الفعل الأول دون الأفعال الباقية .

قال ما مِنْ غَدَاء ولا مَقِيــل" . وعنه صلى الله عليه وســلم : "إذا خرج الرجلُ من بيته فقال سبحان الله قال المَلَك هُدِيتَ واذا قال لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله قال الملك وُقِيتَ فاذا قال توكّلت على الله يقول الملك كُفِيت يقول الشيطان عنــد ذلك كيف أعمَل بمن كُفِي وهُدِى ووُقى" . وعن أُمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت : ما خرج رسول الله صلى الله عليه وســلم من بيته صباحًا قطّ إلا قال : "اللّهم إنّى أعوذ بك أن أَزِلّ أو أَضِلّ أو أظلم أو أُجهل أو يُجْهَل علىّ" . وعنه صلى الله عليــه وسلم : "ما من مسلم خرج من بيته يريد سفرًا أو غيره فقال حين يخرج بآسم الله آمنتُ بالله آعتصمتُ بالله توكّلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله إلا رُزِق خيرَ ذلك المَخْرَج وصُرِف عنه شرُّ ذلك المخرج" . وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال فُضَيل بن مرزوق — أحسبه رفعه — قال : "من قال حين يخرج إلى الصَّلاة اللّهم إنى أسألك بحقّ السائلين عليــك وبحقّ مَمْشاى هــذا إنى لم أَخْرج أشَرًا ولا بَطَرا ولا رياءً ولا سُمْعة خرجتُ خوفَ سخطك وآبتغاءَ مَرْضاتِك أسألك أنْ تُنقذنى من النّار وأن تغفر ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وكّل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل اللهُ عليه بوجهه حتى يفرُغَ من صَــلاته" . وعن فاطمة[1] رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وســلم إذا دخل المسجد قال : "باسم الله والســلام على رسول الله اللّهم آغفر لى وآفتح لى أبوابَ رحمتك وإذا خرج قال بآسم الله والسلام على رسول الله اللّهم آغفر لى ذنوبى وآفتح لى أبوابَ فضلك" . وقال صلى الله عليه وسلم : "إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللّهم آفتح لى أبواب رحمتــك وإذا خرج فليقل اللّهم إنى أسألك من فضلك" .

(١) وضع على حاشية احدى النسخ «لعلها بنت قيس» ووضعت هذه الزيادة فى نسخة أخرى فى صلب الكتاب . والظاهر أنها فاطمة الزهراء رضى الله عنها فقد روى هذا الحديث الامام النووى فى كتاب الأذكار عن عبد الله بن الحسن عن أمه عن جدّته اه وجدته هى فاطمة الزهراء .

* * *

وأما ما يقال عند النداء، فقد رُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان عند الأذان فُتِحت أبوابُ السماء وآستُجيب الدعاءُ و إذا كان عند الإقامة لم تُرَدّ دعوة" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال حين يسمع المؤذّن وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأنّ محمدا عبدُه ورسوله رضيتُ بالله ربًّا وبمحمد رسولًا و بالإسلام دينًا غُفِر له ذنبُه" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من سمع المؤذّن فقال اللّهم ربَّ هذه الدعوة التامّة والصلاة القائمة آتِ محمدا الوسيلةَ والفضيلة وآبعثه مَقَامًا محمودا الذى وعدتَه حلّت له شفاعتى يوم القيامة" . وعنه صلى الله عليه وسلم : "إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثلَ ما يقول ثم صلُّوا علىّ فإنه من صلّى علىّ مرّةً صلى الله عليه بها عشرا" .

* * *

وأما ما يقال عند دخول الخلاء، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخَلاء قال : "اللّهم إنى أعوذ بك من الخُبُث والخبائث" و إذا خرج قال "غفرَانك". وفى لفظٍ إذا خرج قال :"الحمدُ لله الذى أَذْهب عنّى الأذَى وعافانى". وعن أَنَس رضى الله عنه قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال : "اللّهـم إنّى أعوذ بك من الرِّجْس النجِس الخبِيث المُخْبِثِ الشيطان الرجيم"، و إذا خرج قال : "الحمد لله الذى أذهب عنّى الأذى وعافانى" .

* * *

وأما ما يقال عند الوضوء وغَسْل الأعضاء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاةَ لمن لا وُضُوءَ له ولا وضوءَ لمن لم يذكر آسم الله عليه" . وعن علىّ آبن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا علىّ

إذا توضّأتَ فقل بسم الله والصلاة على رسول الله ". وعن محمد بن الحَنَفيّة قال : دخلتُ على والدى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما وإذا عن يمينه إناءٌ من ماءٍ فسمَّى ثم سَكَب على يمينه ثم تَمَضْمض فقال : اللّهم حَصِّنْ فَرْجى وآستُرْ عورتى ولا تُشْمِت بى الأعداء . ثم تمضمض وآستنشق وقال : اللّهم لَقِّنّى حجّتى ولا تحرِمنى رائحةَ الجنّة . ثم غسل وجهَه وقال : اللّهم بَيِّض وجهى يوم تسودّ الوجوه ولا تُسَوِّد وجهى يوم تبيضّ الوجوه . ثم سكب على يمينه فقال : اللّهم أعطِنى كتابى بيمينى والخلدَ بشمالى . ثم سكب على شماله وقال : اللّهم لا تُعْطِنى كتابى بشمالى ولا تجعلها مغلولةً إلى عُنُق . ثم مسح برأسه وقال : اللّهم غَشِّنا برحمتك فإنّا نخشى عذابك ، اللّهم لا تجمع بين نواصينا وأقدامنا . ثم مَسَح عنقه فقال : اللّهم نَجِّنا من مُقَطَّعات[1] النيران وأغلالها . ثم غسل قدميه فقال : اللّهم ثَبِّتْ قَدَمىّ على الصراط المستقيم يوم تَزِلّ فيه الأقدام . ثم آستوى قائما فقال : اللّهم كما طَهّرتنا بالماء فطهِّرنا من الذنوب ، ثم قال بيده هكذا ، يقطُرُ الماء من أنامله ، ثم قال : يا بُنَىّ ، آفعل كفعلى هذا فإنه ما من قَطْرةٍ تقطر من أناملك إلا خلق اللهُ منها ملَكًا يستغفر لك إلى يوم القيامة ، يا بُنَىّ من فعل كفعلى هذا تساقطت عنه الذنوب كما يتساقط الورق عن الشجر يوم الريح العاصف .

وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا توضّأتَ فقل اللّهم إنى أسألك تمامَ الوضوء وتمامَ مغفرتك ورضوانك " . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من توضّأ فأحسن وضوءه ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صادقا من قلبه فتح الله له ثمانية أبواب الجنّة يدخل من أيّها شاء" . وعن

(١) المقطّعات من الثياب شبه الجباب وفى التنزيل (قطّعت لهم ثياب من نار) أى قطّعت وخيطت وجعلت لبوسا لهم . اهـ عن لسان العرب .

عليّ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا عليّ إذا فرغتَ من وُضوئك فقل أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله اللّٰهم ٱجعلنى من التوّابين وٱجعلنى من المتطهِّرين تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أُمّك وتُفتح لك ثمانيةُ أبواب الجنة فيقال ٱدخل من أيّها شئت" .

٥

* * *

وأما أدعية الصلاة، فهى إمّا أن تقع قبلها أو فيها أو بعدها . فأمّا ما يقال قبلها فقد رُوى عن أبى سَلَمة بن عبد الرحمن قال : سألتُ عائشة أُمّ المؤمنين رضى الله عنها بأىّ شىء كان نبىّ الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاةَ إذا قام من الليل؟ قالت : إذا قام يفتتح صلاته يقول : "اللهم ربَّ جِبريل وميكائيل وإسرافيل فاطرَ السمٰوات والأرض عالمَ الغيب والشهادة أنت تحكُمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ٱهدنى لما ٱختلفتُ فيه من الحقّ بإذنك إنك تهْدى من تشاء إلى صراط مستقيم" .

(١٤٧)

١٠

وأما ما يدعى به فى نفس الصلاة، فقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ٱفتتح الصلاة رفع يديه حذو مَنْكِبيه ثم يقول : "سبحانك اللّٰهم وبحمدك تبارك ٱسمُك وتعالى جَدُّك ولا إلٰهَ غيرُك" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا كبّر فى الصلاة سكت هُنَيَّةً قبل أن يقرأ، فقلت : يا رسول الله، بأبى أنت وأمى، ما تقول فى سكوتك بين التكبير والقراءة؟ قال : "أقول اللّٰهم باعِدْ بينى وبين خَطَاياى كما باعدتَ بين المشرق والمغرب اللّٰهم نَقِّنى من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس وٱغْسِلنى من خطاياى بالثلج والماء والبَرَد" . وعن جُبَيْر بن مُطْعِم رضى الله عنه أنه رأى

١٥

٢٠

النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلّي قال : فكبّر فقال "الله أكبر كبيرا ثلاث مرات والحمد لله كثيرا ثلاث مرات وسبحان الله بكرةً وأصيلا ثلاث مرات اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثه" . قال راويه عمرو بن مُرّة : نفخه : الكبر، ونفثه : السحر، وهَمْزه : المُوتة وهى الجنون . وعن علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة كبّر ثم قال : "وجّهت وجهى للّذى فطر السموات والأرضَ حنيفًا مُسلما وما أنا من المشركين إن صلاتى ونُسُكى ومَحْياى ومماتى لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوّلُ المسلمين اللّهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربّى وأنا عبدك ظلمتُ نفسى واعترفتُ بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعا لا يغفر الذنوبَ إلا أنت واهْدِنى لأحسنِ الأخلاق لا يَهدى لأحسنها إلا أنت واصرِف عنى سيّئها لا يصرِف سيّئها إلا أنت لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ والخير كلّه فى يديك [والشرّ ليس إليك](1) وأنا بك وإليك تباركتَ وتعاليتَ أستغفرك وأتوب إليك"، فإذا ركع قال : "اللّهم لك ركعتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ خشَع لك سمعى وبصرى ومُخّى وعظمى وعَصَبى"، فإذا رفع رأسه قال : "سمع الله لمن حمِده ربّنا ولك الحمد مِلْءَ السموات والأرض وما بينهما ومِلْءَ ماشئت من شىء بعد" ، فإذا سجد قال : "اللّهم لك سجدتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ سجد وجهى للّذى خلقه وصوّره فأحسن صُوره وشقّ سمعه وبصره فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين" ، فإذا فرغ من الصلاة وسلّم قال : "اللهم اغفرلى ما قدّمتُ وما أخرتُ وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منّى أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت" . وقد ورد فى لفظ آخر أنه يقول : اللهم اغفرلى إلى آخر الدعاء بين التشهُّد والتسليم . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : صلّيت مع رسول الله

(1) زيادة من كتاب الأذكار للنووى ص ٢١

صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول فى ركوعه: "سبحانَ ربّى العظيم"، وفى سجوده : " سـبحانَ ربّى الأعلى " . وفى لفظٍ أنه كان يقول ذلك ثلاث مرات . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده وركوعه: "سُبُّوح قُدُّوس ربّ الملائكة والروح" . وعن أبى سـعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال : "ربّنا لك الحمد ٥
ملء السمٰوات وملء الأرض وملء ما شئتَ من شيء بعدُ أهل الثناء والمجد أحقّ ما قال العبد وكلّنا لك عبد اللّهم لا مانعَ لِمَـا أعطيتَ ولا مُعطى لمـا منعتَ ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ" . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : "من قال وهو ساجدٌ ثلاث مرّات ربّ ٱغفرلى لم يرفع رأسه حتّى يُغْفَرَ له " . وعن ٱبن عبّاس رضى الله عنهما
قال : كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم يعلّمنا التشهّد كما يعلّمنا السُّورة من ١٠

القرآن، وكان يقول : "التحيّات المباركات الصلوات الطيبات لله سلامٌ عليك أيها النبيّ ورحمة الله و بركاته سلامٌ علينا وعلى عباد الله الصالحين أَشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأشهد أن محمدا رسولُ الله" . وروى : السلامُ فى الموضعين . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كنّا نقول فى الصـلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسـلم :
السلامُ على الله السلام على فلان، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : ١٥
"إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيّاتُ لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السـلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإذا قالها أصابت كلَّ عبد صالح فى السماء والأرض أشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخيّر فى المسئلة ما شاء" . وقد علّم رسول الله صـلى الله عليه
وسـلم أصحابه الصلاة عليه . وقد سأله كعب بن عُجْرة عنهـا فقال : " قولوا اللّهم ٢٠
صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآلِ إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد وبارك

على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا فرغ أحدكم من التشهّد فليتعوّذ بالله من أربع من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة المَحْيا والممات وشرّ المسيح الدجّال" . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله : علِّمنى دعاءً أدعو به فى الصلاة وفى بيتى ؛ قال : "قل اللّهم إنى ظلمتُ نفسى ظلمًا كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلى مغفرةً من عندك إنّك أنت الغفور الرحيم" . وروى بعد قوله من عندك : وآرحمنى إنك أنت التوّاب الرحيم .

⁂

وأما ما يدعى به بعد التسليم ؛ فقد رُوى عن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دُبُرَكلّ صلاة : "لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمد يحيي ويُميت وهو على كلّ شىء قدير اللّهم لا مانعَ لِمَا أعطيتَ ولا مُعْطِىَ لما منعت ولا ينفع ذَا الجَدّ منك الجَدّ" . وعن عبد الله آبن الزُّبَير رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلّم من صلاته يقول بصوته الأعْلى : "لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لا حولَ ولا قوّة إلا بالله ولا نعبد إلا إيّاه له النعمةُ وله الفضلُ وله الثناء الحسن لا إلٰه إلا الله مُخلصين له الدينَ ولو كره الكافرون" . وفى طريق آخر : "له الدينَ وهو على كل شىء قدير" . وعن أُمّ سَلمة رضى الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلّى الصبح قال : "اللّهم إنى أسألك علمًا نافعا ورزقا طيّبا وعملا مُتَقبَّلا" . وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

" من قال حين ينصرف من صلاته سبحانَ الله العظيم وبحمده لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليّ العظيم ثلاث مرات فإنه مغفور له". وعن أبي أُمامة الباهليّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ آية الكرسيّ دُبُرَ كلّ صـلاة لم يمنعه من دخول الجنـة إلا أن يموت" . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " ما من عبدٍ بَسَط كفَّيه في دبر صـلاته ثم يقول ٥ إلٰهي إلٰهَ إبراهيمَ و إسحـاق و يعقوب إلٰهَ جبريلَ وميكائيل و إسرافيـل أسألك أن تسـتجيبَ دعوتي وتَعْصِمَني في دِيني فإني مبتلًى وتنالَني برحمتـك فإني مذنبٌ وتنفيَ عني الفقرَ فإني مُستمسك إلّا كان حقًّا على الله ألّا يردّ يديه خائبتين " . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قال دبر كلّ صلاة الحمدُ لله ثلاثاً وثلاثين مرّة وسبحانَ الله ثلاثاً وثلاثين مرة واللهُ أكبرُ ثلاثاً وثلاثين مرّةً وتمامَ المـائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غُفِرَتْ ذنوبُه ولو كانت أكثر من زَبَد البحر" . وعن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في آخر وَتْره : " اللّهم إني أعوذ برضاك من سَخَطِك وأعوذُ بمُعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أُحْصِي ثناءً عليك أنت كما أَثنيتَ على نفسك" . وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال : علّمني رسولُ الله ١٥ صلى الله عليه وسـلم كَلماتٍ أقولهنّ في الوَتْر، وفي لفظ : في قُنوت الوتر : " اللّهـم آهْدِني فيمن هديتَ وعافِني فيمن عافيتَ وتولَّني فيمن تَوَلَّيت و بارك لي فيما أعطيتَ وقِني شرَّما قضيتَ إنك تَقْضِي ولا يُقْضَى عليـك و إنّه لا يَذِلُّ من واليت تباركت ربَّنا وتعاليت" . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسـلم على جنازةٍ فقال : " اللّهـم آغفر لحيِّنا وميِّتنا وصغيرنا وكبيرنا وذَكَرنا وأُنثانا وشاهِدنا وغائبنا اللّهم من أَحْييته منّا فأَحْيِه على الإيمـان ومن توفَّيْتَه منا فتوفَّه على

الإسلام اللّٰهم لا تحرِمْنا أجرَه ولا تُضِلّنا بعده". وعن عليّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا عليّ إذا صلّيت على جنازة رجلٍ فقل اللّٰهم هٰذا عبدُك آبن عبدِك آبنُ أمتك ماضٍ فيه حكمُك خلقتَه ولم يكن شيئًا مذكورا نزل بك وأنت خيرُ منزولٍ به اللّٰهم لَقِّنْه حُجّته وألحِقْه بنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم وثبّته بالقول الثابت فإنه آفتقر إليك وآستغنيتَ عنه كان يشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا الله فاغفر له وآرحمه ولا تحرِمْنا أجرَه ولا تفتِنّا بعده اللّٰهم إن كان زاكيًا فزكِّه وإن كان خاطئا فآغفرْ له وإذا صلّيتَ على جنازة امرأةٍ فقل اللّٰهم أنتَ خلقتها وأنت أَحْييتها وأنت أَمتّها تعلم سرّها وعَلانِيَتَها جئناك شفعاءَ لها فاغفر لها وآرحمها ولا تحرِمنا أجرها ولا تفتِنّا بعدها وإذا صلّيتَ على جنازة طفل فقل اللّٰهم آجعله لوالديه سَلَفا وآجعله لهما ذُخرا وآجعله لهما رَشَدا وآجعله لهما نُورا وآجعله لهما فَرَطا وأَعقِب لوالديه الجنّة ولا تحرِمنا أجره ولا تفتِنّا بعده" . وعن عَوْف بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم وصلّى على جنازة يقول : "اللّٰهم آغفر له وآرحمه وآعفُ عنه وعافِه وأَكرم نُزُلَه ووسِّع مَدْخله وآغسِله بماء وثلج وبَرَد ونَقِّه من الخَطَايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيض من الدنَس وأبدله دارًا خيرًا من داره وأهلًا خيرا من أهله وزوجًا خيرا من زوجه وقِهِ فتنةَ القبر وعذابَ القبر وعذابَ النار" ؛ قال عوف رضى الله عنه : فتمنّيتُ لو كنتُ أنا الميّت لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وأما ما يقال عند رؤية الجنازة والتلقينِ والدفن ، وما فى ذلك من الأجر ؛ روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من رأى جنازةً فقال اللهُ أكبرُ صدقَ الله ورسولُه هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه اللّٰهم زِدْنا إيمانًا وتسليما كُتِبَ له عشرون

حســنةً فى كلّ يومٍ من يومٍ يقولهـا إلى يوم القيامة" . وقال صلى الله عليه وسلم : "لَقِّنوا موتاكم لا إلٰهَ إلا الله" . وقال صـلى الله عليه وسـلم : "إذا وضعتم مَوْتاكم فى القـبر فقولوا بسم الله وعلى مِلَّة رسول الله" . وعن آبن عمر رضى الله عنهما أنه كان اذا سُوِّىَ على الميّت الترابُ قال : "اللّهم أَسْلَمه إليك الأهلُ والمـالُ والعشيرةُ وذنبُـه عظيم فاغفرْ له" . وعن سعيد بن عبد الله الأَوْدىّ قال : شهدت أبا أُمامة وهو فى النَّزْع فقال : إذا أنا مِتُّ فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصنع بموتانا ، أمرنا فقال : " إذا مات أحد من إخوانكم فسوَّيتم الترابَ على قبره فليقمْ أحدكم على رأس قبره فليقل يا فلان بن فلانة فإنه يسمعه ولا يُجيبــه ثم يقول يا فلان بن فلانة فإنّه يســتوى قاعدًا ثم يقول يا فلان بن فلانة فإنه يقول أَرْشــدنا رحمك الله ولكن لا تشعرون فليقُل آذْكُرْ ما خرجتَ عليه من الدنيا شهادة أن لا إلٰه إلّا الله وأنّ محمدا عبــدُه ورسولُه وأنّك رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دِينًا وبمحمدٍ نبيّا وبالقرآنِ إماما فإن مُنْكَرًا ونَكيرا يأخذُ كلُّ واحدٍ منهما بيدِ صاحبه ويقول آنطلِقْ بنا ما نقعد عند من لُقِّن حُجّته فيكون الله حجيجَه دونهما" ، فقال رجل : يا رسول الله فإن لم يعرف أُمَّه؟ قال : "فينسبه إلى حوّاء يا فلان آبن حوّاء" .

*
* *

وأما ما يقال عند زيارة القبور ، عن عائشة رضى الله عنها أنّهـا تبِعت النبىَّ صلى الله عليه وسلم إلى زيارة البَقِيع فقال لهـا : "قولى السَّلامُ على أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات ويرحمُ اللهُ المُستقدِمين منّا والمُستأخِرين وإنّا إن شاء اللهُ بكم لاحقون" . وكان رسول الله صلى الله عليه وسـلم إذا أتى المقابر قال : "السلامُ عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم لنـا فَرَطٌ ونحن لكم تَبَعٌ أسأل الله العافيةَ لنا ولكم" .

٭٭٭

وأما ما يقال عند الإفطار من الصوم، والأكل والشرب؛ روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أَفْطر قال : "اللّهم لك صُمْنا وعلى رزقك أَفْطرنا فتقبَّل منّا إنك أنت السميع العليم". وعنه صلى الله عليه وسلم : "من قال اللّهم لك صُمْتُ وعلى رزقك أَفطرتُ وعليك توكّلت كُتِبَ له من الأَجْر بعدد من صام ذلك اليوم". وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ أحدكم لَتُوضَعُ مائدةٌ بين يديه فما تكاد أن تُرْفَعَ حتى يُغْفَرَ له". قيل يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال : "لأنه يُسَمِّى الله إذا وُضِعت المائدةُ وأَكَل ويحمَدُ الله إذا رُفِعت". وعن عائشة رضى الله عنها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا نسى أحدُكم أن يذكر آسم الله فى أوّل طَعامه فليقل بسم الله أوّلَه وآخِرَه". وعنه صلى الله عليه وسلم : "من أكل طعامًا ثم قال الحمدُ لله الذى أَطْعمنى هذا الطعامَ ورزقَنِيه بغير حولٍ منّى ولا قُوّة غُفِر له ما تقدّم من ذنبه". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل قال : "الحمد لله الذى أطعم وسَقَى وسوَّغه وجعل له مَخْرَجا". ومن رواية أنس : "الحمد لله الذى أَطْعمنى وسقانى وهدانى وكلّ بلاء حسن أبلانى الحمدُ لله الرازقِ ذِى القوّة اللّهم لا تَنْزِعْ منّا صالحا أعطيتَناهُ ولا صالحًا رَزَقْتَناهُ وآجعلنا لك من الشاكرين". وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل قال : "الحمد لله الذى أطعمَنا وسقَانا وأَشْبَعَنا وآوانا وكفانا". وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا شربتَ ماءً فقل الحمدُ لله الذى سقانا ماءً عَذْبًا فُراتا برحمته ولم يجعلْه مِلْحًا أُجَاجا بذنوبنا تُكْتَب شاكرا". وكان صلى الله عليه وسلم إذا أَفْطر عند أهل بيتٍ قال لهم : "أَفْطَرَ عندكم

الصائمون وأكل طعامكم الأبرارُ ونزلت عليكم الملائكة"؛ وروى : "وصلّت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده" .

* * *

وأما ما يقال عند لباس الثوب وإلباسه، وعند النظر فى المرآة والتسريح وفى المجلس؛ روى أبو سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا آستجدّ ثوبا — سمّاه بآسمه قميصًا أو إزارا أو عمامةً — يقول: "اللّهم لك الحمدُ أنت كَسَوْتَنيه اللّهم إنى أسألك من[1] خَيره وخيرِ ما صُنِـع له وأعوذُ بك من شرِّه وشرِّ ما صُنِـع له" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "يا علىّ إذا لَبِست ثوبًا فقل باسم الله الحمـدُ لله الذى كسانى ما أُوَارِى به عَوْرتى وأسـتغنى به عن الناس لم يبلغ الثوبُ رقبَتك حتى يُغْفَرَ لك يا علىّ من لبِس ثوبًا جديدًا وكَسَا[2] أسماله عُرْيانا أو مِسكينا كان فى جِوار الله وأَمْنِه وحفظِـه ما دام عليـه منه سِلْك[3]" . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن لَبِس ثوبًا فقال الحمدُ لله الذى كسانى هـذا ورزقنيه من غير حولٍ منّى ولا قوة إلا غُفِرَ له ما تقـدّم من ذنبـه وما تأخر[4]" . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسـلم إذا نظر فى المرآة يقول : " الحمـد لله رب العالمين الذى خلقنى وسوّى خَلْقِى وجعلنى بَشَرًا سَوِيًّا ولا حول ولا قوة إلا بالله"؛ قال آبن عبـاس رضى الله عنهما : فما تركتُها منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : لا يَمَسّ

(١) الذى فى أذكار النووى : «أسألك خيره ...» بدون كلمة «من» .

(٢) فى الأصول «أوكسا أسماله...» وظاهر أن السياق يقتضى الواو دون «أو» وقد ورد ما يشبه هذا الحديث فى أذكار النووى (ص ١١) وأداة العطف فيه «ثم» . (٣) السلك : الخيط .

(٤) ورد هذا الحديث فى أذكار النووى هكذا : «من لبس ثوبا جديدا فقال الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر الله له ما تقدّم من ذنبه» .

وجهَ من قالها سوءٌ أبدا . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا نظرت فى المرآة فقل اللهم كما حسّنتَ خَلْقى فأَحْسِنْ خُلُقى وآرزقنى" . وعن الرِّضى علىّ بن موسى عن أبيه عن آبائه أَبًا فأَبًا رضى الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من أَمَرَّ المشط على رأْسه ولحيته فى كل يوم سبعَ مرات وقال فى كلّ مرة سبحانَ الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم لم يقارنه ذنب" . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من جلس فى مجلس كثُر لَغَطه فيه فقال قبل أن يقوم سبحانَك اللّهم ربّنا وبحمدك لا إلٰهَ إلّا أنت أَستغفرُك وأتوبُ إليك غَفَر الله له ما كان فى مجلسه ذلك" .

* * *

(١٥١) وأما ما يقال فى المرض والرُّقَى والوَسْواس والحَرِيق ، عن عائشة رضى الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول للمريض : "باسم الله تربةُ أرضِنا وريقةُ بعضِنا يُشْفَى سقيمُنا بإذْن ربِّنا"[١] . وعن عثمان بن أبى العاص الثقفىّ رضى الله عنه قال : قدِمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبى وَجَعٌ قد كاد يُبْطِلنى فقال لى صلى الله عليه وسلم : "آجعل يدك اليمنى عليه ثم قل باسم الله أعوذُ بعزة الله وقدرته من شرِّ ما أَجِد سبعَ مرات"[٢] ، ففعلت ذلك فشفانى الله تعالى . وعنه صلى

(١) كذا فى الأصول ، وفى صحيح مسلم : «بآسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ليشفى به سقيمنا باذن ربنا وقال ابن أبى شيبة : يشفى وقال زهير : ليشفى سقيمنا» وفى أذكار النووى (ص ٦١) : «وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم وسنن أبى داود وغيرها ، الى أن قال : بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى به سقيمنا باذن ربنا ، وفى رواية تربة أرضنا وريقة بعضنا اهـ فما فى الأصول هنا يوافق بعض الروايات .

(٢) الذى فى صحيح مسلم : «عن عثمان بن أبى العاصى الثقفى أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا يجده فى جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل بآسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» .

الله عليه وسلم : "من عاد مريضًا لم يحضُرْ أجلُه فقال عنده سبعَ مرات أسألُ الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يَشفيك إلّا عافاه الله من ذلك المرض" . وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض وضع يده اليمنى على خدّه وقال: "أذهِب البَاس، ربَّ النّاس وآشفِ أنت الشافى شِفاءً لا يغادر سَقَمًا" . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قرأ فى أُذُن مبتلًى فأفاق، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما قرأت فى أذنه"؛ قال: قرأت (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) إلى آخر السورة؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لو أنّ رجلًا مُوقِنًا قَرَأ بها على جبلٍ لزال": وعن آبن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من رأى صاحب بَلاءٍ فقال الحمد لله الذى عافانى مما آبتلاكَ به وفضّلنى عليك وعلى كثيرٍ ممن خَلَق عافاه الله من ذلك البلاء كائنًا ما كان أبدا ما عاش" . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أَرْقِى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العَين فأضعُ يدى على صدره وأقول : أَذْهِب البَاس، ربّ الناس؛ بيدك الشفاءُ ولا كاشفَ له إلا أنت . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما رفع الحديث أَنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "هٰذه الكلمات دواءٌ من كلّ داء أعوذُ بكلمات الله التامّة وأسمائه كلها عامّة من السامّة والهامّة وشرِّ العين اللّامّة ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَد ومن شرِّ أبى قِتْرَة[1] وما وَلَد ثلاثون من الملائكة أَتوا ربَّهم عز وجل فقالوا وَصَبٌ بأرضنا فقال خُذُوا تربةً من أرضكم وآمسحوا بوَصَبكم رُقْيَةُ محمد صلى الله عليه وسلم من أخذ عليها صَفَدًا[2] أو كَتَمَها أحدًا فلا أَفْلح أبدا" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : من آشتكى ضِرْسه فليأخذ الترابَ من موضع سجوده ثم يمسح يده على الموضع الذى يشتكى، ثم يقول : بسم الله، والشافى الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه أتاه رجل فذكر له أن

---

(١) أبو قترة : ابليس . (٢) الصفد بفتحتين : العطاء .

أباه آحتبس بولُه وأصابته حَصَاةٌ منعته البول فعلّمه رُقْيــة سمعها من النبيّ صلى الله عليه وسلم وهى : "ربّنا الله الذى فى السماء تقدّس آسمك أمرُك فى السماء والأرض كما رَحْمَتُك فى السماء فآجعل رحمتَك فى الأرض وآغفِرْ لنا حُوبَنا[1] وخطايانا أنت ربّ الطيّبين فأَنْزِل شفاءً من شفائك ورحمةً من رحمتك على الوَجَع فيبرأ" ، فأمره برَقْيه بها فرقاه بها فبرئ . وعن علىّ رضى الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فوافقه مُغْتَمّاً، فقال : يا محمد ما هذا الغمّ الذى أراه فى وجهك ؟ قال : "الحسن والحسين أصابتهما عَيْن"، فقال : يا محمد صدِّق العينَ فإن العَيْنَ حقّ، ثم قال : أَفَلَا عوّذتَهما بهؤلاء الكلمات؟ فقال : "وماهنّ يا جبريل"، فقال : قل اللّهمّ ذا السلطان العظيم، ذا المَنِّ القديم، ذا الوجهِ الكريم، والكلمات التامّات، والدعوات المُستجابات عافِ الحسنَ والحسينَ من أَنْفُس الجنِّ وأَعْيُنِ الإنس ، فقالها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقاما يلعبانِ بين يديه ، فقال النبي صــلى الله عليه وسلم لأصحابه : "عَوِّذُوا أنفسكم بهذا التعوّذ فإنّه لم يتعوَّذ المتعوِّذون بمثله" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "أَمَانٌ لك من الحَرَق أن تقول سبحانَك ربِّى لا إلٰهَ إلّا أنت عليك توكّلتُ وأنت ربّ العرش العظيم" . وعنه أيضا رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ياعلىّ أمانٌ لك من الوَسْواس أن تقرأ (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا)" .

***

وأما ما يقال عند دخول السوق وشراء الجارية والدابّة ، رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل السوق قال: "اللّهم إنّى أسألك من خير

(١) الحوب : الإثم .

(١٥٣) هذه السوق وأعوذُ بك من الكفر والفُسوق‟ . وعن عليّ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يا عليّ إذا دخلت السوق فقل حينَ تدخل باسم الله و بالله أشهدُ أن لا إلَهَ إلّا الله وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسوله يقول الله عز وجل عبدى هذا ذَكَرَنى والناسُ غافلون آشهَدوا أنّى قد غفرتُ له‟ . وعن عمر آبن الخطاب رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ”من دخل السوق فقال ٥ لا إلَهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو حىٌّ لا يموت بيده الخيرُ وهو على كل شىء قدير كتب اللهُ له ألفَ ألفِ حسنة ورفع له ألفَ ألفِ درجة‟ أو قال : ” وبنى له بيتًا فى الجنّة ‟ . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إذا أفاد أحدُكم الجاريةَ أو المرأةَ أو الدابّة فليأخذْ بناصيتها وليَدْعُ بالبركة وليقُل اللّهم إنّى أسألك خيرَها وخيرَ ما جُبِلْتَ عليه وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما جُبِلت ١٠ عليه فإن كان بعيرًا فليأخذ بذروة سَنَامه‟ .

* * *

وأما ما يقال عند هبوب الرياح وفى الرعد والمطر، عن أُبَيّ بن كعب رضى الله عنه أن الريح هاجت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبّها رجلٌ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : ”لاتسبّها فانها مأمورة ولكن قل اللّهم إنى أسألك ١٥ خيرَها وخيرَ مافيها وخيرَ ما أُمِرَتْ به وأَعوذُ بك من شرّها وشرّ مافيها وشر ما أُمِرت به‟ . وعن آبن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعْد أو البرْق قال : ”اللّهم لا تقتلنا غَضَبًا ولا تقتلنا بغتةً وعافِنا قبل ذلك‟ . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : ”اللّهم لا تُهلِكنا بغضبك ولا تقتلنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك‟ . وعن ٢٠ أَنَس ان النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه فى شىء من الدعاء إلا فى الآستسقاء

حتى يُرى بياضُ إبطَيه . وعن كعب بن مُرّة السلمىّ رضى الله عنه قال : كنّا عند
رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل فقال : يا رسول الله آستسق اللهَ لمُضَر،
فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال : "اللّهم آسقِنا غَيْثًا مُغيثا مَرِيعا مريئا
عاجلًا غيرَ رائثٍ نافعًا غيرَ ضارّ" ؛ قال : فما جَمّعوا[(١)] حتى أَحْيَوْا[(٢)]، فأَتَوْه فشكَوْا إليه
المطرَ فقالوا : يا رسول الله، قد تهدّمت البيوتُ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
بيده : "اللّهم حَوَالَيْنا ولا علينا"، فجعل السحاب يتقطّع يمينًا وشِمالا . وعن عائشة
رضى الله عنها أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى ناشئًا فى أُفُق السماء ترك
العمل وإن كان فى صلاة، ثم يقول : "اللّهم إنى أعوذُ بك من شرّها"؛ فإن رأى
مطرا قال : "اللّهم صَيِّبًا هَنِيئا" . وعنها رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم إذا رأى المطرَ قال : "اللّهم صيِّبًا نافعا" .

* * *

وأما ما يقال فى الخوف والشدائد . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه
عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا تخوّف الرجلُ من السلطان فليقل اللّهم
ربّ السموات السبع وربَّ العرش العظيم كن لى جارًا من فلان بن فلان يسمِّى
الذى يريد وشرِّ الجنّ والإنس وأحزابهم وأتباعهم أن يفرُط علىّ أحدٌ منهم أو يَطْغى
عَزّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلٰهَ غيرُك" . وعن آبن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ
صلى الله عليه وسلم : "من خاف من السلطان أو غيره فليفزَعْ إلى هذه الدعوةِ اللهُ
أكبرُ وأعزُّ من خَلْقه جميعا اللهُ أكبرُ وأعزُّ مما أخافُ وأحذَر وأعوذ بالله الذى
لا إلٰهَ إلّا هو مُمْسِك السموات السبع أن يَقَعْنَ على الأرض إلّا بإذنه من شرّ فلان

(١) جمعوا : شهدوا الجمعة .
(٢) أحيوا : حيّت ماشيتهم أو حسن حالها أو صاروا فى الخصب . من القاموس .

ٱبن فلان يارَبّ كن لى جارًا من شرّه عزّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلٰهَ إلا أنت العلىّ العظيم يقولهنّ ثلاثَ مرات إلّا أعاذه الله من شرّ ذلك" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا ٱشتدّ بك أمرٌ فكَبِّر ثلاثًا وقل اللهُ أكبرُ وأعزُّ من كل شىء واللهُ أكبرُ أعزّ من خَلقه وأقدر وأعزّ مما أخاف وأحذر اللّهم أَدْرَأُ بك فى نَحْره ، وأعوذُ بك من شرّه فإنك تُكْفَى بإذن الله ٥ عزّ وجل" .

* * *

(١٥٣) وأما ما يقال فى الغضب والفزع . عن سليمان بن صُرَد رضى الله عنه قال : ٱستَبّ رجلان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فجعل أحدُهما تحمَرّ عيناه وتنتفِخ أوداجُه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّى لأعرف كلمةً لو قالها لَذَهَب عنه الذى ١٠ يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إذا فزع أحدكم فليقُلْ أعوذُ بكلمات الله التامّة من غضبه وعذابه[(١)] ومن شرّ عباده ومن هَمَزَات الشياطين وأن يحضرونِ فإنّها لم تضرّه" . قال فكان عبد الله يعلّمها من بلغ من ولده ، ومن لم يبلُغْ منهم كَتَبها فى صَكٍّ وعلّقها عليه ؛ وفى لفظ : "إذا فزع أحدكم فى النوم فليقل" يعنى الكلمات ؛ وفى طريقٍ : كان خالد بن الوليد رجلا يفزع فى نومه ١٥ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : "إذا ٱضطجعت للنوم فقل" يعنى الكلمات ، فقالها فذهب ذلك عنه .

* * *

وأما ما يقال فى السفر وركوب الدابّة والسفينة ودخول القرية ؛ عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا توضّأ ٢٠

(١) ذكر هذا الحديث فى أذكار النووى مرات ولم تذكر فيه كلمة «وعذابه» .

فأسبغ وضوءه وصلّى ركعتين، ويقول وهو فى مجلسه مستقبِلَ القبلة: "الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا ربِّ أَعِنِّى على أهوال الدنيا والآخرة ومن مصيبات الليالى والأيّام فى سفرى فاحفظنى وفى أهلى فاخلُفنى". وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم: "ما آستخلَف العبدُ فى أهله إذا هو شدّ عليه ثيابَ سفره خيرًا من أربع ركعاتٍ يُصَلِّيهِنّ (١) فى بيته يقرأ فى كل واحدة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول اللّهم إنّى أتقرب بهنّ إليك فاجعلْهُنّ خليفتى فى أهلى ومالى قال فهو (٢) خليفته فى أهله وماله وولده ودُورِ حولَ داره حتى يرجعَ إلى داره". وعن أنس رضى الله عنه قال: لم يُرِد النبىّ صلى الله عليه وسلم سفرًا قطّ إلا قال حين ينهض من جلوسه: "بك آنتشرتُ إليك وَجَّهت (٣) وبك آعتصمت أنت ثِقتى ورجائى اللّهم آكفِنِى ما يهمُّنى وما لا أهتمّ به وما أنت أعلم به منّى اللّهم زوّدنى التقوَى وآغفر لى ذنبى ووجِّهنى إلى الخير أينما توجّهتُ". وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا ركبتم الإبل فتعوّذوا بالله وآذكروا آسم الله عليه فإنّ على سَنَام كلّ بعيرٍ شيطانا". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آستوى على بعيره يريد السفر كبّر ثلاثا ثم قال: "سبحانَ الذى سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنِين وإنا إلى ربِّنا لَمُنْقَلِبُون اللّهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البِرَّ والتقوى ومِن العمل ما ترضَى اللّهم هَوِّنْ لنا سفرنا هذا وآطْوِ عنّا بُعْدَه اللّهم أنت

(١) كذا فى شرح الإحياء طبع المطبعة الميمنية ج ٦ ص ٤٠٣ وفى الأصل «يضعهن».

(٢) ورد هذا الحديث فى كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال الموضوع بهامش الجزء الثالث من مسند الامام أحمد بن حنبل طبع مصر سنة ١٣١٣ هـ ج ٣ ص ٣٩ مع شىء يسير جدّا من النقص أو الزيادة. وفيه «فاجعلهن خليفتى فى أهلى ومالى فهن خليفته» الخ.

(٣) كذا بالأصلين وقد روى هذا الحديث فى منتخب كنز العمال «اللهم لك انتشرت وإليك توجهت وبك اعتصمت اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى اللهم آكفنى ما أهمنى وما لا أهتم له وما أنت أعلم به اللهم زودنى التقوى» الخ.

الصاحبُ فى السفر والخليفةُ فى الأهل والمـال والولد" ، وإذا رجع صلى الله عليه وسلم قالهن وزاد فيهن : "آئبون تائبون لربّنا حامدون" . وعن آبن عمر رضى الله عنهما أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قَفَل من حَجّ أو عُمرة فأَشرفَ على شَرَفٍ كبّر ثلاثا ثم قال : "لا إلٰهَ إلّا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شىء قدير آئبون تائبون لربّنا حامدون صدق اللهُ وعدَه ونصر عبدَه وهزم الأحزاب وحدَه وكلُّ شىء هـالكٌ إلّا وجهَه له الحكمُ وإليـه تُرْجعون اللّٰهـم إنى أعوذ بك من وَعْثاء السفَر وكآبة المُنْقلَب وسوءِ المنظَر فى الأهل والمـال" . وعن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَمَانٌ لأُمّتى من الغَرَق إذا ركبوا السُّـفُن أن يقولوا بسم الله الرحمٰن الرحيم وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعًا قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ والسمٰواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سبحانَهُ وتَعَالَى عَمّا يُشْرِكون بسم الله مَجْرِيٰها ومُرْساها إنّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيم". وكان رسول الله صلى الله عليه وسـلم إذا سافر فأقبل اللّيلُ قال : "يا أرضُ ربِّى وربُّكِ اللهُ أعوذُ بالله من شرِّكِ وشرّ ما فيـكِ وشرّ ما يدِبّ عليكِ أعوذُ بالله من أَسَدٍ وأَسْوَدَ ومن الحيّة والعقرب ومن ساكِنِ البلد ومن والد وما وَلَد" . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "يا علىّ إذا نزلتَ منزلًا فقل باسمِ الله اللّٰهم أَنْزِلْنا منزلًا مُباركًا وأنت خيرُ المُنْزِلين تُرْزَقْ خيرَه ويُدْفَعْ عنك شرُّه" . وقال صلى الله عليه وسـلم : "مَنْ نزل منزلًا ثم قال أعوذُ بكلماتِ الله التامّات كلِّها من شرِّ ما خلق لم يَضُرَّه شىءٌ حتى يرتحل من منزله ذلك" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إذا أردتَ الدخول إلى مدينةٍ أو قرية فقـل حين تُعاينها اللّٰهم إنّى أسألك خيرَ هـذه القريةِ وخيرَ ما كتبتَ فيها وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما كتبت فيها اللّٰهـم آرزُقْنى خيرَها وأعوذُ بك من شرِّها

وحَبِّبْنا إلى أهلها وحَبِّبْ أهلَها إلينا" . وعن صُهَيْب رضى الله عنه أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يُريدُ دخولَها إلّا قال: "اللّهم ربَّ السموات السبع وما أَظْلَلْنَ وربَّ الأَرَضِينَ السبع وما أَقْلَلْنَ وربَّ الرياحِ وما ذَرَيْنَ وربَّ الشياطينِ وما أَضْلَلْنَ أسألك خيرَ هـذه القريةِ وخيرَ ما فيها وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها" . وعن أبى هُريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأراد أن ينزل قريةً عدَل إليها وقال : "اللهُ أكبرُ ثلاثا اللّهم ٱرزُقْنا خيرَها وٱصْرِفْ عنّا وَبَاءَها وحَبِّبْنا إلى صالح أهلها وحَبِّبْهم إلينا" .



وأما ما يقال فى الزواج والجماع؛ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا تزوج أحدُكم ثم دخل على أهله فليقُل اللّهمّ بارك لى فى أَهْلى وبارك لأهلى فىّ وٱرزُقْنى منها وٱرزقها منى وٱجْمَع بيننا ما جمعتَ فى خيرٍ وإذا فرّقتَ بيننا ففرّق فى خيرٍ" . وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : "لو أنّ أحدَكم إذا أتى أهلَه قال اللّهم جنّبنِى الشيطانَ وجَنِّب الشيطانَ ما رزقتَنى فإنْ قُضِى بينهما ولَدٌ لم يضرّه الشيطان" (1)، أوقال: "لم يُسَلَّط عليه" .

✤ ✤ ✤

وأما ما يقال فى قضاء الدين ونجاح الحوائج؛ عن أبى سَعيد رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجدَ فاذا هو برجل من

(1) كذا بالأصلين ، وفى أذكار النووى (ص ١٢٥) عن رواية صحيحى البخارى ومسلم : «لو أن أحدكم اذا أتى أهله قال بآسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضى بينهما ولد لم يضره». وفى رواية للبخارى : لم يضره شيطان أبدا اهـ .

الأنصار يقال له أبو أُمامة ، فقــال : ”يا أبا أُمامة مالى أراك جالسًا فى المسـجد فى غير وقت صلاة“؛ قال : هموم لَزِمتنى وديون يا رسول الله؛ قال : ”أفلا أُعلّمك كلامًا إذا قلته أذهب الله همَّك عنك وقضى عنك دَيْنَك“؛ قال : بلى يا رسول الله؛ قال : ”قل إذا أصبحتَ وأمسيتَ اللّهم إنّى أعوذ بك من الهَمّ (١) والحَزَن وأعوذُ بك من العجز والكَسَــل وأعوذ بك من الجبن والبَخَل وأعوذُ بك من غَلَبــة الدَّين وقَهْرِ الرجال“؛ قال : ففعلت ذلك فأذهب الله همّى وقضى عنّى دَيْنى . وعن مُعاذ ابن جَبَل رضى الله عنه أنّه تخلّف عن صــلاة من الصلوات ففقده النبىّ صلى الله عليه وسلم فلما جاءه قال : ”ما خلّفك عن الصلاة يامعاذ“؛ قال : لِيُوحَنّا اليهودىّ علىّ دَيْنٌ فخشيتُ إن خرجتُ أن يَلْزَمَنِى فلا أنا وصلتُ إليك ولا أنا كنتُ فى أهلى؛ فقال صــلى الله عليه وسلم : ”أَلَا أُعَلِّمك (٢) كلماتٍ إذا قلتَهنّ قضى الله عنــك دينَك ولو كان مثلَ الأرض أو مثلَ صَــبِر (٣) ذهبًا أو وَرِقًا قضاه الله عنــك“؛ قلت : بلى يا رسول الله قال : ”قل اللّهُــمّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وتَنْزِعُ الملكَ مِمّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَـيْرُ إنّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ رَحْمنَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما تُعطى منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء أسألك بعزّتك ورحمتك أن تقضىَ عنّى دَيْنى“ . وعن عبد الله بن أبى أَوْفَى الأسلمىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صــلى الله عليه وسلم : ”من كانت له

(١) كذا فى أذكار النووى ص ٣٩ ، وفى الأصلين : « ... من الجبن والحزن ... » .

(٢) كذا فى نزل الأبرار بالعلم المأثور من الأدعية والأذكار طبع مطبعة الجوائب ص ٢٦٤ وفى الأصلين : « ألا أكلمك ... » .

(٣) صبر ككتف جبل من جبال اليمن مطل على قلعة « تَعِزّ » المدينة المشهورة بها اهـ نقلا عن تاج العروس .

(١٥٥) حاجةٌ إلى الله أو إلى أحد من بنى آدم فليتوضّأ وليُحسِنِ الوضوءَ وليصلِّ ركعتين ثم ليُثْنِ على الله عز وجل و يصلِّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم ليقُلْ لا إلٰهَ إلّا الله الحكيم الكريم سبحانَ الله ربِّ العرش العظيم والحمدُ لله ربِّ العالمين أسألك مُوجباتِ رحمتك وعزائمَ مغفرتِك والغنيمةَ من كلّ بِرّ والسلامةَ من كلّ ذنب لا تدع لى ذنبًا

٥ إلا غفرتَه ولا همًّا إلا فرّجتَه ولا حاجةً هى لك رِضًا إلا قضيتَها" . وعن علىّ رضى الله عنه قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا علىّ إذا خرجتَ من منزلك تريدُ حاجةً فاقرأْ آيةَ الكُرْسىّ فإنّ حاجتَك تُقْضَى إن شاء الله تعالى" . وعنه رضى الله عنه قال : "إذا أراد أحدُكم الحاجةَ فليُبَكِّرْ فى طلبها يوم الخميس وليقرأْ إذا خرج من بيته آخر سورةِ آلِ عِمْرانَ وآيةَ الكرسىّ و إنّا أنزلناه فى ليلة القدر وأُمَّ الكتاب

١٠ فإنّ فيها قضاءَ حوائج الدنيا والآخرة" .

* * *

وأما ما يقال فى ردّ الضالّة، عن مكحول رضى الله عنه أنه كان يدعو فى الضالّة : اللّهم هادىَ ورادَّ الضّوالّ ارْدُدْ علىّ ضالّتى ولا تُعَنِّنِى بطلبها ولا تَفْجَعْنى بمُصيبتها فإنها من رزقك وعطائك . وكان يقول فى الآبق : اللّهم ضَيِّق عليه البلادَ واجعلْه فى أضيقَ

١٥ من ضرورة الحمل حتى تَرُدَّه(١) .

* * *

دعاء الاستخارة، عن أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا أراد الأمرَ : "اللّهم خِرْ لِى واخْتَرْ لى" . وعن جابر

(١) كذا بالأصل وقد راجعنا كثيرا من كتب الحديث والأدعية فلم نوفق اليه ، وفى كتاب الفوائد

٢٠ فى الصلات والعوائد المطبوع بالمطبعة الكاستلية سنة ١٢٩٦ هـ ص ٢٨ وردت العبارة الآتية فى عزيمة العبد الآبق وهى « اللهم انى أسألك يامالك السموات والأرض ومن فيهن أن تجعل اللهم السماء والأرض وما فيهما على عبد فلان بن فلانة أضيق من حلقة حتى يرجع الى مولاه برحمتك يا أرحم الراحمين» .

ابن عبد الله رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمنا الاستخارةَ فى الأمور كما يعلّمنا السورةَ من القرآن، يقول : "إذا همّ أحدكم بالأمر فليركعْ ركعتين من غير الفريضة ثم ليقُلْ اللّهم إنّى أستخيرُكَ بعلمك وأستقدِرُك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدِر ولا أقدِر وتعلَم ولا أعلَم وأنت علّامُ الغيوب اللّهم إنْ كنت تعلم أن هذا الأمرَ خيرٌ لى فى دينى ومَعاشى وعاقبةِ أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فاقدُرْهُ لى [ويسّره لى ثم بارك لى فيه](١) وإن كنتَ تعلم أن هـذا الأمرَ شرٌّ لى فى دينى ومعاشى وعاقبةِ أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فا[صْرفْه عنّى وا](١) صرِفْنى عنه واقدُرْ لى الخيرَ حيث كان ثم رَضِّنى به ويُسَمِّى حاجتَــه".

ذكر ما ورد فى أسماء الله الحسنى والاسم الأعظم

قال الله تعالى : (وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فادْعُوهُ بِهَا). وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لِلّهِ عز وجل تسعةً وتسعين اسمًا مائةً غيرَ واحـد إنّه وِتْرٌ يُحبّ الوتْرَ مَن أحصاها دخل الجنـة هو الله الذى لا إلٰهَ إلّا هُوَ الرحمن، الرحيم، الملك، القُدُّوس، السَّـلَام، المُؤْمِن، المُهَيْمِن، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، الخالق، البارئ، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزّ، المُذِلّ، السميع، البصـير، الحَكَم، العدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلىّ، الكبير، الحفيظ، المُقِيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المَجِيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القوىّ، المتين، الولىّ، الحميد،

(١) زيادة فى كتاب الأذكار للنووى ص ٥٦

المُحْصِى، المُبْدِئ، المُعيد، المُحيى، المُميت، الحىّ، القَيُّوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصَّمَد، القادر، المقتدِر، المقدِّم، المُؤَخِّر، الأوّل، الآخِر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعال، البَرّ، التوّاب، المنتقم، العفوّ، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقْسِط، الجامع، الغنى، المُغنى، المانع، الضارّ، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقى، الوارث، الرشيد، الصَّبُور .

وقد نبّه البُونى رحمه الله فى اللُّمعة النورانية على كيفية العلم والعمل بأسماء الله الحسنى وخاصيّة كل آسم منها، و رتّب ذلك وجعله عشرة أنماط فقال :

النمط الأوّل

مِنْ نَظْمِ الأسماء آسمُه الله، والإلٰه، والربّ، والخالق، والبارئ، والمصوّر، والمبدئ، والمُعيد، والمُحيي، والمُميت . قال البونى : هذا النمط عشرة أسماء لا تكون إلّا أذكارا للذاكرين [على آختلاف][1] أحوالهم؛ فاللهُ والإلٰه ذِكْرُ الأكابر والمُوَلَّهين فى الغالب . و[آسمه][1] الربُّ، والخالقُ، والبارئ ذكر الأكابر من السالكين المُرِيدين[2] . والمصوّر، والمبدئ، والمعيد، والمُحْيِي، والمُميت ذكر عباد الله المتعبِّدين والمتبصّرين[3] .

النمط الثانى

الأحد، الواحد، الصمد، الفعّال، البصير، السميع، القادر، المقتدر، القوىّ، القائم، قال : هذه الأسماء العشرة سِلْكٌ واحدٌ فى تقارب الأذكار؛ وهذا القسم فيه أذكار السالكين المتعلّقين بأسرار التوحيد ذكرُهم الأحد والواحد . وأمّا الصمد

(١) الزيادة عن اللمعة النورانية .

(٢) فى إحدى نسختى اللمعة النورانية : من المسلِّكين المربين .

(٣) فى إحدى نسختى اللمعة : "المعتبِرين والمتبصرين" .

فذكر يصلح للمرتاضين بالجوع [1] ، فذاكره لا يُحِسّ بألم الجوع البتّــة ما لم يُدخل عليه ذكرا غيره [2] . والفعّال آسم للمغلوبين بالخواطر والوساوس وكثرة الأفكار وآغتمام القلب [بهذا السبب] [3] ؛ فمهما ذكره مَنْ هذه صفتُه تقلّبت [4] أفكاره إلى مايقع له به سرور وفرح . وأما السميع والبصير فتنزيه جليل ، وهو ذكر يصلح للمحّبين في الدعاء فإنه ربما أسرعت لهم الإجابة . وأمّا القادر ، والمقتــدر ، والقوىّ ، والقائم فذكر يصلح لأصحــاب الإعياء والحِرَف الثقيلة ؛ ولو علم سرّه من يعانى الأثقال وآستدامه لم يحسّ بثِقَلٍ فيما يتعاطاه البتّة ؛ ومن نقشها [5] فى فص خاتم وتختّم به أدرك ذلك لوقتــه ؛ ومن ضُعُف عن شىء ما وعلّقه عليه وذَكَره قوِى لوقته .

النمـــــط الثـالث

الحىّ [6] ، القيُّوم ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القــدير [7] ، العلىّ ، العظيم ، الكبير ، المتعال . قال : هــذا القسم من الأسمــاء يحتوى على أذكار المراقبين ، وفيه أعمال جليلة البرهان ؛ فالحىّ القيُّوم آسمــان جليلان ، ذكرٌ لأهــل الحضرة ، وهو من أذكار إسرافيــل وملائكة الصُّور أجمعين ، يصلُح أن يُذكر من مبادئ الفجر إلى طلوع الشمس ، يجد ذاكره من الزيادة والخشــية والتطلُّع إلى طلب الفضائل ما لم

---

(١) فى نسختى اللمعة النورانية : «للمرتّضين» .

(٢) كذا فى إحدى نسختى اللمعة وفى الأخرى والأصلين « ما لم يدخل عليه ذكر غيره » .

(٣) الزيادة عن اللمعة النورانية .

(٤) فى نسختى اللمعة النورانية «نقات» .

(٥) فى الأصلين ونسختى اللمعة النورانية "ومن نقشهم" بميم الجمع وظاهر أن قواعد اللغة لا تقتضيها .

(٦) كذا فى إحدى نسختى اللمعة ، وفى الأصلين وفى نسخة أخرى من اللمعة « ياحىّ ياقيوم الرحمن » الخ .

(٧) كذا فى إحدى نسختى اللمعة ، وفى نسخة أخرى منها وفى الأصلين «القدوس» ووجد بأحد الأصلين كلمة «القدير» فوق كلمة القدوس .

يعهده قبلُ؛ ومن نقش الاسمين عند طلوع الشمس [من يوم الجمعة](١) مستقبلَ القِبلة على ذِكْرٍ وأمسكه عنده أحيا الله ذِكْرَه إنْ كان خاملا(٢)، وأحيا رزقَه إنْ كان قليلا . وأمّا الرحمن الرحيم فأذكارٌ شريفة للمضطرّين وأمانٌ للخائفين لا ينقُشه أحدٌ فى خاتم فى يوم جمعة آخر النهار فيرى ما يكرهه ما دام عليه . ومن أكثر من ذكره كان مَلْطوفًا به فى كل أموره . وأمّا الملك والقدير ف[ذكر](٣) يذكر عند كل ذى ملك وقدرة فإنه ما من مَلِك يستديم هذا الذِّكرَ فى عموم أوقاته إلّا ثبت مُلْكه وانبسطت قدرته؛ ويصلح للسالك الذى تغلبه شهواتُ نفسه؛ فإنه ما يستديم ذكره مَنْ هذا مقامُه إلا بعث الله اليه قوّةً مَلَكيّة تؤيّده وتنصره على من يخالفه من عوالمه . وأما العلىّ العظيم فللتنزيه . والكبير المتعال مناسب للتنزيه أيضا ، وهما اسمان لائقان(٤) بأهل التعظيم من أرباب الأحوال ليس للعامّة فى الذكر بهما(٥) قسم .

النمـــط الرابع

المهيمن، المُقيت، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، المحيط، الحفيظ، الفاطر، المجيد، ذو الجلال . قال البونى : أما المهيمن، والمُقيت فللعلم والاستيلاء والمراقبة(٦) فى الجزئيات والكليات . والعزيز، والجبّار، والمتكبِّر فمن أسماء صفات الذات اللازمة للخوف والرهبة والعظمة، لا يذكرها(٧) ذليل إلا عزّ، ولا حقير إلا ارتفع، ولا بين يدى جبّار إلا ذلّ وخضع، ولا يذكرها(٧) ملك من ملوك الأرض إلا وجد

(١) هذه العبارة ساقطة من نسختى اللمعة وموجودة بالأصلين .
(٢) كذا فى نسختى اللمعة وفى الأصلين أحيا الله ذكره وان كان خاملا وأحيا رزقه وان كان قليلا .
(٣) زيادة عن نسختى اللمعة النورانية .
(٤) كذا فى نسختى اللمعة النورانية، وفى الأصلين : «وهما اسمان يليق» .
(٥) فى الأصلين «بهم» . (٦) فى نسختى اللمعة النورانية : «فالعلم بالأشياء» .
(٧) فى الاصلين ونسختى اللمعة بميم الجمع، وقواعد اللغة تقتضى ما وضعناه .

فى نفســه ذِلَّةً وآنكسارا . وأما الحفيظ فإنه آسم سريع الإجابة للخائفين فى الأسفار . وأما المحيط، والمجيد، والفاطر، وذو الجلال فأسماء التنزيه وزيادات فى التوحيد .

النمـــط الخامس

العليم، الحكيم، البـديع، النور، القابض، الباسط، الأوّل، الآخر، الظاهر، الباطن؛ قال : هذا القسم من الأسماء جليل القدر عظيم الشأن، فأما العليم، والحكيم فللتوحيد الخاص، لا يصلحان إلا لمَنْ أُبْهِمَ عليه أمرٌ من كشف سرٍّ من أسرار الله تعالى يعسُرُ على الفكر إدراكُه، فإنه إذا آستدام ذِكْرَ العليم الحكيم يسّر الله عليه علم ما سأل[1] وعرّفه الحكمة فيه، ومنه آسمه البديع أيضا [مثل ذلك][2] . وأما النُّور، والباسط، والظاهر، فذكر أرباب المكاشفات . ومن أراد أن ينظر شيئا فى منامه فليذكر هذه الأسماءَ على طهارة وهو فى فراشه إلى أن ينام على هذا الذكر، ويُعْمِلْ هِمَّتَه فيما يريده فإنه يُمَثَّـلُ له فى نومه كشف ذلك . وأما القابض، والأوّل، والآخر، والباطن، فكلها آسماء للتعظيم والتوحيد .

النمـــط السادس

الحليم، الرءوف، المنّان، الكريم، ذو الطَّوْل، الوهّابَ، الغَفُور، الغافر، العفُوّ، المُجِيب . قال : هذا النَّمَطُ من الأسماء عليه مدار إِبقاءِ الوجود ودفعِ الأضداد وجمع المتفرّق؛ أما الحليم، والرءوف، والمنّان، فذكر للخائفين؛ ما داومه مَنْ يخاف شيئا إلا أوجده الله تعـالى بَرْدَ الطُّمَأْنينة وسكَّن رَوْعَه . قال البونى : وذكر [لى][2] من له

(١) هكذا فى الأصلين، والذى فى نسختى اللمة : "علمه فيما يناله، وعرفه الحكمة فيما سأل" .

(٢) زيادة عن اللمعة النورانية .

آطلاع أنه من آستدام هذا الذكر إلى أنْ يغلب عليه حال منه على خلق معِدَة ثم أمسك النارَ لم تَعْدُ عليه، ولو تنفّس حينئذ على قِدْر تَغْلِي سَكَن غَلَيَانُها بإذن الله تعالى، ولا يكتبها أحد ويقابل بها[1] من يخاف منه إلّا أطفأ الله شرّه عند رؤيته، ولا يستديم هذا الذكر مَنْ غلبته شهوتُه إلا نَزَع اللهُ منه النزوعَ إليها فى أثناء ذكره. وأما الكريم، الوهّاب، وذو الطَّول فلا يستديم على هـذا الذكر مَنْ قُدِر عليه رِزْقُه ومسّته حاجةٌ إلا يَسّر الله عليـه من حيث لا يشعر، ومن نَقَش هـذه الأسماءَ وعلّقها عليه لم يدر كيف يُيَسِّر الله عليـه المطالب من غير عُسْر. وأما الغفور، والغافر، والعفوّ، فَنَظْمٌ متقارِبٌ لسؤال دفع المُؤْلِم خصوصا من آلام الدين والدنيا. وأما المجيب، فيذكر فى آخر الدعوات.

النمـــط السابع

الكافى، الغنىّ، الفتـاح، الرزاق، الوَدُود، اللطيف، الواسـع، الشهيد، نِعْم المولى ونعم النصير. قال: هذا النَّمَط من الأسماء جليل القدر، به يُنَزِّل الله الرغائب من كل مفضول به على أحد من عباده؛ فاسمه الكافى، والغنىّ، والفتاح، والرزّاق لا يذكرُ أحدٌ هذه الأسماءَ الأربعةَ وهو يتمنّى شيئا لم تبلغه أُمنيّته إلا بَلَغَـه بإذن الله تعـالى من جهةٍ لا يعتمد عليها لم تخطر بباله. لا يذكر أحد هـذا الذكر على القليل إلا كثّره الله ولا على طعام إلا ظهرت فيه زيادة، ولا يذكره مَنْ هو فى رتبة وهِمّتُه طالبةٌ أعلى منها إلا يسّر الله له الوصولَ إليها. وأما الوَدُود، واللطيف، والواسع، والشهيد، فنَمَطٌ جليل النظم لأرباب الهجوع والخَلْوة، واللطيف خصوصا لتفريج الكرب فى أوقات الشدائد لا يضاف إليـه غيره؛ لا يذكره من يُؤْلِمه شىء فى نفسه وبدنه إلا أزاله الله عنه أثناء الذكر.

---

[1] فى الأصلين ونسختى اللغة «ولا يكتبهم أحد ويقابل بهم الخ».

النمـــط الثامن

الشـــديد ، ذو القوة ، المتين ، السريع ، الرقيب ، المقتـــدر ، القاهر ، الوارث ، الباعث ، القوىّ[١] . هذا النمط من الأسماء عظيم الشأن ؛ فأما الشديد وذو القوة والقاهر والمقتدر فهى أسماء القهر لايذكرها[٢] ضعيف الهمّة إلاّ قَويت نفسه ، ولا يدعو بها[٢] أحد على ظالم فى آحتراق[٣] الشهر فى السابعة من الليـــل فى بيت مظلم حاسرَ الرأس على الأرض لا حائل بينـــه و بينها مائة مرة[٤] يقول فى آخرها : يا شـــديد خُذْ لى بحقّ من فلان[٥] ، ولا يشخِّص[٦] شيئا فالله أعلم بمـــا يعمل . قال : وقد جُرّب مِئين من المرّات . ولا ينقشها[٢] أحد فى خاتم و يتختّم به إلا ألبســـه الله تعالى مهابة يُدْرِكها مِن نفسه و يُدْركها غيره منه ، ويرتاع منه كل جبّار عَنِيد عند رؤيته ، حتى كأن الجبال على كاهله ما دام ينظر إلى من هو معه . وأما السريع ، والرقيب ، والمتين ، فذكر لأرباب المراقبـــة فى الأفعال تنفتح لهم بذلك مكاشفات وأسرار . وأما الوارث ، والباعث ، فلحكمة الآعتبار والتصديق بآثار القدرة .

(١) فى إحدى نسختى اللمعة النورانية بدل اسم القوىّ بين السطور اسم «الشكور» ، ولم يرد فى نسخة اللمعة الثانية شئ بعد كلمة الباعث .

(٢) فى الأصلين ونسختى اللمعة «لايذكرهم .. ولا يدعو بهم» ، وكذلك ماعليه رقم (٢) .

(٣) فى المخصص ج ٩ ص ٣١ : وامتحاق القمر احتراقه و يوم المحاق آخر الشهر لأن الشمس تمحق الهلال فيه ولا تبينه .

(٤) كذا فى إحدى نسختى اللمعة و فى نسخة أخرى والأصلين « لا حائل بينه و بينها يقول فى آخرها مائة مرة : يا شديد خذ لى الخ » .

(٥) فى الكلام حذف يدل عليه السياق بأن يقدر : «إلا استجيب له» .

(٦) كذا فى الأصلين و إحدى نسختى اللمعة وفى أخرى «ولا تجسنى» .

النمـــط التـاسع

التواب، الشاكر، الولىّ، الحسيب، الوكيل، القريب، الصادق، البَرّ، الباقى، الخلّاق . قال : هذا القسم مرتّب على سلوك مقامات السالكين، فالتواب للتائبين، والشاكر للشاكرين، والولىّ للأولياء، والحسيب لأهل الكفاية، والوكيل للتوكّلين، والقريب من أهل القرب، والصادق مع الصادقين، والبَرّ مع أهل البِرّ، والباقى مع الشهداء، والخلّاق لذوى الآعتبار . وللشايخ فى هــذا الميدان مَجَالٌ رَحْب بحسب آختلاف أحوالهم .

النمـــط العـاشر

الهادى، الخبير، المبين ، علّام الغيوب، ذو الجلال والإكرام، القُــدُّوس، السلام، المُؤْمِن، و ينتظم فى ذلك المُعِزّ، والمُذِلّ، وما فى آخر سورة الإخلاص . قال : فالهادى، والخبــير، والمبين، لمن أراد كشف عواقب الأمور بجُوع وسَهَر، و يَذْكُرُ هــذه الأسماء وعلى رأس مائة من أعداد الذكر يقول : آهدنى يا هادى ، وخبِّرنى يا خبير، وبيِّن لى يامُبين، و يسمِّى ما يريده وذلك فى جوف الليل، فإذا أدركه النوم مُثِّلَ له كشفُ ما أراده من أىّ نوع شاء . هذا مختصر ما قاله البونى فى ترتيب أسماء الله الحسنى .

*
* *

وأما ما ورد فى الآسم الأعظم، فقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يقول : اللّهــم إنى أسألك أنى أشهَدُ أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد، الصمد، الّذى لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكنْ له كُفُوًا أحد، فقال : "لقد سألتَ اللهَ بالآسم الذى إذا سُــئِل به أعطى و إذا دُعِى به أجاب" . وعن أنس بن مالك

رضى الله عنه قال : دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا رجل من الأنصار يقال له أبو عَيَّاش الزُّرَقِيّ[1] يصلِّى ، فدنوت منه ، فدعا فى صلاته : اللّهم إنى أسألك — بأن لك الحمدَ لا إلهَ إلا أنت المنّان بديعُ السموات والأرض ذو الجلال والإكرام — أن تغفرَ لى ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد دعا اللهَ باسمه الأعظم الذى إذا دُعِى به أجاب وإذا سُئِل به أعطى" . وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها ان النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحة سورة آل عمران ﴿الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾". وعن أبى أُمامة واسمه صُدَىّ بن عَجْلان الباهِلِىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن اسم الله الأعظم لفى ثلاث سور من القرآن فى البقرة وآل عمران وطه" ؛ قال فالتمستها فوجدت فى البقرة آية الكرسى (﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾) ، وفاتحة آل عمران (﴿الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾) ، وفى طه (﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾) .

والأدعية المختارة كثيرة وقد أتينا منها بما فيه كفاية لمن توجّه إلى الله تعالى وسأله . ولنختم هذا الباب بما ختم به البخارىّ كتابه : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحانَ الله وبحمده سبحانَ الله العظيم .

---

(١) فى أحد الأصلين « أبو العباس » وفى الآخر « أبو عياس » بالسين المهملة وهو محرف عن « أبى عياش » الزرقىّ الأنصارى وهو صحابى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث صلاة الخوف بعُسْفان كما فى تهذيب التهذيب .

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس فى أحد الأصلين الفتوغرافيين :

تمّ الجزء الخامس من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرىّ ،
والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبىّ بعده محمد وآله وسلم
يتلوه إن شاء الله الجزء السادس

صورة ما ورد بآخر الجزء الخامس فى الأصل الثانى الفتوغرافى :

كمل السفر الخامس من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهّاب بن محمد بن عبد الدائم البكرىّ التّيمىّ القرشىّ ، عُرِف بالنُّوَيْرِىّ ، عفا الله عنهم .

ووافق الفراغ من كتابته فى يوم الأحد المبارك لثمان بقين من شهر ربيع الأوّل سنة آثنتين وعشرين وسبعمائة بالقاهرة المُعِزّيّة .

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء السادس القسم الخامس من الفن الثانى فى الملك وما يحتاج إليه وما يجب له على الرعية وما يجب للرعيّة عليه إن شاء الله تعالى .

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيّه وآله وصحبه ، وسلّم تسليما كثيرا . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(مطبعة دار الكتب المصرية ٩٣/١٩٢٤/٢٠٠٠)